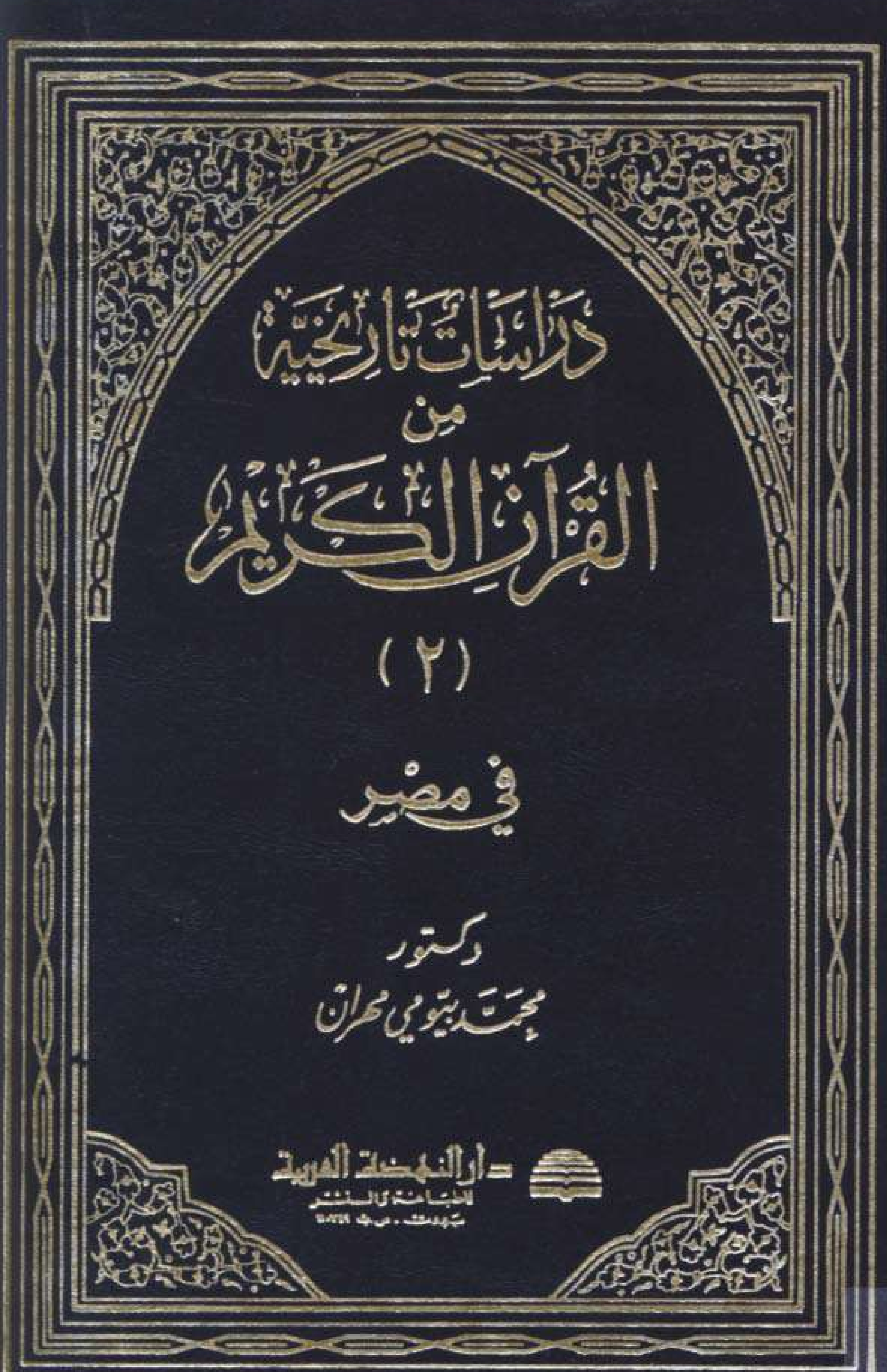

دراسات تاريخية
من
القرآن الكريم
(٢)
في مصر
دكتور
محمد بيومي مهران
دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

دراسات تاريخية من القرآن الكريم

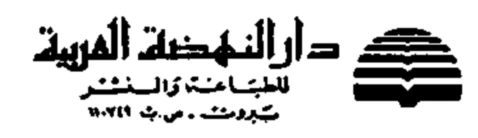
(٢)

في مصر

دكتور

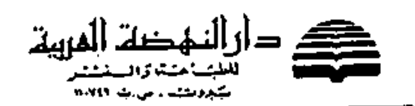
محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كلية الآداب . جامعة الاسكندرية



الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



مدحت باشا، بناية
ن: ٣٠٣٨١٦/
٣١٢١
ص.ب ٧٤٩-١١
NAHDA 40
29

بناية اسكندراني
الجامعة العربية،
٢

٨٣٣١٨٠



بسم الله الرحمن الرحيم
وَالصّلاة وَالسّلام عَليهِ المبعُوث رَحمَة لِلعَالمَين
سَيّدنَا محَمّد وَآلـهِ

تقــديــم

تحدثنا في الجزء الأول من هذه الدراسة عن النبوات في بلاد العرب، ومن ثم فقد قدمنا دراسة تاريخية عن أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وكذا عن هود وصالح وشعيب عليهم السلام، هذا إلى جانب دراسة أحداث تاريخية جاء ذكرها في القرآن الكريم، كقصة سيل العرم وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل.

وقد خصصنا هذا الجزء الثاني من هذه السلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» لدراسة تاريخ النبوات في أرض الكنانة.

وقد قدمنا له بدراسة عن النبوة والأنبياء، ثم قدمنا بعد ذلك دراسة مفصلة عن تاريخ النبيّين الكريمين يوسف وموسى عليهما السلام، فضلاً عن تاريخ بني إسرائيل في مصر.

وأملي في الله تعالى كبير أن يكون فيها بعض النفع، والله من وراء

القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

«وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

دكتور
محمد بيومي مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الإسكندرية في ١٢ ربيع الأول عام ١٤٠٨ هـ
٤ نوفمبر عام ١٩٨٧ م

الكِتَابُ الأول

دِرَاسَات تمهيدية

الفصل الأول

النبوة والأنبياء

النبي والنبوة :

النبيّ : لغة قيل المنبأ المأخوذ من النبأ، أي الخبر المفيد لماله شأن، ويصح فيه معنى الفاعل والمفعول، لأنه منبيء عن الله ومنبأ عنه، وإن كان الإمام ابن تيمية يفضل أن يكون بمعنى مفعول، فإنه إذا أنبأه الله، فهو نبي الله[1]، والنبي بالتشديد أكثر استعمالاً، أبدلت الهمزة فيه ياء، لأنه من أنبأ عن الله فهو ينبيء عنه، والاسم منه منبيء، أو هو من النبوة، وهي الرفعة والشرف[2].

وتجمع كلمة «نبي» على «نبيين وأنبياء»[3]، وقد حكى سماعاً عن العرب في جمع النبي «النبآء»، وذلك من لغة الذين يهمزون «النبيء»، ثم يجمعونه على «النبأء»، ومن ذلك قول عباس بن مرداس في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم).

(١) ابن تيمية : النبوات ـ القاهرة ١٣٤٦ هـ ص ١٦٦، وانظر: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ الجزء الخامس، القاهرة ١٩٦٤ ص ٨٧.

(٢) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي ـ القاهرة ١٩٥٥ ص ٣٧، تفسير الطبري ٢/ ١٤٠ ـ ١٤١، محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٠ ص ٩، معجم ياقوت الحموي ٥/ ٢٥٩ ـ ٣٦٠ (بيروت ١٩٥٧).

(٣) انظر: سورة البقرة: آية ٦١، آل عمران: آية ١١٢، تفسير الطبري ٢/ ١٣٩ ـ ١٤١، ٧/ ١١٦ ـ ١١٨ (دار المعارف).

يا خاتم النبآء إنك مرسل بالخير كل هدى السبيل هداكا[1]

والنبوة فضل يسبغه الله على من يشاء من عباده، وهبة ربانية يمنحها الله لمن يريد من خلقه، وهي لا تدرك بالجد والتعب، ولا يتوسل إليها بسبب ولا نسب، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي، فالله تعالى، يختص برحمته من يشاء، وهي تأتي إلى النبي من تلقاء نفسها، وعلى غير توقع منه، فهي إذن اصطفاء واختيار من الله سبحانه وتعالى للمصطفين الأخيار من عباده[2]، و «الله أعلم حيث يجعل رسالته»[3]، ومن ثم فإن الله تعالى إنما يختص بهذه الرحمة العظيمة، والمنقبة الكريمة، من كان أهلاً لها، بما أهله هو، جل شأنه، من سلامة الفطرة، وعلو الهمة، وزكاة النفس وطهارة القلب، وحب الخير والحق.

هذا، وليس صحيحاً ما ذهب إليه «سيجال» من أن كلمة «نبي» عبرية الأصل، وأن لفظ «النبي»[4] إنما كان خاصاً ببني إسرائيل، ذلك لأنه، فيما يرى سيجال هذا، ليست هناك نقوش تثبت وجوده في اللغة الكنعانية والفينيقية، ثم إن الفعل «نبأ» الذي اشتق منه الاسم «نبي» لا يوجد في عبرية العهد القديم في صورته الأساسية، أي في الثلاثي المجرد، وأن الفعل الذي جاء للدلالة على عمل النبي في العهد القديم (التوراة) إنما جاء في الصيغ المزيدة على زنة «فعل» و «تفعل»، وهي في الحقيقة صيغ مشتقة من الاسم

---

(1) انظر: تفسير الطبري ٢/ ١٤١، سيرة ابن هشام ٤/ ١٠٣، ثم قارن: تفسير البحر المحيط ١/ ٢٢٠، ياقوت ٥/ ٢٥٩ - ٢٦٠.

(2) تفسير المنار ٨/ ٣٣ - ٣٤، محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، بيروت ١٩٨٠ ص ٩ - ١٠.

(3) سورة الأنعام: آية ١٢٤.

(4) انظر تعريفات مختلفة للفظة النبي عند بني إسرائيل وعند علماء اللاهوت الأوربيين (محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل - الإسكندرية ١٩٧٨ ص ٢٥ - ٣٠.

«نبي» نفسه، وهذه الحقيقة تدعونا إلى الاعتقاد بأن الاسم «نبي» قديم جداً في العبرية الإسرائيلية، وأنه يصعد إلى ما قبل التاريخ من حياة بني إسرائيل، ولما كان هذا الاسم يميز عماداً حياً وفعالاً لا في حياة الأمة، فإنه حفظ منذ تلك الحقب السحيقة، بعد أن نسي الفعل المجرد «نبأ» الذي اشتق منه، مع توالي العصور، وانتهى أمره واختفى من اللغة[١].

وفي الواقع، فإن كلمة «نبي» ليست عبرية الأصل، كما يقول أدولف لودز[٢]، ومن ثم فإن علماء اللاهوت الأوروبيين وغيرهم، من أمثال جوستاف هولشر[٣]، وشميدت، ولوذر[٤]، وكلودسوربري[٥]، إنما يتفقون على أن كلمة «نبي»، عربية، وليست عبرية، في شكلها ومعناها، وأن أصل الكلمة سامي قديم موجود في الأكدية بمعنى «يدعو» (Nalu)[٦].

غير أن الأمر، كما يقول الأستاذ العقاد[٧]، طيب الله ثراه، غني عن الخبط فيه بالظنون مع المستشرقين، من يفقه منهم اللغة العربية، ومن لا يفقه منها غير الأشباح والخيالات، فإن وفرة الكلمات التي لا تلتبس بمعنى «النبوة» في اللغة العربية كالعرافة والكهانة والعيافة والزجر والرؤية، تغنيها عن اتخاذ كلمة واحدة للرائي والنبي، وتاريخ النبوات العربية التي وردت

---

(١) م. ص. سيجال: حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل ـ ترجمة الدكتور حسن ظاظا ـ بيروت ١٩٦٧ ص ١٧ ـ ١٨.

(٢) A. Lods, Israel, From the Beginnings to the middle of the Eight Century, 1962, p. 445.

(٣) G. Holscher, Die Proften, Untersuchung Zun Religion Geschichte Isreal, Leipzig, 1914, p. 145 - 46.

(٤) A. Lods, The Prophets and the Rise of Judaism, London, 1937.

(٥) C. Saurlrei, The Holy man in Israel, Astudy in the Development of Prophecy, in JNES, 6, 1947, p. 216.

(٦) P. K. Hitti, The near East in the History, Princeton, 1961, P. 107.

(٧) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ـ بيروت ١٩٦٦ ص ٩١ ـ ٩٢.

في التوراة سابق لا تخاذ العبريين كلمة النبي بدلاً كلمة الرائي والناظر، وتلمذة موسى لنبي شعيب مذكورة في التوراة قبل سائر النبوات الإسرائيلية، وموسى الكليم، ولا ريب، رائد النبوة الكبرى بين بني إسرائيل.

ثم إن كلمة «النبي» عربية لفظاً ومعنى، عربية لفظاً، لأن المعنى الذي تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة في اللغات الأخرى، فهي تجمع معاني الكشف والوحي والإنباء بالغيب والإنذار والتبشير، وهي معاني متفرقة تؤديها في اللغات الحديثة بكلمات متعددة، فالكشف مثلاً تؤديه في اللغة الإنجليزية كلمة (Revelation) ، والوحي تؤديه كلمة (Inspiration) واستطلاع الغيب تؤديه كلمة (Divination) أو (Oracle) ولا تجتمع كلها في معنى «النبوة» كما تجتمع في هذه الكلمة باللغة العربية.

وقد وجدت كلمة «النبوة» في اللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر، لأن اللغة العربية غنية بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى النبوة، كما تلتبس في الألسنة الأخرى عن أصل التسمية واشتقاق المعاني الجديدة عن الألفاظ القديمة، فكلمة «النبي» تدل على معنى واحد لا تدل على غيره، خلافاً لأمثالها من الكلمات في كثير من اللغات.

وقد استعار العبريون كلمة «النبي» من العرب في شمال شبه الجزيرة العربية بعد اتصالهم بها، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء، وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائي أو الناظر، ولم يفهموا من كلمة «النبوة» في مبدأ الأمر، إلا معنى الإنذار[1].

وأما كلمة (Prophet) الإنجليزية وكلمة (Prophete) الفرنسية، وكلمة (Profeten) الألمانية وغيرها، فإنها منقولة عن اليونانية القديمة، ذلك أن

(١) عباس العقاد: إبراهيم أو الأنبياء ص ١٥٩.

الأمم التي كانت تشيع فيها نبوة الجذب، يكثر أن يكون مع المجذوب، مفسر يدعى العلم بمغزى كلامه ولحن رموزه وإشاراته، وقد كانوا من اليونان يسمون المجذوب «مانتي» (Manti) ويسمون المفسر (بروفيت Prophet) أي المتكلم عن غيره، ومن هذه الكلمة نقل الأروبيون كلمة «النبوة» بجميع معانيها[1].

٢ ـ الفرق بين النبي والرسول:

هذا ويفرق العلماء بين النبي والرسول، اعتماداً على عدة أمور، منها ما ورد في كتاب الله من عطف النبي على الرسول في قوله تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾**[2]، ومنها وصف الله بعض رسله بالنبوة والرسالة، مما يدل على أن الرسالة أمر زائد على النبوة، كقوله تعالى: **﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً﴾**[3]، وكقوله تعالى: **﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾**[4]، ومنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن النبي (ص) أن عدة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، وعدة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً.

ومن هنا ذهب فريق من العلماء إلى أن النبي هو من أوحى إليه بشرع، سواء أمر بتبليغه أو لم يؤمر، والرسول هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه[5]، قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾** الآية،

(١) عباس العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٩٠.

(٢) سورة الحج: آية ٥٢.

(٣) سورة مريم: آية ٥١.

(٤) سورة مريم: آية ٥٤.

(٥) تفسير القرطبي ص ٤٤٧٢، الإمام الطحاوي، شرح العقيدة الطحاوية، بيروت ١٩٧١ ص ١٦٧، الديار بكري: تاريخ الخميس ص ٧، محمود الشرقاوي: المرجع السابق ص ٩.

ويرى الإمام ابن تيمية أن الله في قوله : ﴿من رسول ولا نبي﴾ قد ذكر إرسالاً يعم النوعين ، وقد خص أحدهما بأنه رسول ، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمر بتبليغ رسالته إلى من خالف الله ، كنوح عليه السلام ، والذي ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، وقد كان قبله أنبياء كشيت وإدريس ، وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً[1] .

على أن العقل ، فيما يرى الشرقاوي ، لا يستسيغ أن يوحي الله العلي القدير إلى نبي بشرع ثم لا يأمره بتبليغه ، لأن الشرع أمانة وعلم وأداء واجب ، وكتمان العلم نقص ورذيلة[2] ، ثم إن الله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس ، ثم يموت هذا العلم بموته ، هذا فضلاً عن الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ، والذي يقول فيه (ص) «عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد» ، فدل هذا على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ ، وأنهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم[3] .

على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن الرسول من أوحى إليه بشرع ، وأنزل عليه كتاب ، كإبراهيم وموسى . وداود وعيسى ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، والنبي الذي ليس برسول هو من أوحى إليه بشرع ، ولم ينزل عليه كتاب ، كإسماعيل وشعيب ويونس ولوط وزكريا وغيرهم من الأنبياء ، وهذا التعريف لا يستقيم أيضاً لأن الله سبحانه وتعالى قد وصف بعض الأنبياء الذين لم تنزل عليهم كتب بالرسالة[4] ، فقال عن إسماعيل عليه السلام . «واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد

---

(1) ابن تيمية : كتاب النبوات ص ١٧٣ .
(2) محمود الشرقاوي : المرجع السابق ٩ ـ ١٠ .
(3) عمر سليمان الأشقر : المرجع السابق ص ١٤ ـ ١٥ .
(4) محمود الشرقاوي : المرجع السابق ص ١٠ .

وكان رسولاً نبياً»[1]، وقال تعالى عن لوط عليه السلام: **﴿وإن لوطاً لمن المرسلين﴾**[2]، وقال تعالى عن يونس: **﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾**[3].

وهناك وجه ثالث للنظر يذهب إلى أن الرسول من الأنبياء إنما هو من بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس إليه، أما النبي الذي ليس برسول، فهو من بعث لتقرير شرع سابق، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام، ومن ثم فقد قيل إن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً[4].

غير أن الإمام ابن تيمية إنما يرى أنه ليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان رسولاً، وكان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة[5]، قال تعالى، عن مؤمن آل فرعون: **﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾**[6].

هذا ويذهب فريق رابع من العلماء إلى أن الرسول إنما يختلف عن النبي، لأن اختلاف الأسماء إنما يدل على اختلاف المسميات، والرسول أعلى منزلة من النبي، ولذلك سميت الملائكة رسلاً، ولم يسموا أنبياء، هذا وقد اختلف من قال بهذا في الفرق بينهما على ثلاثة أقاويل، أحدهما: أن الرسول هو الذي تنزل عليه الملائكة بالوحي، والنبي هو الذي يوحي إليه في

---

(١) سورة مريم: آية ٥٤.
(٢) سورة الصافات: آية ١٣٣.
(٣) سورة الصافات: آية ١٣٩.
(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ٩٥ - ٩٦، تفسير القرطبي ص ٤٤٧٢، الإمام الطحاوي: المرجع السابق ص ١٦٧، عبد الحليم محمود: في رحاب الأنبياء والرسل - القاهرة ١٩٧٧ ص ٤٢، تفسير المنار ٩/ ١٩٤ - ١٩٥.
(٥) ابن تيمية: المرجع السابق ص ١٧٣.
(٦) سورة غافر: آية ٣٤.

نومه، والثاني أن الرسول هو المبعوث إلى أمة، والنبي هو المحدث الذي لا يبعث إلى أمة، والثالث أن الرسول المبتدىء بوضع الشرائع والأحكام، والنبي هو الذي يحفظ شريعة غيره[1].

ومن هنا يذهب الإمام الطحاوي في العقيدة (ص ١٦٧) إلى أن الرسول أخص من النبي، وأن الرسالة أعم من جهة نفسها فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس، فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها.

وأما عدد الأنبياء والرسل، فعلم ذلك عند ربي جل جلاله، ولكننا نعرف من القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين من هؤلاء المصطفين الأخيار[2]، ونعلم كذلك أنه ما من أمة إلا وجاءها رسول من عند الله العلي القدير، فلقد اقتضت حكمة الله تعالى في الأمم، قبل هذه الأمة، أن يرسل في كل منها نذيراً، ولم يرسل رسولاً للبشرية كلها، إلا سيدنا محمد (ص)، واقتضى عدله ألا يعذب أحداً من الخلق، إلا بعد أن تقوم عليه الحجة[3]، قال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾[4]، ومن هنا كثر الأنبياء والرسل في تاريخ البشرية كثرة هائلة، قال تعالى: ﴿**وإن من أمة إلا خلا**

---

(١) أبو الحسن الماوردي: المرجع السابق ص ٣٨.

(٢) هم آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد (ص)، وفي حديث أبي ذر، منهم أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ومحمد (ص) (انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٢، تفسير البيضاوي ٢/ ٣١٢).

(٣) عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق ص ١٧.

(٤) سورة الإسراء: آية ١٥.

فيها نذير﴾[1] ، وقال تعالى: **﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين﴾**[2] ، وقال تعالى: **﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾**[3] ، وقال تعالى: **﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصص عليك﴾**[4] .

ومن هنا كان الخلاف على عدد الأنبياء، عليهم السلام، فمن قائل إنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ومن قائل إنهم ثمانية آلاف، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس، ومن قائل إنهم أربعة آلاف، ومن قائل إنهم، ثلاثة آلاف، وأن الرسل من الأنبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم آدم وآخرهم محمد (ص)[5] .

وعلى أية حال، فليس من المستحب، فيما أظن، وليس كل الظن إثماً، الخوض في إحصاء الرسل والأنبياء، فإنه لا يعلم إلا بوحي من الله تعالى، ولم يبيّن الله ذلك في كتابه[6] ، غير أن هناك حديث أبي ذر المشهور، والذي جاء فيه أنه دخل المسجد النبوي الشريف، فإذا رسول الله (ص) جالس وحده، فسأله عن أشياء كثيرة، منها الصلاة والهجرة والصيام والصدقة، ثم سأله: كم الأنبياء؟ فقال: مائة ألف وأربعة وعشرون، قال: قلت يا رسول الله كم الرسل عن ذلك؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير، كثير طيب، قال قلت: فمن كان أولهم، قال آدم، قلت: أنبي مرسل؟ قال

(١) سورة فاطر: آية ٢٤.

(٢) سورة الزخرف: آية ٦.

(٣) سورة غافر: آية ٧٨.

(٤) سورة النساء: آية ١٦٤.

(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٨ (القاهرة ١٩٧١)، تفسير القرطبي ص ٢٠١٤ ـ ٢٠١٥ (دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠) تفسير المنار ٧/ ٥٠٠ ـ ٥٠٧، تفسير روح المعاني ٢٤/ ٨٨ ـ ٨٩، مجمع الزوائد ٨/ ٢١٠، ابن قتيبة: المعارف، القاهرة ١٩٣٤ ص ٢٦، أبو الحسن الماوردي: المرجع السابق ص ٥٢.

(٦) محمود الشرقاوي: المرجع السابق ص ٢٤.

نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسواه قبيلاً»[1].

نبوة المرأة:

من المعروف أن النبوة في الإسلام إنما هي مقصورة على الرجال دون النساء، لقوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم**﴾[2]، وهكذا استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن النبوة لا تكون إلا في الرجال، وأما النساء فليس فيهن نبية أبداً[3]، والحكمة من تخصيص الرجال بالنبوة دون النساء، أن النبوة عبء ثقيل، وتكليف شاق لا تتحمله طبيعة المرأة الضعيفة، لأنه يحتاج إلى مجاهدة ومصابرة، ولهذا كان جميع الرسل في محنة قاسية مع أقوامهم. وابتلوا ابتلاءاً شديداً في سبيل تبليغ دعوة الله تعالى[4]، يقول الله تعالى لنبيه الكريم: ﴿**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل**﴾[5].

غير أن الإمام ابن حزم إنما يتجه إلى أن آية النحل ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً**﴾، إنما تعني الرسل دون الأنبياء، ومن ثم فلم يدع أحد أن الله تعالى قد أرسل امرأة، وأما النبوة، وهي لفظة مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام، فمن أعلمه الله، عز وجل، بما يكون قبل أن يكون، أو أوحى إليه

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٦، وانظر: مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦، تفسير روح المعاني ٢٤/ ٨٨، مجمع الزوائد ٨/ ٢١٠، مشكاة المصابيح ٣/ ١٢٢، تفسير النسفي ١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) سورة النحل: آية ٤٣، يوسف: آية ١٠٩ وانظر: تفسير الطبري ١٤/ ١٠٨ ـ ١٠٩، تفسير روح المعاني ١٤/ ١٤٧ ـ ١٤٨، تفسير الطبرسي ١٤/ ٧٥ ـ ٧٨.

(٣) لم تكن النبوة الإسرائيلية مقصورة على الرجال دون النساء، فلقد تنبأت المرأة، كما تنبأ الرجال، ومن ذلك: مريم، أخت هارون وموسى (خروج ١٥/ ٢٠) ودبورة (قضاة ٤/ ٤) وحنة أم صموئيل النبي (صموئيل أول ٢/ ١) وخلدة امرأة شلوم بن تقوة (ملوك ثان ٢٢/ ١٤) وحنة بنت فتوئيل (لوقا ٢/ ٢٦) وبنات فيلبس العذارى الأربع (أعمال الرسل ٢١/ ٩)، كما كانت زوجات الأنبياء يدعون أحياناً نبيات (إشعياء ٨/ ٣).

(٤) محمد على الصابوني: النبوة والأنبياء ص ١٠، صفوة التفاسير ٢/ ١٢٩.

(٥) سورة الأحقاف: آية ٣٥.

منبئاً بأمر ما، فهو نبي بلا شك، فأمرها مختلف، وقد جاء في القرآن الكريم بأن الله قد أرسل ملائكة إلى نساء، فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، كما حدث مع أم إسحاق وأم موسى وأم المسيح، عليهم السلام[1].

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة، يقول تعالى: **﴿ولقد جاءت رسلنا بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة. قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز، وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾**[2]، فهذا خطاب الملائكة لأم إسحاق عن الله عز وجل بالبشارة لها بإسحاق، ثم يعقوب، ولا يمكن أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي»[3].

هذا فضلاً عن أن الله تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم أم المسيح، عليهم السلام، يقول لها: «إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً»[4]، فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح، ورسالة من الله تعالى إليها، وليس قوله عز وجل: **﴿وأمه صديقة﴾**[5]. بمانع أن تكون نبيه، فقد قال الله تعالى: **﴿يوسف أيها الصديق﴾**[6].

وهو مع ذلك رسول نبي[7]، وجاء في تفسير روح المعاني (٣/ ١٥٤)

---

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/ ٨٧.

(٢) سورة هود: آية ٦٩ - ٧٣، وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٦، تفسير الطبري ١٥/ ٣٨١ - ٤٠٠، تفسير القرطبي ص ٣٢٩٠ - ٣٢٩٩، تفسير المنار ١٢ / ١٠٥ - ١٠٨.

(٣) ابن حزم: المرجع السابق ص ٨٧.

(٤) سورة مريم: آية ١٩، وانظر تفسير القرطبي ص ٤١٢٨ - ٤١٣٠.

(٥) سورة المائدة: آية ٧٥.

(٦) سورة يوسف: آية ٤٦.

(٧) ابن حزم: المرجع السابق ص ٨٧ - ٨٨.

أن القول بنبوة مريم شهير، بل مال الشيخ تقي الدين السبكي في الحلبيات، وابن السيد، إلى ترجيحه، وذكر أن ذكرها مع الأنبياء في سورتهم قرينة قوية لذلك، وأما الاستدلال بآية ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً** ﴾ ، لا يصح، لأن المذكور فيها الإرسال وهو أخص من الاستنباء على الصحيح المشهور، ولا يلزم من نفي الأخص، نفي الأعم. والأمر كذلك بالنسبة إلى أم موسى، إذ أوحى الله تعالى إليها بإلقاء ولدها في اليم، وأنه سوف يرده إليها ويجعله نبياً مرسلاً[١]، يقول تعالى: ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾[٢]، غير أن هناك من يرى أن ذلك استدلالاً خاطئاً، لأن الوحي ليس بإنزال ملك، وإنما هو بطريق الإلهام، فقد أخبر الله تعالى بأنه أوحى إلى النحل، فقال تعالى: ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾[٣]، فهل يصح أن نقول أن النحل قد نبأه الله تعالى[٤].

ويذهب الفخر الرازي في التفسير الكبير إلى أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء، لقوله تعالى: **﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم »، وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها، إما أن يكون كرامة لها، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء، أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام، وذلك جائز عندنا، وعند الكعبي من المعتزلة، أو معجزة لزكريا عليه السلام، ومن الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروع والإلهام والإلقاء في القلب، كما كان في حق أم موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾**[٥] .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٨٨.

(٢) سورة القصص: آية ٧.

(٣) سورة النحل: آية ٦٨.

(٤) محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء ص ١٠.

(٥) تفسير الفخر الرازي ٣/ ٥٤.

هذا وقد نقل القاضي عياض عن جمهور الفقهاء أن مريم ليست بنبية، وذكر النووي في الأذكار عن إمام الحرمين أنه نقل الإجماع على أن مريم ليست نبيّة، ونسبه في «شرح المهذب» لجماعة، وجاء عن الحسن البصري: ليس في النساء نبيّة، ولا في الجن[1] .

وظائف الرسل:

بيّن القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة بوضوح وجلاء وظائف الرسل، عليهم السلام، ومهماتهم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أوكل إلى الأنبياء أهم الواجبات، وأقدس المهمات، وأشرف الغايات، والتي من أهمها (أولاً) أنهم الدعاة البررة إلى عبادة الله الواحد القهار، وهذه في الحقيقة هي الوظيفة الأساسية، بل هي المهمة الكبرى التي بعث من أجلها الرسل الكرام، وهي تعريف الخلق بالخالق، جل وعلاه وتخصيص العبادة له دون سواه[2]، كما قال جل ثناؤه: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه إنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾**[4]، وقال تعالى: **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف**

---

(1) فتح الباري ٦/ ٤٧١، ٤٧٣، عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، الكويت ١٩٨٥ ص ٨٦ ـ ٨٩.

(2) انظر: محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل ـ الإسكندرية ١٩٧٨ ص ٧٧ ـ ٨١، محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، بيروت ١٩٨٠ ص ٢٣ ـ ٢٥، عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات ـ الكويت ١٩٨٥ ص ٤٣ ـ ٥٤.

(3) سورة النحل، اية ٣٦، وانظر: تفسير الطبري ١٤/ ١٠٣، تفسير الفخر الرازي ٢٠/ ٢٦ ـ ٢٧، تفسير أبي السعود ٣/ ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(4) سورة الأنبياء: آية ٢٥، وانظر كذلك من سورة هود: الأيات ٢٥، ٥٠، ٦١، ٨٤، تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤، تفسير روح المعاني ١٢/ ٣٥ ـ ٣٧، ٧٧ ـ ٨٠، ٨٨، ١١٤ ـ ١١٥، ١٧/ ٣١ ـ ٣٢.

عليكم عذاب يوم عظيم﴾[1]، وقال تعالى: **﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، إن أنتم إلا مفترون﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**[4].

ومنها (ثانياً) إنارة الطريق أمام الناس، وهدايتهم إلى سواء السبيل، قال تعالى: **﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾**[5]، وهكذا كان كل رسول يدعو قومه إلى الصراط المستقيم، ويبيّنه ويهديهم إليه، فضلاً عن مقاومة الانحراف الحادث في عهده ومصره، وهكذا أنكر هود على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبر فيها، وأنكر صالح على قومه الإفساد في الأرض وإتباع المفسدين، وحارب لوط جريمة اللواط التي استشرت في قومه، وقاوم شعيب في قومه جريمة التطفيف في المكيال والميزان[6].

ومنها (ثالثاً) أن من رحمة الله على عباده أن يرسل إليهم الرسل قبل أن يقع عليهم عقابه، ومن ثم لا تكون للعاصين منهم حجة على الله بعد الرسل، قال تعالى: **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾**[7]، وقال تعالى: **﴿رسلاً**

---

(١) سورة الأعراف: آية ٥٩، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨، تفسير القرطبي ص ٢٦٦٨ ـ ٢٦٧٠ (ط الشعيب).

(٢) سورة هود: آية ٥٠.

(٣) سورة الأعراف: آية ٧٣.

(٤) سورة العنكبوت: آية ١٦.

(٥) سورة الأحزاب: آية ٤٥ ـ ٤٦.

(٦) عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق ص ٥١.

(٧) سورة الإسراء: آية ١٥.

مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾[1]، وقال تعالى: **﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزي﴾**[2]، ومن ثم ففي يوم القيامة عندما يجمع الله الأولين والآخرين يأتي الله لكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنه بلغها رسالة ربه، وأقام عليها الحجة، قال تعالى: **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً، يومئذٍ يوّد الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض، ولا يكتمون الله حديثاً﴾**[3].

ومنها (رابعاً) أن الرسل سفراء الله إلى عباده وحملة وحيّه، فهم الذين يقومون بتبليغ أوامر الله تعالى ونواهيه إلى عبادة قال تعالى: **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾**[4]، وقال تعالى: **﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾**[5]، ومنها (خامساً) تذكير الناس، كل الناس، بيوم الدين **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم﴾**[6]، ذلك أن من مهمة الأنبياء التبشير والإنذار، قال تعالى: **﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾**[7]، مبشرين المؤمنين بالحياة الطيبة، ومنذرين العصاة بعذاب الله في الآخرة[8].

---

(١) سورة النساء: اية ١٦٥.

(٢) سورة طه: اية ١٣٤.

(٣) سورة النساء: ماية ٤١ ـ ٤٢.

(٤) سورة المائدة: اية ٦٧.

(٥) سورة الأحزاب: اية ٣٩.

(٦) سورة الشعراء: ماية ٨٨ ـ ٨٩.

(٧) سورة الكهف: اية ٥٦.

(٨) انظر: سورة النحل: اية ٩٧، طه: اية ١٢٣، النور: اية ٥٥، النساء: ماية ١٣ ـ ١٤، الواقعة: اية ٢١٥ ـ ٣٨، ٤١ ـ ٥١ ـ ٥٦.

ومنها (سادساً) أن الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، هم الأسوة الحسنة للناس جميعاً، قال تعالى: ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه** ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ **لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد** ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين** ﴾[5]، وذلك لأن الرسل صفوة من خليفته، وخيرته من عبادة[6]، طهرهم، وعلمهم ما شاء أن يعلمهم، ثم أرسلهم إلى الناس ليأخذوهم بأسباب الهداية، وينأوا بهم عن معاهد الضلالة، ولذلك كان من كليات أصول المسلمين، أن شرع من قبلنا شرع لنا، إلا إذا ورد من رسول الله (ص) ما ينسخه[7].

---

(١) سورة الأحزاب: ماية ٢١.

(٢) سورة الممتحنة: آية ٤.

(٣) سورة الممتحنة: آية ٦.

(٤) سورة الأنعام: آية ٩٠.

(٥) سورة الأنبياء: آية ٧٣.

(٦) وتصديقاً لهذا فلقد جاء في الحديث الشريف، الذي رواه مسلم والترمذي، أنه (ص) قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار»، ومن مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي عن النبي (ص) أنه قال: أنا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خيرهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني من خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً» (انظر: صحيح مسلم المواهب للقسطلاني ١/ ١٣، ابن كثير: السيرة النبوية ١/ ١٩١، عبد الحليم محمود: دلائل النبوة ومعجزات الرسول، القاهرة ١٩٧٣ ص ٦٨، أحمد حسن الباقوري: مع القرآن، القاهرة ١٩٧٠ ص ٢١).

(٧) محمود أبو رية: دين الله واحد على ألسنة جميع الرسل ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ٥٨.

ومن هنا فقد أوجب الله للرسل العصمة الكاملة، لتصح بهم القدوة، وتقوم بهم الحجة، فلا يكون من أحدهم عمل ينال من كرامته أو يقدح في عدالته أو يحط من منزلته العلية بين ذوي المروءات والعقول الرجحة[1]، ذلك أمر ضروري، إذ لو لم يكن ذلك كذلك، ولما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص، اختصاصهم بوحيه، والكشف لهم عن أسرار حلمه، ولو لم تسلم أبدانهم من المنفرات، لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر في إنكار دعواهم، ولو كذبوا أو خافوا أو قبحت سيرتهم، لضعفت الثقة فيهم، ولكانوا مضلين لا مرشدين، فتذهب الحكمة من بعثهم، والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد إليهم بتبليغه من القصائد والأحكام[2].

ومنها سابعاً: سياسة الأمة المسلمة، ذلك أن الذين يستجيبون للرسل يكوّنون جماعة وأمة، وبالتالي يحتاجون إلى من يسوسهم ويقودهم ويدبر أمورهم، والرسل يقومون بهذه المهمة في حال حياتهم، فهم يحكمون بين الناس بحكم الله قال تعالى: **﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾**[4] وفي الحديث، الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه، عن النبي (ص) «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي قام نبي»، ومن ثم فقد أوجب الله طاعتهم، قال تعالى: **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**[5].

(1) كمال أحمد عون: اليهود من كتبهم المقدسة ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٠٦.
(2) محمد عبث: رسالة التوحيد ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ٧٧.
(3) سورة المائدة: اية ٤٨.
(4) سورة (ص): اية ٢٦.
(5) سورة النساء: اية ٨.

(٥) وحدة الهدف في دعوات الرسل :

لا ريب في أن دين الله واحد في الأولين والآخرين، لا يختلف إلا في صورة ومظاهره، وأما روحه وحقيقته، وهو ما طولب به العالمون أجمعون على ألسنة جميع الأنبياء والمرسلين، فلا يتغير، وهو إيمان بالله الواحد الأحد، وإخلاص له في العبادة، وأن يتعاون الناس على البر والتقوى، وألا يتعاونوا على الإثم والعدوان، هذا هو دين الله الذي أرسل في كل أمة، ولكل قوم على مدى الدهور والأزمان[١]، ولا ريب كذلك في أن هذا الدين هو الإسلام[٢]، وصدق ربنا جل وعلا حيث يقول: **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾**[٣] ويقول: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**[٤]، والإسلام، في لغة القرآن، ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء[٥]، ومن ثم فإن الإسلام شعار عام يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر البعثة المحمدية[٦].

---

(١) محمود أبو رية: المرجع السابق ص ٣٥.

(٢) الإسلام: هو دين الله في الأولين والآخرين، وهو الطاعة والامتثال (تفسير الطبري ٢/ ٥١٠ - ٥١١) ويقول الإمام ابن تيمية: الإسلام هو أن يستسلم الإنسان لله، لا لغيره، فيعبد الله ولا يشرك به شيئاً، ويتوكل على الله وحده، ويرجوه ويخافه وحده، ويحب الله المحبة التامة، لا يحب مخلوقاً كحبه لله، بل يحب لله ويبغض لله، ويوالي لله ويعادي لله، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً، ومن يعبد مع الله غيره لم يكن مسلماً (ابن تيمية: كتاب النبوات - القاهرة ١٣٤٦ هـ ص ٨٧ - ٨٨).

(٣) سورة آل عمران: آية ١٩.

(٤) سورة آل عمران: آية ٨٥.

(٥) محمد الراوي: الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ص ٥١.

(٦) محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم ص ٧٥ - ٧٦.

وهكذا أخبر القران في غير موضع أن الأنبياء جميعاً إنما كان دينهم الإسلام، كما في سورة البقرة وآل عمران والمائدة والأعراف ويونس ويوسف والأنبياء والحج والنمل والقصص والشورى وغيرها[1]، وهكذا يبدو واضحاً أن دين الله واحد منذ الأزل إلى مبعث محمد (ص) إلى يوم الدين «إن الدين عند الله الإسلام»، فالدين منذ القدم هو دين الإسلام «هو حاكم المسلمين من قبل»، من قبل مبعث محمد، ومن قبل مبعث إبراهيم، وقد سمي الله منذ الأزل «مسلماً» كل من اعتنق أسس هذه الدين، دين الله، وسار على مضامينه من: إسلام الوجه لله، وانقياد له، وتوكل عليه، وتسليم الأمر لمدبر الأمر وصرف الكون، ومن هذا يتضح أن وصف الإسلام ليس منصباً على كل من آمن بدعوة محمد (ص) في عهد محمد أو من بعده فحسب، بل هو وصف ولقب أطلقه الله من قبل على كل من آمن برسوله الذي بعث في زمنه، وبكل من وحّد ربه وأسلم وجهه وقلبه وأمره كله لله رب العالمين، والمسلم في عرف القرآن هو كل من آمن برسوله وكل من وحّد الله من الأزل حتى اليوم، ومن هذا يتضح أن محمد (ص). لم يأت بدين جديد مستقل، وإنما جاء ليصلح دين الله مما طرأ عليه من مغالاة وزيادة وجهالة، وليهدي الأمم القادمة على الطريق إلى الدين الأول الذي أرسل الله به سائر الرسل، والذي كمله محمد (ص) وأتمه الله على يد محمد (ص) بما جعله

---

(1) انظر: سورة البقرة: آية ١٢٨، ١٣٢، ١٣٦، آل عمران: آية ٥١ ـ ٥٣، ٦٤ ـ ٦٧، ٨٣ ـ ٨٥، المائدة: آية ٣، ٤٤، ١١، الأعراف: آية ١٢٦، يونس: آية ٧٢، ٨٤، ٩٠، يوسف: آية ١٠١، الأنبياء: آية ١٠٨، الحج: آية ٧٨، النمل: آية ٣١، ٣٨، ٤٢، القصص: آية ٥٢، الزمر: آية ١٢، فصلت: آية ٣٣، الشورى: آية ١٣، وانظر: محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ١٣٤ ـ ١٣٥، محمد عبدالله دراز: الدين: بحوث ممهدة لدراسة الأديان ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ١٨٣، محمود أبو رية: المرجع السابق ص ٦٠ ـ ٦٧، مناع القطان: الإسلام شريعة الله الخالدة إلى البشر كافة ـ الرياض ١٩٧٤ ص ١١ ـ ٤٠، تفسير المنار ١/ ٦٧، ٤٧٧.

ديناً أزلياً للناس كافة إلى يوم الدين[1].

وفي هذا يقول سيدنا رسول الله (ص)، فيما أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة، «مثلي في النبيين كمثل رجل بني داراً فأحسنها وأكملها وأجملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تم موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»[2]، وفي رواية للبخاري. «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[3].

ومن هنا فإن نبوة القرآن الكريم إنما تؤمن بكل ما سبقها من نبوات، لأن الهدف واحد، والعقيدة واحدة، فالأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، دينهم واحد، وإن تنوعت شرائعهم[4]، وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد»[5]، قال تعالى:

---

(1) محمود بن الشريف: الأديان في القران - جدة ١٩٧٩ ص ٣٠ - ٣٣.

(2) الحديث: اخرجه أيضا الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن جابر بن عبدالله، واخرجه الإمام أحمد ومسلم عن أبي سعيد الخدري.

(3) صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب خاتم النبيين - دار الشعب - القاهرة ١٣٧٨ هـ ٤/ ٢٢٦.

(4) مجموعة فتاوى ابن تيمية - الرياض ١٣٨١ هـ ١/ ٣٥٧.

(5) روي الحديث الشريف بعدة روايات، فرواية في البخاري ومسلم وأحمد، أنه (ص) قال: «أنا أولى الناس بعيس بن مريم في الدنيا والاخرة، والأنبياء أخوة من علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وفي رواية اخرى للبخاري «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي»، وفي رواية ثالثة «نحن معاشر الأنبياء اخوة لعلات ديننا واحد»، يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمه كل كتاب أنزله، وأبناء العلات أبناء الضرائر، يكون أبوهم رجلاً واحداً، وأمهاتهم متعددات وكذلك الرسل ربهم الذي أرسلهم إله واحد، ورسالاتهم متعددة بتعدد بلادهم، أي إن الدين واحد، وهو عبادة الله =

﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾[1] **وقال تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه. الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾**[2].

ومن هنا كان طلب القرآن الكريم الإيمان بكل الرسل، كما طلب كذلك الإيمان بما أنزل عليهم، وكان الإيمان بالبعض دون البعض الآخر خروجاً عن دين الله وهديه[3]، يقول سبحانه وتعالى: **﴿والذين آمنوا بالله**

= وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، والمقصود، كما يقول ابن كثير، أن الشرائع وإن تنوعت في أوقاتهما إلا أن الجميع امرة بعبادة الله وحده لا شريك له، وهو دين الإسلام الذي شرعه الله لجميع الأنبياء، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره يوم القيامة، كما قال تعالى: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾**، ويقول الإمام محمد عبده: أن القرآن قد صرح بما لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمات وعلى ألسن جميع الأنبياء، واحد، ويقول الأستاذ الشاذلي وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ثم يحل في الأخرى وبالعكس، وخفيفاً فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، لماله تعالى من الحجة الدافعة والحكمة البالغة، قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنها جما»، يقول: سبيلاً وسنّة، والسنن مختلفة، هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره هو التوحيد والإخلاص لله تعالى الذي جاءت به جميع الرسل (انظر: محمد عبده: المرجع السابق ص ١٦٣، عبدالله شحاتة: تفسير سورة الإسراء، القاهرة ١٩٧٥ ص ١٠، الباقوري: المرجع السابق ص ١٣٩، عبد المجيد الشاذلي: حد الإسلام وحقيقة الإيمان ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ص ١٠٠، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٥ ـ ٦، مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٤٥٩، البداية والنهاية ١/ ١٥٣ ـ ١٥٤، محمود أبو رية: المرجع السابق ص ٣٥ـ٤٥)

(١) سورة المؤمنون: آية ٥٢، وانظر تفسير القرطبي ص ٤٥٢٠ ـ ٤٥٢١ (دار الشعب).

(٢) سورة الشورى: آية ١٣.

(٣) محمد أبو زهرة: العقيدة الإسلامية لما جاء بها القرآن الكريم ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ٨٥ ـ ٨٦، تفسير المنار ١٠/ ١٨٢ ـ ١٨٣ خالد محمد خالد: كما تحدث القرآن ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ٩٩ ـ ١٢٢.

ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجرهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه، من ربه، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾**[2]، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً﴾**[3]، وقال تعالى: ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾**[4].

وانطلاقاً من كل هذا، فإن القرآن الكريم إنما يعلمنا أن كل رسول يرسل، وكل كتاب ينزل إنما قد جاء مصدقاً ومؤكداً لما قبله، فالإنجيل مصدق ومؤكد للتوراة[5]، والقرآن مصدق ومؤكد للتوراة والإنجيل، ولكل ما بين يديه من الكتب[6] يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون،**

---

(١) سورة النساء: آية ١٥.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٨٥.

(٣) سورة النساء: آية ١٣٦.

(٤) سورة البقرة: آية ١٣٦.

(٥) من البدهي أننا نعني هنا التوراة والإنجيل اللذين أنزلهما الله على رسوليه موسى وعيسى، عليهما السلام، وليس توراة اليهود وأناجيل النصارى المتداولة اليوم (انظر عن التوراة الحالية: محمد بيومي مهران: إسرائيل ـ الكتاب الثالث ـ الإسكندرية ١٩٧٩ ص ١ ـ ٣٧٩).

(٦) محمد عبدالله دراز: المرجع السابق ص ١٨٥، محمد أبو زهرة: المرجع السابق ص ٨٥ ـ ٨٦.

وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾[1].

ويقول المسيح، عليه السلام، كما جاء في العهد الجديد «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض ولا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل»[2].

ولا ريب في أن هذا التصديق لا يعني أن الكتب المتأخرة، إنما هي تجديد للمتقدمة وتذكير بها، فلا تبدل فيها معنى ولا تغير حكماً، وإنما الواقع غير ذلك، فقد جاء الإنجيل بتبديل بعض أحكام التوراة، كما جاء القرآن بتبديل بعض أحكام الإنجيل، ولكن يجب أن يفهم أن هذا وذاك لم يكن من المتأخر نقضاً للمتقدم، ولا إنكاراً لحكمة أحكامه في إبانها، وإنما كان وقوفاً عند وقتها الناسب وأجلها المقدر[3]، ومن هنا كان قوله (ص) في الحديث الشريف: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وفي رواية الإمام مالك في الموطأ «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق». وهكذا فإن الله تعالى، بمقتضى حكمته في رسالاته، إنما كان يجعل كل نبي يبشر بمن يجيء بعده، فالتوراة بشرت بالمسيح وبمحمد، عليهما الصلاة وأتم التسليم، والمسيح بشر بمحمد (ص)، يقول تعالى: **﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشر برسول**

---

(١) سورة المائدة: آية ٤٦ ـ ٤٨.

(٢) إنجيل متي ٥/ ١٧ ـ ١٨.

(٣) انظر: سورة آل عمران: آية ٥٠، الأعراف: آية ١٥٧، محمد عبدالله دراز: المرجع السابق ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾[1] .

ومن المعروف أن أحمداً من أسماء رسول الله (ص). ومن ثم فقد جاء في الحديث الشريف، قوله (ص): «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني ولا يؤمن بي إلا دخل النار»[2]، وفي بعض الأحاديث «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا أتباعي»[3]، وأن النبي (ص) وقف على «مِدْراس» اليهود في المدينة المنورة فقال: يا معشر يهود أسلموا، فوالذي لا إلّه إلا هو لتعلمون أني رسول الله إليكم، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، قال: ذلك أريد»[4]، ومن ثم فالذي يقطع به في كتاب الله وسنّة رسوله، ومن حيث المعنى، أن رسول الله (ص) قد بشرت به الأنبياء قبله، وأتباع الأنبياء يعلمون ذلك، ولكن أكثرهم يكتمونه ويخفونه[5] .

هذا وقد أخذ الله الميثاق على كل نبي، إذا جاءه رسول وصدق لما معه أن يؤمن به وينصره[6]، يقول تعالى: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما**

---

(١) سورة الصف: آية ٦، وعن بشارات التوراة بسيدنا رسول الله (ص) (انظر: سفر التثنية ١٨/ ١٥، ١٨، ٣٣/٣، أشعياء ٦٠/ ١ - ٧، ٤٢/ ١٠ - ١٢، حبقوق ٣/ ٣ - ٤) وعن بشارة الإنجيل (انظر: متى ٧/ ٢١ - ٢٣، ١٥/ ٨ - ٩، ٢٣/ ٤٢ - ٤٣) ثم انظر: إبراهيم خليل أحمد: محمد في التوراة والإنجيل والقران - الطبقة الخامسة - القاهرة ١٩٨٣ ص ٣٣ - ٩٥، بشرى زخاري ميخائيل: محمد رسول الله - هكذا بشرت به الأناجيل - القاهرة ١٩٧٢، ابن كثير: السيرة النبوية ١/ ٢٨٦ - ٣٤٠ (القاهرة ١٩٦٤).

(١) صحيح مسلم ١/ ٣٦٧ (دار الشعب - القاهرة ١٩٧١).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٩٦.

(٣) ابن كثير: شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضله وخصائصه - القاهرة ١٩٦٧ ص ٣٣٩، ثم قارن: ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٦ - ٣٧، عماد الدين خليل: دراسة في السيرة - بيروت ١٩٧٤ ص ٣١٩ - ٣٢٢.

(٥) ابن كثير: المرجع السابق ص ٣٣٩، ابن الجوزي: المرجع السابق ص ٣٧.

(٦) محمد عبدالله دراز: المرجع السابق ص ١٨٥.

آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين»[1]. قال الإمام علي وابن عباس، رضي الله عنهما، ما بعث الله نبياً من الأنبياء، إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً: وهو حي، ليؤمنن به ولينصرنه، وقال الحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، وهذا لايضاح ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه[2].

وصدق سيدنا رسول الله (ص) حين صوّر الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير في قوله (ص): «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتاً فأحسنه وجمّله إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[3].

وقريب من هذا ما يراه بعض الباحثين من أن صلاة المصطفى (ص) بالأنبياء، ليلة أن أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، إنما تشير إلى وحدة الرسالات والنبوات، وأنها جميعاً من عند الله، وأن الأنبياء والمرسلين إنما أرسلوا من أجل هداية الناس، ودعوتهم إلى التوحيد[4].

وبدهي أن ذلك كذلك، لأن دين جميع الأنبياء واحد في التوحيد وروح العبادة، وتزكية النفس بالأعمال التي تقوّم الملكات وتهذب

---

(١) سورة آل عمران: آية ٨١، وانظر: تفسير المنار ٣/ ٢٨٧ ـ ٢٩٠، تفسير ابن كثير ٢/ ٥٥ ـ ٥٧، تفسير الطبري ٦/ ٥٥٠ ـ ٥٦١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٩٦.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٢٢٦ (دار الشعب ـ القاهرة ١٣٧٨ هـ).

(٤) عبدالله شحاتة: المرجع السابق ص ٨، وانظر: عماد الدين خليل: المرجع السابق ص ١١٥ ـ ١١٦.

الأخلاق، وهكذا فالأنبياء في الأساس العام دعاة إلى توحيد الله وهداة إلى الفضائل. ومكارم الأخلاق، ومن ثم فإن الديانات إنما تلتقي على فكرة التوحيد وحسن السلوك، وإن اختلفت الوسيلة لتهذيب هذا السلوك من نبي لآخر، وهكذا رأينا من الأنبياء من حارب رذائل معينة انتشرت بين قومه، كتطفيف الكيل الذي حاربه شعيب، وكالانحراف الجنسي الذي وقف أمامه لوط بكل إصرار وحزم[1].

وهنا علينا أن نلاحظ أن هناك فرقاً بين الدين في ثباته وعدم تبدله بتبدل الأنبياء، وبين تبدل الشرائع وتغيرها بتبدل الأنبياء وتغيّرهم، بل ينبغي أن يكون هذا الفرق واضحاً في الذهن، سائغاً في الفهم، وهو كذلك فيما يقرر القرآن الكريم، فأما من ناحية العقل والفكر، فإن الدين، أي دين، إنما هو قائم على أصول ثلاثة: أولها: الإيمان بأن لهذا الكون إلهاً خالقاً مدبراً، ومحيط العلم، بالغ القدرة، لا يغرب عن علمه شيء، ولا يعترض قدرته شيء، وثاني الأصول الدعوة إلى العمل الصالح الذي يشيع على الإنسانية الأمن والسلام، وثالث الأصول أن الله لم يخلق الناس عبثاً، ولن يتركهم سدى، وأنهم لا بد راجعون إليه، ومحاسبون بين يديه، ومجازون على ما عملوا إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً.

هذا ما يتصل بالدين في عدم قبوله التغيير والتبديل، وأما ما يتصل بالشرائع حيث هي مجموعة قوانين تنظم السلوك في المجتمع، فإنها قابلة للتغيير والتبديل، بمقتضى تغيّر البيئات واختلاف المصالح، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم والحديث الشريف[2].

(١) أبو الحسن الماوردي: أعلام النبوة ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٢٢، محمود أبو رية: المرجع السابق ص ١١٩، عبدالله شحاتة، المرجع السابق ٨ ـ ٩.

(٢) مجموعة فتاوي ابن تيمية ١/ ٣٥٧، وانظر: الباقوري: المرجع السابق ص ١٣٧ ـ ١٣٩، خالد محمد خالد: المرجع السابق، ص ١١٥، عبدالله شحاتة: المرجع السابق ص ١٠.

بقيت الإشارة هنا إلى أن النبوة فضل يسبغه الله على من يشاء من عباده، وهبة ربانية يمنحها الله لمن يريد من خلقه، وهي لا تدرك بالجد والتعب، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة، ولا يتوسل إليها بسبب ولا نسب، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي، فالله يختص برحمته من يشاء، وهي تأتي إلى النبي من تلقاء نفسها، وعلى غير توقع منه، فهي إذن اصطفاء واختيار من الله سبحانه وتعالى للمصطفين الأخيار من عباده[1]، وصدق الله العظيم حيث يقول: «الله أعلم حيث يجعل رسالته»[2].

ومن ثم فإن الله سبحانه وتعالى إنما يختص بهذه الرحمة العظيمة، والمنقبة الكريمة، من كان أهلاً لها، بما أهله، جل شأنه، من سلامة الفطرة، وعلو الهمة، وزكاة النفس، وطهارة القلب، وحب الخير والحق، وكان أذكياء العرب في الجاهلية، على شركهم بالله تعالى، يعلمون أن الصادقين محبي الحق، وفاعلي الخير من الفضلاء، أهل لكرامته تعالى وعنايته، كما يؤخذ من استنباط أم المؤمنين خديجة في حديث أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهما، في بدء الوحي، فإنه (ص) لما قال لخديجة: «لقد خشيت على نفسي»، قالت له: «كلا فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[3].

---

(١) تفسير المنار ٨/ ٣٣ - ٣٤، محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء - بيروت ١٩٨٠ ص ٨.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٢٤، وانظر: تفسير روح المعاني ٨/ ٢١ - ٢٣، تفسير المنار ٨/ ٣٢ - ٣٥، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٣ - ٣٢٦.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٣٧٩ - ٣٨٠، وانظر: ابن كثير: السيرة النبوية ١/ ٣٩٤ - ٣٩٥، تفسير المنار ٨/ ٣٤، عبد الحليم محمود: المرجع السابق ص ٣٥٤.

الكِتَابُ الثَّاني

سِيرة يُوسُف عليه السَّلام

الفصل الأول
يوسف فيما قبل الوزارة

(١) يوسف وأخوته في كنعان :

يوسف الصديق عليه السلام هو: يوسف النبي بن يعقوب النبي بن إسحاق النبي بن إبراهيم النبي، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد أثنى عليه ربنا جل جلاله في القرآن الكريم بقوله تعالى: **﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾** كما أثنى عليه سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة، حيث وصفه بقوله الشريف «إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» وقد جاءت قصته في سورة كاملة من القرآن الكريم هي سورة يوسف[١].

---

(١) انظر عن قصة يوسف كاملة من وجهة النظر الإسلامية: سورة يوسف آية ١ ـ ١٠٢، تفسير الطبري ١٥/ ٥٤٧ ـ ٥٨٦، ١٦/ ١ ـ ٣١٥ (دار المعارف) تفسير الفخر الرازي ١٧/ ٨٣ ـ ٢٢٩، تفسير الطبري ١٣/ ٥ ـ ١٣٤، تفسير النسفي ٢/ ٣٥٢ ـ ٣٩٧، تفسير أبي السعود ٣/ ٧٧ ـ ١٤٣، في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٩ ـ ٢٠٣٧ (بيروت ١٩٨٢) تفسير المنثور للسيوطي ٤/ ٢ ـ ٤٢، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٩٤ ـ ٣٤٩، تفسير القرطبي ص ٣٣٤٧ ـ ٣٥٠٦، تفسير المنار ١٢/ ٢١٣ ـ ٢٦٨، محمد رشيد رضا، تفسير سورة يوسف (القاهرة ١٩٣٦)، صفوة التفاسير ٢/ ٣٩ ـ ٧١، تفسير الجلالين ص ٣٠٢ ـ ٣٢٠، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٤/ ٣ ـ ٤١، تفسير الخازن ٣/ ٢٦٢ ـ ٢٩٣، تفسير البغوي (على هامش الخازن)، ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١٩٧ ـ ٢٢٠، تاريخ الطبري ١/ ٣٣٠ ـ ٣٦٤، تاريخ ابن خلدون =

هذا وتشير التوراة إلى أن يوسف الصديق قد ولد لأبيه من زوجه الثانية «راحيل»، ابنة خال أبيه لابان في «حاران» (وتقع على نهر بلخ على مبعدة ٦٠ ميلاً من اتصاله بالفرات، وإلى الغرب من تل حلفا، وعلى مبعدة ٢٨٠ ميلاً إلى الشمال الشرقي من دمشق)، وكان يعقوب عليه السلام قد تزوج من أختها الكبرى «ليئة»، ثم تزوج من راحيل، ثم من جاريتها بلهة، ثم من زلفة جارية ليئة[1]، وهكذا جمع يعقوب تحته الشقيقتين، فضلاً عن جاريتيهما، وكان ذلك، فيما يرى ابن كثير، سائغاً في ملتهم، ثم نسخ في شريعة التوراة، وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ، لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم[2]، بل إن الطبري[3] يرى في ذلك قوله تعالى: ﴿**وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف**﴾، وإن كان المفسرون يجمعون أو يكادون، على أن المراد بقوله تعالى: ﴿**إلا ما قد سلف**﴾ أي في الجاهلية قبل الإسلام، وليس قبل نزول التوراة، كما ذهب ابن كثير، أي أن النسخ كان بالقرآن، وليس بالتوراة، على أية حال، فلقد ماتت راحيل أم يوسف، وهي تضع ابنها الثاني «بنيامين» ودفنت في بيت لحم (على مبعدة خمسة أميال جنوبي القدس) حيث ولد داود والمسيح عيسى بن مريم، عليهما السلام.[4]

هذا وقد زود يعقوب عن زوجاته الأربع باثنى عشر ولداً، فضلاً عن

= ٢/ ٤٤-٤٧، تاريخ ابن الأثير ١/ ٧٨-٨٨، تفسير ابن عباس ٢/ ٤٩٧-٥٠٢، حسن محمد باجودة: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام، جدة - ١٩٨٣م.

(١) تكوين ٢٩/ ٢٣، ٢٨، ٣٠/ ٥، ٧٩

(٢) تاريخ ابن كثير ١/ ١٩٥.

(٣) تاريخ الطبري ١/ ٣٢٠.

(٤) تكوين ٣٥/ ١٩ - ٢٠، تاريخ ابن كثير ١/ ١٩٧، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٦٤٦ (الاسكندرية ١٩٧٨)، وانظر عن قصة يوسف من الناحية التاريخية ودخول بني إسرائيل مصر (محمد بيومي مهران - إسرائيل ١/ ٢١٢ - ٢٦٠ - الاسكندرية ١٩٧٨)

ابنته دينة التي ولدتها ليئة ، وهكذا «كان بنو يعقوب اثنى عشر ، بنو ليئة راؤبين بكر يعقوب وشمعون ولاوى ويهودا ويساكر وزبولوث ، وأبناء راحيل يوسف وبنيامين ، وأبناء بلهة جارية راحيل ، دان ونفتالى ، وأبناء زلفة جارية ليئة ، جاد وأشير ، هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا في فدان أرام[1]» ، ثم هاجر يعقوب ببنيه وزوجاته إلى كنعان (فلسطين) حيث عاشوا في «حبرون» (وتقع على مبعدة ١٩ ميلاً جنوب غرب القدس ، وهي مدينة الخليل الحالية ، وفيها قبر إبراهيم وسارة وإسحاق ويعقوب ، حيث يقوم اليوم مسجد كبير هو الحرم الإبراهيمي) وظلوا هناك في أرض كنعان حتى هاجروا إلى مصر بدعوة من الصديق عليه السلام.

وهكذا عاش الصديق مع أبيه وإخوته حيناً من الدهر في كنعان ، كان الصديق فيها أحب الأخوة إلى أبيه يعقوب النبي عليه السلام ، لأنه كان ، فيما تقول توراة اليهود ، «يأتي بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم» ، ولأنه «ابن شيخوخته» ولأنه صنع له من دونهم قميصاً ملوناً ، ولأنه رأى حلمين فسرهما إخوته على أنه سيكون سيداً عليهم ، أما أولهما : ««فها نحن حازمون حزماً في الحقل ، وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي» ، وأما الثاني فقد رأى فيه «وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي ، وقصه على أبيه وعلى إخوته ، فانتهره أبوه ، وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت ، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض ، فحسده إخوته ، وأما أبوه فحفظ الأمر[2]» ، ولم يشر القرآن الكريم إلا إلى الرؤيا الأخيرة ، وأن أباه أمره أن يكتم رؤياه عن إخوته ، يقول تعالى **﴿ إذا قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي**

(١) تكوين ٣٥/ ٢٢ - ٢٦.

(٢) تكوين ٣٧/ ١ - ١١.

ساجدين، قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾[1] .

وهكذا عرف يعقوب ، كما جاء في تفسير أبي السعود (٤/ ٢٥٢) ، من رؤيا يوسف أن الله تعالى سيبلغه مبلغاً جليلاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، فخاف عليه حسد الأخوة ، ونصحه بأن لا يقص رؤياه عليهم فيكيدوا له ، مع أن يعقوب كان يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا عليه ، وقد جاء في الأثر «إستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود» .

هكذا بدأ إخوة يوسف يضمرون له الشر، لأنه أحب إلى أبيهم منهم «قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين» ، والآية الكريمة تشير إلى إيثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم ، وهم عصبة (والعصبة والعصابة: العشرة من الرجال فصاعدا سموا بذلك لأن الأمور تعصب بهم) ويقول الشيخ الشعراوي في الفتاوى: إن إيثار فرد بالحب عن الآخرين ينشىء في نفس الآخرين عقدة النقص التي تؤدي إلى أن يكون السلوك غير منطقي على المبدأ الخلقي ، ولذلك حين أحس إخوة يوسف بأن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم ، فكروا في أن يزيحوا ذلك الحب من طريقهم وقالوا: نحن عصبة ، ولو أنهم فهموا بعض الفهم لعرفوا أنهم جاءوا بحيثية امتاز ذلك الصغير بالحب ، لأنهم عصبة ولأنهم أشداء ، وهو صغير يعطف عليه ، فلا يقيسوا العطف والحب هنا على العطف والحب عليهم ، لأنهم اجتازوا مرحلة العطف والحب ، فالإنسان منا يحب صغيره لأنه يعتقد أن هذا الصغير بالنسبة لأخوته هو أقصرهم عمراً معه ،

---

(١) سورة يوسف آية ٤ ـ ٥، ٥٥٤ ـ ٥٥٩، تفسير المنار ١١/ ٢٩٠ ـ ٢٩٩، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٩٧ ـ ٢٩٩، تفسير الخازن ٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٣.

وأنه في حاجة مع العجز إلى شيء كثير من الحب، فلو أن الكبار فهموا تلك العلاقة لما جعلوها عيباً في الأب[1].

وعلى أية حال، فالآية، كما في ظلال القرآن[2]، لا تشير إلى علمهم برؤياه، ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم[3]، ولكانت أدعى إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقد عليه، فما خافه يعقوب على يوسف لو قص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له، ولم يكن بد أن يتم لأنه حلقة في سلسلة الرواية الكبرى المرسومة لتصل بيوسف إلى النهاية المرسومة، والتي تمهد لها ظروف حياته وواقع أسرته، ومجيئه لأبيه على كبره، وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء، وبخاصة حين يكون الوالد في سن الكبر، كما كان الحال مع يوسف وأخيه، وإخوته من أمهات، وهكذا بدأ الحقد يغلي في نفوس إخوة يوسف، ويدخل الشيطان بينهم، فيختل تقديرهم للواقع، وتتضخم في حسهم أشياء صغيرة، وتهون أحداث ضخام، تهون الفعلة الشفعاء المتمثلة في إزهاق روح غلام بريء لا يملك دفعاً عن نفسه، وهو أخ لهم، وهم أبناء نبيّ، وإن لم يكونوا هم أنبياء، يهون هذا، وتتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب، حتى توازى القتل، أكبر جرائم الأرض قاطبة، بعد الشرك بالله، وهكذا دبروا له مكيدة، كي يخلولهم وجه أبيهم، وأنجزوا خطتهم للتخلص منه، بأن ﴿ **اقتلوا يوسف**

(1) محمد متولي الشعراوي: الفتاوى ١٠/ ٧١ ـ ٧٤ (بيروت ١٩٨٢).

(2) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٧٣ (بيروت ١٩٨٢).

(3) جاء في تاريخ ابن الأثير: أن امرأة يعقوب سمعت ما قال يوسف لأبيه، فقال لها يعقوب: اكتمي ما قال يوسف ولا تخبري أولادك، قالت نعم، فلما أقبل أولاد يعقوب من الرعي أخبرتهم بالرؤيا، فازدادوا حسداً وكراهة له وقالوا: ما عنى بالشمس غير أبينا ولا بالقمر غيرك ولا بالكواكب غيرنا، إن ابن راحيل يريد أن يمتلك علينا ويقول: أنا سيدكم. (الكامل ١/ ٧٨ ـ ٧٩).

واطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾[1] .

وفي الواقع ، فإن قصة الصديق ، كما جاءت في التوراة والقرآن العظيم ، إنما تشير بوضوح إلى أن إخوته إنما ظلوا ردحاً من الزمن ضحايا الكبت الذي عانوه ، كي يخفوا رغبتهم في التخلص من يوسف رغبة في أن يخلوا لهم حب أبيهم ، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها وكبتها ، بل كثيراً ما كانت تبدو فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضد يوسف ، مما جعل أباهم يعقوب يشك في حسن نواياهم ، عندما دعوا يوسف ليلعب معهم[2] ، فقال لهم **﴿وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾**[3] ، وهو في الواقع إنما كان يتخوف عليه من عدوانهم أكثر مما يتخوف عليه عدوان الذئب ، ولكنه أراد أن يصرفهم عنه بتلك الفعلة ، ولكن إخوة يوسف كانوا بارعين في الدهاء ، فقالوا لأبيهم **﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون﴾**[4] .

وهكذا كان من نتيجة الكبت الذي عانوه أن انحرفوا بتفكيرهم ، فكل ما كان يهمهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه فاتفقوا على قتله ، وتلطيخ قميصه بالدم ، وادعاء أن الذئب أكله ، لما ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم ، غير أن التلفيق كان واضحاً ، أو كان ساذجاً ، لأن القميص لم يكن ممزقاً بآثار أسنان الذئب ، أو كما قال يعقوب ، في رواية السدى ، إن كان هذا الذئب لرحيماً ، كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه[5] ، وهكذا ألهاهم

---

(١) سورة يوسف : آية ٩ .

(٢) التهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن ـ تونس ١٩٧٤ ص ١٥٦ (رسالة دكتوراه) .

(٣) سورة يوسف آية ١٣ .

(٤) سورة يوسف : آية ١٤ .

(٥) جاء في تفسير الطبري عن ابن عباس أنه قال : ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص ، فلما جاءوا يعقوب قال : كذبتم لو أكله الذئب لمزق قميصه ، وفي رواية أخرى ، كما في تفسير النسفى =

الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم، ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون، يخشون أن لا تواتيهم الفرصة مرة أخرى، كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع، وقد كان أبوهم يحذرهم فيها أمس وهم ينفونها، ويكادون يتهكمون بها، فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذي حذرهم منه أبوهم أمس، وبمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطخوه في غير إتقان، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب[٢]، الأمر الذي جعل يعقوب لا يصدقهم، ولهذا كان يدعوهم دائماً إلى أن يتقصوا آثار أخيهم، وقد وقعوا في حالة «التبرير»، كما يفعل المذنب، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه ليبيّن لنفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسباباً معقولة[٣]، فهم يقولون ﴿ **يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا، فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** ﴾[٤].

وعلى أية حال، فلقد كان أخوة يوسف قد أجمعوا أمرهم على أن

= وأبي السعود والخازن، نهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها، وزل عنهم أن يمزقوا القميص، فلما سمع يعقوب بخبر يوسف صاح بأعلى صوته، وقال: أين القميص وأخذوه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا، أكله ولم يمزق عليه قميصه، وفي رواية ثالثة في تفسير الخازن أنهم أتوا بذئب وقالوا ليعقوب: هذا أكل ابنك، فقال الذئب حين سأله، وقد أنطقه الله، والله ما أكلت وما رأيت ولدك قط، ولا يحل لنا أن نأكل لحوم الأنبياء، فقال يعقوب كيف وقعت في أرض كنعان، قال: أتيت لصلة الرحم فأخذوني وأتوا بي إليك فأطلقه يعقوب (انظر: تفسير الطبري ١٢/ ١٦٤، تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٠، تفسير الخازن ٣/ ٢٦٩، تفسير النسفي ٢/ ٢١٤ ـ ٢١٥، صفوة التفاسير ٢/ ٤٤).

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦.

(٢) التهامي نقرة: المرجع السابق ص ٥١٦ ـ ٥١٧.

(٣) سورة يوسف: آية ١٧.

يجعلوه في غيابت الجب[1]، ولكنهم سرعان ما غيروا رأيهم حيث أشار يهوذا على أن يبيعوه للإسماعليين، ولكن الأمور لم تسر كما يرغبون، وكما تقول التوراة «جاء رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر، وباعوا يوسف للإسماعليين بعشرين من الفضة، فأتوا بيوسف إلى مصر[2]»، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعال ﴿ **وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه، قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين**[3] ﴾.

وهكذا هبط الصديق مصر، كرقيق اشتراه رئيس الشرطة المصري بثمن بخس دراهم معدودة، رأى بعض المفسرين أنها دون الأربعين، على أساس أنها معدودة لا موزونة، وإنما يُعدّ القليل، ويوزن الكثير، وكانت العرب تزن ما بلغ الأوقية، وهي أربعون درهماً مما فوقها، وتعدّ ما دونها، ولهذا يعبرون عن القليلة بالمعدودة، وذهب ابن عباس وابن مسعود وغيرهما إلى أنهم باعوه بعشرين درهماً، بينما ذهب فريق ثالث إلى أنهم باعوه بأربعين درهماً[4]، وأيا ما كان الأمر، فقد كانت هذه نهاية المحنة الأولى في حياة النبي الكريم.

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أنها بئر بأرض الأردن أو هي بين مصر ومدين أو هي على مبعدة ثلاثة فراسخ من منازل يعقوب في كنعان، وهو الأرجح، أو هي بئر المقدس، غير أن التقاط السيارة له ومجيئهم اباهم عشاء يبكون ذلك اليوم، يضعف هذا الإتجاه (تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٨، تفسير النسف ٢/ ٢١٤).

(٢) تكوين ٣٧/ ١٨ - ٢٨.

(٣) سورة يوسف: آية ١٩ - ٢٠.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ١٣ - ١٦، تفسير القرطبي ٩/ ١٥٥ - ١٥٧، تفسير المنار ٢/ ٢٨١، تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٥، تفسير روح المعاني ١٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥، تفسير ابي السعود ٤/ ٢٦١، تفسير الخازن ٣/ ٢٧١، تفسير النسفي ٢/ ٢١٥، مؤتمر تفسير سورة يوسف ١/ ٤٢١ - ٤٢٧، المقدسي: البدء والتابع ٣/ ٦٨.

بقيت الإشارة إلى أن هناك فريقاً من المفسرين ذهب إلى أن أخوة يوسف كانوا أنبياء، واستدلوا على ذلك بأنهم الأسباط المذكورون في آية آل عمران (٨٤) ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾، والصحيح أن الأسباط ليسوا أولاد يعقوب، وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب، كما نبه عليه المحققون[1]، هذا وقد جاء في المصباح المنير: السبط ولد الولد، والجمع أسباط، مثل حمل وأحمال، والسبط: الفريق من اليهود، يقال للعرب قبائل، ولليهود أسباط، ومن هنا ذهب المفسرون المسلمون إلى أن الأسباط هم بنو يعقوب، كانوا اثنى عشر رجلاً، كل واحد منهم ولد سبطاً، أمة من الناس، فسموا أسباطاً، هذا وقد بعث الله منهم عدة رسل، غير أنه لم يصح أن أخوة يوسف بالذات كانوا أنبياء، إذ لو كانوا كذلك لما أقدموا عليه من الأفعال الشنيعة، فالحسد والسعي بالفساد، والإقدام على القتل، والكذب، وإلقاء يوسف في الجب، كل ذلك من الكبائر التي تتنافى في عصمة الأنبياء، فالقول بأنهم أنبياء، مع هذه الجرائم، لا يقبله عقل حصيف[2]، ويقول ابن كثير: وظاهر ما ذكرنا من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على أنهم غير أنبياء، ومن استدل بنبوتهم بآية آل عمران (٨٤) وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلال بقوى، لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء ينزل عليهم الوحي من السماء، ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من

(١) يذهب البعض إلى أن الأسباط كانوا من بني إسماعيل الذين أرسل الله إليهم رسلاً، لم يذكروا أسماءهم ولا اممهم، وبخاصة من بني قحطان، كقوم تبع وأصحاب الرس وسبأ (انظر صابر طيحة: بنو إسرائيل في ميزان القرآن ـ بيروت ١٩٧٥ ص ١٨١ ـ ١٩٦).

(٢) محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير ٢/ ٤٥ ـ ٤٦ (بيروت ١٩٨١)، تفسير الطبري ٢/ ١٢١، ٣/ ١١١، ١١٣، ٦/ ٥٦٩، تفسير الكشاف ١/ ١٩٥، تفسير روح المعاني ١٦/ ٦، في ظلال القرآن ٤/ ١٩٧٣، محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ١٥٠.

بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه لم ينص على واحد من إخوته سواه، فدل على ما ذكرناه[1].

(٢) يوسف وامرأة العزيز: -

اشترى عزيز مصر يوسف من تجار الرقيق، ثم ذهب به إلى بيته وقال لامرأته «اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً[2]»، ذلك لأن الرجل إنما توسم في الصديق خيراً، والخير يتوسم في الوجوه الصباح، وخاصة حين تصاحبها السجايا الملاح، فإذا هو يوصي به امرأته خيراً، وهكذا بدأ الصديق مرحلة جديدة في حياته في قصر عزيز مصر الذي اشتراه، وهو طبقاً للرواية العربية، الوزير بمصر، وكان اسمه، فيما يروى عن ابن عباس، «قطفير» وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ «الريان بن الوليد» رجل من العماليق، واسم امرأته راعيل أو زليخا[3].

على أن العجيب من الأمر أن تصف التوراة عزيز مصر بأنه «خصى فرعون رئيس الشرطة»[4]، ولست أدري كيف دار في خلد كاتب نص التوراة هذا، بأن رئيس الشرطة المصري كان خصياً، ومن عجب أن هذه الأكاذيب قد انتقلت إلى بعض كتب التفسير، وإن رفضتها جمهرة المفسرين[5]، وكأن

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١٩٨ - ١٩٩.

(٢) سورة يوسف: آية ٢١: وروى ابن كثير في تفسيره عن عبد الله بن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر، حين قال لامرأته «أكرمي مثواه» والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى «يا أبت استأجره»، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما (مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٥).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٤.

(٤) تكوين ٣٩/ ١.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ١٩، تفسير القرطبي ص ٣٣٨٩، تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٦، تفسير الخازن ٣/ ٢٩٣، وانظر: تفسير البيضاوي ١/ ٤٩١، تفسير المنار ١٢/ ٢٧٢، تفسير روح المعاني ١٢/ ٢٠٧، مؤتمر تفسير سورة يوسف ١/ ٤٣٤، ٥٠٣ - ٥٠٤، ١/ ٥٢٥ - ٥٢٦.

الرجل لم يكن شافعاً له، في نظر كتبة التوراة ومن لفّ لفّهم، في دحض هذه الغيرة، أنه كان زوج أجمل سيدة في مجتمع الهكسوس، ولكن ما الحيلة وصاحب سفر التكوين من التوراة إنما يرى أن حاشية القصر كانت كلها من الخصيان، حتى لنجده كذلك يصف رئيس سقاة الملك ورئيس خبازيه بأنهما من الخصيان[1].

غير أن الصديق، عليه السلام، إنما تعرض في أخريات أيامه في قصر العزيز إلى امتحان رهيب، بدأت به المحنة الثانية في حياته، وهي أشد من المحنة الأولى، تجيئه وقد أوتي صحة الحكم، وأوتي العلم، ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله تعالى في قرآنه، وذلك حين راودته امرأة العزيز عن نفسه، لأنها افتتنت بحسنه فأحبته، وليس لها ما يردعها من خوف زوجها عن خيانته، لأنها تملك قيادة كما يشاء هواها، شأن ربات القصور المترفات اللائي أفسدت طباعهن الحرية والفراغ، وكادت له لما رفض أن يستجيب، لأن لها من نفاذ الكلمة ومن السلطان على زوجها ما مكنها من الانتقام، رغم ما عرف زوجها من آيات صدقه[2]. وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون، ولقد همّت به وهمّ بها، لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾[3]، ويقول الأستاذ سيد قطب[4]، طيب الله ثراه، إن هذه الدعوة السافرة الجاهرة من امرأة العزيز، لا تكون

---

(1) تكوين ٤٠/ ٢.

(2) التهامي نقرة: المرجع السابق ص ٥١٢.

(3) سورة يوسف: آية ٢٣ - ٢٤، وانظر: تفسير الطبري ١٦/ ٢٤ - ٥٠، تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٦ - ٣٠٩، تفسير المنار ١٢/ ٢٢٧ - ٢٣٥، تفسير القرطبي ص ٣٣٩١ - ٣٣٩٩.

(4) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨٠ - ١٩٨١ (بيروت ١٩٨٢).

أول دعوة من المرأة، إنما تكون هي الدعوة الأخيرة، وقد لا تكون أبداً، إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً، والفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل، وأنوثتها هي تكمل وتنضج، فلابد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة العنيفة الغليظة، «قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون»، والنص هنا صريح وقاطع في أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبي، المصحوب بتذكير نعمة الله عليه، وتذكر حدوده وجزاء من يتجاوز هذه الحدود، فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف لما دعته إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته وروايته وقالت: هيت لك. هذا وقد حصر المفسرون القدامى منهم والمحدثون نظرهم في الواقعة الأخيرة «ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه»، فأما الذين ساروا وراء الإسرائليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة ومندفعاً شبقاً، والله يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع، صورت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضاً على إصبعه بفمه، وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن (نعم القرآن) تنهى عن مثل هذا المنكر، وهو لا يرعوى، حتى أرسل الله جبريل يقول له: أدرك عبدي، فجاء فضربه على صدره، إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة، وهي واضحة التلفيق والإختراع[1].

على أن جمهور المفسرين إنما ساروا على أنها همّت به همّ الفعل، وهمّ بها همّ النفس، ثم تجلى له برهان ربه فتركه، وأنكر صاحب تفسير

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨١ ثم انظر: تفسير النسفى ٢/ ٢١٧، تفسير الطبري ١٦/ ٣٣ ـ ٤٨ تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩ تفسير القرطبي ص ٣٣٩١ ـ ٣٣٩٨، تاريخ الطبري ١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨، الكامل لابن الأثير ١/ ٨٠ ـ ٨١، ومن عجب أن التوراة لم تذكر شيئاً مما ذكره المفسرون من هذه الروايات، كما جاءت قصة المراودة في سفر التكوين ٣٩/ ٧ ـ ٢٠.

المنار على الجمهور هذا الرأي، ويقول الإمام الفخر الرازي: الهم خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع، كالصائم يرى في الصيف الماء البارد، فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه، ولكن يمنعه دينه عنه، وقال أبو حيان في البحر: نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق والذي إختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، وقال أبو السعود: إن همّه إليها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، ميلاً جلياً، لأنه قصدها قصداً إختيارياً، الا يُرى إلى ما سبق من إستعصامه المنبيء عن كمال كراهيته له ونفرته منه، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين، وهل هو إلا تسجيل بإستحالة صدور الهمّ منه تسجيلاً محكماً، وما قيل: إنه حلّ الهميان، وجلس مجلس الختان، فإنما هي خرافات وأباطيل تمجّها الأذان، وتردها العقول والأذهان[1].

هذا وقد ذهب صاحب تفسير المنار[2] إلى أنها همت بضربه نتيجة إبائه وإهانته لها، وهي السيدة الآمرة، وهمّ هو برد الإعتداء، ولكنه آثر الهرب فلحقت به وقدت قميصه من دبر، على أن تفسير الهمّ، فيما يرى صاحب الظلال[3]، بأنه همّ الضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة، فهم مجرد رأي لمحاولة البعد بيوسف عن همّ الفعل أو همّ الميل إليه في تلك الواقعة، وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص، ثم يرى في قوله تعالى **﴿ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه﴾** نهاية موقف طويل من الإغراء، بعد ما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم، وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف، ثم الإعتصام بالله في النهاية

(١) تفسير الفخر الرازي ١٨/ ١١٩، تفسير البحر المحيط ٥/ ٢٩٥، تفسير أبي السعود ٢/ ٦٣، تفسير المنار ١٢/ ٢٣١ ـ ١٣٦.

(٢) تفسير المنار ١٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣١.

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ (بيروت ١٩٨٢).

والنجاة، ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة، لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من تلك اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، وفي محيط الحياة البشرية المكاملة كذلك، فذكر طرفي الموقف بين الإعتصام في أوله والإعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً، ثم يرى صاحب الظلال بعد ذلك أن ذلك أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية، وما كان يوسف سوى بشر، نعم إنه بشر ممتاز، ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات، فلما رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه، بعد لحظة الضعف الطارئة عاد إلى الإعتصام والتأبي.

ولعل هذا قريباً مما ذهب إليه الزمخشري في الكشاف حيث يقول: فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقصد إليها، قلت (أي الزمخشري) المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهمّ به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب إجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همّا لشدته، لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالإمتناع، لأن إستعظام الصبر على الإبتلاء على حسب عظيم الإبتلاء وشدته.

وأياً ما كان الأمر، فلقد آثر الصديق التخلص بعد أن إستفاق، وهي عدت خلفه لتمسك به، وهي ما تزال في هياجها الحيواني **﴿واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم. قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها، إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان**

قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قدّ من دبر، قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم، يوسف أعرض عن هذا، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾[1].

هذا وقد إختلف المفسرون في هذا الشاهد، قيل هو إبن عم إمرأة العزيز، وكان جالساً مع زوجها لدى الباب، وقيل كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشيره، وربما كان بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى لنبيه بالشهادة له والقيام بالحق، وإنما ألقى الله الشهادة إلى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته وأنفى للتهمة[2]، قال أبو حيان في البحر: وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة[3]، وذهب جماعة من علماء السلف، على رأسهم ابن عباس والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك، أنه كان صبياً في الدار، واختاره إبن جرير، وفيه حديث مرفوع رواه إبن جرير عن إبن عباس عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار» فذكر فيهم شاهد يوسف، ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «تكلم أربعة وهم صغار، ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم»، ورواه الحاكم عن أبي هريرة[4]، وهكذا ظهرت براءة يوسف عليه السلام للعزيز، فقال له «يوسف أعرض عن هذا» أي لا تذكره لأحد، لأن كتمان مثل هذه الأمور، كما يقول ابن كثير، هو الأليق والأحسن، وأمرها هي بالإستغفار لذنبها الذي صدر منها، والتوبة إلى ربها، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب

---

(١) سورة يوسف: آية ٢٥ ـ ٢٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٨.

(٣) تفسير البحر المحيط ٥/ ٢٩٧.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٧، وانظر: تفسير الطبري ١٢/ ١٩٣، تفسير النسفي ٢/ ٢١٨، تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٨.

الله عليه، وأهل مصر، وإن كانوا يعبدون الأصنام، إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها، هو الله وحده لا شريك له في ذلك[1].

غير أن أنباء الفضيحة سرعان ما تترامى إلى الناس، وطفق النساء خاصة يتحدثن بسقطة إمرأة العزيز، ويتناقلنها بينهن، وأنها شغفت حباً بفتاها وخادمها، وكيف خرجت على طبع أنوثتها في إدلالها وتمنعها، ونزلت عن كبريائها وسلطانها[2]، **﴿وقال نسوة في المدينة إمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين﴾**[3]، وفي ذلك إشباع في اللوم، فإن من لا زوج لها من النساء، أو لها زوج دنيء، قد تعذر في مراودة الأخدان، لاسيما إذا كان فيهم علو الجانب، وأما التي لها زوج، وأي زوج، إنه عزيز مصر، فمراودتها لغيره، لاسيما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلاً، وتماديها في ذلك، إنما هو غاية الغي ونهاية الضلال[4]، **﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت أخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشراً، إن هذا إلا ملك كريم[5] ﴾**.

هذا وتشير الآية الكريمة إلى أن إمرأة العزيز إنما أرادت أن ترد على النساء اللواتي أطلقن ألسنتهن فيها بمكر يوقعهن فيما وقعت فيه من طريق ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها، ومن ثم فقد أقامت لهن مأدبة في قصرها، وبد هي أنهن كن من نساء الطبقة الراقية اللواتي يهمها أمرهن، وهن اللواتي يدعين إلى الموائد في القصور، ويؤخذ

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٠٤.

(٢) التهامي نقرة: المرجع السابق ص ٥١٢.

(٣) سورة يوسف: آية ٣٠.

(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٠.

(٥) سورة يوسف: آية ٣١.

بهذه الوسائل الناعمة المظهر، وأنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا، فأعدت لهن هذا المتكأ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها في الطعام، ويؤخذ من هذا أن الحضارة في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً، وأن الترف في القصور كان عظيماً، فإن إستعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الألف من السنين له قيمة في تصوير الترف والحضارة المصرية بين حكام مصر من الهكسوس، وهم خليط من شعوب شتى، فما بالك بالمصريين أنفسهم، وهم أرفع شأناً، وأكثر تمدناً، وأرقى حضارة من كل شعوب الشرق القديم، وعلى أية حال، فبينما النساء منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة، فاجأتهن بيوسف، فلما رأينه أكبرنه وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة، «وقلن حاشا لله، ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم»، وهذه التعبيرات، فيما يرى صاحب الظلال[1]، دليل على تسرب شيء من ديانات التوحيد في ذلك الزمان، وهنا أدركت إمرأة العزيز أن هؤلاء النسوة يقفن معها على أرض واحدة، حيث تبدو فيها الأنثى متجردة من كل تجمل المرأة وحيائها، فإذا بها تقول قول المرأة المنتصرة، والتي تفخر عليهن بأن هذا في متناول يدها، وإن كان قد إستعصى قياده مرة، فهي تملك هذه القيادة مرة أخرى **﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين، قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم[2] ﴾**.

وهكذا تحولت الأمور إلى صراع بين المرأة والفتى، ودخلت كما يقال في دور من العناد والمفاعلة غريب، هي بتهالكها الذي انكشف عن تحجج

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٥٣، ١٩٨٤ - ١٩٨٥.

(٢) سورة يوسف: آية ٣٢ - ٣٤.

سافر، وكبر خائر، وهو بإصراره الذي لا سبيل له إلا إلى المضي فيما بدا وأعلن للناس، ولكنه مع ذلك لم ينج منهم ومن كيد نسائهم، وتحالفت عليه قوى البغي، فكان لهن من السلطان على أزواجهن ما حجب الحق الأبلج، وأساء إلى الخلق المتين[1]، ﴿**ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين**﴾[2].

وليس هناك من سبيل إلى شك في أن هذه إنما تقدم لنا صورة لمجتمع فاسد آثم، تصور ما كان عليه مجتمع الدخلاء من حكام الهكسوس المغتصبين في مصر من فساد وانحلال، ولو لم يكن لدينا عن مصر في ذلك الزمان سوى تلك القصة، لاتخذناها وحدها دليلاً على مجتمع يسوده الأجانب والغرباء، ولنفيناها عن المصريين ونسبناها إلى المجتمع الأجنبي مطمئنين، لأنها إنما تخالف عن طبيعة الأشياء في مصر، وتخرج عن سليقة المصري بما ركب فيه من الأنفة والحمية والكرامة والكبرياء، ولو نظرنا إلى بعض قصص التوراة، لوجدنا قصتنا هذه أشبه بقصص التوراة وأدنى إلى مجتمعها[3]، على حين تنبو عن مجتمع المصريين الأصيل، وتخالف تقاليدهم وأذواقهم، خلافاً يفوق كل خلاف[4].

(٣) يوسف في السجن: -

تمثل هذه الفترة في حياة الصديق المحنة الثالثة والأخيرة، فكل ما بعدها رخاء، وابتلاء لصبره على الرخاء، بعد إبتلاء صبره على الشدة، والمحنة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة، والسجن للبريء المظلوم أقسى، وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة ـ القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٥.

(٢) سورة يوسف: آية ٣٥.

(٣) انظر عن مجتمع قصص التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ١٦٢ ـ ٢١٨).

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٤٥ ـ ٤٦.

وسلوى[1]، ذلك أن القوم منَ الهكسوس سرعان ما قذفوا بالصديق إلى السجن، رغم ما رأوا من آيات براءته، كقد القميص وقطع الأيدي وشهادة الصبي وغير ذلك، مدة لم يحددوا زمنها، لأن الهدف من ذلك إنما كان أن ينسى الناس قصته مع إمرأة العزيز، هذه القصة التي لاكتها الألسن بين أوساط الناس.

ومع ذلك، فإن الصديق عليه السلام، إنما يتقبل السجن صابراً محتسباً، ورغم أنه كان في سجنه غريباً وحيداً بيد أنه كان دائماً يسبح لمن أحيا الفؤاد بنوره، فإذا به يستشعر رحابة في وجدانه وسعت الكون كله، وسمت روحه لتتصل بروح الوجود، وإذا به يأنس بربه، ويحس تعاطفاً مع كل من حوله وما حوله، وإذا بقلبه ينفتح للبشرية جمعاء، حتى الذين ظلموه لم يحقد عليهم، كانت إرادته أن يتقي الله حق تقاته، ونيته أن يخلص لله، وعزمه أن يصل حبله بحبل الله، وقصده أن يهب نفسه لله، وأن يسير في سبيل الله فجزاه الله الجزاء الأوفى، فعلمه من علمه، والله بكل شيء عليم[2].

وكان ملك مصر من الهكسوس الغزاة قد أدخل معه صاحب طعامه وصاحب شرابه بعد أن إتهمهما بأنهما تآمرا عليه ودسا له السم في الطعام، فراح الصديق يدعوهما إلى الله ويذهب عنهما حزنهما، ويبذل لهما ما وسعه البذل لتطمئن نفوسهما، ويرى السجناء في مسلكه الطاهر ما يجذبهم إليه، فيطلبون إليه تفسير الرؤيا وتأويل الأحلام[3]، ويكاد القرآن الكريم والعهد

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨٧.

(٢) عبد الحميد جودة السحار: بنو إسماعيل ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٥٦ ـ ٥٨.

(٣) هناك بحوث كثيرة لعلماء النفس في الأحلام، فمن قائل إنها صورة من اللاشعور النهائي، أو هي صورة من الرغبات المكبوتة تتنفس بها الأحلام في غياب الوعي، ومن قائل إنها تعويضية، ومن قائل إنها تقوم بوظيفة لإعداد الحياة، إذ أن الأمر كله لا يعدو أن القوم يحلمون، لأنهم يلتمسون في الحلم حلولاً لا يسيرون عليها في نشاطهم المقبل (إسحاق =

القديم يتشابهون في عرضهما للأمر، وإن إستغرقت التوراة كثيراً في رؤيا السجينين[1].

على أن القرآن الكريم إنما ينفرد وحده بذكر دعوة يوسف عليه السلام، وهو في السجن، إلى توحيد الله، وبث العقيدة الصحيحة، ويظهر جلياً في هذه الدعوة لطف مدخله إلى النفوس، وسيره خطوة خطوة في رفق وتؤده[2]، **﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي﴾**[3]، وكأنه أراد إخبارهما بمعجزاته توطئه لدعائهما إلى الإيمان، قال

= رمزي: علم النفس الفردي ـ القاهرة ١٩١٩ ص ١٣٢ ـ ١٣٤، التهامي نقرة: المرجع السابق ص ٥١٨، في ظلال القرآن ٤/ ١٩٧٢)، ويذهب ابن خلدون في المقدمة (ص ١٨٠) أن النفس إذا خفت عنها شواغل الحس وموانعه بالنوم، تتعرض إلى معرفة ما تتشور إليه في عالم الحق، فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر المطلوب، ولذلك جعل الله الرؤيا من المبشرات.

وروى عن أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قيل وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة» (صحيح البخاري ٩/ ٤٠ ـ القاهرة ١٣٧٨) وفي تفسير النسفي ٢/ ١٦٩ روى عنه ﷺ) عن البشرى «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»، وعنه ﷺ «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» (تفسير النسفي ٢/ ١٦٩)، ويرى الإمام الغزالي أن أدلة العقل وحدها لا تكفي لنبوة نبي، ويقول: إنما نعرف النبي أو العارف الذي يتلقى علمه من الله بأمر آخر، فإن الله أعطانا نموذجاً من خصائص النبوة نشاهده في نفوسنا، ويعني بذلك ما يراه النائم من أسرار الغيب (الغزالي: المنقذ من الضلال ـ القاهرة ١٣٠٨ هـ ص ٢٤ ـ ٢٦)، ويذهب صاحب الظلال (٤/ ١٩٧٢) إلى أننا ملزمون بالإعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد، ملزمون بهذا أولاً من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف، ورؤيا صاحبه في السجن ورؤيا ملك مصر، وثانياً ما نراه في حياتنا من تحقيق رؤيا تنبؤية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده لأنه موجود بالفعل.

(١) سورة يوسف: آية ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٤١، تكوين ٤٠/ ١ ـ ٢٢.

(٢) التهامي نقرة: المرجع السابق ص ٥٣٥.

(٣) سورة يوسف: آية ٣٧.

الإمام البيضاوي: أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه، كما هي طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد، فقدم ما يكون معجزة له من الأخبار بالغيب لدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير[1].

ثم يتوغل في قلوبهما أكثر، ويفصح عن دعوته، ويكشف عن فساد إعتقادهما، واعتقاد قومهما بعد ذلك التمهيد الطويل[2]، ﴿**إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون، يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، ما تعبدون من دون الله إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[3]، وهي صورة للإسلام واضحة كاملة دقيقة شاملة، كما جاء بها رسل الله جميعاً، من ناحية أصول العقيدة تحتوي، الإيمان بالله وبالآخرة، وتوحيد الله وعدم الإشراك به أصلاً، ومعرفة الله تعالى بصفاته الواحد القهار، والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلاً، ومن ثم نفي الأرقاب التي تتحكم في رقاب العباد، وإعلان السلطانوالحكم لله وحده، ما دام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره، ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هي تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده، وحديد معنى «العبادة» بأنها الخضوع للسلطان والحكم والإذعان للربوبية، وتعريف الدين القيم بأنه إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، أي إفراده بالحكم، فهما مترادفان أو متلازمان «إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٦٤.

(٢) محمد رجب البيومي: البيان القرآني ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٢٢٥.

(٣) سورة يوسف: آية ٣٧ ـ ٤٠.

إلا إياه ذلك الدين القيم»، وهذه هي أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها[1].

وهكذا يبلغ الصديق عليه السلام، أقصى الغاية من الدرس الذي ألقاه، مرتبطاً في مطلعه بالأمر الذي يشغل بال صاحبيه في السجن، ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا في نهاية الدرس، ليزيدهما ثقة في قوله كله وتعلقاً به **﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾**[2].

والصديق، مع هذا كله، بشر، فيه ضعف البشر، فهو يتطلب الخلاص من سجنه، بمحاولة إيصال خبره إلى الملك، لعله يكشف المؤامرة الظالمة التي جاءت به إلى السجن، وإن كان الله تعالى شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلا منه وحده، **﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما أذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾**[3]، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع، وفي الحديث «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل أذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعاً»[4]، والإستعانة بالعباد، وإن كانت مرخصة، لكن اللائق بالأنبياء الأخذ بالعزائم[5]، وجاء في تفسير القرطبي أن جبريل جاء إلى يوسف وهو في السجن معاتباً فقال له: يا يوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوتك، قال الله تعالى، قال فمن أخرجك من الجب، قال الله تعالى، قال فمن عصمك من الفاحشة، قال الله تعالى، قال فمن صرف عنك كيد النساء، قال الله تعالى، قال: فكيف تركت ربك فلم تسأله

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٦٠.

(٢) سورة يوسف: آية ٤١.

(٣) سورة يوسف: آية ٤٢.

(٤) تفسير النسفي ٢/ ٢٢٣.

(٥) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٠، تفسير الخازن ٣/ ٢٨٥ - ٢٨٦.

ووثقت بمخلوق، قال يا رب كلمة زلت مني، أسألك يا إله إبراهيم وإله الشيخ يعقوب عليهم السلام: أن ترحمني، قال جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين[1].

وجاءت ساعة الذكرى عندما رأى الملك حلماً غريباً لا يقدر تفسيره أحد، فتذكر السجين السالف براعة يوسف، ويشير به، ثم ينهض إلى إستفتائه فينطوي بالتأويل الصريح[2]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات، يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون، قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين، وقال الذي نجا وأدكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون، يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون، قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبلة إلا قليلاً مما تأكلون، ثم يأتي بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾ [3]، قال الإمام الزمخشري: تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف اليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً، كثير الخير، غزير النعم، وذلك من جهة الوحي[4]، لأن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك، فهو إذن من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف، فبشر به الساقي ليبشر به الملك والناس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخي رغيد.

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ١٩٦.

(٢) محمد رجب البيومي: المرجع السابق ص ٢٢٥.

(٣) سورة يوسف: آية ٤٣ ـ ٤٩.

(٤) تفسير الكشاف ٢/ ٤٧٧.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أنه قد مرت بنا رؤى ثلاث، رؤيا يوسف، ورؤيا صاحب السجن، ورؤيا الملك، وطلب تأويلها في كل مرة، والإهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله في مصر وفي خارج مصر، وأن الهبة التي وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه، على ما نعهد في معجزات الأنبياء، فهل كانت هذه هي معجزة يوسف عليه السلام[1]؟ ربما كان الأمر كذلك.

وعلى أي حال، فلقد طلب الملك أن يأتوا بيوسف من السجن، غير أن الصديق إنما يرفض أن يغادر سجنه حتى تظهر براءته للناس جميعاً، مما ألصق به من تهمة هو منها براء، قال السدي، قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه ما زالت في نفس العزيز منه حاجة يقول: هذا الذي راود إمرأتي، فلما رجع الرسول إلى الملك من عند يوسف جمع الملك أولئك النسوة[2] فقال لهن: **﴿ما خطبكن إذا راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء، قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾**[3].

وهكذا تثبت الأحداث السابقة جميعاً عصمة النّبي الكريم سيدنا يوسف عليه السلام وبراءته من تلك التهمة التي نسبها إليه من لا يعرف قدر النبوة ولا عظمة الرسالة ولا صفات الأنبياء الكرام البررة، فضلاً عن أن يوسف نبيّ وجد أبيه نبيّ، فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، هذا وقد قدم لنا الأستاذ الصابوني وجوهاً عشرة على عصمة يوسف وبراءته،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٩٣ - ١٩٩٤.

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٣٤٦.

(٣) سورة يوسف: آية ٥١ - ٥٣.

منها (أولاً) إمتناعه عن مطاوعة إمرأة العزيز ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم «قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون» ومنها (ثانياً) فراره من إمرأة العزيز بعد أن حاصرته وضيقت عليه الخناق وأرادته على نفسها بالغصب والإكراه، ولو كان يوسف قد همّ بالفاحشة لما فر منها، لأن الذي يريد ذلك يقدم ولا يفر «واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر» الآية، ومنها (ثالثاً) شهادة بعض أقرباء المرأة ببراءة يوسف حيث أشار بفحص ثوبه فإن كان طالباً وهي الممتنعة فإن ثوبه سيشق من أمام، وإن كانت هي الطالبة له وهو الممتنع فإن ثوبه سيشق من خلف، وهذا ما ثبت (الآيات ٢٦ ـ ٢٩)، ومنها (رابعاً) تفضيله السجن على عمل الفاحشة (آية ٣٣) وهذا من أعظم البراهين على براءته، ذلك لأنه لو طاوعها لما لبث في السجن بضع سنين بسبب تلك التهمة الظالمة، ومنها (خامساً) ثناء الله تعالى عليه في مواطن عديدة من السورة، كما في الآيات (٢١، ٢٢، ٢٤) فلقد أخبر الله تعالى أنه من المحسنين وأنه من عباده المخلصين، ولن يكون ثناء الله تعالى إلا على من صفت نفسه، وطهرت سيرته من كل نية سوء، وكل عمل قبيح، فكان من الأطهار المقربين، كما أثنى عليه سيدنا رسول الله ﷺ فقال ﷺ: إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

ومنها (سادساً) إعتراف إمرأة العزيز نفسها بعصمته وعفته أمام جمع من نسوة المدينة، كما في الآيات (٣١-٣٢) ومنها (سابعاً) ظهور إمارات براءة يوسف بكل الأدلة، كقد القميص وقطع النسوة أيديهن وشهادة الصبي، ومع ذلك فقد أقدم العزيز على سجنه إيهاماً للناس، وستراً على زوجته (الآية ٣٥)، ومنها (ثامناً) إستجابة الله تعالى لدعوة يوسف بأن يصرف عنه كيدهن، ولو كان راغباً في مطاوعة إمرأة العزيز، لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن (الآية ٣٤)، ومنها (تاسعاً) عدم قبول يوسف الخروج من السجن

حتى تظهر براءته أمام الناس جميعاً، (الآية ٥٠) ومنها (عاشراً) الإعتـراف الواضح من النسوة ومن إمرأة العـزيز ببـراءة يوسف وعفتـه (الآيات ٥١ ـ ٥٣)[1].

---

(١) محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء ص ٧٤ ـ ٧٨، صفوة التفاسير ٢/ ٥٣ ـ ٥٤، تفسير النسفي ٢/ ٢٢١

الفصل الثاني

يوسف عزيز مصر

(١) يوسف العزيز : -

ظهرت براءة يوسف عليه السلام، كما رأينا، في الفصل السابق، ومن ثم فقد خرج من السجن، ولقي الملك وتحدث إليه، فرأى فيه مخايل الأمانة، وحكمة التصرف وعزة النفس، وإمارات السيادة فقربه إليه، ورفع منزلته لديه، وهكذا تشاء إرادة الله أن يصبح الصديق على خزائن الأرض أميناً، بعد أن كان في زوايا الأرض سجيناً، إذ ينال الحظوة عند ملك مصر من الهكسوس بعد أن قام بتفسير رؤياه تفسيراً يتفق ومقام النبوة، ويتنزه عن تفسيرات رجال البلاط وحكمائه من سدنة وكهان، فضلاً عن براءته مما نسب إليه بشأن إمرأة العزيز، ومن ثم فقد قلده الملك ما يشبه وزارة التموين في عصرنا الحاضر[1]، وإن كانت التوراة تجعله أشبه برئيس الوزراء[2]، وهكذا قدّر للصديق عليه السلام أن يرتفع من رق العبودية إلى كرسي الوزارة[3]، وأن يتزوج، فيما تروي التوراة، من سيدة مصرية هي «أسنات

---

(١) انظر: سورة يوسف: آية ٥٤ - ٥٦، تكوين ٤١/ ١ - ٤٤.

(٢) تكوين ٤١/ ٤٠ - ٤٤.

(٣) ربما كان الصديق، حدساً عن غير يقين، يشرف على ما كان يسمى في مصر القديمة، مصلحة الحقول والخزانة، فأما مصلحة الحقول: فكان يتبعها الأراضي الزراعية على ضفاف النيل، فضلاً عن تلك التي تقع على حافة الصحراء والمحيطة بالمقابر والأهرامات الملكية، وأما =

بنت فوطي فارع» كاهن أون (عين شمس)، ومنها أنجب ولديه منسي وأفرايم[1]، وإن زوّجته المصادر العربية من إمرأة العزيز التي راودته عن نفسه من قبل، وقد أسموها راعيل أوزليخا، بعد أن شغل منصب زوجها كذلك بسبب موته أو إعفائه من منصبه[2].

ولعل سائلاً يتساءل: أليس في قول يوسف عليه السلام «إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» أمران محظوران في الإسلام، أولهما: طلب التولية وهو محظور بقول الرسول ﷺ «إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله أو حرص عليه» (متفق عليه)، وأنه ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها»، وثانيهما: تزكية النفس، وهي محظورة بقوله تعالى: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم**﴾[3].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن يوسف إنما طلب الولاية رغبة في العدل، وإقامة الحق والإحسان، وليس هو من باب التزكية للنفس، وإنما هو للإشعار بحنكته ودرايته لاستلام وزارة المالية[4]، وذهب أبو السعود

= مصلحة الخزانة، وكانت تسمى بيت المال الأبيض (برجج) ويتولى إدارتها، تحت إشراف الوزير، مدير البيت الأبيض المزدوج، ولها فروع من الأقاليم، كما كانت تنقسم إلى قسمين: بيت الذهب وبيت الشونة (أنظر: محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية - الإسكندرية ١٩٨٤ ص ١٢٩)، غير أن المؤكد أن يوسف كان يشغل منصب العزيز، كما وصف في القرآن (سورة يوسف: آية ٧٨).

(١) تكوين ٤١/ ٤٥، ٥٠ - ٥٢.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٦، تفسير النسفي ٢/ ٢٢٨، تفسير الخازن ٣/ ٢٩٣، تاريخ الطبري ١/ ٣٤٧، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٥، الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٨٣، البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢١٠.

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٠٦، تفسير الخازن ٣/ ٢٩٢.

(٤) صفوة التفاسير ٢/ ٥٧.

في تفسيره[1] إلى أنه قال «إجعلني على خزائن الأرض» أي أرض مصر[2] وولني أمرها من الإيراد والصرف، إني حفيظ لهما ممن لا يستحقهما، عليم بوجود التصرف فيهما، وفيه دليل على جواز طلب الولاية، إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الجائر أو الكافر، وقيل إن الملك أسلم، وقال الخازن في تفسيره: يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها، فإذا تعيّن وجب عليه ولا كراهية عليه، وأما يوسف فكان عليه طلب الإمارة لأنه مرسل من الله تعالى، والرسول أعلم بمصالح الأمة من غيره، وإذا كان مكلفاً برعاية المصالح ولا يمكنه ذلك إلا بطلب الإمارة وجب عليه طلبها، وهنا في طلب الإمارة، بسبب ما سيحدث من قحط، إيصال الخير للمستحقين، فيجب طلبها[3].

وذهب الإمام النسفي في تفسيره إلى أن يوسف عليه السلام وصف نفسه في قوله «إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم»، بالأمانة والكفاية وهما طلبة الملوك ممن يولونهم، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله بعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلبه إبتغاء وجه الله، لا لحب الملك والدنيا، وفي الحديث «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل إجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة»، قالوا وفيه دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان حمالة من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة، وإذا علم النبي أو الظالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم، إلا بتمكين الملك الكافر أو

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٦.

(٢) قال الإمام القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: قال: اجعلني على خزائن الأرض. «قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس يقول: مصر خزانة الأرض» أما سمعت قوله «اجعلني على خزائن الأرض» أي على حفظها (تفسّير القرطبي ص ٣٤٤٢).

(٣) تفسير الخازن ٣/ ٢٩٢.

الفاسق فله أن يستظهر به[1]، وأما ابن كثير فيذهب إلى أنه يجوز للرجل أن يمدح نفسه، إذا جهل أمره، للحاجة، ولهذا قال يوسف إنه حفيظ، أي خازن أمين، وعليم، أي ذو علم وبصيرة بما يتولاه، ومن ثم فقد طلب يوسف من الملك أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء، لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سنى الخصب لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الإحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك إنه حفيظ أي قوي على حفظ ما لديه، أمين عليه، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهراء، وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاية[2].

هذا ويتجه صاحب الظلال إلى أننا لا نريد أن نجيب بأن هذه القواعد (عدم طلب التولية وعدم تزكية النفس) إنما تقررت في النظام الإسلامي على عهد سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف عليه السلام، والمسائل التنظيمية في هذا الدين (الإسلام) ليست موحدة كأصول العقيدة الثابتة في كل رسالة وعلى كل رسول، لا نريد أن نجيب بذلك، وإن كان له وجه، لأن الأمر يرتكن إلى إعتبارات أخرى لابد من إدراكها، لإدراك منهج الإستدلال من الأصول والنصوص، وذلك لأن يوسف عليه السلام لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس، وعدم طلب الإمارة، كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكماً مطاعاً، لا خادماً في وضع جاهلي، وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه، وقد توارى العزيز، وتوارى الملك تماماً[3].

---

(1) تفسير النسفي ٢/ ٢٢٧.

(2) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٤ (المختصر)، البداية والنهاية ١/ ٢١٠، وانظر تاريخ الطبري ١/ ٣٤٧.

(3) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٠٦، ٢٠١٣.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك من يزعم أن يوسف عليه السلام، قد إستقل بملك مصر، إعتماداً على قول يوسف في دعائه «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث»، ولا دليل لهم في ذلك، فيما يرى ابن خلدون، لأن كل من ملك شيئاً، ولو في خاصة نفسه، فإستيلاؤه يسمى مُلْكاً، حتى البيت والفرسَ والخادم، فكيف من ملك التصرف، ولو كان من شعب واحد منها، فهو ملك، وقد كان العرب يسمون أهل القرى والمدائن ملوكاً[1]، فما ظنك بوزير مصر لذلك العهد، وفي تلك الدولة، وأما الذين يستدلون بقوله تعالى: **﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾** فهو ليس بدليل أيضاً، لأن التمكين يكون بغير الملك، ونص القرآن إنما هو بولاية على أمور الزرع في جمعه وتفريقه، كما قال تعالى: **﴿إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾**، ومساق القصة كلها أنه مرؤوس في تلك الدولة بقرائن الحال كلها، لا يتوهم من تلك اللفظة الواقعة في دعائه، فلا نعدل عن النص المحفوف بالقرائن إلى هذا المتوهم الضعيف، وأيضاً فالقصة في التوراة[2] قد وقعت صريحة في أنه لم يكن ملكاً ولا صار إليه مُلكٌ، وأيضاً فالأمر الطبيعي من الشوكة والقطامة له يدفع أن يكون حصل له ملك، لأنه إنما كان في تلك الدولة قبل أن يأتي إليه إخوته منفرداً لا يملك إلا نفسه، ولا يتأتى المُلْك في هذا الحال[3]، هذا فضلاً عن

(١) تشير نصوص فرعون مصر تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق، م) على أنه حارب في موقعه مجد وحوالي عام ١٤٦٨ ق، م، أعداءه من ملوك سورية بزعامة أمير قادش، وعددهم ٣٣٠ ملكاً وأميراً، مع كل منهم جيشه الخاص، وقد إنتصر عليهم، كما تشير نصوص شلمنصر الثالث الأشوري أنه حارب في موقعه قرقر عام ٨٥٣ ق، م حلفاً من الأمراء السوريين يضم اثنى عشر ملكاً على رأسهم بنحدد ملك دمشق، كما إعتاد العرب تسمية حكام القرى والمدائن ملوكاً مثل هجر ومعان ودوقمة الجندل، وكان ولاة الأطراف وعمالها في الخلافة العباسية يسمون ملوكاً.

(٢) تكوين ٤١/ ٣٣ - ٥٧.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٧.

أن جمهرة المؤرخين والمفسرين إنما تذهب إلى أنه كان أشبه بوزير التموين أو المالية أو ما يشبه ذلك، مما يفهم منه أنه كان المسئول عن جمع الغلال وحفظها في الأهراء في سنوات الرخاء، وحسن إستخدامها في أعوام المجاعة[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التاريخ المصري إنما يصدق الأحداث التي أتت بيوسف عليه السلام إلى هذا المنصب ذلك أن مصر إنما كانت عرضة للمجاعات، وفترات من تدهور الإنتاج الزراعي والحيواني على مرّ العصور، ولقد كان ذلك في أغلب الأحايين من آثار اضطراب النيل وامتناع فيضه، وإخلاله بالوفاء، كما تعوّد وتعوّد منه الناس كل عام، فإذا تدهور وأقام على نقائصه لم تكد مياهه لتصل إلى الأرض التي تتحرق شوقاً إليه، وتنتظر العام كله، أو جله، للقائه، فعندئذ فلا ريّ ولا إستنبات، ثم لا زرع ولا ضرع، فتكون الكارثة التي تنزل بالبلاد والعباد[2].

والتاريخ يحدثنا أن الله تعالى ما جعل بلداً في العالم، تتوقف حياته ووجوده، مصيره ومستقبله، في السلم أو في الحرب، أو يرتبط سكانه وتاريخه بنهر، مثلما تفعل مصر والنيل، ومن ثم فإذا بالغ النيل في فيضه أحياناً، فتعظم أمواهه وتضري أمواجه، فإذا هو يندفع طوفاناً عنيفاً مدمراً مغرقاً كل شيء، ثم لا يكاد ينحسر عن الأرض إلا وقف إنقضى من أوان البذور قت قد يكون على الإنتاج أيام الحصاد سيءالمسغبة، وإن لم يبلغ

---

(١) أنظر: تاريخ الطبري ١/ ٣٤٧ - ٣٤٨، الكل لابن الأثير ١/ ٨٣ - ٨٨، ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢١٠، صفوة التفاسير ٢/ ٥٧، تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٦، تفسير الخازن ٣/ ٢٩٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٣٢١، تفسير القرطبي ص ٣٤٤٦ - ٣٤٤٧، تفسير الطبري ١٦/ ١٤٨ - ١٥٢، تفسير النسفي ٢/ ٢٢٨، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٥٥، تفسير الجلالين ص ٣١١ - ٣١٢، صفوة التفاسير ٢/ ٥٧.

ذلك من سوئه مبلغ نقص الماء، ذلك أن النهر إن هبط عن معدله الطبيعي، فهي «الشدة» التي قد تصل إلى «المجاعة»، وإذا كان الفيض المغرق يعني الطاعون، فإن المجاعة كانت تعني «الموتان» الذي يصل إلى حد نشر معه الطاعون بدوره بعد ذلك حتى يتناقص السكان بدرجة مخيفة[1].

على أن إنحباس النيل ونضوب موارد الدولة، إنما كان وثيق الصلة بما كان ينزل بها من الضعف السياسي، وتحلل السلطة المركزية، وتدهور الأمن وإضطراب النظام، فيكون شيوع الفساد وإنتشار الجريمة مع القحط والجوع، شراً مستطيراً، وشقاء متصلاً، يحل بالناس فيترك في نفوسهم وعقولهم أثراً لا يمحي أو لا يكاد يمحي[2]. ويقدم لنا التاريخ أمثلة كثيرة لإنخفاض النيل في مصر قبل وبعد عصر يوسف الصديق عليه السلام، وما ينتج عن ذلك من كوارث إقتصادية، ومن أشهر الأمثلة ما حدث على أيام الثورة الإجتماعية الأولى (الأسرات ٧ ـ ١٠) يقول «نفرتي»: لقد جف نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم، وسوف يبحث الناس عن الماء لتجري عليه السفن فيجدوا أن الطريق قد صار شاطئاً، وأن الشاطىء قد صار ماء[3]»، ومن ثم فقد رأينا من نفس الفترة شريفاً من الصعيد هو «عنخ تفي» حاكم «نخن» (البصيلية ـ مركز إدفو بمحافظة أسوان) يتحدث عن سني المجاعة فيقول إنه أمد خلالها مدناً أخرى، إلى جانب مدينته، بالهبات والقمح، وقد إمتدت دائرة نشاطه حتى دندرة، في مقابل قنا عبر النهر، وبذا أنقذ الصعيد الجنوبي الذي كاد يموت جوعاً، وكاد كل رجل فيه أن يغتال أطفاله[4]».

على أن المصريين قد إكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحسن التدبير،

---

(١) جمال حمدان: شخصية مصر ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٤١ ـ ٢٤٥.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٥٦.

(٣) A. Erman, LAE, 1927, P. 113.

(٤) A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1961, P. 111.

إذ كانوا يدخرون غلة الأرض من أيام الري لأيام الجفاف، ومن يسرهم لعسرهم، ومن رخائهم لشدتهم، وكانت حكمة الملوك والأمراء وحكام الأقاليم وحسن تدبيرهم خليقاً أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون[1]، ومن ثم فقد رأينا «خيتي» أمير أسيوط على أيام الإهناسيين يتحدث عن جهوده في القضاء على الأزمة الإقتصادية، بأن يقدم هدية لمدينته بأن حفر ترعة ليروي الفلاحون منها أرضهم ويسقوا زرعهم، ثم يقول: إنني غني بقمح الشمال حيث كانت الأرض في جفاف، وعندما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب والخبز، وسمحت لكل مواطن بأن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته، وقد أعطيت الأرملة وولدها، وتجاوزت عن الضرائب التي فرضها أبي، وملأت المراعي بالمواشي[2]»، وفي مدينة الكاب، مقابل البصيلية عبر النهر، نرى أميرها «ببي» من الأسرة الثالثة عشرة، التي سبقت قليلاً جداً عصر الصديق، وربما عاصرت أوائله من أيام الهكسوس، يقول: «لقد كنت أكدس القمح الجيد المطلوب، وكنت يقظاً في فصل البذر، فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين أعطيت مدينتي القمح في كل مجاعة[3]».

على أن العلماء على كثرة ما قرأوا من أخبار المجاعات في مصر القديمة[4]، إنما يقفون خاصة موقف الفاحص من مجاعة تفشت أخبارها

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٥٧ - ٥٨.

(٢) محمد بيومي مهران: الثورة الإجتماعية الأولى - الإسكندرية ١٩٦٦ ص ١٢٨ - ١٢٩. وكذا J. Vandier, La Famine dans l'Egypte Ancienne, Le caire, 1936, P. 101F وكذا J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 181

(٣) T. Vandier op, cit, P 114

(٤) تعرضت مصر لكثير من المجاعات في العصور الوسطى بسبب انخفاض النيل، كالتي حدثت على أيام الأمويين في عام ٨٧ م، وعلى أيام الاخشيديين في أعوام ٣٢٩ م، ٣٣٨ م، ٣٤١ م، ٣٤٣ م، ٣٥١ م، ولعل أشهر وأبشع المجاعات ما سجل البغدادي أثناء الشدة المستنصرية =

على الصخر من جزيرة سهيل-جنوبي أسوان ، ولئن كان الخبر منسوباً إلى أيام الملك «زوسر» من الأسرة الثالثة فالذي لا شك فيه إنما نقش بعده بعشرين قرناً من الزمان ، نقشه كهان «خنوم» على عهد البطالمة ، ربما عام ١٨٧ ق . م . على أيام بطليموس الخامس ، وربما بطليموس العاشر في أكبر الظن ، أي في الفترة (١٠٧ ـ ٨٨ ق . م .) ، وغير بعيد أن يكون النص صوتاً من واقع بعيد ، يرجع إلى أيام الصديق ، وأن كهان خنوم حين كتبوه على عهد بطليموس الخامس أو العاشر ، إنما كانوا تحت تأثير ما كان يومئذ من أصداء الماضي السحيق ، وبما ورد في التوراة من أصداء السنين السبع الشداد التي جرت بها ألسنة من كان بمصر يومئذ من يهود ، بخاصة وأن الترجمة السبعينية[1] للتوراة كانت قد تمت بمصر على أيام بطليموس الثاني (٢٨٤ ـ ٢٤٦ ق . م) ، وأن هناك جالية من يهود إنما كانت تقيم في اليفانتين (جزيرة أسوان)[2] وتطل من حيث الموقع على جزيرة سهيل حيث نقش نص المجاعة[3] .

وعلى أية حال وأياً ما كانت ظروف هذه المجاعات التي كانت بسبب عدم فيضان النيل ، فإن المجاعة التي كانت ستحدث على أيام الصديق في عهد

= التي بدأت عام ٤٥٧ م، واستمرت سبع سنين متصلة في أخريات أيام الفاطميين ، وبلغ من قسوتها أن أكل الناس القطط والكلاب ، ثم الجيف ، ثم أكلوا بعضهم بعضاً، حتى انتهت بفناء رهيب للسكان ، لا يملك قارىء البغدادي إلا أن يتصوره فناءً كاملاً أو شبه كامل (أنظر: جمال حمدان : المرجع السابق ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، محمد حمدي المناوي : مصر في ظل الإسلام ١/ ١٧١ ـ ١٧٥ ، الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٥٩ (بيروت ١٩٠٨) ، السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ٢/ ١٥٤ .

(١) انظر : عن الترجمة السبعينية للتوراة (محمد بيومي مهران : إسرائيل ٣/ ١٠٧ ـ ١١٢) .

(٢) انظر : عن الجالية اليهودية في أسوان (محمد بيومي مهران : إسرائيل ٢/ ١٠٧٦ ـ ١١٠٢) .

(٣) أنظر : عن نقش المجاعة على جزيرة سهيل : محمد بيومي مهران : مصر ١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٦، إسرائيل ١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٩ ، وكذا P. Barguet, La Stele de La Famine a Sahel, Cairo, 1953 وكذا J. Vandier, op - cit, P. 132 - 139 وكذا J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 31 - 32

الهكسوس، إنما كانت حقيقة لا ريب فيها، لولا أن تداركت رحمة الله أرض الكنانة بحكمة يوسف عليه السلام، ومن ثم فقد كانت أيام الصديق في مصر خيراً كلها، ديناً ودنيا، بل إن وجود يوسف في مصر حين من الدهر، شرف ما بعده شرف، وأن دعوته كانت رحمة وهداية للمصريين، ما في ذلك من ريب، وأن الصديق عليه السلام قد أنقذ الله به مصر من مجاعة محققة، كادت تهلك الحرث والنسل، وأنه قد نشر في مصر دعوة التوحيد وبث العقيدة الصحيحة، ما في ذلك شبهة من شك، وهكذا حمل الصديق عليه السلام إلى مصر نور الإيمان وهداية التوحيد، وعدالة الله، وكل ما هو خير وطيب من نعم الله التي يجريها، سبحانه وتعالى، على أيدي المصطفين الأخيار من أنبيائه الكرام البررة.

(٢) يوسف وإخوته في مصر: -

ما أن تمضي سنون الرخاء السبع، وتبدأ سنون الجفاف في مصر، حتى يجتاح أرض كنعان (فلسطين) جدب، فتفقر الأرض وتعم المجاعة، وتتجه كنعان صوب أرض الكنانة، الطيبة والكريمة كذلك، لعلها تجد عندها المأوى، كالعهد بها دائماً وأبداً، وينطلق أبناء يعقوب إلى مصر مع المنطلقين، فقد أصابهم من الجوع ما أصاب غيرهم، ويتعرف الصديق على إخوته وهم له منكرون، وهذا من بديهيات الأمور، فإن يوسف قد عرفهم لقوة فهمه، وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته إياهم وهم رجال، وتشابه هيأتهم وزيّهم في الحالين، ولكن همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم، لاسيما زمن القحط، وأما هم فلم يعرفوه لأن خيالهم لا يتصور قط أن هذا الوزير الخطير، هو ذاك الغلام العبراني الذي ألقوه في الجب منذ عشرين عاماً أو تزيد، فقد كبر بعد صغر، واغتنى بعد فقر، وعاش بعد أن دفعوه إلى الموت، وعزّ بعد أن حقّروه وأهانوه، ووزّر بعد أن كان من رعاة

الأغنام، فكيف يعرفون وجوداً من عدم، ومن أجل هذا عرفهم، وهم له منكرون، ولم يخطر على بالهم أنه نجا من الجب الذي ألقوه فيه، وأنه عاش وكبر، ونزح من كنعان إلى مصر ليصير وزيراً خطيراً[1].

ومن عجب أن التوراة، ومن نحا نحوها من المفسرين، إنما تفاجئنا بصورة غريبة عن محاورة دارت بين يوسف وإخوته، تذهب فيها إلى أن الصديق إنما عرف إخوته منذ اللحظة الأولى للقائه بهم، وأنه قد إتهمهم بالتجسس ثم حبسهم أياماً ثلاثة، ثم أطلق سبيلهم، وإن إستبق أخاهم «شمعون» حيث قيّده على مرأى منهم، حتى يعودوا إليه بأخيهم «بنيامين»[2]، وهذا التهديد، إن حملناه محمل الجد، فلا بدّ من القول إنه إنما يدل على أن يوسف إنما كان يحمل حقداً دفيناً على إخوته، وهو أمر لا نشك في براءة الصديق منه البراءة، كل البراءة، هذا وقد ذهبت جمهرة من المفسرين والمؤرخين المسلمين إلى أن إخوة يوسف لما دخلوا عليه عرفهم وقال كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: جئنا للميرة، قال لعلكم عيون (جواسيس) علينا، قالوا: معاذ الله، قال فمن أين أنتم، قالوا من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبيّ الله، قال: وله أولاد غيركم، قالوا نعم، كنا إثنى عشر، فذهب أصغرنا وهلك في البرية، وكان أحبنا إليه، وبقي شقيقه فاحتبسه ليتسلى به عنه، وجئنا نحن العشرة، فأمر بإنزالهم وإكرامهم[3].

وأما القرآن الكريم فقد ذكر أن يوسف أكرم وفادتهم، ورد إليهم ما

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٨، محمود زهران: قصص من القرآن ص ٨٧.

(٢) تكوين ٤٢/ ٧ - ٢٤.

(٣) أنظر: تفسير النسفي ٢/ ٢٨٨، تفسير الجلالين ٢/ ٢٤٩، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٥، صفوة التفاسير ٢/ ٥٨، تاريخ الطبري ١/ ٣٤٨، الكامل لابن الأثير ١/ ٨٤، البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢١١.

دفعوه من ثمن دون أن يشعرهم[1]، وجاء أن يغريهم ذلك بإحضار شقيقه بنيامين، وهددهم بلطف إن لم يأتوا به ﴿ **فلا كيل لكم عندي ولا تقربون** ﴾، ولم يرد في الذكر الحكيم مما ورد في التوراة من إساءته لإخوته، إذ أن ذلك لا يتفق والصورة التي رسمها القرآن الكريم وأبرز معالمها لشخصية يوسف، وما إتسمت به من حلم وإخلاص وبر، وهو الذي علمه ربه وأحسن هدايته، وطهر قلبه من الحسد، قال تعالى منوهاً بشأنه: ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾.[2]

ودارت مفاوضات بين يعقوب عليه السلام وأبنائه إنتهت بقبوله إرسال بنيامين معهم، على أن يؤتوه موثقاً من الله أن يردوه عليه، إلا أن يحاط بهم[3]، فلما آتوه موثقهم جعل النبي الكريم يوصيهم بما خطر له، ﴿ **وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون. ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[4].

وتضرب الروايات والتفاسير في هذا وتبدي وتعيد بلا ضرورة، ولو كان السياق القرآني يحب أن يكشف عن السبب لقال، ولكنه قال فقط «إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، فينبغي أن يقف المفسرون عندما أراده السياق إحتفاظاً بالجو الذي أراده، والجو يوحي بأنه كان يخشى شيئاً عليهم، ويرى

---

(١) جاء في تفسير الظلال (٤/ ٢٠١٦) أن يوسف لم يعطهم قمحاً، إنما وضع لهم بضاعتهم في رحالهم، فلما عادوا قالوا: يا أبانا منع منا الكيل، وفتحوا رحالهم فوجدوا بضاعتهم، وكان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم، وكان هذا بعض الدرس الذي عليهم أن يأخذوه.

(٢) أنظر: سورة يوسف: آية ٥٨ - ٦٣.

(٣) سورة يوسف: آية ٦٣ - ٦٦.

(٤) سورة يوسف: آية ٦٧ - ٦٨.

في دخولهم من أبواب متفرقة إتقاء لهذا الشيء، مع تسليمه بأنه لا يغني عنهم من الله شيء، فالحكم كله إليه، والإعتماد كله عليه، إنما هو خاطر شعر به، وحاجة في نفسه قضاها بالوصية، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة، فقد علمه الله هذا فتعلم بنور النبوة أنه لا ينفع حذر من قدر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ثم ليكن هذا الشيء الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة، وقد قال سيدنا رسول الله ﷺ : إن العين حق، وقال ﷺ العين حق تدخل الرجل القبر، والجمل القدر»، وكان ﷺ يعّوذ الحسن والحسين فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل هامة ومن كل عين لامة»، وفي رواية «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»، وكان ﷺ يقول: كان أبوكما (يعني إبراهيم) يعّوذ بهما إسماعيل وإسحاق» (رواه البخاري)، أو كان يعقوب يخشى على أولاده غيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم أو هو تتبع قطاع الطرق لهم، أو كائناً ما كان فهو لا يزيد شيئاً في الموضوع[1].

وعلى أية حال، فما أن دخلوا على يوسف ورأى أخاه، حتى سجد شكراً لله على أن ساق إليه أخاه ووجده على قيد الحياة، في يد أعداءه، وهم الذين من قبل طاردوا أخاه، وثارت شجون يوسف لما رآه، وتحركت نفسه لسابق ما عاناه، فمال على أخيه بنيامين وقال: إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون، وسأدبر أمراً وهم لا يشعرون، وستبقى وهم راحلون، ﴿ **فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، ثم أذن مؤذن: أيتها العير إنكم لسارقون، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون، قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير، وأنا به زعيم، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في**

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠١٨، صفوة التفاسير ٢/ ٥٩، تفسير النسفي ٢/ ٢٣٠، تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٢، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٦.

الأرض وما كنا سارقين﴾[1]، قال البيضاوي إستشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كرد البضاعة التي جعلت في رحالهم، وككمّ أفواه الدواب لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد[2]، وهنا سألوهم: **﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين، قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه، كذلك نجزي الظالمين﴾**[3].

وهنا ينكشف طرف التدبير الذي ألهمه الله يوسف، وطبقاً الرواية ابن كثير، فقد كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه، أو كما يقول صاحب الظلال: فقد كان المتبع في دين يعقوب أن يؤخذاك رهينة أو أسيراً أو رقيقاً في مقابل ما يسرق، وتقول التوراة: الذي يوجد معه من عبيدك يموت، ونحن أيضاً نكون عبيداً لسيدي، فقال نعم الآن بحسب كلامكم هذا يكون الذي يوجد معه يكون لي عبداً، وأما أنتم فتكونون أبرياء»، ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة فقد إرتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق، ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه، ذلك لأنه لو حكم فيهم بشريعة ملك مصر ما تمكن من أخذ أخيه، إنما كان يعاقب السارق على سرقته، دون أن يستولي على أخيه، كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم، وهذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه، وهو كيد الله له، والكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء وإن كان الشر قد غلب عليه[4].

وبدأ التفتيش، وأرشدت الصديق حصافته إلى أن يبدأ برحالهم قبل

---

(١) سورة يوسف: آية ٧٠ ـ ٧٣.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٦٧.

(٣) سورة يوسف: آية ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) تفسير الظلال ٤/ ٢٠١٩ ـ ٢٠٢٠، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٧، تفسير النسفي ٢/ ٢٣٢ تكوين ٤٤/ ٩ ـ ١٠.

رحل أخيه، كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش، قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاء إلا أستغفر الله مما قذفهم به، حتى بقي أخوه، وهو أصغرهم، فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا والله لا نتركك حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه، فلما أخرجها منه نكس الأخوة رؤوسهم من الحياء وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له: فضحتنا وسوّدت وجوهنا يا ابن راحيل. وفي رواية لابن الأثير قالوا: يا بني راحيل لا يزال لنا منكم بلاء، فقال بنيامين: بل بنو راحيل ما يزال لهم منكم بلاء، وزاد الطبري: ذهبت بأخي فأهلكتموه في البرية، وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم، فقالوا: لا تذكرا الدراهم فتؤخذ بها. ثم صاح الأخوة، وقد حرك الحرج الذي يلاقونه الآن كوامن حقدهم على بنيامين، وعلى يوسف قبله، فإذا هم ينتصلون من نقيصة السرقة، وينفونها عنهم ويلقونها على أبناء هذا الفرع من أبناء يعقوب (أبناء راحيل) قالوا: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل»، وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعلانية وحكايات وأساطير، فمن قائل إنه كان سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره فعيروه بذلك، ومن قائل كان بنو يعقوب على طعام، إذ نظر يوسف إلى عَرْق (وهو العظم أكل لحمه) فخبأه فعيروه بذلك، إلى غير ذلك من روايات لا سند لها، وكأن أخوة يوسف لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف، وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعاً للتهمة التي تحرجهم، وتبرأوا من يوسف وأخيه السارق، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه، وعلى أية حال، فلقد أسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم[1].

(1) تفسير النسفي ٢/ ٢٣٢، تفسير الظلال ٤/ ٢٠٢٢، صفوة التفاسير ٢/ ٦٢، تاريخ الطبري ١/ ٣٥٤ - ٣٥٥، الكامل لابن الأثير ١/ ٨٥، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٨، البداية والنهاية١٠/ ٢١٣.

ثم سرعان ما عاد أخوة يوسف إلى الموقف الحرج الذي وقعوا فيه، وإلى الموثق الذي أخذه عليهم أبوهم، فراحوا يسترحمون يوسف بإسم والد الفتى، الشيخ الكبير، ويعرضون أن يأخذ بدله واحداً منهم، إن لم يكن مطلقه لخاطر أبيه، ويستعينون في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين «قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين»، ولكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درساً، وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التي يعدها لهم ولأبيه ليكون وقعها أعمق وأشد أثراً في النفوس «قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون»، ولم يقل معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق، لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق، فعبر أدق تعبير يحيكه السياق هنا باللغة العربية بدقة، قال صاحب تفسير روح المعاني: والتعبير بقوله «من وجدنا متاعنا عنده» بدل «من سرق» لتحقيق الحق والإحتزار عن الكذب[1].

وهكذا وقع القوم في ضيق، وانحدروا في مأزق، وابتعدوا عن الناس، وتناجوا في أمرهم، «قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين، إرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن إبنك سرق وما شهدنا إلا ما علمنا وما كنا للغيب حافظين»، وإن كان في شك من أمركم فليسأل القرية[2] التي كنا فيها، أو ليسأل القافلة التي كنا فيها فهم

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٢٢، تفسير روح المعاني ١٣/ ٣٤.

(٢) القرية هنا ليست إسماً لعاصمة مصر، حتى وإن رأى البعض أن إسم القرية إنما يعني المدينة الكبيرة لأن عاصمة مصر على أيام الهكسوس (أفاريس) وهو عصر يوسف، لم تكن عاصمة لمصر كلها، وإنما للجزء الذي كان يحكمه الهكسوس حتى مدينة القوصية (شمالي أسيوط بحوالي ١٥ كيلاً) فحسب، ولأن الله وصف مكة المكرمة عند ظهور الإسلام بأنها أم القرى (الأنعام ٩٢) ثم يصف عاصمة مصر كلها بأنها قرية، ومن ثم فالرأي عندي أنها ربما كانت القرية أو المدينة التي إختيرت لتوزيع الغلال خارج العاصمة أو قريباً منها.

لم يكونوا وحدهم فقد كانت القوافل ترد مصر بكثرة كاثرة لتمتار الغلة من أرض الكنانة في السنين العجاف، غير أن يعقوب ما كان يبحث عن أعذار، ومن ثم فقد إنصرف إلى ربه يدعوه ويضرع إليه ويقول: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً، إنه هو العليم الحكيم»، وتولى عنهم يبكي ولداً بعد ولد، والجرح الأول أعمق، والجرح على الجرح أنكى وأشد، «وقال يا أسفاً على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم»، ويبلغ الحقد بقلوب بنيه لا يرحموا ما به، وأن يلسع قلوبهم حنينه ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم، فلا يسرون عنه ولا يعزونه، ولا يعللونه بالرجاء، بل يريدون أن يطمسوا في قلبه الشعاع الأخير، «قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين»، ويرد عليهم بأن يتركوه لربه، فهو لا يشكو لأحد من خلقه، وهو على صلة بربه غير صلتهم، ويعلم من حقيقته ما لا يعلمون، ثم يوجههم إلى تلمس يوسف وأخيه، وألا ييأسوا من رحمة الله في العثور عليهما، فإن رحمته واسعة وفرجه دائماً منظور[1].

وجهز القوم جهازهم وحملوا متاعهم وبضاعتهم، ودخلوا مصر، للمرة الثالثة، وقد هدّهم التعب وكلهم العيش، وضاقت بهم السبل، وكاد أن يقضي عليهم القحط القاتل، فلقد أضرت بهم المجاعة، ونفدت منهم النقود، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد، يدخلون وفي حديثهم إنكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام، ودخلوا على يوسف فقالوا: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة من صوف ودراهم زيوف أو رديئة، قال ابن عباس، فيما يروي الرازي، كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٢٥ ـ ٢٠٢٦.

ثم سألوه «فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين»، وكان الصديق عليه السلام دقيق الحس، رقيق القلب، لطيف الوجدان، وإلى هذا الحد لا يطيق أن يرى على إخوته الذل والتذلل، والمهانة والإستكانة، وطلب الصدقة والمعونة، ومن ثم فقد أعلمهم بحقيقة أمره وعفا عنهم، وقال لهم «إذهبو بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً، وأتوني بأهلكم أجمعين»، وأما كيف عرف الصديق أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل، فذلك مما علمه الله، والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة، وما لها لا تكون خارقة، ويوسف نبيّ رسول، ويعقوب نبيّ رسول[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن صياغة التوراة لدعوة يوسف أباه وأهله أن يأتوا إليه في مصر، إنما تعطي تأكيداً يكشف عن مطامع يهود في مصر، تقول التوراة «خذوا أباكم وبيوتكم (خيامكم) وتعالوا إلي فأعطيكم خيرات أرض مصر وتأكلون دسم الأرض... خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا، ولا تحزن عيونكم على أثاثكم لأن خيرات جميع أرض مصر لكم[2]»، كما أن التوراة لم تهمل كذلك أن تؤكد أن رحلة هؤلاء المجهدين الجياع إلى مصر المضيافة، دائماً وأبداً، إنما كانت للقوت، ولكنها تؤكد كذلك أنها لتحقيق مؤامرة على الأرض الطيبة التي إستضافتهم[3].

وعلى أية حال، فإن يعقوب عليه السلام، سرعان ما يصل إلى مصر، بعد أن ارتد بصيراً، ويصف القرآن الكريم لقاء يوسف بأبيه وإخوته في قول الله تعالى: ﴿ **فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال أدخلوا مصر إن**

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٢٦ - ٢٠٢٧، تفسير الفخر الرازي ١٨/ ٢٠١.

(٢) تكوين ٤٥/ ١٨ - ٢٠.

(٣) تكوين ٤٦/ ١ - ٤.

شاء الله آمنين، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم، رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين، ذلك من أنباء الغيب. نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾[1].

وتذهب التوراة إلى أن يعقوب عليه السلام، إنما جاء ومعه كل أفراد أسرته «ست وستون نفساً»، فضلاً عن نساء بني يعقوب، وأبناء يوسف اللذان ولدا في مصر نفسان، جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون[2].

(٣) إستقرار بني إسرائيل في أرض جوشن: -

تروي التوراة أن يوسف عليه السلام طلب من أبيه وإخوته أن يقولوا للملك إذا ما سألهم عن صناعتهم: عبيدك أهل مواشي منذ صبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً لكي تسكنوا في أرض جاسان، لأن كل راعي غنم رجس للمصريين[3]»، وهكذا يذهب إخوة يوسف إلى ملك مصر يسألونه السكنى

---

(١) سورة يوسف: آية ٩٩ - ١٠٢، وانظر: تفسير الكشاف ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٧، تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٤ - ٣٣٧، تفسير الطبري ١٣/ ١١٨ - ١٢٦، تفسير الفخر الرازي ١٧/ ٢١٠ - ٢١٧، تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٣ وما بعدها، تفسير القرطبي ص ٣٤٩٢ - ٣٤٩٤، الدار المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٤/ ٢٧ - ٤٠، محمد رشيد رضا: تفسير سورة يوسف ص ١٢٦ - ١٣٠ (القاهرة ١٩٣٦)، تفسير النسفي ٤/ ٢٣٥ - ٢٤٠، صفوة التفاسير ٢/ ٦٨ - ٦٩ (بيروت ١٩٨١).

(٢) تكوين ٤٦/ ٢٦ - ٢٧.

(٣) تكوين ٤٦/ ٣٣ - ٣٤.

في أرض جاسان ، ويجيب الملك سؤلهم[1] ، ولعل في إختيار هذا المكان ، إلى جانب جودته ، روعى فيه قربه من حدود مصر الشرقية ، وسيناء المطلة على أرض كنعان ، حيث ورد يعقوب وبنوه ، كي يقيموا ما أحبوا الإقامة ، ويرحلوا متى شاءوا الرحيل[2] .

وهكذا إستقر المطاف ببني يعقوب إلى الإستقرار في مصر ، حيث نزلوا أرض جوشن (جسم أو جسام ، كما قرىء إسمها في النصوص المصرية[3]) ، أو أرض «جاسان» ، كما وردت في توراة يهود ، ويكون إستقرارهم هذا في تلك البقعة من وادي طميلات شرقي الدلتا ، فاتحة لقصة تاريخ أكبر تشعبت أحداثه ، وتقلبت فصوله .

على أن هناك خطأً تاريخياً في رواية التوراة ، حيث تقول في سفر التكوين أن يوسف قد أسكن أباه وأخوته في « أرض رعمسيس » ، ذلك لأن كلمة «رعمسيس» لا تستعمل إلا منذ الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ ـ ١١٩٤ ق م) ، وليس منذ عهد الهكسوس (حوالي ١٧٢٥ ـ ١٥٧٥ ق . م) ، وهو العصر الذي يفترض دخول بني يعقوب فيه مصر ، كما سوف نفصل ذلك فيما بعد .

وعلى أي حال ، فلقد قام جدل طويل حول موقع «أرض جوشن» أو جاسان ، وربما كان ذلك لأن «أرض جوشو» لم تذكر في أي نقش مصري[4] ، وإنما بدلاً عنها «أرض جسم أو جاسم»[5] ، هذا فضلاً عن أن

---

(١) تكوين ٤٨/ ٥ ـ ٦ .

(٢) كمال عون : اليهود من كتابهم المقدس ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ٨٥ .

(٣) P. Montet, L'Egypt et la Bible, 1959, P. 57.

(٤) جيمس بيكي : الآثار المصرية في وادي النيل ـ الجزء الأول ، ترجمة لبيب حبشي وشفيق فريد ، مراجعة محمد جمال الدين مختار ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٤٩ .

(٥) P. montet, L'Egypte et la Bible, p. 57

التوراة نفسها، إنما هي مضطربة في تحديدها بالنسبة إلى مصر، فهي في بعض نصوص التوراة، إقليم يقع على مقربة من مصر، ملائم لرعي الماشية، ولكنه غير مسكون بالمصريين[1]، وهي في نصوص أخرى - توراتية كذلك[2] - ليست إقليماً مجاوراً لمصر، ولكنه جزء من مصر نفسها[3]، وليت الأمر إقتصر على ذلك بل إن التوراة إنما تطلق نفس هذا الإسم (أرض جوشن)، على منطقة في فلسطين الجنوبية، تقع فيما بين غزة وجبعون[4] - وتقع في مكانها الآن قرية الجيب، على مبعدة خمسة أميال إلى الشمال الغربي من أورشليم[5] - أحياناً، وعلى واحدة من مجموعة مدن في جبال يهوذا أحياناً أخرى[6].

وقد أدى ذلك كله إلى وجود أكثر من رأي بشأن موقع «أرض جوشن» فهناك من يرى مطابقتها بالمدينة والإقليم المعروف لدى المصريين بإسم «بر - سوبد» (صفط الحنة الحالية)[7]، وهناك فريق ثان يذهب إلى أنها إنما تقع في وادي طميلات، وتمتد من بحيرة التمساح حتى النيل[8]، على أن هناك من يرى أن وادي طميلات إنما يمتد من فرع النيل الشرقي حتى بحيرة التمساح الحالية، التي تقع في وسط قناة السويس، ويمثل إتساعاً من أراض زراعية على الحد الشرقي لدلتا النيل المصرية، مجاوراً لصحراء سيناء

---

(١) تكوين ٤٦ : ٣٤، خروج ٩: ١٦.

(٢) تكوين ٤٧ : ٦، خروج ٣: ٢١ ٨ ٢٢، ١١: ٢.

(٣) A Gardiner, JEA, 5, 1918, p. 262

وكذا E. naville JEA, 10. 1924, p. 31 10.

(٤) قاموس المتاب المقدس ١/ ٢٤٦.

(٥) يشوع ١٠: ٤١، ١١: ١٦.

(٦) يشوع ١٥ : ٥١، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢٧٧ (بيروت ١٩٦٤).

(٧) جيمس بيكي: المرجع السابق ص ٤٩.

(٨) M F. unger, op. cit, p. 420.

مباشرة، ويبدو أن وادي طميلات ـ وربما جزءاً منه ـ كان له إسم في العصور القديمة يظهر في التوراة على شكل «أرض جوشن» أو «جاسان»، وطبقاً لما جاء في سفر الخروج[1] فإنه كان في أرض جوشن التي إستقر فيها الإسرائيليون إبان هبوطهم مصر[2].

على أن هناك فريقاً ثالثاً، إنما يذهب إلى أن أرض جوشن إنما تقع في شبه جزيرة سيناء، وتمتد فيما بين تانيس ومنطقة العريش، فضلاً عن وادي طميلات الذي ينحدر من الشرق إلى الغرب فيما بين الزقازيق والإسماعيلية[3]، وإن كان هناك فريق رابع يتردد في ذلك، على أساس أن هناك «جوشن» أخرى، قد ذكرت مع «قادش» وغزة في جنوب فلسطين، وتقع في تخوم نهر مصر (وادي العريش)، وبما أن هاجر أم إسماعيل دعيت في التوراة «مصرية»، فمن المستطاع إذن القول باتساع اسم مصر، والأمر كذلك بالنسبة إلى «برية أرض مصر» حيث وضع «حزقيال»[4] ـ على ما يبدو ـ هؤلاء الإسرائليين الرحل[5].

وهناك فريق خامس، يذهب إلى أن أرض جوش إنما هي وادي طميلات ـ والذي يرى أنه يمتد شرقاً وغرباً من الزقازيق حتى الإسماعيلية ـ غير أن هذا التوحيد غير مؤكد[6]، ذلك لأن الدكتور «سير ألن جاردنر» (١٨٧٩ ـ ١٩٦٢ م) يرى أن الكلمة المصرية التي قرأها «هينرش بروجش» (١٨٢٧ ـ ١٨٩٤ م) و «إدوارد نافيل» (١٨٧٥ ـ ١٩١٤ م)، على أنها

---

(١) خروج ٨: ١٨، ٩: ٢٦.

(٢) M. Noth. The History of Israel, London, 1965, p. 113.

(٣) حسن محمود: حضارة مصر والشرق القديم ـ العبرانيون ص ٣٥١.

(٤) حزقيال ٢٠: ٢٦.

(٥) S. A. cooks, CAH, III, Cambridge, 1965, p. 359.

(٦) A. Lods, Israel, Form its Beginnings to the middle of the Eight Century London 1962, p. 178.

«جوشن» كانت إسماً لسيناء[1]، وهناك تقاليد يهودية عديدة وضعت مكان إستيطان العبرانيين بعيداً إلى الشمال، ناحية تانيس وبلوزيوم[2].

ومع ذلك، فهناك إحتمال أن يكون وادي طميلات، على الأقل جزءاً من «أرض جوشن»، ذلك لأن مدينة «بيشوم»[3]، كانت بالتأكيد في هذا الوادي والأمر كذلك بالنسبة إلى مدينة «هيرونبوليس» والتي وحدتها الترجمة السبعينية التي تمت بمصر في عهد بطليموس الثاني (٢٨٤ - ٢٤٦ ق. م)، مرتين بجوشن[4]، هذا فضلاً عن أن وادي طميلات إقليم بدوي تخترقه ترعة تتغذى من مياه النيل، وفي الوقت الحاضر - وطبقاً للتطور الزراعي - تستطيع إعالة إثنى عشر ألفاً من السكان المزارعين، ولكن كان يسكنها منذ قرن مضى أربعة آلاف من البدو، وهكذا كانت طبيعة هذا الوادي وقت أن سمح موظف الحدود على أيام مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق. م) لقبائل البدو الشاسو من أدوم بالدخول[5].

والرأي عندي، أن «أرض جوشن» هذه، إنما تقع في وادي طميلات والذي يمتد من فرع النيل الشرقي (البيلوزي) متجهاً نحو الشرق، حتى بحيرة التمساح - ذلك لأننا لا نستطيع أن نجعل «أرض جوشن» هذه في جنوب فلسطين، أو في المنطقة الممتدة من وادي العريش حتى غزة، إذ أن ذلك إنما يتعارض تعارضاً تاماً مع القول بأن الإسرائيليين دخلوا مصر وعاشوا فيها

---

(١) A.H. Gardiner, The Supposed Egyptian Equivalent of the Name of Goshen JEA, 5, 1918, p. 18 - 23.

(٢) مزمور ٧٨: ١٢.

(٣) خروج ١: ١١.

(٤) تكوين ٤٥: ٢٨ - ٢٩.

(٥) A. Lods, op. cit, p. 172 - 174

هذا فضلاً عن أن إطلاق إسم «جوشن» على منطقة بجنوب فلسطين، ربما كان إحياء لذكرى مصر التي ترسبت في نفوس القوم، دون أن يجدوا لها فكاكاً، وقد ظهر ذلك الإسم على مدينة في جبال يهوذا كذلك، ربما لأن هذه المنطقة إنما كانت خصبة بدرجة تشبه في ذلك منطقة جوشن في مصر، كما أن الإضطهاد الذي تحدثت عنه التوراة قد إرتبط ببناء مدينتي رعمسيس وفيثوم، وكانت الأولى في موقع على الأقل ليس ببعيد عن وادي طميلات، أما الثانية «فيثوم» (بيثوم = بر - أتوم)، فهي بالتأكيد في هذا الوادي، كما أن خروج بني إسرائيل إنما تمّ من هذه المنطقة (من رعمسيس إلى سكوت . . . الخ)، وليس هناك من دليل - أو حتى مجرد إشارة - على أن الإسرائيليين قد نقلوا من منطقة إستقرارهم الأولى على أيام يوسف الصديق، وحتى الخروج على أيام موسى الكليم، عليهما السلام.

وأياً ما كان الأمر، فقد دخل الإسرائيليون مصر، واستقروا في «أرض جوشن»، وإن كان بعض الباحثين إنما يحاول أن يتشكك في ذلك كله، وأن ينفي دخول العبرانيين مصر من أساس، معتمدين في ذلك على عدة أسباب، منها (أولاً) أنه لا توجد وثائق غير إسرائيلية تؤكد صحة التقاليد العبرية الخاصة بإقامة الإسرائيليين في مصر وخروجهم منها، وإن كان بعض المفسرين قد بحثوا جادين لإعطاء النصوص والتفسيرات المطلوبة.

ومنها (ثانياً) أن النقوش المصرية المختلفة تسجل دخول الأسيويين مصر، ولكن ليس واحداً منها يشير إلى دخول بني إسرائيل أرض الفراعين، وإن كانت قد أشارت إلى العمال الأسيويين الذين كانوا يفدون إلى مصر، ويستخدمهم الفراعين في أعمال البناء، وكان يطلق عليهم «عبر» ('P. R)، وتقرأ «عابيرو» (Apuriu)، وقد إستدل عليهم كثير من علماء المصريات، مثل «شاباس»، وعلماء العبرية - من أمثال هومل وسكنر ودرايفر وكريجلز - الذين وحوهم بالعبريين، إلا أن ذلك لم تثبت صحته بسبب الصعوبات

اللغوية، وأما عن عن وجود «العابيرو» في مصر، فأمر تؤيده نقوش مصرية، ترجع إلى أيام «رعمسيس الرابع» (١١٥١ - ١١٤٥ ق. م) - من الأسرة العشرين - وهي ترجع إلى فترة متأخرة عن أي تاريخ مقترح لخروج بني إسرائيل من مصر، ومن هنا يمكننا - إعتماداً على سكوت المصادر المصرية - أن نستنتج أن دخول الإسرائيليين مصر، إنما هو خيال بحت، لا يعتمد على أي أساس تاريخي.

ومنها (ثالثاً) أن كلمة «مصرايم» التي وردت في التوراة لا تدل على مصر، وإنما على الإقليم الواقع شمال شبه الجزيرة العربية والذي يمتد غرباً حتى حدود مصر الشرقية، ولهذا فإن ما يقال عن إقامة العبريين في مصر، معناه إقامتهم في جنوب فلسطين، أو في شبه جزيرة سيناء، ذلك أن الخروج - طبقاً لنظرية العالم اليهودي هوجو فنكلر - لم يحدث من مصر، إذ أن «فنكلر» يعتقد أن إسم «مصرايم» لم يكن مقصوراً على الإشارة إلى مصر، ولكنه كان كذلك يشمل الإقليم الذي سماه الجغرافيون البابليون «مصر» (أو موصري)، والذي يقع جنوب البحر الميت شمال شبه جزيرة العرب، ويمتد غرباً حتى حدود مصر الشرقية ويضم جبل سعير ومدينة البتراء وأراضي مدين وأدوم.

ويعتقد «فنكلر» أن التقاليد الأصلية عندما تحدثت عن إقامة الآباء - وبخاصة موسى - في «مصرايم»، فقد كانت تشير إلى ذلك الزمن، حيث عاش أسلاف العبرانيين في صحراء جنوب فلسطين، ثم بدأ سكان كنعان يستخدمون إصطلاح «مصرايم» على المراعي الجنوبية، وكذا على مصر نفسها، ذلك البلد الذي يقع بالنسبة إليهم فيما وراء الصحراء، ولعل مما يفسر إفتراضنا هذا، أن الوادي القريب من غزة سمي «نهر مصرايم»، بالرغم من أنه كان على مسيرة ثلاثة أيام من الحدود المصرية، ومن هنا فمن الممكن أن يشير إسم «مصرايم» في بعض النصوص والتقاليد العبرية إلى الصحراء

المصرية، وليس إلى إسم مصر بالذات[1].

غير أن هناك كثيراً من الصعاب التي تقف عقبة كؤود في سبيل قبولنا لوجهة النظر هذه، منها (أولاً) أن التقاليد الإسرائيلية لا تتحدث عن مجرد الإقامة المؤقتة في «مصرايم»، ولكنها تتحدث كذلك عن إستعباد الآباء الأولين فيها، وليس من المقبول أن يتحدث العبرانيون عن إستعبادهم في مصر بهذه الصورة، لمجرد الثناء على قوة الرب التي يعزون إليها خلاصهم[2].

ومنها (ثانياً) أن مصر، وإن لم تقدم دليلاً مباشراً على إقامة العبريين فيها، فإنها قدمت ما يجعل الإقامة والخروج منها أمراً مقبولاً تماماً، فهناك صلات عديدة بين الحياة في مصر، كما نعرفها من الآثار، وتفصيلات الرواية الإسرائيلية عن هذه النقطة[3]، ذلك لأن التقارير الخاصة عن أقدم صورة للتقاليد الإسرائيلية (في المصدر اليهوي) بشأن أسلوب الحياة في «جوشن» ومدن المخازن (رعمسيس وبيثوم)، تتفق مع الحقائق التي قدمتها الحفريات عنها[4]، هذا فضلاً عن أن ما جاء بالتوراة من وصف لجو مصر وأحوالها، إنما يدل على إقامة فعلية في مصر، فقد وصفوا ماء النيل وقت الفيضان، وأشاروا إلى ما يعقب هبوط مستوى النيل بعد الفيضان من إنتشار الأوبئة

---

(١) حسن محمود: المرجع السابق ٣٥٠، هز جز ويلز: معالم تاريخ الإنسانية ٢/ ٢٨٦ (ترجمة عبد العزيز جاويد)، محمد العزبي: مجلة الهلال يونية ١٩٧١ ص ٦٥ وأنظر: مادة The Jewish Encyclopidia في EXOdus وكذا: H. Winckler. Musri, Meluhha, Main, MVG, I, Berlin, 1898.

(٢) A. Lods. op - cit, p. 169

(٣) G. E. Wright, Biblical Archacology. 1956. P. 53 F. وكذا J. Finegan op - cit. p. 134.

(٤) A. Lods op - cit. P, 169.

والأمراض[1]، فطبقاً للمؤرخ العبراني أن سبب ذلك هو أن ماء النيل يصبح «محمراً» وغير صحي في فصول معينة من السنة، وأن أسراب الضفادع إنما تتكاثر بعد الفيضان، كما أن البعوض يتكاثر بعد إنحسار المياه، وهكذا إعتقد الإسرائيليو أن مصر قد أصبحت لهذا السبب بلد الأمراض الوبائية والمستوطنة[2].

ومنها (ثالثاً) أن بعض أسماء الأعلام الإسرائيلية من أصل مصري، فمثلاً «فينحاس» ومعناه «زنجي»، وكذا موسى وهو إسم مصري[3] ـ كما سوف نشير إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد ـ، ومنها (رابعاً) أن هناك فقرات كاملة من أدب الحكمة في مصر، قد ظهرت في كتابات الإسرائيليين، كما في المزامير وكتب الحكمة[4] وأعمال أنبياء بني إسرائيل[5]، وكلها تظهر صلة الأدب العبري بالأدب المصري[6].

---

(١) حسن محمود: المرجع السابق ص ٣٥١.

(٢) A. Lods. op - cit. P. 170.

(٣) J. Finegan, po - cit, P. 134.

(٤) قارن بين الرموز ١٠٤ ونشيد أخناتون، وبين المزامير بصفة عامة وقصائد المديح المصري في الإله آمون رع، ثم قارن بين سفر الأمثال في التوراة وتعاليم الحكيم المصري أمنمؤوبي.

(٥) J. M. Smith, AJSL, 49, p. 172 F.

وكذا W. S. Smith, JBR, 19, p. 12 - 15.

وكذا J. Fingan, op - cit, P. 134.

(٦) قدم لنا «أوسترلي» أهم خصائص الأدب المصري التي تشبه خصائص الأدب العبري، والتي منها (أولاً) أن القصائد مقسمة في كل منهما إلى فقرات وأبيات، ومنها (ثانياً) تكرار إستخدام التماثل، فتأخذ الفكرة في كل منهما تعبيراً مزدوجاً، حتى أن السطر يتكون فيها من جملتين قصيرتين، توجد فيهما نفس الفكرة بصيغة مختلفة عن الأخرى، ومنها (ثالثاً) أن السطور الشعرية في كل من الأدبين تحتوي على عدد محدد ومنتظم من الأنغام، ومنها (رابعاً) تكرار التلاعب بالألفاظ، وورود ألفاظ كثيرة متشابهة التطور جنباً إلى جنب ومنها (خامساً) الإستعمال الغريب الذي يظهر أحياناً في أخذ كلمة وردت في سطر، ثم تكرر في السطر =

ومنها (خامساً) أن هناك نصوصاً صريحة في التوراة تتحدث عن دخول الإسرائيليين مصر، بل وقد ذكر كذلك أسماء الذين دخلوا منهم أرض الكنانة[1]، فضلاً عما جاء في القرآن الكريم بهذا الشأن[2].

وفي الواقع - وكما أشرنا آنفاً - أن التوراة ليست وحدها من بين الكتب المقدسة التي تحدثت عن دخول بني إسرائيل مصر، وإنما ذلك أمر تجمع عليه الكتب المقدسة الثلاثة، فالإنجيل يقول في الرسالة إلى العبرانيين: «بالإيمان يوسف عند موته ذكر خروج بني إسرائيل، وأوصى من جهة عظامه، بالإيمان موسى لما كبر أبى أن يدعي ابن ابنة فرعون، مفضلاً بالأحرى أن يذل مع شعب الله»[3].

وأما القرآن الكريم، فإنه يتحدث بصراحة عن إقامة يوسف في مصر، وعن قدوم يعقوب وبنيه إليه فيها، يقول سبحانه وتعالى: **﴿وقال الذي إشتراه من مصر لامرأته اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾**[4]، ويقول: **﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من**

= التالي، كما كانت الإستعارة كثيرة الإستعمال أيضاً، ومن كل هذا - ولوجود هذه الصور في الأدب العبري - إستنتج العلماء أن اليهود قد إعتمدوا في التركيب النهائي لأدبهم الشعري على النماذج المصرية بدرجة ما، وبخاصة في مجالات رئيسية ثلاث، هي: الشعر الديني، وكتابات الحكمة، والشعر غير الديني (أنظر: A. Erman, the Literature of the Ancient Egypt, Oxford, 1947, p. 241 - 242.

(١) تكوين ٤٦: ١ - ٢٧.
(٢) سورة يوسف: آية ٩٩.
(٣) الرسالة إلى العبرانيين ١١: ٢٢ - ٢٩.
(٤) سورة يوسف: آية ٢١.

البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾[1].

ثم يتحدث كتاب الله الكريم بعد ذلك عن حياة بني إسرائيل في مصر، وعن نماذج العذاب الذي أنزله فرعون مصر وجنده ببني إسرائيل، من ذلك قوله تعالى: **﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾**[2]، ويقول: **﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم﴾**[3]، ويقول: **﴿وإذ قال موسى لقومه إذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾**[4].

وليس هناك من ريب في أن إنكارنا لأمر تجمع عليه الكتب المقدسة لا يتفق ومنتج البحث العلمي، فضلاً عن تعارضه مع إيماننا بما جاء في كتب السماء ـ الأمر الذي لا يقره منطق أو عقل أو دين، فضلاً عن العلم نفسه ـ هذا إلى أن جمهرة المؤرخين وأساتذة علم اللاهوت إنما يتحدثون عن قصة يوسف في مصر.

---

(١) سورة يوسف: آية ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) سورة البقرة: آية ٤٩، وأنظر: تفسير الكشاف ١/ ١٣٧ ـ ١٣٨، تفسير الطبري ٢/ ٣٦ ـ ٣٩، تفسير النسفي ١/ ٤٩، تفسير روح المعاني ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٤، تفسير الطبرسي ١/ ٢٣١ ـ ٢٣٥، التفسير الكاشف ١/ ٩٨ ـ ١٠٠ (لمحمد جواد مغنية)، تفسير البحر المحيط ١/ ١٨٧ ـ ١٨٨، تفسير المنار ١/ ٣٠٨ ـ ٣١٣، تفسير ابن كثير ١/ ١٢٨ ـ ١٢٩ الدر المثور في التفسير بالمأثور ١/ ٦٨ ـ ٦٩، في ظلال القرآن ١/ ٧٠ ـ ٧٢، تفسير الجواهر ص١/ ٥٩ ـ ٦١.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٤١.

(٤) سورة إبراهيم: آية ٦.

ويضيف «كيلر» إلى ذلك، أن قصة بيع الإسماعيليين للصديق عليه السلام إنما هي جد مقبولة، ذلك لأن القوم إنما كانوا يترددون على مصر لبيع التوابل والعطور التي كانت تستخدم في الخدمة الدينية، ذلك لأن هذه الأخشاب العجيبة ذات الرائحة الزكية إنما كانت تحرق في المعابد، ويستخدمها الأطباء في إبراء المرضى، والكهان في تحنيط أجساد الموتى من النبلاء[1]، بل إن هناك ما يشير إلى أن هذه التجارة قد إستمرت إلى زمن متأخر جداً بعد هذا الحادث، فهناك كتابة مدونة بخط المسند في الجيزة، ذهب «أدولف جروهمان» إلى أنها إنما ترجع إلى عام (٢٦٤ - ٢٦٣ ق. م)[2] - وربما إلى ما بعد عام ٢٦١ ق. م، أو حتى إلى عام ١٥٩ ق. م، فيما يرى بعض الباحثين[3] - وتشير إلى وجود جالية معينة كانت تقيم في مصر، وتتجر في الطيب والبخور، ثم «فوطيفار» وهو إسم رئيس الشرطة المصري الذي إشترى يوسف الصديق، وهو إسم وطني تماماً، فهو يعني في المصرية القديمة (با - دي - بارع) بمعنى «عطية الإله رع»[4].

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن الروايات الإسرائيلية التي تتحدث عن إقامة القوم في مصر إنما هي روايات جد صحيحة، وأنه ليس من الغريب أن تستضيف أرض الكنانة على حدودها الشرقية بعضاً من البدو والرعاة، فذلك أمر عهدناه كثيراً طوال تاريخ مصر على أيام الفراعين، وإن كان يختلف في فترات ضعفها عنه في فترات قوتها.

ومن النوع الأول ما حدث في أوائل عصر الثورة الإجتماعية الأولى، حين ضعفت البلاد من الإجهاد الداخلي الذي أصابها في أعقاب الدولة

---

(١) W. Keller, op - cit, p. 103 - 103

(٢) A. Grohmann, Arabian, Munchen, 1963, P. 26

(٣) فؤاد حسنين: التاريخ العربي القديم ص ٢٦٩، وكذا BASOR 73, 1939, p. 7.

(٤) W. Keller, The Bible As History, 1967, p, 103

القديمة، فتركت الحدود مفتوحة دونما أية حماية، ومن ثم فقد تدفق البدو الأسيويون إلى الدلتا واستقروا فيها[1].

ومن النوع الثاني تلك القبيلة الآسيوية التي صورت على مقبرة «خنم حتب» ببني حسن، من عهد «سنوسرت الثاني» (١٨٩٧ - ١٨٧٧ ق م)، وعدتها ٣٧ شخصاً، يتقدمهم رئيس الجماعة «أبشاي»[2]، ومن هذا النوع كذلك ما عرف «بتقرير موظف الحدود»؛ والذي يرجع إلى السنة الثامنة من عهد «مرنبتاح» (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق م)، وقد جاء فيه: أنه سمح لقبائل البدو من أدوم بدخول الدلتا الشرقية، ليظلوا أحياء ولتظل ماشيتهم حيّة، ويشير هذا الموظف إلى أن هناك أياماً يستطيع البدو فيها أن يدخلوا من إستحكامات الحدود لمثل هذه الأغراض[3].

وبدهي أننا لا نستطيع القول أن واحدة من هذه الهجرات الأسيوية إنما هي هجرة العبرانيين إلى مصر، إلا أن تقرير موظف الحدود هذا يبدو منه أن تقاليد التوراة إنما تشير إلى نوع من الأحداث التي كانت تقع في أغلب الأحايين، كما يصور كذلك نوع الباعث الذي قاد الإسرائيليين إلى مصر[4].

وهكذا نستطيع أن نصور دخول الإسرائيليين مصر - فيما يرى أدولف لودز - بأن جماعة من البدو العبرانيين من الصعب أن نطلق عليهم إسم قبائل - والذين كوّنوا فيما بعد بيت يوسف (أفرايم ومنسي وبيامين)، ثم لحقت بهم

---

(١) محمد بيومي مهران: الثورة الإجتماعية الأولى في مصر الفراعنة ص ٩٩، حركات التحرير في مصر القديمة ص ٧٣ - ٨٨.

(٢) جيمس بيكي: الآثار المصرية في وادي النيل - الجزء الثاني ص ٧٢ - ٧٣.

(٣) A. Lods, op - cit, p. 171 - 172 وكذا ANET, 1966, p. 259.

وكذا J. Wilson, op - cit, p. 258.

وكذا J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, III, No. 636 f.

(٤) Martin North, Op-cit, P. 113.

قبائل أخرى ، وأجزاء من قبائل ـ قد سمح لهم بالإستقرار على حدود مصر في منطقة رعوية ، تقع بين الدلتا والصحراء الشرقية (العربية) ، ذلك لأنهم كانوا قد إضطروا أن يتركوا أماكنهم المعتادة ، بسبب مجاعة ألمت بهم نتيجة الجفاف ، على رواية ، وبسبب إخوتهم ـ أي البدو الآخرين ـ طبقاً لرواية أخرى (قصة يوسف في التقاليد العبرية وغيرها[1]) . والأمر بهذه الصور مقبول نوعاً مارغم إختلافه في بعض الأمور مع رواية الكتاب المقدس .

ويبدو أن هذا الخلاف بين روايات التوراة وآراء المؤرخين لم يكن مقصوراً على دخول الإسرائيليين مصر ، وإنما إمتد كذلك إلى الأسباط التي عاشت في مصر كذلك ، ومن ثم فإنه على الرغم من أن التوراة تروي في سفر التكوين أن يوسف قد إستدعى أباه وإخوته جميعاً للإقامة معه في أرض الكنانة ، وأن يعقوب قد أتى إلى مصر ، ﴿ **ومعه كل نسله ، بنوه وبنو بنيه معه ، وبنات بنيه وكل نسائه ، جاء بهم معه إلى مصر**﴾[2] ، هذا فضلاً عن أن التوراة إنما ذكرت أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر وعددهم .[3]

رغم هذا كله ، فإن هناك فريقاً كبيراً من المؤرخين يذهب إلى أن هناك جزءاً كبيراً ممن أطلق عليهم إسم «الإسرائيليين» لم تطأ أقدامهم أرض النيل أبداً ، أو على الأقل ـ فيما يرى البعض ـ لم يبقوا بها حتى الخروج المشهور على أيام موسى ، عليه السلام ، وهكذا رأينا «تيودور روبنسون» يذهب إلى أن شعب إسرائيل الذي يتحدث التاريخ عنه ، إنما يشمل عشائر كثيرة لم تطأ أقدامها أرض مصر مطلقاً ، بل إن الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين قد يفهم منه أن يهوذا قد إستقر في الجزء الجنوبي من كنعان ، وأن

---

(١) A..Lods, op - cit, p. 171.

(٢) تكوين ٤٥ : ١٦ ـ ٢٨ .

(٣) تكوين ٤٦ : ٧ ـ ٢٧ ، أنظر : سورة يوسف : آية ٩٣ ـ ١٠١ .

قبيلة أشير كانت قد أقامت في ديارها التي إستقرت فيها عند ولادة موسى[1]، ويكاد «فيليب حتي» يعتقد أن الإسرائيليين الذين دخلوا مصر، إنما هم قبيلة «راحيل» (أفرايم ومنسي وبيامين)، في زمن الهكسوس[2].

ويرى «ستانلي كوك» أن الذين هبطوا مصر لم يكونوا كل الإسرائيليين، وأن أولئك الذين بقوا في كنعان إنما كانت لهم تقاليد جد مختلفة عن تلك التي حدثت في الخروج[3]، والأمر كذلك بالنسبة إلى دائرة المعارف اليهودية، ويتجه «السير فلندرز بتري» نفس الإتجاه، مستنداً في ذلك إلى وجود أسماء مثل «يعقوب إل» و «يوسف إل»، في قوائم إنتصارات فرعون مصر العظيم «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق. م)، ثم يفترض بعد ذلك أن هذه الأسماء، إنما هي أسماء أولئك الإسرائيليين الذين عادوا إلى كنعان مباشرة بعد إنتهاء القحط الذي ألم بها[4].

وأما المؤرخ اليهودي «سيسل جوزيف روث»، فالرأي عنده أن بيت يوسف - متضمناً سبطي أفرايم ومنسي - هم الذين كانوا في مصر، ومن ثم فإنه يذهب إلى أن موسى نفسه إنما كان عبرانياً أو إسرائيلياً، مع نوع من الإنتساب المصري، وفي كل الإحتمالات فإن الكليم إنما ينتمي إلى قبيلة أفرايم، أكثر من إنتمائه إلى قبيلة لاوى، التي نسب إليها عن طريق التقاليد العبرية، ثم يرى بعد ذلك أن هناك موجات بدوية كثيرة دخلت فلسطين، وأن أكثرها أهمية تلك التي دعيت «بيت يوسف».

ومن هنا، فالرأي عنده أن هناك بعضاً من القبائل الإسرائيلية لم تكن قد

(١) تيودور روبنسون: تاريخ العالم - إسرائيل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس ص ١٠٨.

(٢) فيلب حتي: المرجع السابق ص ١٩٣.

(٣) S. A. Cook. op - cit, p. 360.

(٤) W. M. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, p, 34.

شاركت في العبودية المصرية أو في الخروج من مصر، وبخاصة قبيلة يهوذا، والتي كانت بطناً كنعانياً، أكثر منه جماعة أرامية مهاجرة، وقد دخلت هذه القبيلة في المجموعة الإسرائيلية وامتصت مظاهرها القومية في تاريخ متأخر نسبياً، وربما كان ذلك في عصر الحروب والعناء الطويل الذي نجح آخر الأمر في إدخال العبرانيين إلى فلسطين[١].

ويرى «أدولف لودز» أن الجزء الأكبر من القبائل الإسرائيلية لم تهاجر إلى مصر، وإنما عاشوا حياة حل وترحال حول الواحات الجنوبية (بئر سبع وقادش)، وأن بعض هذه القبائل هو الذي ذهب مهاجراً إلى مصر، وهناك إستعبدهم «رعمسيس الثاني» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م)، أو أحد أسلافه، ثم هربوا بعد فترة ونصبوا خيامهم في واحة قادش، ويبدو أنهم إتحدوا هناك مع القبائل التي بقيت في هذا الإقليم، وكونوا معاً أمة واحدة[٢].

وأما «هوجو جرسمان» فالرأي عنده أن القبائل التي نزلت إلى مصر إنما كانت قبائل بيت يوسف، وربما شمعون، ومن المحتمل كذلك لاوى، ولكن الجزء الأساسي من الإسرائيليين قد بقي في فلسطين[٣].

ويرى «مارتن نوث» أن الرحيل من مصر، والخلاص الذي تم عن «طريق البحر»، لا يفترض عدد أكبر من قبائل كاملة، وإنما جماعة صغيرة كانت في موقف يضطرها بسبب صغر حجمها إلى الهروب، وأما إسم الجماعة فهي «جماعة راحيل» التي يقع الإختيار عليها غالباً بسهولة. ولكن الأسباب التي تدعو إلى ذلك لا تبدو سليمة تماماً، وعلى أي حال، فإنه من الخطأ أن نسأل عن: أي القبائل الإسرائيلية هي التي كانت في مصر، لأن

---

(١) C. J. Roth, A Short History of the Jewish People, p, 7 - 8.

(٢) A. Lods, op - cit, p. 188 - 189.

(٣) Ibid, p. 184.

هذه القبائل الإسرائيلية قد تكونت في وحدات معينة عندما وصلت إلى فلسطين فحسب، وأنها قد أخذت أسماءها المعروفة هناك في فلسطين كذلك.

وعلى أي حال، فيمكن الظن بأن هؤلاء المهاجرين إلى مصر، إنما كانت لهم صلات بهذه البلاد في أوقات تغيير المرعى، وربما رجع هؤلاء المهاجرون إلى نفس الإقليم مرة أخرى بعد الخروج من مصر، وإن كنا لا ندري كيف حدث هذا، وأياً ما كان الأمر، فإن العناصر التي أتت إلى مصر إنما قد وصلت إلى حدود أقاربها الذين كانوا يعيشون في مجاورات فلسطين، وربما كانوا على صلة بهذه البطون إبان إقامتهم في مصر، وأنهم قد أخبروهم بقصة «معجزة الخلاص الإلهية» التي أثرت فيهم بعمق، لدرجة أنهم نقلوا القصة إلى كل مكان، ثم إلى أحفادهم من بعدهم، على أنها قد حدثت لهم جميعاً، وليس فقط إلى هؤلاء الذين كانوا في مصر وبهذه الطريقة كان الإعتراف بالعقيدة في الله، الذي أوضح عن نفسه بمهابة، وذلك عن طريق تخليصهم من أيدي المصريين القوية، ثم أصبحت هذه القصة ملكية شائعة لكل بني إسرائيل، وواحدة من الأسس الخاصة بالعقيدة التي كانت حيوية في نظام إتحاد القبائل الإثنى عشر، تحت حماية قانون الرب الإجباري[1].

(٤) عصر يوسف عليه السلام: -

يختلف العلماء في تحديد عصر يوسف عليه السلام، وبالتالي في وقت دخول بني إسرائيل مصر، ولعل السبب الأساسي في ذلك أن التوراة والقرآن العظيم، لم يحددا وقتاً لدخول الصديق عليه السلام أرض الكنانة، بل إنهما حتى لم يذكرا إسم الملك الذي عاصر يوسف الصديق عليه السلام، هذا

(١) Martin Noth, op - cit, p. 117 - 119.

فضلاً عن أن مصر ـ وهي البلد التي كان يأمل العلماء أن يجدوا فيها وثائق معاصرة للأحداث التي جاءت في التوراة ـ لم تشر أبداً إلى هبوط الإسرائيليين إليها، بل ليست هناك أية إشارة في التاريخ المصري القديم إلى إسرائيل، فيما قبل عصر مر نبتاح (١٢٢٤ ـ ١٢١٤ ـ ق. م)، ومن هنا كان الخلاف بين العلماء على تحديد ذلك العصر الذي دخل الإسرائيليون فيه مصر، فهناك من رأى أنهم قد هبطوا مصر على أيام الهكسوس (حوالي ١٧٢٥ ـ ١٥٧٥ ق. م)، وهناك من تأخر بهم إلى أيام أمنحتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق. م).

(١) الرأي الأول:

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن عصر الهكسوس[١] إنما هو العصر الذي هبط بنو إسرائيل فيه مصر، معتمدين في ذلك على أدلة كثيرة، منها (أولاً) أن التوراة تروي في سفر التكوين أن يوسف كان يركب في عربة الفرعون الثانية على أساس أنه «نائب الملك»، وفي هذا دلالة على عصر الهكسوس، ذلك لأن «حكام البلاد الأجنبية» هؤلاء، إنما كانوا أول من أدخل عربة الحرب السريعة إلى مصر، ومنها (ثانياً) أن الهكسوس هم أول من إستعمل العربات الرسمية في المناسبات العامة في مصر، وكانت العربة الأولى من نصيب الملك، بينما كانت الثانية من نصيب وزيره الأول[٢].

ومنها (ثالثاً) أن «ساكن الرمال» ما كان يستطيع أن يصل إلى منصب الوزير على أيام الفراعين المصريين في تلك العصور المجيدة من تاريخ

---

(١) انظر عن عصر الهكسوس: محمد بيومي مهران: «حركات التحرير في مصر القديمة» (وهو الجزء الثالث من سلسلة «دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم») ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٦، ص ١٢٧ ـ ١٣٠، ٢١١.

(٢) W. Keller, op - cit, p. 103 - 105.

الكنانة، ذلك لأن البدو إنما كانوا يعملون في تربية الحمير والغنم والماعز «وأن كل راعي غنم رجس عند المصريين»[1]، ومن هنا، وفي عهد سيادة الهكسوس فحسب، يجد الأسيوي الفرصة سانحة ليصل إلى أعلى المراكز في الدولة ـ والأمر كذلك في أيام الضعف ـ ومن هنا فقد وجدنا موظفين يحملون أسماء سامية في عصر الهكسوس[2] وإن كانت نبوة يوسف وتأويله الأحاديث هما سبب وصوله إلى منصبه، وليس لأنه أسيوي.

ومنها (رابعاً) أن هناك «جعولاً» من ذلك العصر، جاءت بها أسماء رؤساء مثل «يعقوب حر» و «عنات حر»، ومهما يكن معنى «حر» هذه، فإن «عنات» هي الإلهة السامية المعروفة، وإنه لمن الصعب أن ننحى وجهة النظر القائلة بأن الأب يعقوب قد خلد ذكره في الإسم الآخر[3]، مما جعل المؤرخ الأمريكي «جيمس هنري برستد» يعتبر ذلك إشارة إلى أن قائد قبيلة يعقوب الإسرائيلية، ربما نال الفرصة ليصل إلى بعض السلطة في وادي النيل في تلك الفترة المظلمة، والتي تتناسب مع إحتمال دخول بني إسرائيل إلى مصر وقت ذاك.

ومنها (خامساً) ما ذهب إليه «حبيب سعيد» من أن دخول الإسرائيليين إلى مصر، إنما حدث خلال حكم الهكسوس لمصر، لأنه في مثل هذا الإضطراب التاريخي فقط، يتسنى لهم أن يلقوا ترحاباً، وهم الغرباء النازحون، ومنها (سادساً) أن هناك من الباحثين من يجعل الهكسوس من أصول سامية شمالية غربية، (شمال غربي الجزيرة العربية) ومن ثم فهم

---

(١) تكوين: ٤٦: ٣٤.

(٢) W. Keller, op - cit, p. 105 - 107.

(٣) A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 157.

أقرباء للعبرانيين، مما جعل يوسف العبراني يجد الفرصة ليصل إلى مركز القوة في البلاط المصري[1]، وبالتالي فقد قوبل أبوه وإخوته بالترحاب من الهكسوس الساميين، والذين سمحوا لهم بالإقامة في «جوشن»[2].

ومنها (سابعاً) ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن دخول الإسرائيليين إلى مصر، إنما كان في عصر الهكسوس، على أساس أن هذا يعطي الإسرائيليين أربعة قرون كفترة إقامة في مصر، حتى تم طردهم منها على أيام رعمسيس الثاني[3] أو ولده ومنها (ثامناً) ما ذهب إليه «فلندرز بيتري» من أن عصر يوسف إنما كان على أيام الهكسوس، ويظهر ذلك عن طريق اللقب البابلي الذي أعطى له، وهو "Abrek"، والذي هو "Abarakhu"، وهو واحد من ضباط الدولة الخمسة العظام[4].

ومنها (تاسعاً) ما ذهبنا إليه من قبل من أن القرآن الكريم قد حرص في سرده لقصة يوسف، على أن يلقب الحاكم الذي عاصره بلقب «ملك»[5]، بينما حرص على أن يلقب الحاكم الذي عاصر موسى بلقب «فرعون»، وقد أثبتنا من قبل أن لقب «فرعون»[6] لم يستعمل للدلالة على شخص الملك إلا منذ أيام تحوتمس الثالث[7]، وبصفة مؤكدة منذ أيام «أخناتون»[8]، مما يدل

---

(١) I. Epotein, Judais m, 1970, P. 15.

(٢) C. Both, Op-Cit., P. 4.

(٣) G. Roux. Op-Cit., P. 242.

(٤) W. M. F. Petrie, Op-Cit, P. 27.

(٥) سورة يوسف: آية ٤٣ و ٥٠ و ٤ qF W. O. E. Oesterley, Egypt and Israel, in the Legacy of

(٦) سورة الأعراف: آية ١٠٣ ـ ١٠٤، ١٠٩، ١١٢، ١٢٣، ١١١، ١١٧، يونس. آية ٧٥، ٧٦، ٨٣، ٨٨، ٩٠، هود: آية ٩٧، الإسراء: آية ١٠١ ـ ١٠٢، طه: آية ٢٤، ٤٣، ٦٠، ٧٨، ٧٩، المؤمنون: آية ٤٦ . . . وهكذا.

(٧) A Gardiner, Op-Cit., P. 52.

(٨) A Gandiner, Egyptian grammar, 1966, P. 75.

على أن عصر يوسف إنما كان قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة التي أستعمل فيها لقب «فرعون»[1] ، وبالتالي فهو في عصر الهكسوس .

ومنها (عاشراً) أن هناك ما يشير إلى أن يوسف قد وصل إلى ما وصل إليه من النفوذ في عصر الهكسوس ـ وربما ليس بعد عام ١٧٠٠ ق . م ـ ففي سفر التكوين ما يشير إلى أن قصر الملك لم يكن بعيداً عن «أرض جوشن» ، وهذا يعني أن العاصمة المصرية كانت في منطقة الدلتا ، وهو أمر يتفق وعصر الهكسوس ، حيث كانت عصمتهم «أواريس» (حت وعرت = صان الحجرالحالية) ، هذا فضلاً عن أن سفر الخروج يقرر أن مدة إقامة الإسرائيليين في مصر ، إنما كانت ٤٣٠ سنة[2] ، وحيث أن الخروج قد تم بعد عام ١٣٠٠ ق. م (الأمر الذي سنناقشه فيما بعد) ،فإن ذلك يرجع بعهد يوسف إلى حوالي عام ١٧٠٠ ق . م ، وهي فترة تتفق وحكم الهكسوس[3] .

بل إننا نستطيع أن نصل إلى نفس النتيجة من إشارة سفر التكوين من أن قصر الملك كان في «أرض جوشن» ، ذلك أن عاصمة مصر لم تكن في الدلتا الشرقية إلى في عصر الهكسوس ، ثم في عصر الرعامسة بعد ذلك ، حيث كانت «أواريس» في العصر الأول ، و «بر ـ رعمسيس» في العصر الثاني ، ولما كان عصر يوسف لا يمكن أن يكون ـ بحال من الأحوال ـ في عصر الرعامسة ، فهو إذن في عصر الهكسوس ، بل إنني أعتقد أن تحديد إقامتهم في أرض جوشن ـ وهي منطقة نفوذ الهكسوس الأساسية ، وقاعدة هذا النفوذ ، كما نعرف ـ إنما يعد دليلاً على أن عصر وجود الإسرائيليين في مصر ، إنما كان على أيام الهكسوس .
(٨)

(١) J. A. Wilson, the cuture of ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 102,

وانظر عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ، الجزء الأول القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) خروج ١٢ : ٤٠ .

(٣) The Westminester Historical Atlas to the Bible, p. 28.

ومنها (حادي عشر) أن هناك ما يشير إلى أن يوسف قد حمل إلى مصر، حيث كانت تجارة الرقيق من البنين والبنات الأسيويين تلقي يومئذ رواجاً دلّ عليه ما كشفت عنه بردية في متحف بروكلين[1] بالولايات المتحدة الأمريكية، فقد جاء فيها ذكر ما يربو على أربعين أسيوياً من نيف وثمانين، كانوا يعملون خدماً في بيت واحد من عصر الأسرة الثالثة عشرة قبل مجيء الهكسوس، ولم يكن من سبيل بحكم ما هو معروف من تاريخ تلك الفترة، وأحوال مصر المتواضعة، أن يكون هؤلاء مع إخوان لهم في بيوت أخرى، من أسرى الحرب في زمان لم تقع فيه حروب[2].

وأما عدم ذكر «يوسف» في الآثار المصرية، رغم أنه شغل منصب الوزير للملك، فهذه ـ فيما أظن ـ هذا الرأي ولا ننقضه، إذ لو كان يوسف عاش في غير عصر الهكسوس، لكان من الممكن أن نعثر على دليل أثري يؤيد وجوده، أو على الأقل يشير إلى الأحداث التي روتها التوراة، ذلك لأن التاريخ المصري، رغم أنه يمتاز على تاريخ الشرق الأدنى القديم بوضوحه وكثرة آثاره، فإن عصر الهكسوس بالذات يمتاز بالغموض، بل إنه ليعد واحداً من أغمض فترات التاريخ المصري القديم، ذلك لأن المصريين ما كانوا براغبين في تسجيل ذكرى هذا العصر البغيض إلى نفوسهم[3]، بل إنهم لم يحاولوا حتى الإشارة إليه إلا على أيام الملكة «حتشبسوت»[4]، (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق. م)، هذا فضلاً عن تدميرهم لآثار الهكسوس بعد نجاحهم في طردهم وتحرير البلاد من سيطرتهم.

أضف إلى ذلك كله، أن يوسف، على الرغم من أنه كان ذا مكانة في

---

(١) W. C. Hayes Apapyrus of the Late middle kingdom in the Brooklyn museum 1955.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٤٣.

(٣) أنظر: كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» ص ١٠٣ ـ ١٠٦.

(٤) أنظر: A. Gardiner JEA, 32, 1946, p. 45 - 48.

حكومة مصر، غير أنه لم يعد أن يكون وزيراً فحسب، وأن كل عمل عظيم يقوم به ويستحق التسجيل، إنما كان ينسب إلى الملك، الذي كانت النقوش تهدف إلى تعظيمه والإشادة بذكره، لأن كل شيء كان في مصر من وحيه هو، وعلى ذلك فإن إسم يوسف لم يكن ليظهر بطبيعة الحال[1].

وانطلاقاً من هذا، إذا أردنا أن نحدد - قدر إستطاعتنا، وفي الوقت نفسه حدساً غير يقين - ملك مصر الذي عاصر الصديق، مستعينين في ذلك بقوائم الملوك من تلك الفترة، ومستعينين في الوقت نفسه بالمصادر الإسلامية، لوجدنا أن واحداً من ملوك الهكسوس كان يدعي «سا أوسر إن رع - خيان»[2] من ملوك الأسرة الخامسة عشرة الهكسوسية - أي في بداءة عصر الهكسوس - لوجدنا في الوقت نفسه، أن المصادر الإسلامية تذكر أن ملك مصر على أيام الصديق، إنما كان من ملوك العرب، المعروفين بالرعاة (الهكسوس)[3] وأنه كان يدعي «الريان»[4]، وإني لأظن - وليس كل الظن إثماً - أنه ليس من الصعب كثيراً تصحيف الإسم «ريان» إلى «خيان» وإن كانت هناك قصة قديمة تجعلهم يصلون مصر على أيام الملك (إيبيبي[5]).

---

(١) سليم حسن: مصر القديمة - الجزء السابع - القاهرة ١٩٥٠ ص ١٠٧ - ١٠.

(٢) أنظر: عن هذا الملك: محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٤٥ - ١٤٨، وكذا T.. gsave - Saderbergh, JEA, 37, 1951, p. 63 وكذا A. Gardiner, Egypt of Pharaohs, p. 158 وكذا W. C. Hayes, Egypt from the Death of Ammenemes, III, to Seqenenre II, Cambridge, 1965, p. 22.

(٣) محمد رشيد رضا: تفسير سورة يوسف، القاهرة ١٩٣٦ ص ٦٨.

(٤) الإمام الطبري: تاريخ الطبري ١/ ٣٢٥ - ٣٣٦، تفسير الطبري ١٦/ ١٧ الإمام ابن كثير: قصص الأنبياء ١/ ٣٠٦، تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٦، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٧٥ - ٧٦، المسعودي: مروج الذهب ١/ ٦١، سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٠٤ (بيروت ١٩٧٥).

(٥) نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم ١/ ٤٠٣.

(ب) الرأي الثاني :

ويذهب إلى أن الإسرائيليين قد هبطوا مصر على أيام «أمنحتب الثاني» (١٤٣٦ ـ ١٤١٣ ق . م) وينادي به «برني وجرسمان» ، ذلك أن «برني» كتب في عام ١٩١٨ م مقالاً عن الموضوع[1] ، ثم عاد إليه مرة أخرى في عام ١٩٢٠ م في تعليقه على «سفر القضاة»[2] ، وفيه رأي : أن بعضاً من قبائل العبريين قد إستقر في مصر على أيام الهكسوس وطردوا منهم وهذا يتفق مع هبوط إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ مصر ، وخروجه منها[3] .

هذا وقد وجد تحوتمس الثالث في فلسطين إحدى المجموعات العبرية ، وتدعى «يعقوب إل» ، بعد أن طردها الآدوميون من كنعان (هروب يعقوب من عيسو) ، ثم غزت البلاد مرة أخرى (غزو الخابيرو حوالي عام ١٤٠٠ ق . م) لأن «لابان» ـ صهر يعقوب وخاله ـ كان يتعقبهم (أي القبائل الأرامية وساجاز تل العمرانية) ، وأن هؤلاء الخابيرو الذين سموا «عابيرو» (العبرانيين) قد وجهوا هجومهم نحو «شكيم» بصفة خاصة ، وأن جماعة منهم ـ متضمنة يوسف ، وربما شمعون ولاوى ـ قد أخذت طريقها نحو مصر أثناء حكم أمنحتب الثاني ، حوالي عام ١٤٣٥ ق . م ، لأن هؤلاء قد إستقروا هناك ـ طبقاً للترجمة السبعينية ـ مدة ٢١٥[4] عاماً ، ولكن الجزء الأساسي من الإسرائيليين قد بقي في فلسطين ، ومن ثم فقد ذكر سبط «أشير» في سجلات «سيتي الأول» (١٣٠٩ ـ ١٢٩١ ق . م) ورعمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤

---

(١) C. F. Burney, Israel Settlement in Canaan, 1918.

(٢) C. F. Burney, the Book of Judges, 1920.

(٣) تكوين ١٢ : ١٠ ـ ٢٠ .

(٤) خروج ١٢ : ٤٠ ـ ٤١ ، مع ملاحظة أن بعض المصادر الإسلامية ذهبت إلى هذا الإتجاه (أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١/ ٢٠ ، ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ الجزء الأول ص ١٠) .

ق. م)، والأمر كذلك بالنسبة إلى إسرائيل عصر مرنبتاح، أو في فترة الإضطرابات التي تلت موته[1].

وأما الملامح الخاصة لنظرية «جرسمان»، فهي ضغط الأحداث إلى أقصر فترة زمنية ممكنة، فهو يرى أن الخابيرو ينتمون إلى موجة من موجات الغزاة الأراميين سابقة للتي أتت بالإسرائيليين، وأن الأخاري قد وصلوا إلى حدود فلسطين حوالي عام ١٣٠٠ ق. م، وأن جزءاً منهم قد إتجه إلى مصر مباشرة، وأقاموا هناك فترة جيلين فقط، وهو الزمن الذي يتطلبه الجزء الأقدم من التقاليد الإسرائيلية[2]، ولنقل أنها كانت خمسين عاماً، وأنهم هربوا أثناء حكم فرعون الإضطهاد، واستقروا في كنعان حوالي عام ١٢٣٠ ق. م، ومن ثم فليس من الغريب أن يذكر مرنبتاح إسرائيل بين الشعوب التي أخضعها أثناء حملته إلى فلسطين.

على أن هناك كثيراً من العقبات التي تقف في وجه قبولنا لرأي «برني» هذا، منها (أولاً) أنه يتعارض تماماً مع التوراة ـ مصدرنا الأساسي في هذه الفترة من تاريخ بني إسرائيل ـ، ذلك لأن التوراة إنما تذهب إلى أن بني إسرائيل إنما قدموا إلى مصر، بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان، ثم بدعوة من يوسف ـ عليه السلام[3] ـ وليس بسبب طرد الآدوميين لهم، ومنها (ثانياً) أنه يختصر مدة إقامة بني إسرائيل في مصر إلى ٢١٥ عاماً، والوراة صريحة في ذلك، إذ تحدد مدة إقامتهم ب ٤٣٠ عاماً[4] ـ وإن كان ما ذهب إليه يتفق مع الترجمة السبعينية.

---

(١) A. Lods, op - cit. p. 184 - 185.

(٢) تكوين ١٥ : ١٦، خروج ١ : ٦ ـ ٨، ٦ : ٢٠.

(٣) سورة يوسف: آية ٥٨ ـ ١٠٠، تكوين ٤١ : ٥٦ ـ ٤٥ : ٢٨.

(٤) خروج ١٢ : ٤٠ ـ ٤١.

ومنها (ثالثاً) أنها ترتبط بين نزول إبراهيم وخروجه منها، وبين عهد الهكسوس، الأمر الذي رفضناه من قبل، ومنها (رابعاً) أنها ترتبط بين روايات إسرائيلية تتعلق بأحداث مبكرة في فلسطين، وبين قصة دخول الإسرائيليين مصر، ومنها (خامساً) أنها تجعل دخول الإسرائيليين مصر، إنما كان مقصوراً على أسباط معينة، علماً بأن التوراة تجعل ذلك للإسرائيليين عامة[1].

ومنها (سادساً) أن يوسف الصديق كان ـ كما هو معروف ـ قد شغل منصباً كبيراً في الدولة، ولم يكن من عامة القوم، فكيف لم تشر إليه النصوص المصرية؟ وهي التي أشارت كثيراً إلى الوزراء وكبار الموظفين، بجانب ملوكهم، وهو أمر قد عللناه في عصر الهكسوس بغموض هذا العصر وضياع آثاره، وهذا ما لم يقل به أحد ممن أرخوا لعصر أمنحتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق. م).

أما نظرية «جرسمان» فهي تضغط الأحداث بدرجة كبيرة، هذا فضلاً عن إعتمادها على تفسيرات معينة لنصوص معينة، وفي نفس الوقت، فإنها تتجاهل نصوصاً أخرى تحدد بصراحة مدة الإقامة ب ٤٣٠ سنة، أضف إلى ذلك أن تحديدها لدخول بني إسرائيل مصر في عام ١٣٠٠ ق. م، والخروج بعام ١٢٣٠ ق. م، يجعل مدة إقامة بني إسرائيل في مصر، حوالي ٧٠ عاماً، كما يحددها جرسمان نفسه ـ وهو أمر يخالف كل التقاليد العبرية، بل إن القصة كلها ـ كما يقدمها لنا جرسمان ـ إنما تخالف كل التقاليد اليهودية، الخاصة بقصة دخول وخروج بني إسرائيل من مصر.

وهكذا يبدو لي أن عصر الهكسوس ـ وليس غيره ـ إنما هو العصر الذي دخل الإسرائيليون فيه أرض الكنانة.

---

(١) تكوين ٤٥: ١٦ ـ ٢٨.

الفصل الثالث

قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة

١ ـ تمهيد : ـ

من البدهي أن تحمل قصص التوراة بعض أوجه شبه بالقصص القرآني، وإن كان قليلاً، ذلك لأن التوراة في الأصل، إنما هي كتاب مقدس، فالإسلام الحنيف إنما يؤمن بموسى، كنبي وكرسول وككليم الله تعالى، ثم يقرر بعد ذلك، دونما لبْس أو غموض، أن موسى جاءته صحف[١]، وأنزلت عليه توراة[٢]، غير أن توراة موسى هذه سرعان ما إمتدت إليها أيد أثيمة، فحرفت وبدلت، ثم كتبت سواها، بما يتلائم مع يهود، ويتواءم مع مخططاتهم، ثم زعموا، بعد كل هذا، أنها التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام[٣] **﴿كبرت كلمة تخرج من أفواهم إن يقولون إلا كذباً﴾**[٤].

(١) سورة النجم: آية ٣٦، الأعلى: آية ١٩.

(٢) جاءت كلمة التوراة في القرآن الكريم ١٨ مرة (أنظر: آل عمران: ٣، ٤٨، ٥٠، ٦٥، ٩٣، المائدة: ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٦٦، ٦٨، ١١٠، الأعراف: ١٥٧، التوبة ١١١، الفتح: ٢٩ الصف: ٦ الجمعة: ٥).

(٣) قدم المؤلف دراسة مستقلة عن التوراة (أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ـ الجزء الثالث ـ الإسكندرية ١٩٧٩).

(٤) سورة الكهف: آية ٥.

والـذي تولـى هذا التصـحيف والتـأويل والتعمية، إنمـا هي طائفـة متخصصة من أحبار يهود، بغية الحفاظ على مكانتها ومكاسبها، وإلى هذا يشير القرآن الكريم **﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾**[1]، و **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾**[2].

هذا وقد عمد لفيف من رؤسائهم الدينيين إلى أخفاء بعض الأسفار في الهيكل، وهي التي عرفت بالأسفار الخفية[3]، ثم إختلفت نظرتهم إليها، إذ كان بعضها، فيما يعتقدون، غير مقدس، بينما بعضها الآخر موحي به من عند الله، وإن رأى الأحبار إخفاءه في الهيكل حتـى لا يطلـع عليه العامـة من القوم، كما رأوا عدم إدراجه بين أسفار التوراة، ربما لأن ما به من حقائق لا يتفق وأهواءهم، وربما لأن ما به من بشارات لا يتلاءم وميولهم العنصرية، ومن هذا يقول القرآن الكريم **﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾**[4]، ومن ثم فقد كان حكم الإسلام على كتـاب اليهـود المتـداول اليوم، أنـه يحمـل بعض لمحات من توراة موسى، ذلك لأن اليهود إنما قد أوتوا نصيباً منها، ونسوا نصيباً وخطأً، فلم يحفظوها كلها، ولم يضيفوها كلها، وإنما قد حرفوا ما أتوه عن مواضعه تحريفاً لفظياً ومعنوياً[5].

ويقول الإمام ابن تيمية: أما من ذهب إلى أنها كلهـا (أي التـوراة) مبدلة من أولها إلى آخرها، ولم يبق منها حرف إلا بدلوه، فهذا بعيد، وكذا

---

(١) سورة النساء: آية ٤٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٧٩.

(٣) أنظر: عن الأسفار الخفية في التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٢١٩ - ٢٢٣).

(٤) سورة الأنعام: آية ٩١.

(٥) تفسير المنار ١/ ٢١٣.

من قال لم يبدل شيء منها بالكلية بعيد أيضاً، والحق أنه دخلها تبديل وتغيير وتصرفوا في بعض ألفاظها بالزيادة والنقص، كما تصرفوا في معانيها، وهذا معلوم عند التأمل[1].

ومن ثم فليس صحيحاً ما ذهبت إليه بعض المستشرقين من أن القرآن الكريم قد إعتمد إلى حد كبير في قصصه على التوراة والإنجيل[2]، وزاد بعض من تابعهم من الباحثين العرب أن القرآن الكريم جعل هذه الأخبار مطابقة لما في الكتب السابقة، أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار، حتى ليخيل إلينا (أي الباحثين العرب) أن مقياس صدقها وصحتها من الوجهة التاريخية، ومن وجهة دلالتها على النبوة والرسالة، أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار[3].

وذهب الأستاذ مالك بن نبي أن هناك تشابهاً عجيباً بين القرآن والكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) وأن تاريخ الأنبياء يتوالى منذ إبراهيم إلى زكريا ويحي ومريم والمسيح، فأحياناً نجد القرآن يكرر نفس القصة، وأحياناً يأتي بمادة تاريخية خاصة به، مثل هود وصالح ولقمان وأهل الكهف وذي القرنين[4]، ومن عجب أن الدكتور البوطي ينقل عنه، فيما يزعم، أن القرآن جاء بقصص الأنبياء والأمم الغابرة، على نحو يتفق جملة وتفصيلاً مع ما أثبتته التوراة والإنجيل من عرض تلك الأخبار والقصص، وأن ذلك دليلاً لا

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ١٤٩.

(٢) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة تب الإسلام - ترجمة محمد يوسف موسى - القاهرة ١٩٤٦ ص ١٢، ١٥ وكذا: Alfred Guillaume, Islam (Pelican Boots), 1964, P. 61 - 62.

(٣) محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم - القاهرة ١٩٥٣ ص ٢٢، وأنظر ص ٢٧، ٢٨، ٤٥، ١٧٣، ١٧٥، ١٨٢.

(٤) مالك بن بني: الظاهرة القرآنية - ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين - بيروت ١٩٦١ ص ٢٥١.

يقبل الشك بأن هذا القرآن ما كان حديثاً يفترى، ولكنه وحي من الله عز وجل[1]، ولست أدري كيف نقل البوطي كل ذلك دون تعليق، والمستشرقون المبغضون للقرآن لم يقولوا أكثر من ذلك، فضلاً عن أن الجملة التي قالها مالك بن بني لا تعني ما ذهب إليه، وإن إقتربت منه.

وقد ناقشنا ذلك كله في الجزء الأول من هذه السلسلة، وبيّنا بطلانه، ثم أثبتنا ذلك البطلان بعقد مقارنة لكثير من قصص الأنبياء، مثل نوح وإبراهيم وموسى وهارون وداود وسليمان ومريم والمسيح عليهم السلام، كما جاءت في القصص القرآني وروايات التوراة[2].

(٢) قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة: -

لعل قصة يوسف عليه السلام، إنما كانت أكثر القصص الذي طال الجدل وإشتد حولها، حتى زعم «الفرد جيوم» أنها تدل على أن محمداً ﷺ لم يكن يعرف قصة الآباء الأوائل، كما جاءت في سفر التكوين من التوراة، فحسب، بل إنه يعرف كذلك التطور اليهودي المتأخر للقصة[3]، حيث تداخلت مصادر التوراة الثلاثة (اليهوي والإلهيمي والكهنوتي)، وكونت قصة تكون مزيجاً عجيباً من هذه المصادر جميعاً[4].

ولعل أفضل ما نفعله للرد على مزاعم «جيوم» وغيره من المستشرقين، بل وبعض المسلمين للأسف، أن نعقد مقارنة بين القصتين، ذلك لأن قصته التوراة، وإن كانت تحمل بعض أوجه شبه من القصة القرآنية، فإن هناك

---

(١) محمد سعيد البوطي: من روائع القرآن - دمشق ١٩٧٢ ص ٢٢١.

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن - الجزء الأول - في بلاد العرب - الرياض: ١٩٨ ص ٤٧ - ٨٨.

(٣) مالك بن بني: المرجع السابق ص ٢٥١ وكذا A. Guillaume, op - cit, p. 61.

(٤) أنظر عن مصادر التوراة: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٩٧ - ١٠٦، حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي - الإسكندرية ١٩٧١ ص ٢٨ - ٣١.

خلافات جوهرية بين القصتين، كما جاءت في الذكر الحكيم (سورة يوسف) وفي سفر التكوين من التوراة (الإصحاحات ٣٧، ٣٩ - ٥٠)، تثبت، دونما أي ريب، أن المصدر الأول لم يعتمد على الثاني، بل إن سيدنا محمد رسول الله ﷺ، كما يؤكد الباحثون من المستشرقين، حتى المتعصبين منهم، لم يقرأ التوراة أو أي كتاب آخر من كتب أهل الكتاب[1].

وأما هذه الخلافات الجوهرية بين قصة يوسف القرآنية، وتلك التي جاءت في التوراة، فمنها (أولاً) تلك الملامح الروحية التي تتميز بها القصة القرآنية، فضلاً عن أن شخصية يوسف النبي، أكثر وضوحاً في القصة القرآنية، منها في رواية التوراة، ومنها (ثانياً) أن حب يعقوب ليوسف إنما تصوره التوراة، على أن الصديق إنما كان يأتي لأبيه «بنميمة أخوته الرديئة»، ولأنه إبن شيخوخته، في الدرجة الأولى، ثم رؤيا يوسف في الدرجة الثانية[2]، وأما في القرآن الكريم، فإن السبب إنما هو الرؤيا الصادقة، ثم إحساس عميق من يعقوب النبي، بما سوف يكون للصديق من مستقبل في عالم النبوة وتأويل الأحاديث[3]، ومنها (ثالثاً) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن مؤامرة إخوة يوسف عليه، إنما بدأت قبل أن يذهب معهم، فضلاً عن توضيح رأي أبناء يعقوب في أبيهم، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة ﴿ **لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلي إبينا منا ونحن عصبة، إن أبانا لفي ضلال مبين، إقتلوا يوسف أو**

---

(١) راجع عن تفسير سورة يوسف: تفسير المنار ١٢/ ٢٥١ - ٣٢٤، ١٣/ ١ وما بعدها + تفسير سورة يوسف لرشيد رضا، تفسير البيضاوي ١/ ٤٨٦ - ٥١١، تفسير الطبري ١٢/ ١٤٩ - ٢٣٨، ١٣/ ١ - ٩١، تفسير القرطبي ٩/ ١١٨ - ٢٧٧، تفسير الألوسي ١٢/ ١٧٠ - ٢٦١، ١٣/ ١ - ٨٤ مؤتمر تفسير سورة يوسف (جزءان)، تفسير النسفي ٢/ ٢١٠ - ٢٤١.

(٢) تكوين ٣٧: ٢ - ١١.

(٣) سورة يوسف: آية ٦.

إطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾[1].

ومنها (رابعاً) إن قصة التوراة تذهب إلى أن يعقوب هو الذي طلب من يوسف أن يذهب إلى إخوته الذين يرعون أغنامهم عند شكيم[2] - والتي يحتمل أنها تل بلاطة شرق نابلس الحالية - بينما يرى القرآن الكريم أن أخوة يوسف هم الذين طلبوا من أبيهم أن يذهب يوسف معهم، لأن أباه إنما كان يخشى عليه من حقدهم، **﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنّا له لناصحون، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون﴾**[3]، ومنها (خامساً) أن القرآن الكريم إنما يشير إلى إرتياب يعقوب في بنيه عقب تنفيذ المؤامرة - فضلاً عن إرتيابهم في أنفسهم - **﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين، وجاءوا على قميصه بدم كذب، قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾**[4]، بينما تشير رواية التوراة إلى سرعة تصديق يعقوب لفرية أولاده، ويأسه عقب المؤامرة[5]، «فتحققه (أي قميص يوسف) وقال قميص إبني وحش رديء أكله، إفترس يوسف إفتراساً فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه، وناح على إبنه أياماً كثيرة» ومنها (سادساً) أن الحيوان الذي ألصقت به تهمة قتل يوسف، إنما هو «تيس من المعزى» في التوراة[6]، ولكنه الذئب في القرآن الكريم[7].

ومنها (سابعاً) أن التوراة في عرضها لقصة يوسف مع إمرأة العزيز، لم

---

(١) سورة يوسف: آية ٧ - !.
(٢) تكوين ٣٧: ١٢ - ١٦.
(٣) سورة يوسف: آية ١١ - ١٢.
(٤) سورة يوسف: آية ١٧ - ١٨.
(٥) مالك بن بني: المرجع السابق ص ٣٠٢.
(٦) تكوين ٣٧: ٣٣ - ٣٤.
(٧) سورة يوسف: آية ١٣ - ١٤، ١٧.

تحاول أن تركز على براءة يوسف، كما فعل القرآن الكريم الذي عرض البراءة في جلاء ووضوح، ومنها (ثامناً) أن القرآن الكريم يصور لنا يوسف بعد حادث المراودة، وهو يفر من أمام إمرأة العزيز، غير أنها سرعان ما تلحق به، فتتعلق بقميصه، ويتمزق منه ما علقت يدها به، وهنا يصل العزيز ويفاجأ بما لا يتصوره، فتبادر المرأة إلى دفع التهمة عن نفسها، وترمي بها على يوسف في جرأة، ثم لا تنتظر رأي العزيز في صحة الإتهام، فتغريه به وتعمل على توكيده في نفسه، بأن تطلب إليه رأيه في الجزاء الذي يجزّى به هذا المتهم[1]، يقول تعالى: ﴿ **واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم** ﴾[2]، بينما تتجاهل رواية التوراة حضور العزيز، وتذهب إلى أن إمرأة العزيز قد أخبرت أهل البيت بأن الرجل العبراني قد حاول الإعتداء عليها، وأنه لم يتركها إلا بعد أن إستغاثت بمن في البيت، ومن ثم فقد ترك ثوبه وخرج، وأبقت الثوب حتى إذا ما جاء بعلها أخبرته أن عبده العبراني حاول الإعتداء على شرفها ولما صرخت ترك ثوبه بجوارها وفر هارباً، ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى ما في النص التوراتي من إضطراب، فمرة لا يوجد أحد في البيت، ومرة أخرى، فإن البيت مليء بأهله، ومرة يوصف يوسف بأنه رجل عبراني، وأخرى عبد عبراني وفرق بين العبارتين في مثل هذه الحالة النفسية[3].

ومنها (تاسعاً) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى ـ قد أظهر براءة يوسف على يد شاهد من أهل إمرأة العزيز

(١) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني ص ١٠٠.

(٢) سورة يوسف: آية ٢٥.

(٣) تكوين ٣٩: ١١ ـ ١٨.

نفسها، تروي كتب التفسير أنه صبي في المهد، وذلك حين قال **﴿إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قدّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قدّ من دبر، قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾**[1]، كما شهدت ببراءته النسوة للآتي قطعن أيديهن بقولهن **﴿حاشا لله ما علمنا عليه من سوء﴾**[2]، بينما لم تذهب التوراة إلى أكثر من أن العزيز حين سمع بالقصة لم يزد عن «أن غضبه حمى، فأخذ يوسف ووضعه في بيت السجن[3]».

ومنها (عاشراً) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن عزيز مصر، حينما عرف الحقيقة، فإذا به يطلب من يوسف كتمان الأمر، وعدم إذاعته بين الناس، وفي نفس الوقت فإنه يتجه إلى إمرأته يأمرها أن تستغفر لذنبها وأن تتوب إلى ربها[4]، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه، وأهل مصر ـ وإن كانوا وقت ذاك غير موحدين ـ إلا أنهم إنما كانوا يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها، إنما هو الله وحده، لا شريك له في ذلك[5]، ومنها (حادي عشر) أن التوراة لم تتعرض لحادث النسوة اللاتي أخذن يرددن في المدينة، **﴿إمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً، إنا لنراها في ضلال مبين، فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وإعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً، وقالتُ أخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن، وقلن حاشا لله ما هذا بشراً، إن هذا إلا ملك كريم﴾**[6].

---

(١) سورة يوسف: آية ٢٦ ـ ٢٨.
(٢) سورة يوسف: آية ٥١.
(٣) تكوين ٣٩: ١٩ ـ ٢٠.
(٤) سورة يوسف: آية ٢٩.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٠٤ التفسير ٤/ ٢٢.
(٦) سورة يوسف: آية ٣٠ ـ ٣١.

ومنها (ثاني عشر) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف - عليه السلام - قد فضل السجن، على أن يقترف الفاحشة، وذلك حين خيِّر بين أن تنال المرأة منه ما تريد، وإلا فإن أبواب السجن مفتوحة على مصراعيها لإستقباله، **﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين. فأستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم﴾**[1].

ومنها (ثالث عشر) إن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن يعقوب - عليه السلام - حينما فقد في عاصفة هوجاء من عواصف الفتنة والحسد، أعز فلذات كبده - يوسف الصديق - لم يغلبه الحزن الذي عصف بقلبه، على الصبر الذي ملأ كيانه[2]، فإذا به يتقبل المأساة بما يتفق ومكان النبوة السامي، **﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾**[3]، بينما تصوره التوراة في صورة لا نرتضيها للنبي الكريم، «فأبى أن يتعزى، وقال إني أنزل إلى إبني نائحاً إلى الهاوية»[4]، وحين تتكرر المأساة مرة أخرى، ويفقد يعقوب بنيامين - كما فقد يوسف من قبل - فإن الجواب في القرآن الكريم، **﴿فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً. إنه هو العليم الحكيم﴾**[5]، وأما الجواب في التوراة - وحتى قبل وقوع الكارثة - «إذا أصابته أذية تنزلون شيبتي بشر إلى الهاوية»[6]، بل إن القرآن الكريم ليشير بوضوح إلى أن مر السنين، وكر الأيام، لا يفقد الأمل في نفس النبي الكريم،

---

(١) سورة يوسف: آية ٣٣ - ٣٤.

(٢) عبد الكريم الخطيب: المرجع السابق ص ٢١١.

(٣) سورة يوسف: آية ١٨.

(٤) تكوين ٣٧: ٣٥.

(٥) سورة يوسف: آية ٨٣.

(٦) تكوين ٤٢: ٣٦ - ٣٨، ٤٤: ٢٩ - ٣١.

﴿**يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾ بينما تنعى التوراة على موت يوسف «لا ينزل إبني معكم، لأن أخاه (أي يوسف) قد مات، وهو وحده باق».

ومنها (رابع عشر) أن القرآن وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف قد تنبأ بعام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، بعد سبع سنوات من القحط[1]، ومنها (خامس عشر) أن القرآن وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف بعد أن فسر الحلم لملك مصر، ورسم له الطريق الصحيح للخروج من الأزمة بسلام، رفض في إباء وشمم أن يقبل المنصب الخطير الذي عرض عليه، حتى يتحقق الملك ورجاله ـ بل والناس جميعاً ـ من براءته ونزاهة عرضه، مما نسب إليه بشأن إمرأة العزيز، وكان سبباً في أن يلبث في السجن بضع سنين، ﴿**إرجع إلى ربك فسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم**﴾[2]، والآية الكريمة تفيد أن يوسف لم يشأ أن يقال عنه مجرم سُرَّ منه الملك، فعفا عن جريمته وأخرجه من السجن، وتجيء الشواهد كلها ـ بعد بحث دقيق ـ بعفة الصديق وطهارته، وعندئذ يتقدم الصديق في ثقة وثبات، ﴿**قال إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾، وهكذا يتحمل يوسف المسئولية كاملة في صدق وشجاعة، وينجح آخر الأمر في أن يرسي السفينة على مرفأ الأمن والسلامة[3]، والأمر عكس ذلك تماماً في التوراة، فما أن يفسر الصديق الحلم للملك، وما أن يعرض الملك الأمر عليه، حتى يقبله فوراً[4].

---

(١) سورة يوسف: آية ٤٧ ـ ٤٩.

(٢) سورة يوسف: آية ٥٠، وأنظر: تفسير الطبري ١٦/ ١٣٣ ـ ١٣٧.

(٣) سورة يوسف: آية ٤٦ ـ ٥٧.

(٤) تكوين ٤١: ٣٧ ـ ٤٦.

ومنها (سادس عشر) أن قصة يوسف إنما تشير إلى أن المصريين، ربما كانوا يعيشون في حرية شخصية إلى حد ما، حتى مع نفس الملك القابض على السلطة في مصر، وإن هذا الملك قد قبل أن يأمر بشيء في حق عبد دخيل، فيأبى عليه ذلك العبد إمتثال أمره، إلا بعد إجراء التحقيق، مع أنه يمكنه الجمع بين إمتثال إرادة الملك وأجراء التحقيق، بأن يبادر يوسف بالخروج من السجن، ثم يطلب من الملك التحقيق في قضيته[1].

ومنها (سابع عشر) إن التوراة لم تشر إطلاقاً إلى قيام يوسف ـ عليه السلام ـ بدعوة التوحيد، بعكس القرآن الكريم الذي يشير إلى أن الصديق قد إنتهز الثقة المكينة التي إكتسبها بين السجناء، بسبب تفسير الرؤيا وتأويل الأحلام، فيقوم بدعوته الدينية، شارحاً عقيدة الأنبياء جميعاً في وحدانية الله الخالق العظيم. وهاتفاً بميتمعيه[2]، **﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون، يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[3]، وذلك لأن يوسف لم يكن عالماً يؤول الرؤيا فحسب، بل كان رسولاً مصلحاً، فما كان يرى فرصة يتنفس فيها برسالته إلا إنتهزها، ولا نُهزة صالحة للدعوة إلا علق بها[4]، ولهذا فإن الإشارة إلى

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف ٢/ ٨٣٩.

(٢) محمد رجب البيومي: البيان القرآني ص ٢٢٥ عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ١٤٠.

(٣) سورة يوسف: آية ٣٧ ـ ٤٠.

(٤) محمد أحمد جاد المولي وآخرون: قصص القرآن ص ١٠٣.

الآخرة في قصة يوسف مقصورة على القرآن[1] دون التوراة.

ومنها (ثامن عشر) إن القرآن الكريم هو وحده الذي يشير إلى إعلان إمرأة العزيز براءة يوسف، وأنها هي التي راودته عن نفسها، ﴿ **قالت إمرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ذلك ليعلم إني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين**﴾[2]، وهكذا تقدم لنا القصة القرآنية إمرأة العزيز، وهي تتحدث بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم وأرغمته طهارة التضحية ونزاهتها على الإستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطها وتقر بخطيئتها[3].

ومنها (تاسع عشر) إن يوسف عليه السلام قد وصف في القرآن الكريم بالصديق وبالعزيز[4]، وفي التوراة ب «صفنات فعنج»[5]، ومنها (عشرون) إن القرآن الكريم وحده هو الذي يتحدث عن نبوة عزيز مصر الصادقة في يوسف الصديق، ﴿ **وقال الذي إشتراه من مصر لإمرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[6]، ومنها (واحد وعشرون) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير في ختام قصة يوسف مع أبيه وأخوته إلى تحقيق حلمه الأول، ﴿ **فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ**

---

(١) سورة يوسف: آية ٥٧.

(٢) سورة يوسف: آية ٥١ - ٥٢.

(٣) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٤) سورة يوسف: آية ٤٦، ٨٨.

(٥) تكوين ٤١: ٤٥.

(٦) سورة يوسف: آية ٢١.

أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم، رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً، وألحقني بالصالحين﴾[1].

ومنها (إثنان وعشرون) أن قصة التوراة تتحدث دائماً عن ملك مصر، على أنه فرعون مصر[2]، بينما يتحدث القرآن على أنه الملك وليس الفرعون[3]، ويرى الأستاذ حبيب سعيد أن هذه كانت هي العادة المتبعة في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق. م[4]، والحقيقة غير ذلك تماماً، فمن المعروف تاريخياً أن كلمة «فرعون» في صيغتها المصرية، «بر ـ عا» أو «بر ـ عو»، كانت تعني ـ بادىء ذي بدء ـ البيت العالي، أو البيت العظيم، وكانوا يشيرون بها إلى القصر الملكي ـ وليس إلى ساكنه ـ ثم سرعان ما تغيرت وغدت تعبيراً محترماً، يقصد به الملك نفسه، وذلك منذ الأسرة الثامنة عشرة[5]، وأما متى حدث هذا التغيير في إستعمال لقب فرعون، فإن «سير ألن جاردنر» ـ العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة ـ يحدد ذلك بعهد الفرعون «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق. م)، حيث بدىء في إطلاق الإصطلاح «أي فرعون» على الملك نفسه ثم في عهد الداعية الديني المشهور «أخناتون» (١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ ق. م)، مستنداً في ذلك على خطاب من عهده، ثم إستعمل منذ الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ ـ ١١٨٤ ق. م)

---

(١) سورة يوسف: آية ٩٩ ـ ١٠١، وأنظر: تفسير الطبري ١٦/ ٢٦٤ ـ ٢٧٧ (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٩).

(٢) تكوين ٤٠: ٧ ـ ٤١: ١٥، ٤٦: ٣١ ـ ٥٠: ٧.

(٣) سورة يوسف: آية ٤٣، ٥٠، ٥٤، ٧٢، ٧٦.

(٤) حبيب سعيد: المدخل إلى الكتاب المقدس ص ٧٦.

(٥) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 102.

وفيما بعد، في بعض الأحايين، كمرادف لكلمة «جلالته»، ومن هذا الوقت أصبحنا نقرأ: «خرج فرعون» و«قال فرعون . . . وهكذا[1]».

ومن ثم، فإن القرآن الكريم ـ فيما يبدو لي ـ أراد أن يفرق بين حاكم مصر الأجنبي على أيام يوسف الصديق في عهد الهكسوس[2] فأطلق عليه لقب «ملك»، وبين حاكم مصر الوطني على أيام موسى ـ مثلاً ـ الذي أطلق عليه لقب «فرعون»، وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك مصر منذ عهد إخناتون، هذا فضلاً عن أن ذلك من إعجاز القرآن، الذي لا إعجاز بعده، وإذا ما عدنا إلى التوراة، لوجدنا أن الحقائق التاريخية تقف ضد ما أوردته التوراة بشأن إستعمال لقب فرعون، إذ أنها تستعمله حين يجب أن تستعمل لقب ملك، وذلك قبل الأسرة الثامنة عشرة، وتستعمل لقب ملك حين يجب أن تستعمل لقب فرعون، وذلك منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ ـ ١٣٠٨ ق. م)، وفيما بعدها.

ومنها (ثلاث وعشرون) أن رؤيا يوسف في القرآن الكريم واحدة ﴿**إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**﴾، بينما هي في التوراة حلمان، الواحد رأى فيه يوسف أنه وإخوته حازمون حزماً في الحقل، وأن حزمته قامت وإنتصبت فاحتاطت حزم أخيه فسجدت حزمهم لحزمته، فقا له إخوته ألعلك تملك علينا مُلْكاً أم تتسلط علينا

---

(١) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, P. 52 وكذا A. H. Gandiner, Egyptian Grammar, Oxford, 1966, P. 75.

(٢) حوالي (١٧٢٥ ـ ١٥٧٥ ق. م)، وانظر آراء أخرى في كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» دار المعارف ١٩٧٦ ص ١٣٧ ـ ١٣٨، وكذا D. B. Redford, The Hyksos. Invasion in History and Tradition, 1970, P. 23 وكذا J. Bottero The Near East The Arly Civilization, 1967, p. 393 وكذا J. A Wilson op - cit, p. 159. وكذا A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 165.

تسلطاً، فازدادوا له بغضاً من أجل أحلامه ومن أجل كلامه، والثاني. رأى فيه يوسف أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة له، ولما قصه على أبيه وإخوته نهره أبوه وقال له: ما هذا الحلم الذي حلمت هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض، فحسده إخوته، وأما أبوه فحفظ الأمر، وأما القرآن الكريم فيقول **﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾**[1].

ومنها (أربع وعشرون) أن الجب الذي ألقى فيه يوسف إنما هو في التوراة بئر فارغة ليس بها ماء، ولكنه في القرآن إنما كان به ماء **﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشري هذا غلام﴾**[2]، ومنها (خمس وعشرون) أن الذي إشترى يوسف من مصر، إنما هو في التوراة رئيس الشرطة، وهو العزيز في القرآن الكريم، وفرق كبير بين المنصبين[3]، ومنها (ست وعشرون) أن التوراة تذهب إلى أن يوسف دخل السجن بمجرد أن سمع العزيز كلام إمرأته، ودونما أي تحقيق، ذلك «أن غضبه حمى، وأخذ يوسف ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه»، بينما يؤكد القرآن الكريم أن الصديق قد أودع السجن، بعدما ظهرت أدلة براءته، كقد القميص وقطع الأيدي وشهادة الصبي وغير ذلك **﴿ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾**[4]، وهذا يدل على أن سجن الصديق لم يكن بسبب غضب فجائي من العزيز للموقف المخزي الذي رأى فيه إمرأته، وإنما تم ذلك بتدبير وتخطيط الهدف منه أن ينسى الناس قصة أو قل فضيحة إمرأة العزيز التي لاكتها الألسن كثيراً بين أوساط الناس.

---

(١) سورة يوسف: آية ٤ - ٥، تكوين ٣٧/ ٥ - ١١.

(٢) سورة يوسف: آية ١٩، تكوين ٣٧/ ٢٤.

(٣) سورة يوسف: آية ٢١، ٣٠ - تكوين ٣٧/ ٣٦.

(٤) سورة يوسف: آية ٢٣ - ٣٥، تكوين ٣٩/ ٧ - ١٩.

ومنها (سبع وعشرون) أن رؤيا الملك في القرآن واحدة، وأما في التوراة فقد رأى الملك رؤياه على مرتين، في الأولى رأى البقرات السبع السمان يأكلهن سبع عجاف، ثم نام فرأى السنابل الرقيقة تبتلع السنابل السمينة وقد عللّت التوراة تكرار حلم الملك مرتين، وفي صورتين مختلفتين، «لأن الأمر مقرر من قبل الله، والله مسرع ليصنعه»[1]، ومنها (ثمان وعشرون) أن التوراة تذهب إلى أن فرعون قد أرسل إلى يوسف في السجن من يستدعيه لتأويل رؤياه «فأسرعو به من السجن، فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون»، وفسر له حلمه، ثم إقترح عليه أن يختار رجلاً بصيراً وحكيماً ويجعله على أرض مصر[2]، على أن القرآن الكريم[3] على غير ذلك، فصاحب يوسف الذي نجا من السجن هو الذي أشار على الملك أن يرسله إلى الصديق ليعرف منه تأويل رؤيا الملك، وأن يوسف لم يذهب إلى الملك، وإنما فسر الحلم، بل وأشار بالحل الذي يمكّن البلاد من إجتياز هذه المحنة، وبشر بعام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، وهو ما يزال بعد في زوايا الأرض سجيناً[4]، ومنها (تسع وعشرون) أن القرآن الكريم إنما يذكر أن يوسف الصديق إنما أمر بوضع صواع (مكيال) الملك في رحل أخيه، بينما تذكر التوراة أنه أمر بوضع طاسة الفضة في رحل أخيه بنيامين[5].

ومنها (ثلاثون) أن القرآن الكريم يشير إلى أن الصديق عليه السلام، لما إتهم إخوته بسرقة صواع الملك سألهم رجاله **﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين، قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾**،

---

(1) سورة يوسف: آية ٤٣، تكوين ٤١/ ١ - ٧، ٢٣.

(2) تكوين ٤١/ ١٤ - ٣٦.

(3) سورة يوسف: آية ٤٥ - ٤٨.

(4) سورة يوسف: آية ٤٩.

(5) سورة يوسف: آية ٧٠ - ٧٢، تكوين ٤٤/ ٢.

وأما في التوراة فقد قال إخوة يوسف، دون أن يسألهم أحد عن عقاب من يوجد عنده صواع الملك، «الذي يوجد معه من عبيدك (يعنون أنفسهم) يموت، ونحن أيضاً نكون عبيداً لسيدي، قال نعم الآن بحسب كلامكم هذا يكون، الذي يوجد معه يكون لي عبداً، وأما أنتم فتكونون أبرياء»، ومع ملاحظة التناقض في نص التوراة، فهي تذكر أن من يوجد معه يحكم عليه، بالموت، بينما يصبح الباقون أبرياء، فإن حكم يوسف عليهم أن من وجد معه يصبح وحده عبداً له، وأما الباقون فأبرياء، رغم هذا التناقض، فإن التوراة لم تذكر ما أضافه القرآن الكريم عن أن ذلك القانون إنما كان شريعتهم هم، وما كان يطبق في الشرائع المصرية، ومن ثم فما كان من حق يوسف عليه السلام أن يأخذ أخاه في دين الملك، لأنه لم يكن من حكم ذلك الملك المصري وقضائه أن يسترق أحد بالسرقة، فضلاً عن أن يحكم عليه بالموت[1].

ومنها (واحد وثلاثون) أن القرآن وحده من دون التوراة، هو الذي أشار إلى أن إخوة يوسف سرعان ما قالوا، عندما وجد صواع الملك في رحل أخيهم بنيامين «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» (يعنون يوسف عليه السلام)، ﴿ **فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون** ﴾[2]، ومنها (إثنان وثلاثون) أن القرآن وحده، من دون التوراة، هو الذي أشار إلى قول يعقوب لبنيه ﴿ **يا بني لا تدخلوا من باب واحد، وإدخلوا من أبواب متفرقة، وما أغنى عنكم من الله شيئاً، إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** ﴾[3].

---

(١) سورة يوسف: آية ٧٤ ـ ٧٦، تكوين ٤٤/ ٩ ـ ١٠.

(٢) سورة يوسف: آية ٧٧.

(٣) سورة يوسف: آية ٦٧.

ومنها (ثلاثة وثلاثون) أن القرآن الكريم وحده، من دون التوراة، هو الذي أشار إلى قول إخوة يوسف ﴿ **إرجعوا إلى أبيكم فقالوا يا أبانا إن إبنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين** ﴾، ولما كانوا يخشون أن يكذبهم، نظراً لتجربة يوسف السابقة، فإنهم طلبوا منه أن يسأل القرية التي كانوا فيها، ﴿ **واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون** ﴾[1]. ومنها (أربع وثلاثون) أن القرآن الكريم يشير إلى أن الصديق هو الذي سأل إخوته عما فعلوه به وبأخيه فعرفوه، ثم إعترفوا بخطئهم في حقه، وأن الله تعالى قد آثره عليهم، وحينئذ عفا يوسف عنهم ﴿ **قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون. قالوا أأنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين. قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين. قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾، وأن ذلك إنما قد حدث بعد أن أخذ يوسف أخاه منهم، وبعد أن عادوا إلى أبيهم وأعلموه أن إبنه سرق، وفي التوراة، فإن يوسف هو الذي قدّم نفسه لهم، بعد أن أحضروا أخاهم، وقبل أن يعودوا إلى أبيهم، وبعد أن سألهم عن أبيهم وهل ما يزال حياً، وأنهم إرتاعوا منه، ولم يستطيعوا أن يجيبوه[2].

ومنها (خمس وثلاثون) أن القرآن الكريم وحده، من دون التوراة، الذي يشير إلى أن يوسف عليه السلام بعد أن عفا عن إخوته، وأكرم وفادتهم، قال **إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وآتوني بأهلكم أجمعين. ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون. قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم. فلما أن جاء البشير ألقاه على**

---

(١) سورة يوسف: آية ٨١ ـ ٨٢.

(٢) سورة يوسف: آية ٨٩ ـ ٩٢، تكوين ٤٥/ ١ ـ ١٤.

وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾[1] . وأما كيف عرف يوسف أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل، فلقد سبق أن أشرنا أن ذلك مما علمه الله والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة، وما لها لا تكون خارقة، ويوسف نبي رسول، ويعقوب نبي رسول[2] .

وأخيراً فإن القرآن الكريم إنما يختم قصة يوسف عليه السلام، بقول الله تعالى: **﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾**، أي ذلك الذي أخبرناك عنه يا محمد من أمر يوسف وقصته من الأخبار المغيبة التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، وإنما نعلمك نحن بها على أبلغ وجه، وأدق تصوير، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة [3] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التوراة إنما قد إنفردت، من دون القرآن الكريم، بأمور، تتفق في بعضها وخلق يهود، وتبتعد في بعضها الآخر عن الحقائق التاريخية، ومن هذه الأمور (أولاً) أن التوراة في عرضها لقصة يوسف الصديق، عليه السلام ـ بعكس القرآن الكريم ـ إنما تعطي تأكيداً يكشف عن مطامع يهود في مصر، ولنقرأ هذا النص «خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إليَّ فأعطيكم خيرات أرض مصر، وتأكلون دسم الأرض... خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا، ولا تحزن عيونكم على أثاثكم، لأن خيرات جميع أرض مصر لكم»[4]، كما لم تهمل التوراة كذلك أن تؤكد أن رحلة هؤلاء المجهدين

---

(١) سورة يوسف: آية ٩٣ ـ ٩٦.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٢٧.

(٣) سورة يوسف: آية ١٠٢، صفوة التفاسير ٢/ ٦٩.

(٤) تكوين ٤٥: ١٨ ـ ٢٠.

الجياع إلى مصر، إنما كانت للقوت، ولكنها تؤكد أيضاً أنها لتحقيق مؤامرة على الأرض التي إستضافتهم[1].

ومنها (ثانياً) أن التوراة تزعم أن يوسف قد إشترى كل أرض مصر ـ من عليها وما عليها ـ للفرعون (وهو إصطلاح لم يكن قد أستعمل في مصر بعد، كما أشرنا آنفاً) بعد أن إمتلأت الأرض جوعاً[2]، الأمر الذي لم يثبت تاريخياً، فضلاً عن أنني ـ علم الله ـ لست أدري: لماذا تريد التوراة ـ أو بالأحرى يريد كاتبوها ـ أن يصوروا النبي الكريم في صورة صوت عذاب المصريين، يستغل حاجتهم للمقومات الضرورية للحياة نفسها، فيستولي على أرض مصر كلها ـ بإستثناء أرض الكهانة ـ لمصلحة الملك الهكسوسي؟. ثم وهل كان ملك مصر على أيام الهكسوس ـ وهو العصر الذي نرجع فيه دخول بني إسرائيل إلى أرض الكنانة[3] ـ يسيطر على مصر كلها، حتى يستولي له يوسف ـ عليه السلام ـ على كل حال أراضيها؟.

إن جمهرة المؤرخين، إنما ترى أن الهكسوس لم يمدوا نفوذهم أبداً إلى أبعد من القوصية[4] جنوباً، اللهم إلا في إحتلال مؤقت قصير لإقليم (بي حتحور)، قام به «أبو فيس» ـ ربما آخر من حمل هذا اللقب ـ وليس هناك من دليل حقيقي على أن غيره من الهكسوس قد تم له هذا الأمر[5]، أما أمر جبايتهم للضرائب من مصر العليا والسفلى على السواء، فموضع شك على الأقل، ذلك لأن وجهة النظر التي ترى إحتلال الهكسوس للبلاد كلها، ليست سوى وهم قضى عليه النص الكبير للملك «كاموزا» الذي يتضمن في وضوح

---

(١) تكوين ٤٦: ١ ـ ٤.

(٢) تكوين ٤٧: ١٣ ـ ٢٦، وأنظر تفسير الخازن ٣/ ١٩٣.

(٣) راجع كتابنا «إسرائيل» ص ٢٣٧ ـ ٢٤٥، وأنظر.

(٤) Pahor Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten und ihr Sturz, p. 18 FF.

(٥) A. H. Gardiner, op - cit, p. 168.

أن الغزاة لم يتقدموا إطلاقاً فيما وراء جبلين، والذي يشير إلى أنهم إضطروا بعد قليل إلى إرساء حدهم عند «خمون» (الأشمونين مركز ملوي)[1].

ومنها (ثالثاً) أن التوراة تصور لنا شعور المصريين تجاه الإسرائيليين بأنه شعور عدائي، أو على الأقل غير ودي، منذ اللحظة الأولى التي قدم الإسرائيليون فيها بأخيهم بنيامين، إذ نرى يوسف يولم وليمة تكريم لأخيه، ولكنه يضطر إلى أن تكون له وليمة خاصة، وثانية لإخوته، وثالثة للمصريين، وذلك «لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين، لأنه رجس عند المصريين»[2]، وهكذا تبدو نظرة المصريين للعبرانيين واضحة لنا منذ أول لقاء بينهما، وفي ضيافة يوسف العبراني نفسه، وهي نظرة لا تدل بحال من الأحوال على إحترام المصريين للعبرانيين، وإنما تدل على أنفة المصريين وتأبيهم عن مخالطة العبرانيين، وعدم إستعدادهم حتى للأكل معهم، رغم أنهم يعرفون أنهم إخوة يوسف عزيز مصر وقت ذاك، والأمين على خزائنها، والأثير عند مليكها، وليس من شك أن هذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أن القطيعة بين الفريقين كانت واضحة لا تحتاج إلى بيان[3].

ومنها (رابعاً) أن التوراة قد حددت إسم من إشترى يوسف ووظيفته، وأنه «فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة»[4] وبدهي أن القرآن الكريم لم يفعل ذلك، لأنه ـ كما قلنا من قبل ـ ليس كتاب حوادث وتواريخ، وإنما قصصه للعبرة والعظة، وإن لقّبه «بالعزيز»، ولا شأن للقرآن بروايات

---

(١) Ibid, P. 168 وكذا كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» ص ١٤٣ ـ ١٤٥.

(٢) تكوين ٤٣ : ٣٢، قارن : الظاهرة القرآنية ص ٣٠٥.

(٣) كتابنا «إسرائيل» ص ٢٤٣ (الإسكندرية ١٩٨٣).

(٤) تكوين : ٣٩ : ١.

المفسرين عن إسمه وإسم ملك مصر في عهده وإسم إمرأة العزيز، فتلك إجتهادات، وفوق كل ذي علم عليم[1].

وهنا لنا أن نتساءل عن وصف التوراة لفوطيفار بأنه «خصي فرعون»[2]؟ وهل يتزوج الخصيان؟ والحق أنني لست أدري كيف دار في خلد كاتب التوراة أن رئيس الشرطة المصري كان خصياً[3]؟ أولم يكن شافعاً له في دحض هذه الفسرية بأنه زوج أجمل سيدة في البلاد، ولكن ما الحيلة وصاحب سفر التكوين - أول أسفار التوراة - يرى أن حاشية القصر كلها من الخصيان، ومنهم رئيس السقاة ورئيس الخبازين[4]، وهو أمر إعتدناه في مصر الفراعنة، وما حدثنا به تاريخا، وإنما ذلك رأي يهود الأسر البابلي، حين كتبوا توراتهم على ضفاف الفرات، متأثرين بكل الحضارات القديمة التي شاهدوها - أو التي عاشوا في ظلالها - من ناحية، وبحقدهم الأعمى على مصر من ناحية أخرى، حتى أعماهم هذا الحقد عن حقائق التاريخ، فجعلوا كل رجال البلاط المصري من الخصيان.

ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن الآية الكريمة ﴿ **عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً** ﴾ قد تفيد أن الرجل كان عقيماً، لم يكن له ولد، وما كان يرجو أن يكون له، ولكنها لن تفيد أنه كان خصياً[5].

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ١٧٤ - ١٧٦ تفسير المنار ١٢/ ٢٧٢، تفسير إبن كثير ٤/ ١٧.

(٢) تكوين ٣٩: ١.

(٣) من عجب أن هذه الأكاذيب قد إنتقلت إلى بعض كتب التفسير (الطبري ١٢/ ١٧٥، القرطبي ٩/ ١٦٠)، وأن رفضتهما جمهرة المفسرين (تفسير البيضاوي ١/ ٤٩١، تفسير المنار ١٢/ ٢٧٢، تفسير الألوسي ١٢/ ٢٠٧، مؤتمر تفسير سورة يوسف ١/ ٤٣٤، ٥٠٣، ٥٠٤، قارن ١/ ٥٢٥، ٥٢٦، ٢/ ٨٧٣).

(٤) تكوين: ٤٠: ٢.

(٥) تفسير المنار ١٢/ ٢٧٢، تفسير البيضاوي ١/ ٤٩١، روح المعاني ١٢/ ٢٠٧، تفسير القرطبي ٩/ ١٦٠.

ومنها (خامساً) ما تردده التوراة من أن يوسف إنما كان يتهم إخوته بأنهم «جواسيس جاءوا ليروا عورة الأرض»، فضلاً عن أن يوسف إنما كان يكرر القسم بحياة فرعون[1]، الأمر الذي لا يتفق ومكانة النبوة بحال من الأحوال.

بقيت نقطة أخيرة تتصل بذلك الإضطراب الواضح في قصة التوراة، ففي سفر التكوين (٣٧: ٢٦ ـ ٢٨) نجد أن يهوذا هو صاحب الكلمة، وقد إقترح على إخوته أن يبيعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين مثقالاً، في حين نرى في نفس السفر (٣٧: ٢١ ـ ٢٤) أن راوئين هو صاحب الصوت الأعلى، يقترح إلقاءه في الجب فيوافق الجميع، حيث يأخذه التجار المديانيون، كما في (تكوين ٣٧: ٢٨) والأمر كذلك بالنسبة إلى بيعه إلى فوطيفار، ففي أول القصة عن قوم من مدين[2]، بينما هم في آخرها من الإسماعيليين[3].

وبعد: فهذه نظرة سريعة إلى الفروق بين قصص القرآن وروايات التوراة، فإذا ما تذكرنا أن القرآن الكريم ـ كما هو معروف ـ جاء به محمد النبي الأمي، الذي لا يكتب ولا يقرأ، كما قال تعالى: ﴿**وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لإرتاب المبطلون**﴾[4]، مما يدل بوضوح لا لبّس فيه ولا غموض ـ أن هذا القرآن من عند الله، وأنه وإن إتفق مع التوراة في القليل، فإنه يختلف معها في أكثر الكثير، كما يدل كذلك على أن هذا النوع من العلم ما كان عند العرب، وليس لهم به دراية، وأخيراً فهو يدل على أن هذا القرآن ليس حديثاً يفترى، وليس أساطير الأولين إكتتبها، ولا

(١) تكوين ٤٢: ٩ ـ ١٦.
(٢) تكوين ٣٧: ٣٦.
(٣) تكوين ٣٩: ١.
(٤) سورة العنكبوت: آية ٤٨.

يمكن أن تملى عليه، وإذا كان بعض المشركين قد إدعوا أنه تلقاها من بعض الناس في مكة - كما يقول بعض المستشرقين الآن - فهو لم يثبت إتصاله به، ولسانه أعجمي، وهذا كتاب عربي مبين، وفوق ذلك في القرآن من صادق الأخبار، ما لم يكن في كتب أهل الكتاب المسطورة، ولا يأتيه الباطل فيما يقول[1]، ولست أدري إعجازاً بعد هذا الإعجاز[2].

---

(1) محمد أبو زهرة: القرآن ص ٣٦٤ - ٣٦٥، الباقلاني: إعجاز القرآن ص ٥٣ - ٥٤.

(2) من إعجاز القرآن كذلك إخباره بأمور حدثت في المستقبل، منها إخباره بإنتصار الروم على الفرس بعد أن كانت الهزيمة من نصيب الأولين (الروم ١ - ٢) ومنها إخباره بنصر المسلمين في بدر قبل الموقعة الكبرى (الأنفال: آية ٧) وأن ذلك سوف يقع في نفس الوقت الذي سيهزم فيه الفرس أمام الروم (الروم ٣ - ٥)، وغير ذلك من أمور لا يمكن أن تكون حدساً أو تقديراً شخصياً، وإنما هي من عند علام الغيوب، كقيام دولة الإسلام الفتية على الأرض (النور ٥٥) وعجز كل القوى عن القضاء عليها (الأنفال ٣٦) والإنشقاق بين المسيحيين إلى يوم القيامة (المائدة ١٤) والشتات الإسرائيلي (آل عمران ١١٢) والتفوق المسيحي إلى اليهود حتى يوم القيامة (آل عمران ٥٥) [أنظر: الباقلاني: إعجاز القرآن ص ٧٧ - ٧٩، تفسير القرطبي ١/ ٧٣ - ٧٨، الكشاف ٣/ ٢٥٢، ٤/ ٤٤٠، ٤٤٥، مناهل العرفان للزرقاني ٢/ ٢٧٣، تفسير الطبري ٢١/ ١٦ - ٢١، ٢٥/ ١١١ - ١١٥، تفسير البيضاوي ٢/ ٢١٥ - ٢١٦، ٤٣٩، تفسير الجلالين ص ٢١٥ - ٢١٦ (نسخة على هامش البيضاوي) تفسير الألوسي ٢١/ ١٦ - ٢٢، تفسير الطبرسي ٢١/ ٥ - ٩، تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٩٥ - ٩٨، تفسير روح المعاني ٦/ ٩٥ - ٩٧، تفسير الطبري ٦/ ٤٤٥ - ٤٦٤، ٧/ ١١٦ - ١١٨، ١٠/ ١٣٥ - ١٤٠، ١٣/ ٣٩٨ - ٤٠٧، ٥٢٩ - ٥٣٤ (دار المعارف بمصر)، تفسير مجمع البيان ٣/ ٩٤ - ٩٦، ٤/ ١٦٦ - ١٦٩، ٦/ ٥٤ - ٥٥ (دار مكتبة الحياة، ببيروت ١٩٦١).

الكِتَابُ الثَالِث

سيرة موسى عليه السلام

البَابُ الأول

مُوسىٰ مِنَ المولِدِ إلى المبعَث

الفصل الأول

بنو إسرائيل في مصر

(أ) فيما قبل الإضطهاد : -

قدم بنو إسرائيل ، كما رأينا من قبل ، لا كغزاة فاتحين ، وإنما كلاجئين من جدب أصاب أرض كنعان ، فوجدوا في مصر ، وفي ظل أخيهم يوسف عليه السلام ، ضيافة كريمة ، فإختاروا ، أو إختار لهم يوسف ، أرض جوشن في وادي طميلات ، لأنهم رعاة أغنام ، وهذه أرض مراع ، ولأنها تبعدهم عن مخالطة أهل البلاد والإندماج فيهم ، والإمتزاج بهم ، حيث كانوا يؤثرون الإقامة في جهات خاصة بهم ، ربما لأن تلك طبيعتهم ، وربما بسبب نفور المصريين منهم أو من حرفتهم كرعاة «لأن كل راعي غنم رجس عند المصريين ، ولعلنا نحس بذلك منذ اللحظة الأولى التي قدم فيها بنو إسرائيل بأخيهم بنيامين ، إذ نرى يوسف يولم وليمة تكريماً لأخيه ، ولكنه ، فيما تروي التوراة ، يأمر بأن تكون له مائدة خاصة به ، وأخرى لإخوته ، وثالثة للمصريين «لأن المصريين لا يقدروا أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين»[1] .

وهكذا تبدو نظرة المصريين للعبرانيين واضحة لنا منذ أول لقاء بينهم ، وفي ضيافة يوسف العبراني نفسه ، وهي نظرة لا تدل ، بحال من الأحوال ،

---

(١) تكوين ٤٣/ ٣٢.

على إحترام المصريين العبرانيين، وإنما تدل على أنفة المصريين، وتأبيهم عن مخالطة العبرانيين، وعدم إستعدادهم حتى للأكل معهم على مائدة واحدة، لأن الأكل معهم رجس لا يليق بالمصريين، رغم أنهم يعرفون أنهم إخوة يوسف، عزيز مصر وقت ذاك، والأمين على خزائنها، والأثير عند مليكهما، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أن القطيعة بين الفريقين ما كانت تحتاج إلى بيان، بل إن يوسف نفسه، طبقاً لرواية التوراة، إنما يسلم بها سلفاً، ومن ثم فقد أعد مائدة للمصريين، وأخرى لإخوته، وثالثة له، ولعل أراد بذلك ألا يغضب أحد الفريقين، إن جلس على مائدة فريق دون الآخر.

هذا وربما كان من أسباب هذه النفرة بين المصريين والإسرائيليين تلك النظرة المتعالية التي كان ينظر بها المصريون إلى من عداهم من الشعوب، بل إنهم إنما كانوا يعتبرون أنفسهم وحدهم هم «الناس» أو «الرجال» وأما الأجانب فلا، ومن ثم فقد كانوا يزدرونهم ويطلقون على رؤسائهم لقب «وغد»[1]، وزاد الأمر بالنسبة للعبرانيين حرفتهم كرعاة، «وكل راعي غنم رجس عند المصريين».

وأياً ما كان الأمر، فلقد عاش بنو إسرائيل في ظل الهكسوس الغزاة، ما شاء الله لهم أن يعيشوا، حتى تقوم ثورة التحرير، التي يحمل لواءها أبناء الصعيد من طيبة، أولئك الذين لم يخنعوا للهكسوس أو يخضعوا لسلطانهم، وتنتهي الأمور بمصر بطرد الهكسوس مصر ومطاردتهم حتى زاهى في لبنان، ومن ثم يسترد المصريون زمام الأمور، وتقوم الأسرة الثامنة عشرة حوالي عام ١٥٧٥ ق. م، وعلى رأسها أحمس الأول، الذي مجّدته الأجيال اللاحقة،

(١) محمد بيومي مهران: الثورة الإجتماعية الأولى في مصر الفراعنة ص ١٦٢، ٢٠٩، وكذا A. H. Gardiner, Egypt of The Pharoohs, Oxford, 1961, p. 37.

كمؤسس للأسرة الثامنة عشرة، وكبداية لعهد الإمبراطورية المصرية، وكبطل لا يباري نجح في طرد الهكسوس من مصر[1].

كان الإسرائيليون مرتبطين بالهكسوس بأوثق رباط، فيوسف الصديق عليه السلام، وصل إلى ما وصل إليه في عهدهم، كما أن بني إسرائيل قد ساعدوا الغاصب الأجنبي ومن ثم فقد تركهم في مراعيهم آمنين، ولعل هذا كان واحداً من الأسباب التي جعلت المصريين ينفرون من اليهود، ويضمرون لهم أشد المقت، هذا إلى أنهم ربما كانوا على إتصال بالهكسوس، إتصال الملق والمصانعة، وتقديم كافة الخدمات، ومن بينها خدمات التجسس، ونتج عن ذلك أن تشابهت بعض الأسماء بين الفريقين، وإن كان علماء اليهود يردون ذلك إلى أن الهكسوس إنما كانوا أيضاً قبائل من بينها العبرانيين[2] - الأمر الذي سوف نناقشه فيما بعد - ولعل هذا الذي يقوله علماء اليهود هو ذاته على ما كان بين الغزاة الهكسوس، والضيوف الإسرائيليين، من صلات وثيقة أقرها اليهود في تراثهم العبري، وعزوا إليها إستقرار العبرانيين في مصر.

على أنه يجب أن نشير هنا إلى أن الإسرائيليين إنما قد تأثروا كثيراً بسادتهم الهكسوس، الذين حاولوا بدورهم أن يكسبوا ود المصريين، ويتكيفوا بالحضارة المصرية، فتبنوا ثقافة البلاد، وطريقتها في الكتابة، بل وعبدوا الإله «رع»، وكانوا يقرنون إسمه بألقابهم مثل «عاقن رع» - وهو الملك أبو فيس - كما عبدوا الإله المصري «ست»، والذي كان يشبه إلههم الأصلي «تشوب»، وكانوا يطلقون عليه أحياناً «سوتخ»[3].

(١) أنظر عن عصر الهكسوس في مصر وحرب التحرير (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٦ (ط دار المعارف) ص ١٠١ - ٢٢٣).

(٢) I. Epstein, op - cit, p. 15 وكذا C. Roth, op - cit, p. 5.

(٣) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ١٥٥ - ١٦٠، عبد العزيز صالح: مصر والعراق ص ١٩١.

ومن هنا، فأكبر الظن، أن الإسرائيليين قد تأثروا بالهكسوس في إعتناق الديانة المصرية، ومن ثم فقد رأينا «دين ستانلي» يقول: إن إقامة بني إسرائيل في مصر، قد أثرت فيهم كثيراً، فيما يتصل بحريتهم السابقة ونشاطهم السابق، وإن كان الأهم من ذلك كثيراً، أن الديانة السابقة التي تمتع بها عصر الآباء البطارقة الأقدمين، إنما قد تلاشت الآن كثيراً.

وتقدم لنا التوراة الكثير من الأدلة على أن الإسرائيليين إنما كانوا يعبدون آلهة البلاد التي كانت تستضيفهم، ومن هنا جاء في سفر يشوع قول الرب: «إنزعوا الآلهة الذين عبدهم آباؤكم عبر النهر، وفي مصر، واعبدوا الرب»[1]، كما جاء في سفر حزقيال: «في ذلك اليوم رفعت لهم يدعني لأخرجهم من أرض مصر، إلى الأرض التي تجسستها لهم، تفيض لبناً وعسلاً، هي فخر كل الأراضي، وقلت لهم: إطرحوا كل إنسان منكم أرجاس عينيه، ولا تتنجسوا بأصنام مصر، فتمردوا عليّ... ولم يتركوا أصنام مصر»[2].

وهكذا عاش الإسرائيليون في مصر فترة رخاء في باديء الأمر، واعتنقوا ديانة المصريين، ثم مضت فترة لا ندري مداها على وجه التحقيق، وإن كنا لا نظن أن الإضطهاد قد بدأ بعد التحرير مباشرة، وإنما يبدو لي أن ذلك، إنما كان بعد حين من الدهر.

(ب) الإضطهاد ـ أسبابه ونتائجه:

ترجع التوراة أسباب إضطهاد المصريين للإسرائيليين إلى أنه «قام ملك جديد على مصر، لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم، لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب

---

(1) يشوع ٢٤: ١٤.

(2) حزقيال ٢٠: ٦ ـ ٨.

أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض»[١] .

وفي الواقع أننا إذا ما أردنا مناقشة أسباب التوراة هذه للإضطهاد المصري لبني إسرائيل ، لرأينا فيها بعض الصواب ، ولكننا سوف نرى فيها ـ في نفس الوقت ـ الكثير من الخطأ ، فالتوراة تجعل من فرعون الذي «لم يكن يعرف يوسف» سبباً في الإضطهاد ، ورغم أنه سبب غير مقنع تماما ، إلا أنه ربما كان يحمل بعض الصواب بين طياته ، ذلك لأن هذا الفرعون الذي تشير إليه التوراة ـ دون أن تذكر إسمه ـ ربما كان «رعمسيس الثاني» وربما كان «سيتي الأول» ـ فيما يرى أطلس وستمنستر التاريخي ـ هو الملك الذي بدأ العمل في بناء مدينة «بر ـ رعمسيس» ، كما تدل بعض الآثار التي وجدت في موقع المدينة[٢] .

وأما جهل هذا الفرعون بيوسف الصديق ، عليه السلام ، فلعل السبب في ذلك أن الصديق إنما عاش قبل هذا الفرعون بقرون ، ترجع إلى أيام الهكسوس ، وهم الغزاة الذين يحمل لهم المصريون في قلوبهم كل الكره والبغض ، ولم يحاولوا أن يسجلوا تاريخهم ، فضلاً عن تاريخ موظفيهم ، والصديق واحد منهم ، ومن هنا فقد إرتبط يوسف بحدث مؤلم في الضمير الوطني المصري ، وذلك لسببين ، الواحد أنه كان أسيوياً ، وجواب رمال ، والآخر أنه كان من أكبر موظفي الدولة المحتلة المكروهة ، وطبقاً لوجهة النظر الأخيرة ، فإن أي إعجاب بيوسف إنما كان يعني ـ في نظر فرعون ـ الثناء على الهكسوس[٣] .

وأما ما تذهب إليه التوراة من أن الإسرائيليين قد أصبحوا «شعباً أعظم

---

(١) خروج ١ : ٨ ـ ١٠ .

(٢) The Westminester Historical Atlas to the Bible, p. 37.

(٣) W. Keller, op - cit, p. 117.

وأكثر» من المصريين، فهذا منطق غير مقبول، وأن النص التوراتي لا شك أنه قد أوغل في المبالغة، وأغرق في التعصب، ذلك أن التوراة نفسها إنما تحدثنا أن بني إسرائيل عندما قدموا إلى مصر، للمرة الأولى، إنما كان «جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون»[1]، وها نحن الآن على أيام الإضطهاد ـ ثم الخروج فيما بعد ـ وقد إنصرمت ٢١٥ سنة، على رأي التوراة السبعينية ـ أو ضعف هذا الرقم على رأي التوراة العبرية ـ حتى يصبح هذا البيت من الناس «شعباً أعظم وأكثر» من المصريين ـ أصحاب أعظم وأقوى دولة في العالم وقت ذاك ـ أو حتى يصبح عدد بيت يعقوب قد ناهز المليوني ـ ربما الثلاثة ـ فلما طردوا من مصر، كان من بينهم «نحو ست مئة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد، فكان جميع الأبكار الذكور، من إبن شهر فصاعد، إثنين وعشرين ألفاً ومئتين وثلاثة وسبعون»[2]، فإذا ضاعفنا هذا العدد كان الأبكار من الجنسين قرابة ٤٥ ألف.

ويعلق بعض الباحثين على ذلك، بأننا لو قسمنا عدد الجماعة على الأبكار، لخلصنا إلى أن المرأة الإسرائيلية من اليهود الأبقين، كانت تلد زهاء ٦٥ وليداً، وهو أمر لا يستقيم مع المنطق، فضلاً عما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير، ولامع ما روى من عبورهم البحر في سويعات قصار، ومن ثم فإن علماء اللاهوت والمؤرخين، سواء بسواء، أصبحوا الآن لا يعلقون على هذه الأرقام التي ذكرتها التوراة أية أهمية، ويعتبرونها محض خيال إسرائيلي[3]، ـ الأمر الذي سوف نناقشه عند الحديث عن الخروج.

(١) تكوين ٤٦: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) خروج ١٢: ٣٢، عدد ٤٣: ٤٣.

(٣) عصام الدين حفني ناصف: محنة التوراة على أيدي اليهود، القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٥، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٧٢. وكذا
S. A. Cook, The Rise of Israel, CAH, II,1931, p. 358.

هذا فضلاً عن أن الإسرائيلين لم يكونوا في مصر ـ في غالب الأحايين ـ إلا مجرد رعاة أغنام، وأن المصريين إنما هم أصحاب البلد الأصلاء هم المالكون للسلطة والقوة والثروة في البلاد، ومن ثم يبدو واضحاً مدى المبالغة في نص التوراة الذي يصف الإسرائيليين بأنهم «شعب أكثر وأعظم» من المصريين، وليس أدل على ذلك من الإضطهاد الذي تقول به التوراة، وتحاول تبريره بمثل هذه الحجج الواهية، وإلا فخبرني بربك: كيف يضطهد الأقل الأكثر، والأذل الأعز، والأضعف الأقوى؟.

وأما قول التوراة، أنه «إذ حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض»، فلعل هنا موطن السر، ولعل من كتبوا هذه النصوص في التوراة قد أشاروا إلى موطن الداء، دون أن يدروا، وهو عدم ثقة المصريين في بني إسرائيل، وخشيتهم من أن يكونوا حرباً عليهم، إن طمع فيهم غاز لئيم، أو أراد معتد أثيم أن يدنس أرضهم، ولعل لهم من عهد الهكسوس ذكريات لا تضع الإسرائيليين فوق مستوى الشبهات، بل إنهم ـ كما يقول الدكتور الحاخام أبشتين[1] ـ كانوا متهمين بالتعاطف مع الهكسوس، وأقرباء نائب الملك السابق، أو وزير تموينه على الأصح.

وهكذا يبدو واضحاً ـ وبنص التوراة نفسها ـ أن سبب الإضطهاد من أقوى الأسباب التي تخيف منهم أمة متحضرة كمصر، وملكاً مهيباً كفرعون، وهو إنعدام ولائهم للبلاد التي يعيشون فيها، وإستعدادهم للإنضمام إلى أعدائها وشن الحرب عليها[2]، حتى وقع في خلد فرعون وآله أنهم طابور خامس، وربما كان ذلك ـ فيما يرى سير ليونارد وولي ـ إنعكاساً للكراهية القومية للهكسوس المحتلين التي رأت في العبرانيين ظلالهم[3].

(١) I. Epstein, Judaism, p. 15.

(٢) حسن ظاظا: الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة ١٩٧١م ص ٤.

(٣) L. Woolley, op - cit, p. 495.

هـذا فضلاً عن أن الشعـب المصري لم يكـن ينظر بإرتيـاح إلـى الإسرائيليين منذ أول يوم عرفهم فيـه[1]، ثم تحول هذا الشعـور إلـى كره ومقت، حين رآهم أجراء أذلاء يستخدمهم الهكسوس الغزاة في أعمالهم، ثم تحولت به الكراهية إلى إحتقار وإزدراء، بخاصة وأنهم كانوا منذ البداية يعتبرون الأكل معهم نجاسة، ثم رحل الغزاة من أرض مصر، فبقي هؤلاء الأذناب ليلعبوا دور الـذئاب، وكـان من رعمسيس ما كان مع هؤلاء الجواسيس[2].

وهنا لنا أن نتساءل هل كان هناك حقاً إستعباد من المصريين للإسرائيليين؟ أم أن الأمر لا يعدو أن الإسرائيليين قد إعتادوا الدعة والرخاء منذ أيام يوسف، فلما تغيرت الحال نوعاً، ورأى الفراعين ضرورة إشتراك اليهود فيما كان يبذل في البلاد من جهود نحو التنمية في الزراعة. وأعمال البناء وتشييد التماثيل والمعابد وما إلى ذلك، عدوا ذلك عنتاً لا يطيقون إحتماله وبدأوا يتذمرون[3]؟

وإذا ما أردنا أن نصل إلى الحقيقة، أو حتى أن نقترب منها، فعلينا أن نتذكر أن مصر، إحدى الدول التي لم تعرف السخرة والإستعباد قبل عهد الدولة الحديثة، حين كان الأسرى يدفعون إلى العمل فيستعبدون عن هذا الطريق، ولم يقل أحد من العلماء أن الإسرائيليين دخلوا مصر كأسرى حرب، ومن ثم إستعبدهم المصريون، هذا فضلاً عن أن التوراة إنما تذكر صراحة أن الفرعون إنما كان ينظر إليهم - حتى في أوقات الشغب - وكأنهم من الشعب ليسوا مجموعة من العبيد - أو حتى المستعبدين - ، تقول التوراة:

---

(١) تكوين ٤٣ : ٣٢.

(٢) عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص ١٧٧ - ١٧٨.

(٣) صبري جرجس: التراث اليهودي الصهيوني، القاهرة ١٩٧٠م ص ٢٥.

«فقال لهما ملك مصر: لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب من أعماله[1]»، بل إن القرآن الكريم إنما يقدم لنا الإسرائيليين على أنهم قد أصبحوا جزءاً من رعية فرعون، أو طائفة منهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم** ﴾[2].

بل إننا ـ حتى لو إفترضنا جدلاً ـ أن المصريين قد إستعبدوهم بعد طرد الهكسوس، فإن العمال ـ سواء كانوا يعملون في المقابر أو المحاجر الملكية، أو كانوا يعملون في تشييد المدن ـ إنما كانوا يعاملون معاملة طيبة، ويمنحون المكافآت في الأوقات المناسبة، وأنهم كانوا يتمتعون بفترات راحة رسمية، كانت تقع في اليوم العاشر والعشرين والثلاثين من كل شهر، كما كانوا يمنحون إجازات في المناسبات الخاصة بالأعياد الكبرى للآلهة الرسمية كانت كثيراً ما تصل إلى أيام متتالية[3]، كما كان بعضهم يتخلفون عن العمل لأسباب مختلفة كالمرض وتقديم القرابين للإله، كما كان إنحراف مزاج الزوجة أو الإبنة كافياً ـ وإن كان غريباً ـ يسوغ أحياناً التخلف عن العمل[4].

ومن ثم فقد رأينا بعض الفراعنة يفخرون بأنهم إنما يعاملون عمالهم برفق وسخاء، فها هو «سيتي الأول» يحدثنا أن الواحد من عماله، إنما كان «يتقاضى أربعة أرطال من الخبز، وحزمتين من الخضروات، وقطعة من

---

(١) خروج ٥: ٤.

(٢) سورة القصص: آية ٤.

(٣) J. Cerny, Egypt from the Death of Ramesses, III, to the End of the Twenty First Dynasty, Cambridge, 1965 p. 18.

(٤) أرمان، رانكة: مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٥٣ ص ١٢٤.

اللحم المشوي كل يوم، وثوباً من الكتان النظيف مرتين كل شهر»[1] ، وفي الواقع أنه لو كان ما يقوله «سيتي» صحيحاً، لكان عماله يعيشون في مستوى يقارب مستوى العمال في العصر الحديث، وفي أكثر البلاد تقدماً، فإذا أضفنا إلى ذلك أن «سيتي الأول» هذا، أو إبنه رعمسيس الثاني، هما اللذان تدور حولهما روايات التوراة عن السخرة، وبناء مدينتي «فيثوم ورعمسيس»، لتبين لنا مدى ما في رواية التوراة من مجافاة للحقيقة.

ولعلنا نستخلص الدليل على حسن معاملة الفراعين للعمال من بني إسرائيل من توراة بني إسرائيل نفسها، ذلك أننا نقرأ في سفر الخروج أن الإسرائيليين قد ثاروا على موسى، ولما يمضي شهر ونصف الشهر على خروجهم من مصر، بعد أن أفقدهم موسى حياة الرخاء في مصر، وجاء بهم إلى البرية[2] ، ثم سرعان ما تمضي فترة فتعود الثورة ويشتد الحنين إلى مصر، ومن ثم نقرأ في سفر العدد: «فعاد بنو إسرائيل أيضاً، وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً، قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم[3]»، بل إن التوراة في سفر الخروج إنما تؤكد أن الإسرائيليين إنما كانوا يعارضون في الخروج من مصر منذ بادىء الأمر، تقول التوراة ـ على لسان الإسرائيليين ـ «ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين: كف عنا فنخدم المصريين»[4] .

وهكذا يبدو لي أن الأمر لم يكن بالصورة التي قدمتها التوراة، وأن

---

(١) J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, IV, Chicago, 1907, p. 414.

(٢) خروج ١٦ : ٢ .

(٣) عدد ١١ : ٤ ـ ٦.

(٤) خروج : ١٤ : ١١ ـ ١٢.

الإسرائيليين لم يكونوا عبيداً مسخرين في مصر، وإنما كانوا قوماً طفيليين إعتادوا حياة الدعة والرخاء في ظل رعاية الهكسوس وإيثارهم على الوطنيين، وحين ولى ذلك كله، وتحررت البلاد من نير الهكسوس، وأراد الفراعين إعادة الدولة المصرية إلى ما كانت عليه من مجد وسؤدد، فكان لزاماً عليهم الإهتمام بزراعتها وإعادة ما تهدم من منشآتها، وهنا كان على القاطنين بأرض الكنانة، الإسهام في هذا الجهد العظيم، فطلب أولوا الأمر من بني إسرائيل أن يشاركوا في ذلك كله، لا أن يكون عملهم مقصوراً على رعاية المواشي والأغنام، وهو أمر يعود عليهم بالنفع وحدهم.

وهنا غضب الإسرائيليون لأنهم ما تعودوا أن يشاركوا بجهد في إقامة الدولة من كبوتها، ولأنهم سوف يفقدون إمتيازاتهم القديمة، وربما فكروا في العمل ضد الدولة، أو أن الدولة نفسها كانت تخشى ـ كما تقول التوراة[1] ـ أن يتآمر بنو إسرائيل ضدها في محاولة للإنتكاس، بل إن بعض الباحثين إنما يذهب إلى أن شعب مصر إنما كان قد إكتشف فعلاً أن بني إسرائيل يتآمرون عليه[2].

وعلى أي حال، فلو إتفقنا مع الآراء التي تنادي بأن فرعون التسخير، إنما كان «رعمسيس الثاني»[3] ـ أو حتى أبوه «سيتي الأول»، لرأينا أن ظروف البلاد إنما كانت تستدعي وقت ذاك الحذر والحيطة من الأخطار الخارجية التي كانت تهددها، ولم يكن لرعمسيس ـ أو أبوه، ـ بداهة أن يفاجىء الناس ـ على غير علة ولا سبب ـ بتلك السياسة، عن مجرد مزاج مال

(١) خروج ١: ١٠.

(٢) سليمان مظهر: قصة العقائد ص ٢٨٣.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٩٢٣، وأنظر: .M. Noh, op - cit, p. 120, 134 وكذا E. naville, The Archaeology of the Old Testament, p. 39. وكذا J. Finegan, op - cit, p. 120, 134.

به إليها، وشهوة إلى الدم عصفت به في قوم أبرياء. وإنما لا بد وأن تكون هناك أسباب، تستدعي كل هذا العنف، وتلك القوة القاسية.

كان عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م) - وكذا عهد أبيه سيتي الأول (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق. م) من قبل - قد تميز بالحرب الضروس التي إشتعل أوارها بين القوتين الأعظم في ذلك الوقت، وأعني بهما القوة المصرية والقوة الحيثية، فالتاريخ يحدثنا أن الحيثيين كانوا من وراء الثورات التي شبت في إمبراطورية مصر الآسيوية على أيام أخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م)، حتى قضوا - أو كادوا - على النفوذ المصري في غربي آسيا[١]، حتى إذا ما كانت أيام «حور محب (١٣٣٥ - ١٣٠٨ ق. م) بدأت مصر تستعيد قوتها، وتنازع الحيثيين سلطانهم الذي إكتسبوه في غيبة الإمبراطورية المصرية، بل إن الرجل إنما أحرز إنتصاراً عليهم حتى قبل توليته عرش الكنانة[٢].

على أن «سبتي الأول» إنما كان حقاً هو الفرعون الذي قام بالمحاولة الجادة لإسترداد الإمبراطورية المفقودة في آسيا، ووضع حد لنزوات البدو الذين كانوا يهددون الحدود الفلسطينية من المشرق، فيقوم بحملات ثلاث ينجح فيها في إخضاع كل بلاد فلسطين، وجانب من سورية، ثم يستمر في تقدمه شمالاً، حتى إذا ما كانت الحملة الرابعة تحدث المواجهة المباشرة بينه وبين الحيثيين في مكان ما إلى الشمال من مدينة قادش، وطبقاً لنصوص

---

(١) O. R. Gurney, The Hittites, (Penguin Books), 1969, p. 51. وكذا
S. A. B. mercer, The Tell - el Amarna Tablest, I, p. 215, 417 - 21, II, p. 238, 529F.

(٢) أنظر: دريوتون، فانسيية: مصر، ترجمة عباس بيومي، القاهرة ١٩٥٠ ص ٤٦٦ - ٤٦٧، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٢٢٩ - ٢٣٠ وكذا J. H. Breasted, A History of Egypt, N. Y, 1946, p. 40 وكذا
A. H. Gardiner, the Mephite Tomb of the General Haremhab, JEA, 39, 1951, p. 4.

الكرنك، فقد كتب النصر للفرعون، فضلاً عما إستطاع الحصول عليه من الغنائم والأسرى، إلى جانب إجبار الحيثيين على العودة إلى بلادهم[1].

ويخلف «رعمسيس الثاني» أباه «سيتي الأول» على عرش الكنانة في عام ١٢٩٠ ق. م، ويبدأ حكمه بأن يوجه كل جودة في متابعة الإنتصارات التي حققها أبوه في فلسطين ومدها نحو الشمال، إلى سورية، وهنا تحدث مواجهة أخرى بين المصريين والحيثيين على أرض قادش[2]، حيث كانت

---

(١) أنظر محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٢٣٠ - ٢٣٢. وكذا J. Wilson, in ANET, 1966, p. 254. وكذا R. O. Faulkner, the Wars of Sethos, I, in JEA, 33, 1947, p. 37 - 38. وكذا R. O. Faulkner, in CAH, II, part, 2, Cambridge, 1975, p. 218 - 201. وكذا AH, Gardiner, Egypt of the Pharaohs, oxford, 1964, 164. p. 253 - 254.

(٢) قادش: بلد تقع على نهر الأورنت (العاصي) في مكان «تل نبي مند»، على الشاطىء الأيسر لنهر العاصي، داخل الزاوية المكونة من إلتقاء العاصي بنهر الموقادية الصغير من ناحية الغرب، وعلى مبعدة بضعة أميال جنوبي النهاية الجنوبية لبحيرة حمص، وكانت قادش تدعى في حوليات تحو تمس الثالث «قدشو» وفي رسائل العمارنة «كنزا» أو «كدش» وفي بعض الحالات «كدشو» و «جيزا» وربما كان «إدوارد ماير» مصيباً في ظنه أن الإسمين مختلفان حقيقة، فالأول هو الإسم الحقيقي، والثاني إسم بمعنى «المحراب» من الأصل السامي «قدش» أي مقدس، ويبدو أن المدينة قد خربت بعد المعركة الطاحنة بين رعمسيس الثاني ومواتيلا ملك الحيثيين، ثم جددت بعد ذلك عدة مرات، ربما كان آخرها في العصر الروماني. وترجع أهمية قادش من الناحية الإستراتيجية أنها تقع في النهاية الشمالية لوادي البقاع، ومن ثم فقد كان لزاماً على الجيوش المتجهة شمالاً أو جنوباً أن تمر بها، إلا إذا فضلت السير على الساحل الضيق بطريق أرواد أو أجاريات.

وأما قدش وقادش المذكورتان في التوراة فهما مكانان في جنوب فلسطين (غير قادش الأورنت)، فأما الأولى: فهي قادس برنيع، والتي يرجح أنها على مبعدة ٥٠ ميلاً جنوبي بئر سبع، ٧٠ ميلاً جنوبي حبرون (الخليل)، وأما الثانية فهي مكان قرية قدتس الحالية على مبعدة عشرة أميال شمالي صفد، وأربعة أميال إلى الشمال الغربي من بحيرة الحولة (أنظر قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٧٠٨ - ٧٠٩ وكذا A. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, P. 137 - 141 وكذا M. F. Unger, op - cit, p. 625. وكذا J. H. Breasted, The Battle of Kadesh, Chicago. 1903, p. 13.

معركتها المشهورة في السنة الخامسة من عهد رعمسيس الثاني (حوالي عام ١٢٨٥ ق م)، والتي إنتهت بنصر غير مؤزر للمصريين، مما إضطر الفرعون إلى العودة إلى النضال ثانية عام حكمه الثامن (حوالي عام ١٢٨٢ ق م) ضد أعدائه في الأرض الأسيوية، ويكتب له هذه المرة نجْحاً بعيد المدى في إخضاع المدن الثائرة من جنوبي فلسطين حتى شمال سورية، ثم يتقدم حتى بلاد النهرين، ويوقع بالحيثيين هزيمة ثانية في «تونب»، وهكذا ينجح رعمسيس الثاني في أن يستعيد الإمبراطورية المصرية في آسيا، وفي أن يسجل إسمه كأحد الفراعين المحاربين، الذين أفنوا عمرهم في الحفاظ على الإمبراطورية المصرية التي ورثوها عن فرعون مصر العظيم «تحوتمس الثالث»، كما كانت الحملة درساً قاسياً للحيثيين أجبرهم على إحترام السيادة المصرية في آسيا، وعدم التدخل في شئون الولايات المصرية هناك[1].

هذه هي الظروف التي كانت تمر بها مصر في تلك الفترة التي تحدثت التوراة عن إستعباد الإسرائيليين في مصر إبانها، ولعل أي منصف ليرى أن الفرعون ما كان في إستطاعته أن يترك البلاد تحت رحمة الدسائس الإسرائيلية، وأغلب الظن أن رعمسيس إنما طارد بني إسرائيل بعد أن أوعز صدره عليهم، وثقة مفقودة ربما إفتقدها عندهم في حروبه ضد الحيثيين، ولعله وجد فيهم ما لم يتعففوا عنه من خيانة وتجارة بولائهم للغالب في ظنهم من المتنازعين، وما كان من حق الفرعون أن يترك طائفة من الناس ـ أياً

(١) محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ـ الإسكندرية ١٩٦٩ ص ٧٧ ـ ٩٣ (رسالة دكتوراه) وأنظر: ANET, p. 265 وكذا: A. Gardiner, The Kadesh Inscription of Ramesses, II, oxford, 1966, p. 7 - 9. وكذا: H. Goedicke, Consideration on the Battle of Kadesh, JEA, 52, 1966, p. 72 - 97. وكذا: R. O. Faulkner, in CAH, II, part 2, Cambridge, 1975, p. 226 - 230. وكذا: A. Buren, Sons Notes on the Battle of Kadesh, JEA, 7, 1921, p. 194 - 195.

كانت ـ تنعم بخيرات الكنانة ودون أن تؤدي عملاً يتفق وظروف الحرب هذه، فضلاً عن الخيانة والتجسس، بخاصة وأن الإسرائيليين كانوا يسكنون في منطقة الحدود الشرقية، وهو التي إضطر رعمسيس تحت ضغط الظروف أن ينقل إليها عاصمته، لتكون في مكان وسط بين مملكته في مصر وأملاكها في آسيا، ومن ثم يصبح على مقربة من الأحداث التي كانت تدور وقت ذاك في أملاك مصر الأسيوية، أضف إلى ذلك كله أن الإسرائيليين إنما كانوا يرتبطون بفلسطين بالذات بالأساطير التي تجعلها «أرض الميعاد»، فضلاً عن أنهم قدموا إلى مصر منها كذلك، ومن هنا كان خوف الفرعون من أن يكونوا جواسيس عليه، لمصلحة أعدائه من الأمراء الأسيويين، فضلاً عن الحيثيين.

وإنطلاقاً من هذا كله، كان أمر فرعون أن يعمل عبيده الإسرائيليين في بناء المدن الجديدة ـ مكرهين كانوا أم راغبين ـ بل وتحت إشراف رؤساء مصريين، ولم يكن في هذا الأمر شيء من تعنت أو شذوذ ـ فما أظن ـ فالفرعون أراد بوضعهم تحت إشراف المصريين أن يكون في مأمن من جانبهم، وحتى لا يصاب بضربة خيانة منهم، في وقت هو في أشد الحاجة إلى من يؤمن له ظهره إبان قتاله المرير ضد الحيثيين، وضد الأمراء الأسيويين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن هذه الشوامخ الراسيات على أرض الكنانة قد قام بها من قبل مصريون، فما الغريب في الأمر، أن يسهم بنو إسرائيل في بناء مدينتي «فيثوم ورعمسيس» ـ وهما المدينتان اللتان شيدهما رعمسيس الثاني في نفس المنطقة التي يقيم فيها الإسرائيليون ـ وهو إسهام لم يتجاوز صنع قوالب من اللبن تستخدم في بناء المدن، بل إنه في أشد حالات قسوته ـ كما تصوره التوراة[1] ـ أن يجمع الإسرائيليون اللبن الذي يستخدمونه في صنع اللبن بأنفسهم من القرى المصرية، بعد أن كان

---

(1) خروج ١ : ٨ ـ ١٤، ٥ : ٦ ـ ١١.

المشرفون عليهم هم الذين يقومون بجمعه.

هذا هو العمل القاسي الذي كلف به الإسرائيليون، إسهام في بناء بعض مدن الدلتا، والحق أنه ما كان من المنطق، وما كان من العدل، أن يعمل المصريون ـ فضلاً عن الأسرى الأسيويين[1] ـ في الحقول، وفي بناء المدن وتشييد المحاريب والتماثيل، ثم يخوض أشبال الكنانة وأسودها بعد ذلك المعارك الضارية، يقتلون ويُقْتلون، بينما يظل الإسرائيليون ـ ما شاء الله لهم أن يظلوا ـ عالة على البلاد التي إستضافتهم نيفاً وأربعة قرون، منذ أن وصلوا إليها لاجئين، يطلبون الرزق، ويلتمسون وسائل العيش الناعم، والحياة السهلة الرضية، بين أهلها الكرام أبدا، دون أن يقومو لأهلها جزءاً ولا شكورا.

والرأي عندي، أنه حتى هذه المرحلة، لم يكن هناك تعذيب للإسرائيليين قد بدأ بعد، وإنما العذاب المهين قد بدأ، حين «أمر فرعون جميع شعبه قائلاً: كل إبن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها[2]»؛ وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم** ﴾[3]، وقول: ﴿ **وإذا نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾[4].

(١) أنظر عن إستخدام الأسرى في المباني: J. Breasted, ARE, III, no. 498 وكذا Barasanti et Gauthier, Steles Trouvees a Quadi ES - Seboua (nubi) ASAE, XI, 1911, p. 84.

(٢) خروج ١: ٢٣.

(٣) سورة القصص: آية ٤، وأنظر: تفسير روح المعاني ٢٠/ ٤٢ ـ ٤٤، في ظلال القرآن ٢٠/ ٢٦٧٦، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠ (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت)، تفسير القرطبي ص ٤٩٦٣ ـ ٤٩٦٥.

(٤) سورة البقرة: آية ٤٩، وأنظر: تفسير روح المعاني ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٤، تفسير الكشاف ١/ =

وسؤال البداهة الآن : لم تغير الحال إلى هذا المصير الأليم؟ ولم أذاق الفرعون بني إسرائيل العذاب المهين؟

إن الإسرائيليين ـ كما هو معروف ـ لم يكونوا أول الشعوب الأسيوية التي إستضافتها مصر، ولم يكونوا كذلك آخرها، وبخاصة إذا أرخنا مرحلة الإضطهاد هذه بعصر رعمسيس الثاني، فإننا نعلم أن عاصمته التي سخر الإسرائيلين في بنائها، طبقاً لرواية التوراة، مثل سائر المدن الكبرى في مصر حيث كان يخالط المصريون الليبيين والزنوج والأسيويين، ولا شك في أن موقع العاصمة الجديدة بين مصر وأقالم الشرق جعل الوفود تقصدها، فظهر الغرباء في بعض وظائف الدولة، وإمتلأت لغة المصريين بكلمات أسيوية سامية وردت كثيراً في الأدب المصري، وبخاصة في القرن الثالث عشر ق. م، وكان إزدواج اللغة واضحاً في عاصمة الرعامسة، هذا فضلاً عن أن الآلهة الكنعانية قد مثلت في مجمع الألهة المصري، كذلك شاعت بين المصريين بعض العادات السامية، بل أصبح للغرباء في العاصمة أحياء خاصة، كما أصبح لغير المصريين من جندها ثكنات خاصة بهم في قلبها وفي ضواحيها[1].

= ١٢٧ ـ ١٣٨، تفسير الطبري ٢/ ٣٦ ـ ٢٩ (دار المعارف)، تفسير النسفي ١/ ٤٩، تفسير القرطبي ص ٢٢٥ ـ ٢٣٠ تفسير الطبرسي ٢/ ٢٣١ ـ ٢١٥، التفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية ١/ ٩٨ ـ ١٠٠، تفسير البحر المحيط ١/ ١٨٧ ـ ١٨٨، تفسير المنار ١/ ٣٠٨ ـ ٣١٣، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ١/ ٦٨ ـ ٦٩ (طهرا ١٣٧٧ ه)، في ظلال القرآن ١/ ٧٠ ـ ٧٢، تفسير ابن كثير ١/ ١٢٨ ١٣٠ (القاهرة ١٩٧١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١/ ٥٩ ـ ٦١ (للشيخ طنطاوي جوهري).

(١) بيير مونتيه : الحياة اليومية في مصر الرعامسة، ترجمة عزيز مرقس منصور، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٩ ـ ٢٠، وأنظر W. F. Albright, The Biblical Period, From Abraham to Ezra, N. Y. 1963, p. 14

وإذا كان ذلك كذلك، فلم حاق الإسرائيليون بغضب فرعون دون سواهم من ضيوف مصر وأسراها؟

وهنا علينا أن نبحث عن سبب مقنع لهذا التحول الخطير في حياة الإسرائيليين في مصر، وليس هذا السبب ـ بحال من الأحوال ـ ما ترويه الأساطير من أن الإسرائيليين قد أذاعوا بين الناس ـ أو أن الكهنة المصريين قد تنبأوا ـ بأنه سيولد من بني إسرائيل من سيكون على يديه زوال فرعون وضياع ملكه[1]، فلعمري إنما تلك روايات رأينا مثلها عن إبراهيم الخليل[2] وعن المسيح[3]، عليهما السلام، فضلاً عن تلك التي دارت حول «زرادشت»[4].

ومن هنا، فليس أمامنا سوى أن نفترض أن أمراً قد حدث من الإسرائيليين الذين ساءهم ما كانوا به من عمل في مدينتي فيثوم ورعمسيس، فعصف ذلك الأمر بالبقية الباقية من صبر فرعون، وإن كنا لا ندري على التحقيق ما هو هذا الأمر، فربما كان خيانة، وربما كان بداية تمرد، أو على الأقل، فإن الإسرائيليين ربما بدأوا يوجهون حرباً نفسية لخلخلة الرأي العام المصري ـ إن صح هذا التعبير ـ وبخاصة في منطقة شرق الدلتا، التي كانت تعج بالأجانب من كل جنس، إن لم يكونوا قد قاموا بالإتصال بالعدو الأسيوي، والقوات المصرية في حالة نزال معه على الأرض الأسيوية نفسها، وربما إكتشف المصريون ذلك بعد عودة قواتهم من معركة قادش

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١٣٧ ـ ٢٣٨، قصص الأنبياء ٢/ ٤ ـ ٥، تاريخ الطبري ١/ ٣٨٦ ـ ٣٨٨، تاريخ اليعقوبي ١/ ٣٣ مروج الذهب ١/ ٦١.

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ٩٤ ـ ٩٥، ابن كثير البداية والنهاية ١/ ١٤٨، أبو الفداء المختصر في أخبار البشر ١/ ١٣.

(٣) متى ٢: ١ ـ ٢٣.

(٤) على عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

المشهورة، أو ربما كان ذلك بعد حملة العام الثامن التي قضى فيها رعمسيس الثاني على أعدائه - سواء أكانوا من الأمراء الأسيويين الثائرين، أو من الملوك الحيثيين الطامعين، ذلك لأننا نميل أن ما حدث إنما كان بعد هذه الحملة الأخيرة، حيث أن الفترة ما بين معركة قادش في السنة الخامسة من حكم رعمسيس الثاني (حوالي عام ١٢٨٥ ق م)، وبين حملة العام الثامن (حوالي عام ١٢٨٢ ق م) إنما تميزت بإندلاع الثورة في كل فلسطين بتحريض من الحيثيين، وربما بدسائس الإسرائيليين كذلك.

ومن هنا فقد عاد رعمسيس من حملته هذه، وفي غضب من أحس أنه طعن من وراء ظهره ممن آوتهم مصر بعد تشرد، وأطعمتهم بعد جوع، فكان العذاب الأليم صبّه فرعون، دونما رحمة أو شفقة، على الإسرائيليين، حيث أمر بذبح أبنائهم وإستحياء نسائهم، وفي هذه الأيام العصيبة ولد لبني إسرائيل أمل جديد، ذلكم هو «موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب» عليه السلام.

ويعلق أحد علماء الإسلام الأجلاء على هذه الأحداث، وعلى موقف فرعون منها، فيرى فضيلته: أن فرعون كان عظيماً وكريماً في موقفه من بني إسرائيل، ثم يتساءل فضيلته: ماذا يفعل أي حاكم - عادل أو ظالم - في قوم دخلاء غرباء، وجدوا في بلاده المرعى الخصيب، والعيش الرطب، والضيافة الكريمة، على الرغم من أن أهلها يكرهونهم، ثم وجدهم بعد ذلك، وبعد طول الإقامة في بلاده خونة وجواسيس، ومثار فتن ودسائس وأذناباً لأعدائه، يعملون على هدم وطنه وإستعباد أهله.

وحين سئل فضيلته: أيقتل أطفالهم، ويستحي نساءهم، ويسخرهم في تعبيد الطرق، وبناء المدن، كما فعل فرعون؟

أجاب فضيلته: وهل هذا يعد شيئاً إذا قيس بما وقع عليهم من «نبوخذ

نصر» (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق. م) و «أدولف هتلر» (١٨٨٩ ـ ١٩٤٥ م)، وأباطرة الرومان، وما عانوه من المذابح التي أكلت نساءهم وأطفالهم في روسيا وأسبانيا، وفي كل مكان كان لهم فيه كيان؟.

إن هؤلاء كانوا وراء كل فتنة عامة، وخلف كل محنة إنسانية في كل عصر ولم يكن هلاك فرعون تكريماً لهؤلاء الذين يقول الله فيهم **﴿ملعونين أينما ثقفوا﴾**، وإ كان إنتقاماً من فرعون لتكبره وتجبره وما آل إليه أمره من الطغيان، حتى إنتهى به إلى الكفر، والإصرار على الكفر[1]، وقال: **﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾**[2]، وقوله لموسى: **﴿لئن إتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾**[3]، وقوله: **﴿فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى﴾**[4]، وكذلك جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: **﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾**[5]، وهذا التعليل للفرق هو الذي تذكره الآية الكريمة: **﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾**[6]، وأخيراً فإن النقيصة التي أخذت على فرعون إنما كانت إندفاعه في العذاب وإسرافه في القتل للمذنب وغير المذنب على السواء[7].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك رأياً يذهب إلى أن سبب إضطهاد الفراعين لبني إسرائيل إنما هي أسباب سياسية ودينية، ذلك أن ديانة

---

(١) عبد الرحيم فوده: من معاني القرآن ص ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٢) سورة القصص: آية ٣٨.
(٣) سورة الشعراء: آية ٢٩.
(٤) سورة النازعات: آية ٢٢ ـ ٢٤.
(٥) سورة النازعات: آية ٢٥ ـ ٢٦.
(٦) سورة الأعراف: آية ١٣٦.
(٧) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٨٧.

التوحيد التي كانت قد عرفت قبل تولي يوسف مقاليد الحكم في مصر، لابد أن تكون قد إنتشرت بعد ذلك وإستقرت على نطاق واسع في أثناء توليه الحكم، ثم من بعد ذلك في عهد أسرة الرعاة (الهكسوس) فلما إسترد الفراعنة زمام الأمور في الأسرة الثامنة عشرة أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة في ذرية يعقوب التي تكاثرت في مصر، لإعادة الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية، وهكذا يكشف لنا سبباً أصيلاً من أسباب إضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبني يعقوب، إلى جانب السبب السياسي، وهو أنهم جاءوا وإستوطنوا وحكموا وإستقروا في عهد ملوك الرعاة (الهكسوس) فلما طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بني يعقوب أيضاً، وإن كا إختلاف العقيدتين ينبغي أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الإضطهاد الفظيع، ذلك أن إنتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التي يقوم عليها ملك الفراعنة، فهي العدو الأصيل للطواغيت وحكم الطواغيت وربوبية الطواغيت[1].

ورغم جاذبية هذه النظرية، وما فيها من أوجه صواب، فإن فيها نقاط ضعف أيضاً، منها (أولاً) أن الهكسوس، على الأقل بعد عهد يوسف عليه السلام، لم يكونوا موحدين بدليل أن ملكهم أبوفيس الذي قامت ضده حرب التحرير لم يكن موحداً، فلقد أطلق على نفسه في رسالته لأمير كوش «عاوسررع، إبن رع، أبوبي»، كما وصف نفسه، كما أشرنا من قبل، بأنه «إبن رع من جسده» و «الصورة الحية لرع على الأرض»، وبدهي أن هذه ليست أسماء أو صفات الموحدين، ومنها (ثانياً) أن كثيراً من ملوك الهكسوس، بعد عهد يوسف، قد قبلوا عبادة إله الشمس رع، بجانب ست، كما أن كثيراً من ملوكهم، كما أشرنا من قبل، كانت لهم أسماء مركبة من إسم «رع» مثل «هائلة هي قوة رع» و «رع هو سيد السيف».

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٦١ (بيروت ١٩٨٢).

ومنها (ثالثاً) أن صورة الأنثى العارية التي تظهر على الجعارين من عصر الهكسوس، إنما تمثل الإلهة السامية «عنات» أو «عتر - عشتارت»، ويشار إليها في نصوص متأخرة من عهدهم، وكأنها زوجة للإله «ست - بعل»[1]، ومنها (رابعاً) أن روايات المفسرين والمؤرخين المسلمين إنما تذهب إلى أن ملك الهكسوس الذي فسر له يوسف رؤياه، هو الذي آمن به فقط، أما من جاء بعده فلم يؤمن، يقول إبن الأثير في الكامل: لما ولي يوسف عمل مصر، دعا الملك الريان إلى الإيمان فآمن ثم توفي، ثم ملك بعده مصر قابوس. . . فدعاه يوسف إلى الإيمان فلم يؤمن، وتوفي يوسف في ملكه[2].

عقب طرد الهكسوس مباشرة أو حتى بعده بقليل، وإنما تم بعد ذلك بفترة طويلة، وإذا كان ما ذهبنا إليه من أن رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م) هو فرعون التسخير، صحيحاً، فإن هذا يعني أن بني إسرائيل لم يضطهدوا إلا بعد قرابة قرون ثلاثة من طرد الهكسوس حوالي عام ١٥٧٥ ق. م، ومنها (سادساً) صحيح أن بني إسرائيل على أيام يعقوب ويوسف عليهما السلام، بل وبعد ذلك بفترة ليست قصيرة، كانوا، دون شك، على ديانة التوحيد، ولكنه صحيح كذلك أنه بعد مضي قرون من عهد يوسف، قد تصل إلى الثلاثة، لم يكن بنو إسرائيل، كما كانوا موحدين، وإن ظلوا على بقايا من دينهم، وخاصة في فترة الإضطهاد العنيفة، وهكذا ما أن تمضي الأيام وتمر السنين على عهد يوسف الصديق، وتطول إقامة بني إسرائيل في مصر إلى

---

(١) محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٦ ص ١٥٢ - ١٥٥، وكذا T. Sove - Saderbergh, JEA, 37, 1951, p. 64 - 65 وكذا W. C. Hayes, Egypt From the Death of Ammenemes III, to Sequence II, 1965, p. 17 - 18.

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٣٦٣، ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢١٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ٨٣.

قرون، ربما تجاوزت الأربعة، حتى ينسى الإسرائيليون خلالها دعوة التوحيد، التي نادى بها الآباء من أنبياء الله الكرام، إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وينغمسون في وثنية المصريين، ويتعبدون لألهتهم[1].

ومنها (سابعاً) أن سيرة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، لا تدل أبداً أنهم كانوا موحدين على أيام الإضطهاد فمن المعروف أنه ما أن كتب الله النصر لموسى على فرعون، ونجح في الخروج بقومه من قبضته، حتى عاد بنو إسرائيل إلى الوثنية، وعبادة الأصنام، وفي الواقع فإن التراث الديني اليهودي ليزخر بأدلة لا تقبل الشك، على أن اليهود الذين رافقوا موسى لم يكونوا أكفاء لحمل عبء التوحيد وفلسفته التجريدية الروحية الرفيعة، ولم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الإعتبارات المادية، بل إنه لا يفهم من حادث واحد من حوادث رحلة الخروج أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصاً على عقيدة دينية، فإنهم أسفوا على ما تعودوه من المراسيم الدينية في مصر، وودوا لو أنهم يعودون إليها، ويعبدونها مسوخة ممسوخة في الصحراء[2]، ومن ثم فلم يكد بنو إسرائيل يمضون مع موسى عليه السلام، بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من آل فرعون، حتى رأوا قوماً يعبدون أصناماً لهم، فنسوا كل ما كانوا يذكرونه من آيات الله، ونجاتهم مع موسى، وقالوا ما حكاه القرآن في قوله تعالى: **﴿وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾**[3]، والفاء في قوله تعالى: **﴿فأتوا﴾** تفيد، كما هو معروف،

(1) خروج ١٢/ ٤٠، حزقيال ٢٠/ ٤ - ٨.

(2) عباس العقاد: مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية - القاهرة ١٩٦٨ ص ١٠٧.

(3) سورة الأعراف: آية ١٣٨ - ١٣٩.

الترتيب والتعقيب ، ومعنى ذلك أنه لم يمضي وقت بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من الهلاك ، حتى عادوا إلى الوثنية التي ألفوها ، وألفوا الذل معها ، وهذا يدل على أن الإيمان لم يخالط بشاشة قلوبهم ، ولم يتمكن من ضمائرهم ومشاعرهم ، ولم يثمر فيهم الثمرة الطيبة لكل شجرة طيبة ، وإنما كان إيمانهم بموسى إيماناً بإمامته وزعامته ، لا إيماناً بالذي خلقه وسواه[1] .

وهكذا لم يمضي وقت طويل حتى كانت الردة الثانية ، بعد فشل الأولى ، ممثلة في العجل الذي عبدوه ، والتي تحدثت عنها التوراة[2] ، كما تحدث عنها القرآن[3] ، وليس هناك من شك في أن هذا من تأثير الديانة المصرية على بني إسرائيل ، ذلك أن عبادة العجل في مصر إنما هي جد عميقة الجذور ، ترجع إلى أيام اسرة الأولى[4] ، وهكذا بقيت الوثنية راسخة في قلوب بني إسرائيل ، حتى بعد إنغلاق البحر لهم ، وحتى بعد أن جاوزوه على يبس ، وحتى بعد أن منّ الله عليهم بالمن والسلوى ، وحتى بعد أن إستقوا موسى فضرب الحجر بعصاه فانبجست منه إثنتا عشرة عيناً ، لكل سبط من أسباطهم مشربه ، وحتى بعد أن نزلت عليهم شريعته تحذرهم من إتخاذ آلهة غير الله ، حتى بعد هذا كله ، ومع وجود موسى نبيّهم بين ظهرانيهم ، فإنهم سرعان ما زاغوا عن الطريق المستقيم ، وكفروا بالله الواحد الأحد «وصنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا وقالوا : «هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر[5]» ، وهذا ما سوف يفعلونه في دويلة إسرائيل على

---

(١) عبد الرحيم فودة : من معارف القرآن ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) خروج ٣٢/ ١ - ٢٨ .

(٣) سورة البقرة : آية ٥١ ، ٥٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، سورة النساء : آية ١٥٣ ، سورة الأعراف : آية ١٤٨ - ١٥٢ ، سورة طه : آية ٨٣ - ٩٨ .

(٤) W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, p. 124.

(٥) خروج ٣٢/ ٨ .

أيام ير بعام الأول (٩٢٢ـ٩٠١ ق . م) وبعد موت نبيّهم سليمان عليه السلام مباشرة عام ٩٢٢ ق . م[1] .

ومنها (ثامناً) أن المفسرين والمؤرخين المسلمين يذكرون أسباباً للإضطهاد ، ليس من بينها أبداً عقيدة بني إسرائيل التوحيدية ، وإنما هي أسباب تتصل بنبوءات خشى فرعون منها على ملكه[2] ، وسوف نناقشها بالتفصيل في مكانها من الفصل التالي ، ومنها (تاسعاً) أن حال بني إسرائيل في مصر لم يكن شراً كله ، ولا نكراً كله ، إذ أبدوا إستعداداً للعيش مع المجتمع والتعاون بين بنيه ، بل إن التوراة لتذكر صراحة أن الفرعون إنما كان ينظر إليهم ، حتى في أوقات الشغب ، وكأنهم من الشعب ، وليسوا مجموعة من العبيد أو حتى المستعبدين «فقال لهما ملك مصر : لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب عن أعماله[3]» ، بل إن القرآن الكريم إنما يقدمهم على أنهم قد أصبحوا جزءاً من رعية فرعون أو طائفة منهم ، قال تعالى : **﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ﴾**[4] ، وهكذا كان بنو إسرائيل «طائفة منهم» أي من الشعب المصري ، ولم يكونوا بالطائفة المنبوذة التي لا يتعامل معها الناس ، أو ينفر منها الملوك ، بل لقد كان ساقي مرنبتاح رجلاً يحمل إسماً لا شك في صيغته العبرية هو «بن عزين» ، وقد روت التوراة من أمر موسى وإلتقاطه ما يدل على مكانة بني إسرائيل عامة من المصريين وتسامح المصريين معهم[5] .

---

(١) ملوك أول ١٢/ ٢٥ - ٣٣ ، هوشع ٨/ ٥ - ٦ .

(٢) أنظر : ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ٢٣١ - ٢٣٨ ، قصص الأنبياء ٣/ ٤ - ٥ ، تاريخ الطبري ١/ ٣٨٦ - ٣٨٨ ، تاريخ اليعقوبي ١/ ٣٣ ، المسعودي مروج الذهب ١/ ٦١ .

(٣) خروج ٥/ ٤ .

(٤) سورة القصص : آية ٤ .

(٥) أنظر : خروج ٢/ ٥ - ١٠ ، أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٩١ - ٩٢ .

الفصل الثاني

موسى من المولد إلى المبعث

(١) موسى في قصر فرعون :

في فترة الإضطرابات العصيبة التي سلط الله فيها فرعون على بني إسرائيل، يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم[1]، في هذه الظروف القاسية، ولد موسى عليه السلام[2]، وكان أصغر أولاد أبيه، وثالث ثلاثة، مريم البكر، وهارون الثاني، وهو «موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام»، وأما أمه فهي يوكابد بنت لاوى، وهي عمة زوجها عمران، فيما تروي التوراة[3]، وهكذا، ونظراً للظروف المحيطة

---

(١) أنظر عن الروايات التي دارت حول ذبح فرعون لأبناء بني إسرائيل (تفسير الطبري ١/ ٢٦٩ - ٣٢٨ ط ١٩٥٤، تاريخ الطبري ١/ ٣٨٥ - ٣٨٨، تفسير الدر المنثور ٥/ ١١٩ - ١٢٠، مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦٣ - ٦٤، البداية والنهاية ١/ ١٣٧ - ٢٣٨. تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ٢٢٥، تفسير الخازن ١/ ٥٨ - ٥٩، تفسير النسفي ٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦، الكامل لابن الأثير ١/ ٩٥ - ٩٦).

(٢) أنظر عن قصة موسى في القران الكريم: سورة البقرة (٤٧ - ٩٨) المائدة (٢٠ - ٢٦) الأعراف (١٠٣ - ١٧١) يونس (٧٥ - ٩٤) هود (٩٦ - ٩٩) إبراهيم (٥ - ٨) الإسراء (٢) الكهف (٦٠ - ٨٢) مريم (٥١ - ٥٣) طه (٩ - ٩٨) الأنبياء (٤٨ - ٤٩) المؤمنون (٤٥ - ٤٩) الفرقان (٣٥ - ٣٦) الشعراء (١٠ - ٦٨) النمل (٧ - ١٤) القصص (٣ - ٤٧) العنكبوت (٣٩) الأحزاب (٦٩) الصافات (١١٤ - ١٢٢) غافر (٢٣ - ٥٤) الزخرف (٤٦ - ٥٦) الدخان (١٧ - ٣٣) الذاريات (٣٨ - ٤٠) وغيرها.

(٣) خروج ٦/ ٢٠، عدد ٢٦/ ٥٨ - ٥٩.

بني إسرائيل ، فما أن ولد موسى عليه السلام حتى أخفته أمه عن العيون حيناً من الدهر، قدرته التوراة وبعض المفسرين بثلاثة أشهر[1] ، ولكنها سرعان ما خشيت أن بفتضح أمرها ، بل وكادت تبدي به لولا أن ربط الله على قلبها ، ففزعت إلى الله مما تخشى على وليدها من بطش فرعون ، فأوحى الله إليها[2] **﴿ أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾**[3] .

وشاءت إرادة الله ، ولا راد لمشيئته ، أن تقول لهذا الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه وإتساع ملكه ، قد حكم العظيم الذي لا يغلب ولا يمانع ولا يخالف أقداره ، أن هذا المولود الذي تحترز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى ، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولا يتغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه وتربيه ، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه ، لتكذيبك ما جاء به من الحق المبين ، حتى تعلم أنت وسائر الخلق أن الله هو الفعال لما يريد[4] ، ومن ثم فإن إرادة الله إنما تلقى بالتابوت ومن فيه إلى جوار قصر

---

(١) خروج ٢/ ٢ ، تفسير النسفي ٣/ ٢٢٧ .

(٢) يقول ابن كثير: ليس هذا بوحي نبوة ، كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين ، بل الصحيح أنه وحي إلهام وإرشاد ، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة ، هذا وقد ورد عن ابن عباس : أنه وحي إلهام ، وقال مقاتل : اخبرها جبريل بذلك ، قال القرطبي : فعلى قول مقاتل هو وحي إعلام ، لا إلهام ، وأجمع الكل على أنها لم تكن بنية وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى ، كما في الحديث المشهور ، وكذلك تكليم الملائكة للناس من غير نبوة ، وقد سلمت على «عمران بن حصين» ولم يكن نبيا (تفسير البيضاوي ٢/ ٨٨ ، تفسير القرطبي ١٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ، صفوة التفاسير ٢/ ٤٢٥ ، البداية والنهاية ١/ ٢٣٩ .

(٣) سورة القصص : آية ٧ ، وأنظر : مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ٢٣٨ .

فرعـون، فيقـع موسى من قلـب إمرأة فرعـون[1]، موقـع الحب والحدب والأشفـاق بل إنها لتقول لفرعون **﴿قرت عين لي ولك، لا تقتلـوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولـداً﴾**[2]، فقد كان موسى عليـه السلام، لا يراه أحد إلا أحبه، قال تعالى: **﴿وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾**[3]، لكن الشقي فرعون يقول لإمرأته، فيما يروي الطبري، «يكون لك، فأما أنا فلا حاجة لي فيه، ولذا قال رسول الله ﷺ «والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين، كما أقرت به، لهداه الله به، كما هدى به إمرأته، ولكن الله حرمه ذلك»، ومع ذلك فقد قبـل رجاء زوجه، فلا يقتـل الطفـل النبي لحكمة أرادها الله، **﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾**[4].

وهنا ظنت أم موسى أنها أوقعت وليدها بنفسها في عرين الأسد، حيث وقع موسى بين عدوه وعدوها، الذي حرصت على أن تباعد بينه وبين إبنها، ورضيت في سبيل إستنقاذه منه أن يبتعد عنهـا إلـى حيـن **﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾**[5]، ولكن لله حكمة هو مبديها، وأمر هو بالغه، فيحميه ويضمن له الحياة، ويكفل له التربية الكريمة الناعمـة، والتعليم الناضج الذي يؤهله لقيادة شعب تعوذه القيادة، ولتعليم

---

(١) ذهب بعض الباحثين إلى أن إمرأة فرعـون كانت من بني إسرائيـل من سبط موسى، بل إن البعض ذهب إلى أنها عمته، (البداية والنهاية ١/ ٢٣٩، الكامل لابن الأثير ١/ ٩٥) وبدهي أن هذا ليس صحيحاً، فإمرأة فرعون مصرية، لا شك في ذلك، كما ترى جمهرة المفسرين، ثم إن فرعون ما كان يتزوج من بني إسرائيل، وهو يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، كما أن قوانين وراثة العرش في مصر لا تسمح بذلك.

(٢) سورة القصص: آية ٩.

(٣) سورة طه: آية ٣٩.

(٤) سورة القصص: آية ٨، تاريخ الطبري ١/ ٣٩٣.

(٥) سورة القصص: آية ١٠ ـ ١١.

أمة أعماها الجهل، لحمل رسالة التوحيد، ويحميه بالحب الذي يطغى على كوا من الشر، وغوائل الأحقاد[1].

ويأتي آل فرعون لموسى بالمراضع فيعافهن جميعاً، وهنا تتقدم أخته فتعرض على آل فرعون أن تدعو لهم إمرأة عبرانية ترضعه وتكفله، وأن تكون له ناصحة مشفقة، ويقبل آل فرعون عرضها، ويبعثوا في طلب الظئر، وسرعان ما تجيء بأمه، دون أن تشعرهم بأن أمها أمه، وهو أخوها، ويُقبل موسى على ثدي أمه، وهنا تذهب المراجع الإسلامية إلى أن فرعون عندما رأى ذلك، سألها: من أنت منه؟ فقد أبى كل ثدي إلا ثديك، فقالت: إني إمرأة طيبة الريح طيبة اللبن، لا أوتي بصبي إلا قبلني، فدفعه إليها وأجرى عليها، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الرد، فعندها ثبت وإستقر في علمها أنه سيكون نبياً، وهكذا عاد موسى إلى أمه ليعيش معها فترة حضانته[2]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**[3] ﴾.

ولعل في هذا ما يشير إلى أن حال بني إسرائيل في مصر لم يكن شراً كله، ولا نكراً، إن أبدوا إستعداداً للعيش في المجتمع والتعاون بين بنيه، وقد كانوا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **طائفة منهم** ﴾، ولم يكونوا بالطائفة المنبوذة التي لا يتعامل معها الناس، أو ينفر منها الملوك، بل لقد كان ساقي «مرنبتاح» فرعون موسى، فيما نرجح، رجلاً يحمل إسماً لا شك في صيغته

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٨٩.

(٢) تفسير النسفي ٣/ ٢٢٨ - ٢٢٩، خروج ٢/ ٧ - ١٠.

(٣) سورة القصص: اية ١٢ - ١٣.

العبرية هو «بن عزيـن»، وقد روت التوراة من أمر موسى وإلتقاطه ما يدل على مكانة بني إسرائيل عامة من المصريين، وتسامحهم معهم[1]، هذا فضلاً عما جاء في القرآن الكريم بشأن قارون، قال تعالى: ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولـي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين** ﴾[2]، وهناك روايات تذهب إلى أنه كان من عشيرة موسى عليه السلام عمه أو إبـن عمه، علـى خلاف في الرأي، وأن فرعـون قد ولاه علـى بني إسرائيـل، وأنه قد نافس موسى على رياسة بني إسرائيل[3].

---

(١) سورة القصص: آية ٤، خروج ٢/ ٥ ـ ١٠، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٩١ ـ ٩٢.

(٢) سورة القصص: آية ٧٦.

(٣) تشير بعض أي الذكر الحكيم إلى أن قارون كان من قوم موسى، وأن موسى أرسل إليه، وإلى فرعون وهامان (القصص: آية ٧٦، العنكبوت: آية ٣٩، غافر: آية ٢٣ ـ ٢٤)، وتذهب الروايات إلى أنه كان عظيم المال، كثير الكنوز، حتى أن مفاتيح خزائنه كانت تحمل على أربعين بغلاً، فبغى على قومه بكثرة ماله، وأنه قال لموسى: لك الرسالة، ولهارون الحبورة، وأنا في غير شيء، إلى متى أصبر، فقال موسى: هذا صنع الله، وفي رواية أنه قال لموسى: أما لئن كنت فضلت على بالنبوة، فلقد فضلت عليك بالدنيا، هذا وتذهب بعض الروايات إلى أن قارون قد دبر لموسى مكيدة ليلصق به تهمة الفاحشة مع بغي في مقابل رشوة من المال، قيل إنها ألف دينار أو طست من ذهب، فلما كان يوم عيد وخطب موسى فقال: إن من سرق قطعنا يده ومن إفترى جلدناه، ومن زنى وهو محصن جلدناه، وإن أحصن رجمناه، فقال له قارون: إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانه، فأحضرها وناشدها بالذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق، فقالت: جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجداً، وهكذا برأ الله موسى، وأذن له في قارون، فقال موسى: يا بني إسرائيـل إن الله بعثني إلى قارون، كما بعثني إلى فرعون، ثم دعا عليه، فخسف الله به وبمن إتبعه الأرض، هذا وقد لقب بعض الباحثين المحدثين أن قارون هذا، هو «قورح» الذي جاءت قصته في التوراة (عدد ١٦/ ١ ـ ٥٠) ورغم وجه بعض شبه بين القصتين، فإنني أترد في قبول هذا الرأي لوجود إختلافات كثيرة بينهما، إلا أن تكون من تحريفات التوراة (تفسير النسفي ٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٨، في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٠ ـ ٢٧١٤، تفسير البيضاوي ٤/ ١٢٨ ـ ١٢٩، تفسير =

وأياً ما كان الأمر، فإن موسى عليه السلام، إنما ينشأ في قصر فرعون، أعظم ملوك الأرض في عصره، كما ينشأ الأمراء، وما أن يشب عن الطوق، حتى تظهر بوادر ذكائه وقوة شخصيته، فيتعلم، فيما يرى بعض المؤرخين، القراءة والكتابة والحساب، ونسخ الصحائف على البردي، ويتعلم شيئاً من الفلك والجغرافيــة، وأطرافاً من التاريــخ، ويقرأ من قصص المصريــين وآدابهم وحكمهم شيئاً كثيراً، وكما جاء في الإنجيل فقد «تهذب بكل حكمة المصريين»، وعلى أية حال، فلسنا نعرف من حياة موسى عليه السلام، منذ مولده وحتى صدر شبابه شيئاً على وجه اليقين، وأكبر الظن أنه تولى منصباً، وتبوأ مكانة في دولة فرعون، حيث بدأ أترابه، كاتباً، وغير بعيد أن يكون قد إلتحق بالجيش مع من إلتحق من أمراء البيت المالك[1].

وأما سيـاق قصة موسى في القرآن الكريـم - كما يقول الأستاذ سيــد قطب، طيب الله ثراه، إنما يسكت عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى عليه السلام، والحلقة التالية التي تمثل شبابه وإكتماله، فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه، ولا كيف تربى في قصر فرعون، ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة، ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه، بعد أن شب وكبر، ولا كيف كانت عقيدته، وهو الذي يصنع على عين الله، ويّعد في وسط عباد فرعون وكهـانته، يسكـت القرآن عن كل هذا، ويبدأ الحلقة التالية مباشرة حين بلـغ أشده وإستوى فقد آتاه الله الحكمة والعلـم وجزاه

= الكشاف ٣/ ٣٤٠-٣٤٢، ابن كثير: مختصر التفسير ٣/ ٢٣-٢٦، البداية والنهاية ١/ ٣٠٩-٣١٢، تاريخ الطبري ١/ ٤٤٣-٤٥٢، ابن الأثير ١/ ١١٥-١١٦، سفر التثنية ٢٢/ ٢٢-٢٩، ثم أنظر حكم الزنا في التوراة: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ١٩٤-١٩٥).

(١) أعمال الرسل ٧/ ٢٢، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٩٢-٩٣، وكـذا W. Whiston, the Life and Works of Flavius Josephus, 1957, p. 77F وكذا Josephus, Book, II, Chapter, XI.

جزاء المحسنين، قال تعالى: ﴿ **ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين**﴾، وبلوغ الأشد إكتمال القوة الجسمية، والإستواء إكتمال النضج العقلي والعفوي، وهو يكون عادة في سن الثلاثين، فهل ظل موسى في قصر فرعون ربيباً ومتبني لفرعون وزوجه حتى بلغ هذه السن، أم أنه إفترق عنهما واعتزل القصر، ولم تسترح نفسه في ظل الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفس مصفاة مجتباة، كنفس موسى عليه السلام، وبخاصة وأن أمه لا بد أن تكون قد عرفته من هو ومن قومه وما دينه، وهو يرى كيف يسأم قومه الخسف البشع والظلم الشنيع، والبغي اللئيم[1].

في الواقع ليس لدينا من دليل على شيء من ذلك، وإن كان سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئاً من هذا، فلقد كان موسى، فيما يبدو، لا ينسى أنه من بني إسرائيل، أولئك الذين فرض عليهم فرعون العذاب المهين، وربما كان النبي الكريم يدرك أن الله إنما آتاه العلم والحكمة ليدرك قومه، وينقذهم من ظلم فرعون وجبروته، فكان كثير الحدب عليهم والشفقة بهم، ومن ثم فقد تعرض بسببهم لمحنة قاسية، إنتهت به إلى الخروج من مصر، والبقاء في مدين سنين عدداً، ذلك أنه ربما كان خارجاً في أحد الأيام من قصر فرعون «ودخل المدينة على حين غفلة[2] من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان، هذا من شيعته[3] وهذا من عدوه، فإستغاثه الذي من شيعته على

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨١.

(٢) الغفلة: روى عن ابن عباس: أنها بين العشاءين، وروى عنه أيضاً، وعن سعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدى: أنها وقت القائلة يعني إنتصاف النهار (أنظر: تفسير القرطبي ص ٤٩٧٦ تفسير النسفي ٣/ ٢٢٩، تفسير الفخر الرازي ٤/ ٢٣٣، صفوة التفاسير ٢/ ٤٢٧، البداية والنهاية ١/ ٢٤١، ابن الأثير ١/ ٩٨، تفسير البيضاوي ٤/ ١٢٥) وقيل الغفلة عن ذكر موسى ونسيان أمره (تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ٢٣٣).

(٣) يقول الفخر الرازي في تفسيره (٢٤/ ٢٣٣ - ٢٣٤) قيل الرجلان كانا كافرين، إلا أن أحدهما =

الذي من عدوه فوكزه[1] موسى فقضى عليه، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم، قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين[2]».

ولم يكن المجرمون الذين عزم موسى عليه السلام على ألا يظاهرهم ويناصرهم، إلا هؤلاء من بني إسرائيل، وهكذا ندم موسى على أن ظاهر الإسرائيلي ضد المصري، فكان من نتيجة ذلك أن قتل نفساً حرم الله قتلها، ومن ثم فقد عزم، بعد أن تاب وأناب، ألا يكون ظهيراً للمجرمين، وهذه العبارة قد يستشف منها أن الكليم عليه السلام إنما كان يستخدم نفوذه في مناصرة بني إسرائيل، وكف أيدي المصريين عنهم، ويبدو أن شبح القتيل إنما كان يلوح أمام عينه، ويعترض طريقه أينما ذهب، وأن خوف الثأر أو القصاص إنما كان يملأ حياته قلقاً وأرقاً[3]، ومهما يكن من أمر، فسرعان ما يعثر القوم على جثة القتيل، فيطلب أهله من فرعون أن يأخذ لهم القصاص من قاتله، غير أن الفرعون إنما يمهل القوم إلى حين، حتى تكشف الشرطة عن الجاني، وتأتي بمن يشهد على أنه القاتل، أو أن ذلك المصري عندما سمع الإسرائيلي في اليوم التالي يقول لموسى: «أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس»، فلقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده،

= إسرائيلي، والآخر مصري، وإحتج على أنه موسى قال له: «إنك لغوي مبين»، والمشهور الذي كان من شيعته مسلما لأنه لا يقال لمن يخالف الرجل في دينه وطريقه إنه من شيعته، وقيل إن المصري كان طباخ فرعون وقد سخر الإسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخه، وقيل الرجلان المقتتلان أحدهما السامري، وهو الذي من شيعته، والآخر طباخ فرعون.

(1) الوكز: الضرب بجمع اليد، وقال قتادة بعصا كانت معه، والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها حتف المصري، مما يشي بقوة موسى وفتوته، ويصور كذلك إنفعاله وغضبه، ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به (في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٢).

(2) سورة القصص: آية ١٥ - ١٧.

(3) عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص ١٦٠.

فعلم فرعون بذلك، فإشتد حنقه وعزم على قتل موسى، فطلبوه[1] .

ويصبح موسى في المدينة خائفاً ويترقب، ويذهب الأستاذ سيد قطب إلى أن لفظ «يترقب» يصور هيئة القلق الذي يتلفت ويتوجس، ويتوقع الشر في كل لحظة، وهي سمة الشخصية الإنفعالية تبدوا كذلك في هذا الموقف، والتعبير يجسم هيئة القلق والخوف بهذا اللفظ، كما أنه يضخمها بكلمتي «في المدينة»، فالمدينة عادة موطن الأمن والطمـأنينة فإذا كان خائفاً يترقب في المدينة، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر، وحالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن من رجال القصر، وإلا فما أرخص أن يزهق أحد رجال القصر نفساً في عهود الظلم والطغيان، وما كان ليخشى شيئاً، فضلاً عن أن يصبح خائفاً يترقب، لو أنه كان ما يزال في مكانه من قلب فرعون وقصره[2]، غير أن إبن كثير يذهب إلى أن الله تعالى يخبرنا أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً، أي من فرعون وملئه أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهـم، ويترتب علـى ذلك أمر عظيـم فصار يسيـر في المدينة في صبيحة هذا اليــوم خائفاً يترقب[3]، وهذا ما نميل إليه ونرجحه.

وعلى أي حال، فإن موسى عليه السلام يمر بمن إستصرخه بالأمس، فإذا به يستصرخه، مرة أخرى، ضد آخر، فيؤنبه موسى على مشاكسته وميله إلى الخصام، ومـع ذلك فما أن همّ موسى بنصرته حتى قال: **﴿أتريـد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، إن تريد إلا أن تكـون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾**[4].

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٩، تاريخ الطبري ١/ ٣٩١.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٢ - ٢٦٨٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٤٢.

(٤) سورة القصص: آية ١٩.

وهكـذا تورط موسى في قتـل مصري، عن غيـر عمد، روى الإمام النسفي أن إسمه «فاتون»، ولا أدري كيف إستقام لمفسري الإسلام هذا الإسم الذي تدل صيغته المصرية على أن سند الرواية والتواتر موصول، ذلك أنه إسم مصري خالص مؤلف من إسم الشمس «آتون» مع فاء التعريف[1]، وعلى أي حال، فإن موسى إنما يوشك الآن أن يتورط في محنة جديدة بسبب ذلك الإسرائيلي الذي إستصرخه بالأمس، ويستصرخه اليوم، ومن ثم فقد وصفه الكليم بأنه «غوي مبين».

ويذهب الأستاذ سيد قطب إلى أن العبرة التي تستشف من طريقة التعبير القرآنية عن الحادثتيـن وما تلاهما أنه لا يبرر الفعلـة، ولـكنه كذلك لا يضخمها، ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من إندفاع موسى بدافع العصبية القومية، وهو المختار ليكون رسول الله، المصنوع على عين الله، أو لعله كان لأنه إستعجل الإشتباك بصنائع الطغيان، والله يريـد أن يكـون الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاها، حيث لا تجدي تلك الإشتباكـات الفردية الجانبية في تغيير الأوضاع، كما كف الله المسلمين في مكة المكرمة عن الإشتباك حتى جاء الأوان[2].

وعلى أي حال، فقد كان تصرف الإسرائيلي الأحمق أو هذا الغـوي المبين، كما وصفه موسى، أن شاع الخبر، وأنبئت السلطات التي إرتاعت، كما إرتاع الناس، لما ارتكب موسى من قتل رجل، والشروع في قتل آخر، فكان أن إستقر الرأي على محاكمته بما إرتكـب، والقصاص منه بما جنت يداه، وإن كان موسى قد رأى في ذلك ظلماً صارخاً، وإفتئاتاً عنيفاً، أن يطلب بقتل خطأ لم يتعمده ولم يرغب فيه، ولكن الذي لا شك فيه أنه قتل،

(1) تفسير النسفي ٣/ ٢٢٩، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٩٦.
(2) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٤.

وأن الظواهر وما وقع منه في اليوم التالي لا تقف إلى جانبه، ومن ثم فقد تحقق موسى عليه السلام أنه مطلوب بدم القتيل، وأدرك ألا مظنة من القصاص، فلقد عرف الملأ من قوم فرعون أنها فعلة موسى، وما من شك أنهم أحسوا فيها بسَبح الخطر، فهي فعلة طابعها التمرد والثورة، والإنتصار لبني إسرائيل، ومن ثم فهي ظاهرة خطيرة تستحق التأمل، ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء، فانتدبت يد القدر واحداً من الملأ، الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، والذي جاء ذكره في سورة غافر، إنتدبته ليسعى إلى موسى من أقصى المدينة ليبلغه بتآمر القوم ضده قبل أن يبلغوه، قال تعالى: **﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى، قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إني لك من الناصحين﴾**، وقد سمى الله هنا التشاور إئتماراً، لأن كلا من المتشاورين يأمر ويأتمر[1]، وقد جاءت القصة كاملة في «حديث الفتون» الذي يروي قصة موسى عليه السلام، وقد رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس[2].

وهكذا لم يكد موسى يسمع أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه حتى عزم على التعجيل بالرحيل، ولم يجد مع الخوف فرصة يتزود فيها لهذه الرحلة التي لم يكن يعرف مداها ولا منتهاها، فلقد أوشك القوم أن يحدقوا به، وأن يطبقوا عليه، وأن يفتكوا به، فلا مجال للتفكير فيما وراء ذلك من تعب يضنيه،

---

(١) سورة القصص: آية ٢٠، تفسير البيضاوي ٤/ ١٢٥، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٩٧ - ٩٩، في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٥.

(٢) أنظر عن حديث الفتون المشهور (إبن كثير: مختصر التفسير ٢/ ٤٥٧ - ٤٨١، البداية والنهاية ١/ ٣٠٠ - ٣٠٧، تاريخ الطبري ١/ ٣٩٢ - ٢٩٦، وأخرجه النسائي في سننه، وإبن جرير وإبن حاتم في تفسيرهما، وهو موقوف من كلام إبن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، كما يقول إبن كثير).

وجوع يذوبه، ومسالك يقطعها، ومهالك يرجو النجاة منها، كان كل همه أن يفلت بعنقه من هؤلاء الذين يأتمرون به ليقتلوه، فإن أعوزه الدليل بين متاهات السهول والتلال والجبال، فلن يعوزه أن يلتمس في رحمة الله دليله وسبيله، وإن كمن له الخطر في كل مكمن ومسكن، فعساه يجد في رعاية الله ملاذه ومعاذه[1]، وهكذا يخرج موسى من مصر هائماً على وجهه في صحراوات سيناء المقفرة، فاراً مستوحشاً، خائفاً من أن تناله هروات الشرطة من رجال «المجاي» الأشداء، أو تصل إليه أيدي السلطات، وكان في مصر شرطة منظمة يجند رجالها من قبائل «مدجا» على مقربة من الجندل الثاني[2].

(٢) موسى في مدين: -

ويكتب الله للنبي الكريم سيدنا موسى عليه السلام نجْحاً بعيد المدى في إجتياز القفار، ملتمساً الأمن والسكينة والهدى، حتى يصل إلى مدين، عند خليج العقبة[3]، حيث يجد هناك المأوى والأمان، وهنا تبدأ حلقة جديدة من حياة موسى عليه السلام، بدأت عندما ورد ماء مدين، ورأى مشهداً لا تستريح إليه النفس ذات المروءة، كنفس موسى، رأى الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء، بينما هناك إمرأتان تمنعان غنمهما عن ذلك، مع أن الأولى أن تسقي المرأتان وتصدراً بأغنامهما أولاً، وأن يفسح

---

(١) عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص ١٦١.

(٢) أنظر: A. Gardiner, Egypt of the Pharoohs, 1961, p. 101.

(٣) عن: مدين القبيلة والموقع (أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٥٥٨ - ٥٦١، دراسات تاريخية من القرآن ١/ ٢٩٧ - ٣٠٧)، هذا وقد إختلف المفسرون في «إسم مدين» فذهب فريق إلى أنه إسم رجل في الأصل، ثم كانت له ذرية، فإشتهر في القبيلة كتميم وقيس وغيرهما، وذهب آخرون إلى أنه إسم ماء نسب القوم إليه، والأول أصح، لأن الله تعالى أضاف الماء إلى مدين في قوله تعالى: «ولما ورد ماء مدين»، ولو كان إسما للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقية، والأصل في الإضافة التغاير حقيقة، (تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٦٤، ياقوت الحموي ٥/ ٧٧ - ٧٨).

لهما الرجال ويعينوهما ، ولم يقعد موسى ، وهو الهارب المطارد ، والمسافر المكدود ، ليستريح ، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف ، بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب ، وعندما عرف قصتهما تقدم فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل ، وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى : **﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم إمرأتين تذودان قال ما خطبكما، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير، فجاءته إحداهما تمشي على إستحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين. قالت إحداهما يا أبت إستأجره إن خير من إستأجرت القوي الأمين﴾**[1] .

هذا ويقدم لنا المفسرون عدة روايات عن الحادث ، فقد جاء في تفسير ابن كثير[2] : روى عمرو بن ميمون الأودي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى عليه السلام، لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بأمرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه ، لم يسقي إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم (أخرجه ابن أبي شيبة وإسناده صحيح) ، غير أن صاحب الظلال إنما يذهب إلى أنه لا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى ، كرفع الحجر الذي يغطي البئر، وكان لا يرفعه ، فيما قالوا ، إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل ، فالبئر لم يكن مغطى ، إنما كان الرعاة يسقون فنحاهم وسقي للمرأتين أو سقي لهما مع الرعاة ، ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة :

---

(١) سورة القصص : آية ٢٣ - ٢٦ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٩ - ١٠ .

إمشي خلفي ودليني على الطريق خوف أن يراها، أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثيابها عن كعبها[1]، فهذا كله تكلف لا داعي له، ودفع لريبة لا وجود لها، وموسى عليه السلام عفيف النظر، نظيف الحس، وهي كذلك، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وإمرأة، فالعفة تنضح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا إصطناع.

وعلى أي حال، فلقد إستجاب الشيخ لإقتراح إبنته، ولعله أحسن من نفس الفتاة، ونفس موسى، ثقة متبادلة، وميلاً فطرياً سليماً صالحاً لبناء أسرة، والقوة والأمانة حين تجتمعان في رجل، لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التي لم تفسد ولم تلوث ولم تنحرف عن فطرة الله، فجمع الرجل بين الغايتين، وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى إبنتيه في مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثماني سنين، فإن زادها إلى عشر، فهو تفضل منه لا يلزم به، **﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى إبنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج، فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك، ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾**[2]، قال الإمام القرطبي: في الآية عرض الولي إبنته على الرجل، وهذه سنة قائمة، عرض شعيب إبنته على موسى، وعرض عمر إبنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ، فمن الحُسن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح، إقتداءً بالسلف الصالح[3].

ولعل سائلاً يتساءل: من هو شيخ مدين هذا الذي صاهر موسى عليه السلام؟

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ٢٣١، تفسير البيضاوي ٤/ ١٢٦، الدر المنثور ٥/ ١٢٦ - ١٢٧، تفسير الفخر الرازي ٤/ ٢٣٩ - ٢٤٤، مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١١، تاريخ الطبري ١/ ٣٩٨، ابن الأثير ١/ ٩٩.

(٢) سورة القصص: آية ٢٧، في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٧ - ٢٦٨٨.

(٣) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٧١.

إن سياق القصة في القرآن الكريم لم يتعرض لإسم هذا الشيخ، ذلك لأن التحديد التاريخي ليس هدفاً من أهداف القصة في القرآن الكريم، ولا يزيد في دلالتها شيئاً، وأما التوراة فجد مضطربة في إسم هذا الشيخ، وكذا قبيلته، فمرة هو يثرون كاهن عديان، ومرة هو حوباب بن رعوئيل، ومرة ثالثة هو رعوئيل نفسه، وقبيلته مرة هي قبيلة مديانية ومرة أخرى هي قينية، ومرة ثالثة تأكيد على أنها قينية، حتى زعم البعض أن بني القيني ربما كانوا مديانيين[1].

هذا وقد إختلف علماء المسلمين في صهر موسى عليه السلام، فذهب فريق إلى أنه شعيب عليه السلام، نبي مدين، قال بذلك الأئمة الحسن البصري ومالك بن أنس والنسفي وإبن الأثير[2]، وقال إبن كثير[3]: جاء ذلك مصرحاً به في حديث في إسناده نظر، وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً، بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج إبنته، وروى إبن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري أن صاحب موسى عليه السلام هذا، إسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين، وقيل إنه إبن أخي شعيب، وقيل إبن عمه، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب، وقال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى بمدة طويلة لأنه قال لقومه «وما قوم لوط منكم ببعيد»، وقال إبن عباس وأبوه عبيدة بن عبد الله إسمه «يثرون»، زاد أبو عبيدة: وهو إبن أخي شعيب، وروى إبن جرير عن إبن

---

(١) خروج ٢/ ١٦ - ١٨، ٣/ ١، عدد ١٠/ ٢٩، قضاة ١/ ١٦، ٤/ ١١، وكذا J. Hastings, Encyclopaedi Biblica, p. 3080. وكذا EAE, I, 1908, p. 616

(٢) تفسير النسفي ٣/ ٢٣٢، مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٠، صفوة التفاسير ٢/ ٤٣١، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٩٣، الكامل لإبن الأثير ١/ ٩٩، مروج الذهب للمسعودي ١/ ٦١، تاريخ اليعقوبي ١/ ٣٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٤٤.

عباس أنه «يثري» صاحب مديـن، ثم قال: الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر، ولا خبر بجب به الحجة في ذلك[1].

ويميل صاحب الظلال (٥/ ٢٦٨٧) إلى ترجيح أن صهر موسى عليه السلام ليس شعيباً النبي، وإنما هو شيخ آخر من مدين، والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب النبي بيـن بقيـة قومه المؤمنين، ما سقوا قبـل بنتيّ نبيّهـم الشيـخ الكبيـر، فليس هذا سلـوك قوم مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيّهم وبناته من أول جيل، يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لمسى صهـره، ولـو كان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى، وقد عاش معه عشر سنوات.

وأياً ما كان الأمر، فلم يكن لموسى من بلد يعرفه، ولا وطن يهفو إليه ويتطلع إلى رؤيته، بعد ذلك المنفى الذي فرض عليه أو قدّر عليه، سوى مسقط رأسه مصر، وكأنى به يستعجل الأيام ليعود إلى ذلك البلد الذي ولد فيه، ونشأ في ربوعه، وتنسم هواءه وسعد به، وهو لذلك لم يقطع على نفسه أطول الأجليـن حيـن العهـد مع حميـه، فأعـطى الأمـل، وخص نفسه بالخيار[2]، غير أنه من المعروف أن موسى عليه السلام أتم المدة، وهي عشر سنين، وقد روى أن النبي ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى، قال: أكملهما وأفضلهما، وعـن إبـن عباس أن رسول الله ﷺ قال سألـت جبريـل: أي الأجليـن قضى موسى، قال: أتمهما وأكملهما، وعـن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى، قال: أوفاهما وأبرهما، قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما، وأخرج إبن مردوية عن أبي

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٠، تاريخ الطبري ١/ ٤٠٠، ابن الأثير ١/ ٩٩.

(٢) أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص ١٠١.

هريرة قال رسول الله ﷺ قال لي جبريل: يا محمد، إن سألك اليهود أي الأجلين قضى موسى، فقل أوفاهما، وإن سألوك أيهما تزوج فقل الصغرى، وروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة، أي الأجلين قضى موسى فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت إبن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل (ورواه النسائي في حديث الفتون)، وجاء في تاريخ الطبري عن سعيد بن جبير قال: سألني رجل من أهل النصرانية: أي الأجلين قضى موسى، قلت لا أعلم، وأنا يومئذ لا أعلم، فلقيت إبن عباس، فذكرت له الذي سألني عنه النصراني، فقال: أما كنت تعلم أن ثمانياً واجبة عليه، لم يكن نبي لينقض منها شيئاً، وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده، فإنه قضى عشر سنين»[1].

وهكذا يمكث موسى في مدين عشر سنين[2]، يرزق فيها بولدين من زوجه صفورة[3] ثم يعود إلى مصر، بعد أن قضى أكمل وأتم الأجل الذي كان بينه وبين صهره، وبعد أن علم، طبقاً لرواية التوراة، أن ملك مصر الذي كان يطلبه قد مات[4]، فينبعث الأمل في نفس موسى عليه السلام في العودة إلى أرض الكنانة، بل إنه يقرر العودة فعلاً، وقد «تنهد بنو إسرائيل من العبودية[5]».

---

(١) تفسير النسفي ١/ ٢٣٤، الدر المنثور ٥/ ١٢٦ ـ ١٢٧، تاريخ الطبري ١/ ٣٩٩، ابن كثير: مختصر التفسير ٣/ ١١، البداية والنهاية ١/ ٢٤٥.

(٢) تذهب التقاليد اليهودية والنصرانية إلى أن موسى قد أقام في مدين أربعين عاماً (خروج ٧/ ٧، أعمال الرسل ٧/ ٣٠، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٩٣١).

(٣) خروج ٢/ ٢١ ـ ٢٢، ١٨/ ١ ـ ٦.

(٤) خروج ٢/ ٢٣، ٤/ ٢٩، وأنظر: في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٧٧.

(٥) خروج ٢/ ٢٣ ـ ٢٥.

الفصل الثالث

موسى الرسول النبي

(١) المبعث : -

في الطريق من مدين إلى مصر، ضل موسى عليه السلام طريقه في الصحراء، والليل مظلم، والمتاهة واسعة، نعرف هذا من قوله لأهله: **﴿أمكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾**[١]، قال ابن عباس: إنه رأى شجرة خضراء أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون، فوقف متعجباً من شدة ضوئها، وشدة خضرة الشجرة، فلا النار تغيّر خضرتها، ولا كثرة ماء الشجر تغير ضوءها، وقيل إن الشجرة كانت عوسجة، وقيل كانت سمرة، وهناك طور سيناء، وفي تلك الليلة المباركة **﴿نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك[٢] إنك بالوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي، إني**

(١) سورة طه: آية ١٠، تفسير أبي السعود ٦/ ٧.

(٢) ذهب المفسرون مذاهب شتى في أسباب أمر الله تعالى لموسى بخلع نعليه، فقالوا ربما لأن الحفوة أدخل في التواضع وحسن الأدب، وربما تعظيماً لهذه البقعة المقدسة، ومن ثم فقد كان السلف الصالح يطوفون بالكعبة حافين، وربما ليباشر الوادي بقدميه تبركاً به، وربما لأن نعليه كانتا جلد حمار غير مدبوغ، وربما كان المعنى فرغ قلبك من الأهل والمال، ثم قيل إنك بالوادي المقدس وذلك لتعليل الخلع، ثم نودي بإصطفائه رسولاً نبياً (تفسير أبي السعود ٦/ ٧، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧١).

أنا الله لا إلـه إلا أنا فأعبدني وأقم الصـلاة لذكري﴾[1] ، وذهـل موسـى ، ونسي ما جاء من أجاه ، وبينما هو مستغرق فيما هو فيه ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه ، إذا هو يتلقى سؤالاً لا يحتاج منه إلى جواب : **﴿ وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى، قال ألقها يا موسى، فألقاها فإذا هي حية تسعى، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى، واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى، لنريك من آياتنا الكبرى، إذهب إلى فرعون إنه طغى، قال رب إشرح لي صدري ويسر لي أمري وأحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيرا، قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾**[2] .

وهكذا ، هناك ، وفي هذا الموقف المشهود ، الذي وقفه موسى في تلك البقعة المباركة من سيناء ، إصطفى الله تعالى موسى لنفسه ، وعهد إليه برسالته إلى فرعون ، **﴿ إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري، إذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغي قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى، فأتياه فقولا إنا رسولا ربك، فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم، قد جئناك بآية من ربك، والسلام على من اتبع الهدى﴾**[3] .

وهنا يحس النبي الكريم بثقل العبء الذي ألقي على كاهله ، وقد كان ، وهو عائد إلى وطنه ، يقدر الأمن بعد الخوف ، والقرار بعد الفرار ، فإذا

---

(١) سورة طه : آية ١١ ـ ١٤ .

(٢) سورة طه : آية ١٧ ـ ٣٦ .

(٣) سورة طه : آية ٤٢ ـ ٤٦ .

به يبعث، كما يقول ابن كثير إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأبلغهم تمرداً، ولا ريب في أن في أحداث التاريخ مصداقاً لذلك، وموسى نفسه يعرف من هو فرعون، فقد ربّي في قصره، وشهد طغيانه وجبروته، وشاهد ما يصبه على قومه من بني إسرائيل من عذاب ونكال، إن موسى، عليه السلام، يعرف ذلك كله ويعرف أنه ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض وأطغى جبار، وأن قومه قد أذلهم الإستعباد الطويل وأفسد فطرتهم، ومن ثم فإن رسالة موسى بالذات، قد تكون فيما يرى صاحب الظلال، أضخم تكليف تلقاه بشر، عدا رسالة سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم، فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر، أعتى ملوك الأرض في زمانه، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم ملكاً، وأعرقهم حضارة، وأشدهم بعبداً للخلق، وإستعلاء في الأرض.

وهو مرسل أيضاً لإستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى إستمرأوا مذاقه، فمرءوا عليه وإستكانوا دهراً طويلاً، والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن، ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع، ومن الإشمئزاز من العفن والنتن والرجس والدنس، فإستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير، وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة إنحرفوا عنها وفسدت صورتها في قلوبهم، فلا هي قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة، ببراءة وسلامة، ولا هي باقية على عقيدتها القديمة، ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة، وهو في إختصار مرسل لإعادة بناء أمة، بل لإنشائها من أساس، فلأول مرة سيصبح بنو إسرائيل شعباً مستقلاً، له حياة خاصة، تحكمها رسالة، وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير[1].

ومن هنا كانت دعوة موسى وهارون «ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٩٠.

أن يطغي»، والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى، والطغيان أشمل من الأذى، وفرعون يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما، وهنا يجيء الرد الحاسم للنبيين الكريمين **﴿لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾**، ثم يحدد لهما قاعدة رسالتهما **﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسولا ربك﴾** ليشعر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربه، وهو رب الناس، فليس هو إلهاً خاصاً بموسى وهارون أو ببني إسرائيل[1]، كما كان سائداً في خرافات الوثنية يومذاك أن لكل قوم إلهاً أو آلهة، أو كما كان سائداً في بعض العصور من أن فرعون مصر إله يعبد فيها لأنه من نسل الآلهة، الأمر الذي سنناقشه فيما بعد، ثم إيضاح لموضوع رسالتهما «فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم»، ففي هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون، لإستنقاذ بني إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها إلى أن يفسدوا فيها فيدمرهم تدميراً[2].

على أن موسى عليه السلام سرعان ما يتذكر أنه قتل من المصريين نفساً، ما زال يحمل وزرها في ضميره، وأنه قد خرج من مصر هارباً من

---

(١) تطلق التوراة على الله، جل جلاله، لفظ «يهوه» وأحياناً «إلوهيم»، وهو في كلتا الحالتين إله بني إسرائيل دون سائر البشر، وليس رب العالمين، كما يعتقد المسلمون والمسيحيون، وقد بدأت فكرة الإله الواحد في التوراة مع إبراهيم، حيث جعلت الرب الإله، رباً لإبراهيم ثم إسحاق فيعقوب ثم موسى، ثم جعلته بعد ذلك إلهاً لبني إسرائيل جميعاً على أيام النبي إشعياء، ولكنها لم تخرج به من دائرة بني إسرائيل إلى غيرهم من الشعوب، فقد ظل المعنى المتضمن لمفهوم الله تعالى في التوراة على أنه إله إسرائيل في المقام الأول، وهكذا كانت ديانة يهود في التوراة ديانة أسرة بشرية واحدة هي بنو إسرائيل (تكوين ١٢/ ١ ـ ٣، ١٣/ ١٤ ـ ١٨، ١٥/ ١٨ ـ ٢٠، ٢٦/ ٢٤، خروج ٣/ ٦، ٦/ ٦ ـ ٧، يشوع ٨/ ٣، ٩/ ١٨، ١٣، صموئيل أول ٢٥/ ٣٣، أخبار أيام أول ١٦/ ٣٦، ثم أنظر: محمد بيومي مهران: ٤/ ٢١٩ (الباب الأول ـ الديانة اليهودية).

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٦ ـ ٢٣٣٧.

الذين إئتمروا به ليقتلوه، فكيف يعود إلى قبضة الحاقدين عليه، المتربصين به، المطالبين بالثأر منه، ليدعو فرعون بترك ألوهيته المزعومة، ثم إستنقاذ بني إسرائيل من بين يديه، وهم، فيما يرى، عبيده وخدمه، ولكنه عليه السلام، وهو في حضرة ربه، وربه يكرمه بلقائه، ويكرمه بنجائه، ويكرمه بآياته، ويكرمه برعايته، فما له لا يحتاط لدعوته خيفة أن يقتل فتنقطع رسالته **﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ﴾**[2]، يقولها لا ليعتذر أو يتقاعس، ولكن ليحتاط للدعوة، ويطمئن إلى مضيها في طريقها، لو لقي ما يخاف، وهو الحرص اللائق بموسى القوي الأمين **﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني[3]، إني أخاف أن يكذبون ﴾**[4]، ومن ثم فسرعان ما تأتيه البشارة من ربه **﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً**

---

(1) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١٠٢، عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص ١٦٧.

(2) سورة القصص: آية ٣٣.

(3) يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره (٢٤/ ١٢٢-١٢٣، ٢٤٩) لما أمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون وقومه طلب أن يبعث معه هارون إليهم وذلك لسببين، الأول: أن فرعون ربما كذب موسى، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعثر الكلام على من يكون في لسانه جسة، ومن ثم فقد بدأ بخوف التكذيب، ثم ثنى بضيق الصدر، ثم ثلث بعدم إنطلاقة اللسان، وأما هارون فهو أفصح لساناً منه، وليس في حقه هذا المعنى، فكان إرساله لائقاً، والثاني: أن لهم عندي ذنباً، فأخاف أن يبادروا إلى قتلي، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة، وأما هارون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة، وأعلم أنه ليس في إلتماس موسى أن يضم إليه هارون ما يدل على أنه إستعفى من الذهاب إلى فرعون، بل مقصودة فيما سأل ربه أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه في الوصول إلى المراد، وهكذا يكون تصديق هارون لموسى بمعنى أن يعاضده على إظهار الحجة والبيان، ووذلك بأن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار، ويذهب السّدى إلى أن نبيّن وآيتين أقوى من نبي واحد وآية واحدة، وإن ذهب آخرون إلى أنه من حيث الدلالة لا فرق بين معجزة ومعجزتين ونبي ونبيين.

(4) سورة القصص: آية ٣٤.

فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن إتبعكما الغالبون﴾[1]، وهنا تبدأ قصة موسى عليه السلام، وخروج بني إسرائيل من مصر.

(٢) بني موسى وفرعون : -

صدع موسى بما أمره الله عز وجل به، فولى وجهه، مع أخيه هارون، شطر قصر فرعون، ليدعو صاحبه بدعوة الحق والعدل والعقيدة الصحيحة، أملاً من الكليم في أن يسمع فرعون دعوة التوحيد، ويسمح بخروج بني إسرائيل من مصر، تقول التوراة: «ودخل موسى وهارون، وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إله إسرائيل، إطلق شعبي ليعودوا لي في البرية، فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل، لا أعرف الرب، وإسرائيل لأطلقه، فقالا له: إله العبرانيين قد إلتقانا، فنذهب سفر ثلاثة أيام في البرية، ونذبح للرب إلهنا، لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف[2]»، وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: **﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين، حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾**[3].

غير أن فرعون لم يؤمن بموسى ولم يسمح له، وإنما إتهمه وهارون بأنهما «يبطلان الشعب من أعماله» ثم أمر ألا يعطي الإسرائيليين تبناً، ومن ثم فعليهم أن يجمعوه بأنفسهم من القرى لعمل ما كلفوا به من التبن، وأن من يتأخر منهم عن القيام بصناعة الكمية المحددة إنما سوف يكون عقابه الضرب الشديد[4]، ومن عجب أن التوراة وإن أشارت من قبل إلى إيمان بني

---

(١) سورة القصص: آية ٣٥.

(٢) خروج ٥/ ١ - ٣.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٠٤ - ١٠٥، وأنظر: تفسير القرطبي ١٣/ ١٣ - ١٤، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٠، تفسير المنار ٩/ ٣٣، ٣٧ - ٤٠.

(٤) خروج ٥/ ٤ - ١٨، ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٦٣.

إسرائيل بموسى وهارون ودعوتهما، إلا أنها سرعان ما تعود ثانية لتقول إنهم «لم يسمعوا لموسى من صغر النفس ومن العبودية القاسية، رغم ما وعدهم به موسى من إنقاذ لهم من عبودية المصريين، ومن إتخاذهم شعباً مختاراً لرب إسرائيل، وإدخالهم الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، رغم ذلك كله فإنهم لم يؤمنوا بموسى ولم يسمعوا له، بسبب صغار في نفوسهم بسبب العبودية القاسية[1]، وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: **﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه[2] على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم، وإن فرعون لعال في الأرض، وإنه لمن المسرفين﴾**[3]، والنص القرآني يفيد أن الذين أظهروا إيمانهم بموسى من بني إسرائيل إنما كانوا هم الفتيان

---

(1) خروج ٤/ ٢٩ - ٣١، ٦/ ٦ - ٩.

(2) إختلف المفسرون في هذه الذرية التي آمنت بموسى، فذهب فريق، وهم الأكثر، إلى أنهم من بني إسرائيل، وذلك أن موسى دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف، وقال مجاهد: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم، وإختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل، لا من قوم فرعون، لعودة الضمير على أقرب المذكورين، وذهب فريق آخر إلى أنهم من قوم فرعون، قال إبن عباس: الذرية التي آمنت لموسى من غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير، منهم إمرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون وإمرأته خازنة (وإن كان لإبن عباس قول آخر من بني إسرائيل)، ويذهب ابن كثير إلى أنهم من قوم فرعون لأن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه، وأما الضمير «وفي ملئهم» فيرجع إلى فرعون، والجمع لما هو معتاد في ضمائر العظماء، ولا يأباه مقام بيان علوه في الفساد والتسلط على العباد، أو لأن المراد به فرعون بمعنى آل فرعون أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون أو إلى الذرية على خوف من فرعون وأشراف بني إسرائيل لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم (تفسير النسفي ٢/ ١٧٢ - ١٧٣، تفسير أبي السعود ٤/ ١٧٠، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٢ - ٢٢٣، تفسير الطبري ١٥/ ١٦٣ - ١٦٧، تفسير الخازن ٣/ ٢٠٢ ٨ ٢٠٤، تفسير المنار ١١/ ٣٨٣ - ٣٨٤، تفسير القرطبي ص ٣٢٠٨.).

(3) سورة يونس: آية ٨٣.

الصغار، لا مجموعة الشعب الإسرائيلي، وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم من أتباع موسى، خوفاً من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب السلطان، والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة، وبخاصة من بني إسرائيل، وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت، كما كان مسرفاً في الطغيان لا يقف عند حد، ولا يتحرج من إجراء قاس[1]، وهكذا يبدو واضحاً إلى أي مدى قد أذل الإستعباد قوم موسى، وأفسد طباعهم، فأعرضوا عن الحق وأصبحوا لا يملكون من أمر نفسهم شيئاً، فلقي منهم نبيّهم العنت الشديد.

وعلى أية حال، فلقد عجب فرعون، وهو يرى موسى عليه السلام، يواجهه بهذه الدعوى الضخمة «إني رسول رب العالمين» ثم يطالبه بهذا الطلب الضخم «أن أرسل معي بني إسرائيل»، ومن ثم فقد كان بين موسى وفرعون جدل شق وإستطال ذكّر فرعون فيه موسى بتربيته في القصر الملكي، وكيف أحسن سلفه[2] مثواه، ثم كيف إرتكب جريمته تلك، يعني قتل موسى لمصري، ثم فر هارباً من مصر كلها، دون أن يناله من القصاص ما يستحق **﴿قال ألم نربك فينا وليداً، ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين﴾**[3]، وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه رداً قاتلاً لا يملك معه موسى جواباً، ولا يستطيع مقاومته، وبخاصة حكاية القتل، وما يمكن أن يعقبها من القصاص، فأجابه موسى عليه السلام **﴿قال فعلتها إذن وأنا من الضالين، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين، وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل﴾**[4].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٨١٥.

(٢) قارن: إبن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٥٠.

(٣) سورة الشعراء: آية ١٨ ـ ١٩.

(٤) سورة الشعراء: آية ٢٠ ـ ٢٢.

ويتصل الجدل والحوار بين الرجلين، النبي والملك، **﴿قال فرعون وما رب العالمين، قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، قال لمن حوله ألا تسمعون، قال ربكم ورب آبائكم الأولين، قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون، قال لئن إتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين، قال أو لو جئتك بشيء مبين، قال فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾**[1]، وكانت هذه مفاجأة ضخمة لفرعون وملئه، فالعصا[2] تنقلب إلى ثعباناً لا شك في ثعبانيته، ثم إن

---

(١) سورة الشعراء: آية ٢٣ - ٣٣.

(٢) هناك عدة روايات بشأن عصا موسى هذه، منها (أولاً) أن شعيباً كانت عنده عصى الأنبياء، فامر موسى أن يأخذ له واحدة منها، فأخذ موسى عصا هبط بها آدم من الجنة ولم تزل الأنبياء تتوارثها حتى وقعت إلى شعيب، فضنّ بها شعيب على موسى وطلب أن يأخذ غيرها، فما وقع في يده غيرها سبع مرات فعلم أن له معها شأناً، وروى أن شعيباً أمر إبنته أن تأتي لموسى بعصا، فلما أتته بها قال إئته بغيرها، فلما أرادت أن تأخذ غيرها لم يقع في يدها غيرها، فلما رآها الشيخ رضي، ثم ندم وخرج يطلب موسى، لكن موسى رفض أن يعطيه إياها، ثم إتفقا على أن يحتكما إلى أول من يلقاهما، فلقيهما مَلَك فقضى بأن يضعوها على الأرض فمن حملها فهي له، فلم يستطع الشيخ حملها، وأخذها موسى بسهولة، فتركها له الشيخ، ومنها (ثانياً) رواية تقول أنه كان في دار بيرون ابن أخي شعيب بيت لا يدخله إلا هو وإبنته التي تزوجها موسى، وكان في ذلك البيت ثلاث عشرة عصا، وكان له أحد عشر ولداً، فأخذ كل واحد منهم عصا، ثم إحتاج موسى عصا، ولم يجد أهله في الدار، فدخل البيت وأخذ تلك العصا، فلم علم بيرون بما حدث فرح وقال لإبنته: إن زوجك هذا نبي، وأن له مع هذه العصا لشأناً، ومنها (ثالثاً) رواية تقول إن موسى كان يرعى غنم حميه فنام، وإذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى فقتلته وعادت وهي دامية، فلما إستيقظ موسى ورأى العصا دامية والتنين مقتولاً، إرتاح وعلم أن في تلك العصا آية، فأخبر حميه بالقصة ففرح وعلم أن لهذه العصا شأناً، وأراد أن يكافيء موسى على حسن رعيه وصلته لإبنته، فوهب له كل أبلق وبلقاء تضعها أغنامه في تلك السنة، فأوحى الله إلى موسى أن أضرب بعصاك الماء الذي تسقي الغنم منه، فوضعت جميعها ما بين أبلق وبلقاء، فعلم شعيب أن هذا رزق ساقه الله لموسى وزوجته فوفي له شرطة، ومنها (رابعاً) رواية تقول إن هذه العصا عصا آدم وأن جبريل أخذها =

يده السمراء، وقد كان موسى عليه السلام «آدم» أي مائلاً إلى السمرة، يخرجها من جيبه، فإذا هي بيضاء من غير سوء، بيضاء ليست عن مرض، ولكنها المعجزة، فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء، فإذا فرعون، وقد أحس بضخامة المعجزة وقوتها يسرع بمقاومتها ودفعها، وهو يحس ضعف موقفه، ويكاد يتملق القوم من حوله، ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ليغطي على وقع المعجزة المزلزلة ﴿**قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون**﴾[1].

ولعل سائلاً يتساءل: لم إختار الله معجزة لموسى عليه السلام من نوع السحر؟

ولعل الجواب على ذلك، إنما يأتي من دراستنا للتاريخ المصري في عصوره القديمة، حتى نستطيع أن ندرك الحكمة من نزول الآية والمعجزة بالصورة التي شاء الله أن تنزل بهما، فما كانت لتنزل إلا في أمر من واقع حياة الناس وما يدور بأذهانهم فتكون محققة في أعينهم على غير قاعدة ولا قياس لخارق من الأعمال، طالما فكروا فيه وسمروا به وضربوا به أغوار الوهم وتخيلوه، وقد ورد لنا عن الحياة المصرية القديمة من أحاديث السحر والسحارين ما كان الناس يخرجون به إلى عالم الغيب من عالم الشهادة، ومن دنيا الواقع إلى آفاق الخيال[2].

= بعد موت آدم فبقيت معه حتى لقي موسى ربه ليلاً، ومنها (خامساً) رواية تنسب للحسن البصري تقول إنها من عرض الشجر أخذها موسى دون أن يتخيرها، وعن الكلبي أنها من شجرة العوسج، ورأى الفخر الرازي أنه لا مطمع في ترجيح رواية على أخرى، لأنه ليس في القرآن ما يدل عليها والأخبار متعارضة (تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ٢٤٦ - ٢٤٧).

(١) سورة الشعراء: آية ٣٤/ ٣٥، تاريخ الطبري ١/ ٤٠٣، في ظلال القرآن ٣/ ١٣٤٧، ٥/ ٢٥٩٤.

(٢) أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص ١٠٤.

وهكذا كانت معجزة موسى من نوع السحر الذي برع المصريون فيه ، ومن نفس المنطق ، وعلى نفس الدرب ، كانت معجزة القرآن الكريم الأولى في بيانه الذي خرست معه الألسنة فما تنطق ، وفي فصاحته التي شدهت معها الأفئدة فما تعي ، وسوف يظل هذا البيان وتلك الفصاحة حجة على العالمين ، تلك كانت معجزة القرآن الأولى يوم طالع الرسولُ العرب ، وهم ما هم بياناً وفصاحة[1] ، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم ، وما أمر أسواق العرب التي كانوا يعرضون فيها بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة ، بخاف على متأدب .

فما هو إلا أن جاء القرآن ، وإذا الأسواق قد إنفضت ، إلا منه ، وإذا الأندية صَفِرَتْ ، إلا عنه ، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه ، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة ، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة ، أو تقديم واحدةوتأخير أخرى ، ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة ، بل فتحه على مصراعيه ، بل دعاهم إليه أفراد أو جماعات ، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى ، متهكماً بهم متنزلاً معهم إلى الأخف فالأخف[2] ، فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله[3] ، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله[4] ، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله[5] ، ثم بسورة واحدة من مثله[6] ، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن إستطاعوا ، ثم رماهم ـ والعلم كله ـ

---

(١) إبراهيم الإبياري : تأريخ القرآن ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ، نظرات جديدة في القرآن ، الكويت ١٩٧٠ ص ٨٤ .

(٣) سورة الإسراء : آية ٨٨ .

(٤) سورة هود : آية ١٣ .

(٥) سورة يونس : آية ٣٨ .

(٦) سورة البقرة : آية ٢٣ .

بالعجز في غير مواربة، فقال: **﴿قل لئن إجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**[1].

وهكذا شاء الله، أن يقرأ النبي الأمي، وأن تكون معجزته كتاباً **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾**[2]، وأن يكون هذا الكتاب بما يتعلق فيه من آيات العلم والحكمة والسمو الأدبي، هو حجته البالغة على أنه مبلغ عن الله، لا يد له فيما يتلوه منه، كما يقول الله تعالى: **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾**[3]، ثم ليكون هذا الكتاب دستور أمة أمية، لم تكن تقرأ وتكتب، وأن يكون هذا الدستور أكمل وأمثل نظام عرفته البشرية، وأن يكون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، معجزة الإنس والجن في كل دهر وعصر[4].

وعوداً على بدء، إلى معجزة موسى عليه السلام، حيث نرى أن المصريين إنما كانوا - فيما تشهد به قصص أدبهم - يحبون أحاديث السحر وخوارق الأعمال، وفيما نسبوه إلى خوفو - وهو إختصار إسمه الكامل خنوم خوفو وى - في بردية وستكار[5] - أو قصة خوفو والسحرة، من حبه السحر

---

(1) سورة الإسراء: آية ٣٨، وأنظر: تفسير القرطبي ص ٣٩٤٢ - ٣٩٤٣، عبد الله محمود شحاتة: تفسير سورة الإسراء ص ٢٣٤ - ٢٣٧.

(2) سورة فصلت: آية ٤٢، وأنظر تفسير الكشاف ٤/ ٢٠١ - ٢٠٢، تفسير مجمع البيان ٢٤/ ٢٤ - ٢٦، تفسير روح المعاني ١٤/ ١٢٧ - ١٢٨، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٣١، تفسير النسفي ٤/ ٣٨٠، تفسير القرطبي ص ٥٨١٠ - ٥٨١١، تفسير إبن كثير ٧/ ١٧١ - ١٧٢.

(3) سورة العنكبوت: آية ٤٨، وأنظر: تفسير القرطبي ص ٥٠٦٧ - ٥٠٦٩.

(4) عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص ٤ - ٦.

(5) البردية محفوظة بمتحف برلين، وترجع إلى أيام الدولة الوسطى، وربما إلى عصر الهكسوس، وكان «أدولف إرمان» أول من عُني بنشرها، كما نشرها «جاستون ماسبيرو» و «ماكس بيير» و «بييت»، ومجموعة من العلماء المصريين والأوروبيين بعد ذلك، (انظر: =

وإقباله عليه، ما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس في العصور القديمة من خيالات يردونها إلى السحر ويستعينونه عليها[1].

تروى البردية في القصة الثالثة ـ أو قصة الزوج المخدوع ـ أن كاهناً يدعى «أوبا أونر» كانت له زوجة قد أقامت علاقة غير شريفة مع فتى من أواسط الناس، وأنهما كانا يلتقيان ـ في غياب زوجها ـ في منزل ريفي يملكه الزوج الكاهن على حافة بحيرة، حيث كانا يعاقران الخمر، ويرتكبان ما حرم الله، ثم ينزل الفتى آخر النهار في البحيرة، على أن حارس البيت، وقد سدرت المرأة في غيها، ومضت في ضلالها زمناً، قد عمد فمشى بخبرها إلى زوجها، الذي صنع من الشمع كهيئة التمساح، فألقاه في البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر، ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم، فلما نزل الفتى إلى الماء قبض التمساح عليه ونزل به إلى الماء، ثم تحدث الكاهن بخبر زوجته الخاطئة إلى الملك ودعاه إلى بيته ليشهد العشيق الشاب بين فكي التمساح، هنالك وقف الملك على حافة البحيرة مع الكاهن الذي نادى التمساح فخرج إليهما فريسته، فما أن رأى الملك التمساح حتى إرتاع وفزع من مرآة، ولكن الكاهن ما كاد ينحني عليه ليلتقطه حتى عاد سيرته الأولى دمية من الشمع[2].

= A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927. p. 36 - 47. وكذا

G. Lefebvre, Romans et Contes Egyptien de L'Epoque Pharaoninque, Paris, 1949, p. 70 - 77.

J. Maspero, Popular Stories of Ancient Egypt, p. 21 F.

Max pieper, Die Agyptische Literatur. F.

(١) أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص ١٠٥.

(٢) جوستاف لوفيفر: روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني، ترجمة علي حافظ، ص ١٤١ ـ ١٤٤، أحمد فخري: تاريخ الحضارة المصرية ـ العصر الفرعوني، الأدب المصري القديم، القاهرة ١٩٦٢ ص ٣١٧، أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص ٤٧، ١٠٥، سليم حسن: الأدب المصري القديم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٥ ص ٧٧ ـ ٧٨.

وتروي البردية في قصة سنفرو ـ رأس الأسرة الرابعة ـ وفتيات القصر، أن الملك إنما كان قد أحس ذات يوم ضيقاً في الصدر، وحزناً في النفس، فأشار عليه كاهنه «جا جام عنخ» بالنزول إلى بحيرة القصر، مع عشرين فتاة من الغيد الحسان من فتيات قصره، يجدفن ويغنين، وقد فعل الملك، فتسربت إليه البهجة وسرى إلى نفسه السرور، بما شهد من فتيات ليس عليهم من اللباس إلا ثياب من شبك لا تكاد تستر شيئاً، وبما سمع من غنائهن، وهن يسرن به في أمواه البحيرة وسط الخمائل والأغصان، لولا ما رأى من توقفهن عن التجديف، لما شكت إحدهن من سقوط حليّة لها في الماء وإصرارها على الحصول على حليتها لا ترضى عنها بديلاً ولا عوضاً من الملك.

وسرعان ما إستدعى الكاهن «جا جام عنخ» على عجل، فما أن علم بالخبر، حتى قرأ من عزائم السحر، الذي إنشقت له مياه البحيرة، حيث إنطوت نصف على نصف، فأصبح إرتفاع ماء البحيرة أربعة وعشرين ذراعاً في أحد الجانبين، بعد أن كان إثنى عشر فقط، ورأوا في قاع البحيرة تلك الحلية، وقد إستقرت فوق قطعة مكسورة من فخار، فأشار إليها الكاهن ثم سلمها إلى صاحبتها.

وتروي البردية ـ مرة ثالثة ـ في قصة الساحر «ددي» الذي بلغ من سحره أن يلحم الرأس المقطوع، ويذلل الأسد لإرادته، أن قد دعى إلى حضرة الملك «خوفو»، حيث عرض سحره عليه، وأوقعه بأوزة ثم ثور، فصل رأس كل منهما، ثم ما زال يقرأ من عزائمه، والرأس يقترب من الجسد حتى إلتحما وعادت الحياة إلى كل منهما، ثم أعاد التجربة مرة ثانية في بطة، ثم في ثور، فنجح في ذلك كله[١].

(١) جوستاف لفيفر: المرجع السابق ص ١٤٧ ـ ١٥١، أحمد فخري: المرجع السابق ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠، سليم حسن: المرجع السابق ص ٨١ ـ ٨٣، أحمد عبد الحميد يوسف المرجع السابق ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

وهكذا يمكننا أن نفهم ما دار بين موسى وسحرة فرعون، حينما «كلم الرب موسى وهارون قائلاً: إذا كلمكما فرعون قائلاً: هاتيا عجيبة تقول لهارون خذ عصاك وأطرحها أمام فرعون فتصير ثعباناً، فدخل موسى وهارون إلى فرعون وفعلا هكذا كما أمر الرب، طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً»[1]، وإلى عصا موسى ـ وليس هارون كما تقول التوراة ـ يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين** ﴾[2].

وهنا رأى الملأ من قوم فرعون ما راعهم وروّعهم، ولكن خوفهم من فرعون منعهم من أن يقولوا كلمة الحق، رأوا عصا موسى وقد صارت حية تسعى، ورأوا يده بعد أن أخرجها من جيبه، وقد صارت بيضاء من غير سوء، فلم يصدقوه مع ذاك في أنه مرسل من قبل الله رب العالمين، وإتهموه بأنه ساحر ماهر، يريد أن يستعلي هو وأخوه في أرض مصر، ليخرجا منها أهلها، ويمكنا لبني إسرائيل فيها، وإنتهوا بعد التشاور إلى أن يرجىء فرعون موسى وأخاه، دون عقاب، حتى تبطل حجتهما وتثبت إدانتهما، وذلك بأن يحضر المهرة من السحرة من مدائن مصر، ليواجه بهم هذا الساحر الماهر، وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: ﴿ **قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون، قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم** ﴾[3].

واجتمع السحرة في ميقات معلوم، يوم الزينة، ولعله يوم عيد وفاء

---

(۱) خروج ۷: ۸ ـ ۱۰.

(۲) سورة الشعراء: آية ۳۲ ـ ۳۳.

(۳) سورة الأعراف: آية ۱۰۹ ـ ۱۱۲، وأنظر: تفسير الطبري: ۱۳/ ۱۸ ـ ۲٥، تفسير المنار ۹/ ۳۳ ـ ٥٥، تفسير إبن كثير ۳/ ٤٥۱ ـ ٤٥۲، وأنظر: يونس آية ۷۸ ـ ۷۹، طه ٥۷ ـ ٦٤، الشعراء ۳٤ ـ ۳۸.

النيل، أو غيره من أعياد المصريين[1]، ثم تقدموا ممتلئين ثقة بأن لهم النصر والأجر، ﴿**قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، قال نعم وإنكم لمن المقربين**﴾[2]، ومن ثم فقد خيروا موسى فيمن يبدأ قائلين: ﴿**يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى**﴾[3]، ويذهب الإمام الفخر الرازي إلى أن السحرة المصريين قد تواضعوا لموسى عليه السلام فقدموه على أنفسهم، فقالوا «إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى»، فلما تواضعوا له، تواضع هو أيضاً فقدمهم على نفسه، وقال: ﴿**ألقوا ما أنتم ملقون**﴾، وهكذا قدم موسى السحرة على نفسه، رجاء أن يصير ذلك التواضع سبباً لقبول الحق، ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب، ويقول الزمخشري في الكشاف: تخيّيرهم إياه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا إلتقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاصموا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يأخذوا في الصراع، وقال القرطبي: تأدبوا مع موسى بقولهم «إما أن تلقي» فكان ذلك سبب إيمانهم.

على أن هناك من يذهب إلى أن تخيّيرهم لموسى لم يكن من باب الأدب، وإنما كان كما يقول صاحب البحر المحيط، من باب الإدلال لما يعلمونه من السحر، وإيهام الغلبة والثقة بأنفسهم، وعدم الإكتراث بأمر موسى، وقد أعطاهم موسى فرصة التقدم، وثوقاً بالحق، وعلماً بأن الله تعالى سيبطل سحرهم، كما حكى الله عن موسى، حيث قال: ﴿**ما جئتم به السحر**

(1) أنظر عن الأعياد (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية ـ الإسكندرية ١٩٨٤ ص ١١٢ ـ ١١٥).

(2) سورة الأعراف: آية ١١٣ ـ ١١٤، وأنظر: الشعراء: آية ٤١ ـ ٤٢.

(3) سورة طه: آية ٦٥، وأنظر: الأعراف: آية ١١٥، ثم قارن: يونس: آية ٨٠ (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) والشعراء آية ٤٣ (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) وفي هاتين الآيتين (بعكس آيتي الأعراف ١١٥، طه ٦٥) نرى موسى عليه السلام هو الذي يقدم السحرة، دونما تخيير منهم له، على أن يبدأوا بعرض مهاراتهم السحرية.

إن الله سيبطله﴾ ويذهب صاحب الظلال إلى أن التحدي إنما كان واضحاً في تخيرهم لموسى، وتبدو كذلك ثقتهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة، وفي الجانب الآخر تتجلى ثقة موسى عليه السلام، وإستهانته بالتحدي، «قال ألقوا» فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة، وتلقي ظل الثقة الكامنة وراءها في نفس موسى، على طريقة القرآن الكريم في إلقاء الظلال بالكلمة المفردة في كثير من الأحايين[1].

وأياً ما كان الأمر، فلقد تقدم السحرة[2] واثقين من النصر، ﴿فألقوا

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٣٣ ـ ١٣٤، تفسير البحر المحيط ٤/ ٣٦١، تفسير القرطبي ١١/ ٢١٤، في ظلال القرآن ٣/ ١٣٤٩.

(٢) اضطرب الناقلون للأخبار في عدد السحرة اضطراباً متناقضاً يعجب العاقل، كما يقول أبو حيان، من تسطيره في الكتب، فمن قائل ١٢ ألف أو ١٧ ألف أو ٣٠ ألف أو ٨٠ ألف، أو ٧٠ ألف، ألقوا ٧٠ ألف عصا، ٧٠ ألف حبل، على أن أغرب ما في الروايات أنهم كانوا ٧٢ ساحراً، اثنان من المصريين، ٧٠ من بني إسرائيل، وقيل تسعمائة، ثلاثمائة من الفرس، وثلاثمائة من الروم، وثلاثمائة من الإسكندرية، وجاء في تفسير الطبري عن ابن عباس أن فرعون قال: لا نغالبه (أي موسى) إلا بمن هو منه، فبعث بعلماء بني إسرائيل إلى الفرما يعلمونهم السحر، لما يعلم الصبيان الكتاب في الكُتاب، فعلموهم سحراً كثيراً، حتى قال كبيرهم أنه علمهم سحراً لا يطيقه أهل الأرض، إلا أن يكون أمراً من السماء، فإنهم لا طاقة لهم به، فأما سحر أهل الأرض فإنه لن يغلبهم (تفسير الطبري ١٣/ ٢٥، تفسير البحر المحيط ٤/ ٣٦٠، ٦/ ٢٦، تفسير القرطبي ١١/ ٢١٤، إبن كثير: مختصر التفسير ٢/ ٤٨٦، البداية والنهاية ١/ ٢٥٤، تفسير الدر المنثور ٣/ ١٠٦، تاريخ إبن الأثير ١/ ١٠٣، تفسير النسفي ٣/ ٥٧) وبدهي أن المبالغة واضحة من هذه الأعداد، فما كان التنافس بينهم وبين موسى يحتاج إلى أعداد تصل إلى تسعمائة ألف ساحر، وربما كان رقم ٧٢ ساحراً، مقبولاً نوعاً ما، وأما الأماكن التي جاء منها السحرة كبلاد الفرس والروم والإسكندرية، فليت الذين كتبوا ذلك يعلمون أن الإسكندرية أنشئت عام ٣٣٢ ق. م، وبعد هذه الأحداث بما يقرب من ألف عام، وأن الفرس ظهروا عام ٥٢٥ ق.م، أي بعد هذه الأحداث بحوالي ٧٠٠ عام، والروم بعدها بما يقرب من إثنى عشر قرناً، وأن الفرما أو العريش لم تكن من المراكز العلمية في مصر، وأن مصر باتت تموج بالسحرة، وقد بلغوا شأواً بعيداً فيه، وما كانوا في حاجة لبني إسرائيل، الذين ما كانوا يعرفون علماً أو فناً أو صناعة، غير

حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾[1]، وسرعان ما صارت الحبال والعصي، كما تقول التوراة، ثعابين، أو بالأحرى خيل إليهم من سحرهم إنها تسعى وكما نص الذكر الحكيم **﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾**، قال الزمخشري: إسترعبوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً، وحسبنا أن يقرر القرآن الكريم أنه سحر عظيم، لندرك أي سحر كان، وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا أعين الناس وأثاروا الرهبة في قلوبهم، وإسترعبوهم، لنتصور إي سحر كان، ولفظ «إسترهب» ذاته لفظ مصور، فهم إستجاشوا إحساس الرهبة في الناس وقسروهم عليه قسراً، ثم حسبنا أن نعلم من النص القرآني الآخر في سورة طه أن موسى عليه السلام قد أوجس في نفسه خيفة، لنتصور حقيقة ما كان، يقول الله تعالى: **﴿قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيّهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى، فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى﴾**[2].

وجاء في تفسير إبن كثير: قال إبن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التهمته، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء، ليس هذا بسحر، فخروا سجداً، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى

= سخرة في بناء المدن ورعي مواشيهم، ثم كيف يستعين فرعون ببني إسرائيل على موسى الذي جاء لينقذهم من فرعون الذي كان يذبح أبناءهم ويستبي نساءهم، ثم إن سياق القصة في القرآن يشير إلى إستعانة فرعون بالسحرة المصريين، وليس ببني إسرائيل.

(١) سورة الشعراء: آية ٤٤.

(٢) سورة الأعراف: آية ١١٦، طه: آية ٦٥ ـ ٧٠، في ظلال القرآن ٣/ ١٣٤٩، تفسير الطبري ١٣/ ٢٨.

وهارون، قال إبن إسحاق: جعلت تتبع تلك الحبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً، وقالوا: لو كان هذا ساحراً ما غلبنا، وفي هذا إشارة إلى أهمية العلم وتكريمه، فقد كان هؤلاء السحرة أعرف الناس بما جاء به موسى عليه السلام، وأنه من عند الله، وليس من فنون السحر الذي تجروا فيه، ومن ثم فقد خروا ساجدين وقالوا: «آمنا برب العالمين رب موسى وهارون»، لأن العالم في قنه إنما هو أكثر الناس إستعداداً للتسليم بالحقيقة حين تنكشف له، لأنه أقرب من غيره إدراكاً لهذه الحقيقة، ومن ثم فما أن تأكدوا من معجزة موسى حتى ملك الحق قلوبهم، وملأ الإيمان مشاعرهم، فاستخفوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم في جذوع النخل «وقالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون، إنا نطمع أن يغفر لنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين».

ويقول أبو حيان: قال المتكلمون إن في هذا دلالة على فضل العلم، لأنهم كانوا كاملين في علم السحر، ومن ثم فما أن علموا أن ما جاء به موسى خارج عن جنس السحر، حتى آمنوا به، ولولا العلم لتوهموا أنه سحر، وأن موسى أسحر منهم، ولكن نظراً لأنهم كانوا، كما يقول الفخر الرازي، في الطبقة العليا من علم السحر، فقد علموا أن ذلك خارجاً عن حد السحر، وما كان ذلك إلا ببركة تحقيقهم في علم السحر، ومن ثم لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً، قال أبو السعود: روى أن رئيسهم قال: كنا نغلب الناس، وكانت الآلات تبقى علينا، فلو كان هذا سحراً، فأين ما ألقيناه من الآلات، فاستدل بتغير أحوال الأجسام على الصانع القادر العالم، وأن ظهور ذلك على يد موسى دليل على صحة رسالته، ومن ثم فقد خروا سجروا، آمنا برب موسى وهارون[1].

(١) تفسير البحر المحيط ٤/ ٣٦٤-٣٦٥، تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٣٤، تفسير أبي السعود ٦/ =

وبدهي أن ذلك كله إنما يدل على أن سلطان السحر محدود، فهو، وإن كان له حقيقة، فإن حقيقته لا تتجاوز الأيدي والأرجل من خلاف فرعون، وقد جاءت هذه الرواية في معظم كتب التفسير، على أن هناك خلافاً في تنفيذ فرعون لوعيده، فليس في القرآن الكريم نص على أن فرعون أنفذ وعيده، ولكن الظاهر من سياق القصة أنه صلبهم وعذبهم، قال إبن عباس وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة، ويؤيد هذا قولهم: «ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين»[1]، وأما النص الذي يصور وسائل التعذيب في زمان فرعون فقد ورد في معبد عمداً من بلاد النوبة المصرية، ويرجع إلى السنة الرابعة من عهد «مرنبتاح» (حوالي عام ١٢٢٠ ق. م)، ويؤكد أن مرنبتاح هذا، والذي شاع في الناس أنه فرعون موسى، إنما قطع من خلاف وصلب، وقد نشر هذا النص الزميل الفاضل الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف[2].

وأياً ما كان الأمر، فلقد كان هذا موقف الذين آمنوا من المصريين، ملك الحق قلوبهم، وملأ الإيمان مشاعرهم، فإستخفوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم في جذوع النخل **﴿قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾**[3]، وهنا تتجلى قوة الإيمان، إذا سكن القلب وإطمأنت به

= ٢٧ - ٢٨، في ظلال القران ٣/ ١٣٥٠، إبن كثير: مختصر التفسير ٢/ ٤٢، البداية والنهاية ١/ ٢٥٨، تاريخ الطبري ١/ ٤٠٩، الكامل لإبن الأثير ١/ ١٠٣.

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٤، تفسير البيضاوي ٣/ ٢٣، تفسير الفخر الرازي ٤/ ١٣٥، تفسير البحر المحيط ٤/ ٣٦٥، تفسير النسفي ٢/ ٧٠، الدر المنثور ٣/ ١٠٧، إبن كثير: مختصر التفسير ٢/ ٤٣، البداية والنهاية ١/ ٢٥٨.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١١٠، وكذا A. A. Joussef, Merenptah's fourth year Text at Amada, ASAE, L VIII, 1964, p. 273F.

(٣) سورة الشعراء: آية ٥٠ - ٥١، عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص ١٧٩.

النفس وتتجلى الحقيقة بالإستعداد للفداء في سبيلها، ويظهر طغيان فرعون هذا الذي يستعظم أن يكون في مصر من يذعن للحق، قبل أن يأذن له الملك.

وفوجيء فرعون بما لم يكن يتوقع من عجز السحرة، وفضيحة الهزيمة أمام موسى بين الناس، وأحس أن صرح كبريائه بدأ ينهار، وأنه كاد أن يكون أضحوكة عامة تشيع في أرجاء مصر كلها، ومن ثم فقد وقف يزأر ولا زئير، ويتوعد السحرة ولا وعيد، كما أحس الملأ من حوله أن مقامهم كذلك صائر إلى دمار، والبطانة من حول الملك، وكل الملوك وأصحاب السلطان، لا تخلد إلى السكون، فهي دائمة الحركة، دائمة القول والتحريض، لأن الدعوة الجديدة تعصف بمقامهم ومقام زعيمهم في البلاد، ولعل ذلك يمكن أن يفهم من قولهم لموسى وهارون من أول لقاء **﴿أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾**[1]، ومن ثم فإننا نراهم يحرضون فرعون على مذبحة جديدة بين بني إسرائيل، **﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك، قال سنقتل آبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾**[2]، وفي سورة غافر **﴿قالوا إقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال، وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾**[3].

ومن المعروف أن بني إسرائيل قد عانوا من قبل، في إبان مولد موسى، مثل هذا التنكيل الوحشي من فرعون وملئه، كما يقول تعالى: **﴿إن فرعون**

---

(١) سورة يونس: آية ٧٨.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٢٧.

(٣) سورة غافر: آية ٢٥ ـ ٢٦.

علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[1].

ومن ثم فهناك، فيما يرى صاحب الظلال، أحد إحتمالين، فيما حدث بعد ذلك الأمر، الأول أن فرعون الذي أصدر ذلك الأمر، كان قد مات وخلفه إبنه أو ولي عهده، وهذا ما تذهب إليه التوراة[2]، ولم يكن الأمر منفذاً في العهد الجديد، حتى جاء موسى وواجه الفرعون الجديد، الذي كان يعرفه وهو ولي للعهد، ويعرف تربيته في القصر، ويعرف الأمر الأول بتذبيح الذكور وترك الإناث من بني إسرائيل، فحاشيته تشير إلى هذا الأمر، وتوحي بتخصيصه لمن آمنوا بموسى، سواء كانوا من السحرة أو من بني إسرائيل القلائل الذين إستجابوا له على خوف من فرعون وملئه، والإحتمال الثاني، أنه كان فرعون الأول الذي تبنى موسى ما يزال، على عرشه، وقد تراخى في تنفيذ الأمر بعد فترة أو وقف العمل به بعد زوال حدته، فالحاشية تشير بتجديده وتخص به الذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف[3].

وأما قتل موسى عليه السلام، فإنما هو جد صعب المنال، وربما كان السبب في ذلك خوف الفرعون وملئه، من حدوث هياج عام بين المصريين أنفسهم، وخاصة بعد أن شاع وذاع، وملأ الأسماع، نبأ المعجزة الباهرة التي قهرت المهرة من السحرة وحمّلتهم على أن يؤمنوا ويعلنوا إيمانهم على رؤوس الأشهاد بهذه الصورة المؤثرة، ومن ثم فأكبر الظن أن النبيين الكريمين لم تكن لهما قوة تحميهما، في نظر فرعون، إلا الخوف من هياج

---

(١) سورة القصص: آية ٤.

(٢) خروج ٢/ ٢٣، ٤/ ١٩، ثم قارن: البداية والنهاية ١/ ٢٥٠.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٧٧ ـ ٣٠٧٨.

الرأي العام، إن صح هذا التعبير، بعد أن سمع ما سمع، ورأى ما رأى، ومن يدري فقد يوحي هذا للجماهير بتقديس موسى وإعتباره شهيداً، والحماسة الشعورية له وللدين الذي جاء به، ولعلنا نستطيع أن نلمس هذه المعارضة فيما حكاه القرآن عن فرعون حين قال ﴿ **ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد**﴾[1]، فإن كلمة «ذرني» تفيد أنه كان هناك من يعوقونه أو يمنعونه أو يشيرون عليه بغير ما كان يرى، وقد يكون بعض مستشاري الفرعون أحس في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له أو يبطش بهم، وليس هذا ببعيد، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة، ويتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتقدون عليه، ويكون قول فرعون «وليدع ربه» رداً على هذا التلويح، وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون إنما كانت تبجحاً واستهتاراً، لقي جزاءها في نهاية المطاف، حيث أغرقه الله وجنده في البحر[2].

هذا فضلاً عن أن هناك دليلاً من القرآن يفيد أن هناك من يعارض في قتل موسى عليه السلام، ذلك أن فرعون عندما ضاق ذرعاً بموسى، وعقد مع الملأ مؤتمراً للفتك به، فوجىء بواحد من هذا الملأ يكتم إيمانه، ينهض لمعارضة هذه الفكرة ويقول: ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾، وهال فرعون ما سمع، فأخذته العزة بالإثم ونفخ الشيطان في روحه، فقال: ﴿ ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾، وعاد الرجل يعقب على كلام

---

(١) سورة غافر: آية ٢٦.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٧٨.

فرعون، ويحذره من غضب الله وبطشه، وبما حدث لغيره من الطغاة العتاة، ثم أعلن أنه أبرأ ذمته **﴿ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾**[١] .

وهكذا فشل فرعون وملؤه في تدبير خطة لإغتيال موسى، بل إن القرآن إنما يحدثنا أن فرعون إنما وجد المعارضة في داخل بيته نفسه، من زوجته، ذلك أن إمرأة فرعون قد إستطاعت أن تحرر فكرها ووجدانها من كل الأواصر والمؤثرات والقيود، فترفض أن تسير في ركاب زوجها، وأن تنساق في تيار المجتمع الذي تعيش فيه، بل وتعلن عن موقفها في ثبات وإيمان، بعد أن إتضح لها ضلال فرعون، وتبيّن لها الحق في دعوة موسى، رغم ضغط المجتمع وشدة وطأته، ورغم مغيرات الحياة الرخية الناعمة في قصر أعظم ملوك الأرض، وأكثرهم غنى، وأرفعهم حضارة، ورغم آصرة الزوجية التي تربطها بفرعون، فكانت مثلاً للشخصية الإنسانية المستقلة في الإيمان والقيم[٢]، وإلى هذه السيدة الجليلة يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا إمرأة فرعون إذ قالت رب إبن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾**[٣]، وهي التي

---

(١) أنظر: سورة غافر: آية ٢٨ - ٤٤، محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٣١٥ - ٣٣٠.

(٢) التهامي نقرة: المرجع السابق ص ٤٠١.

(٣) سورة التحريم: آية ١١، هذا وقد جاءت أحاديث شريفة في فضل إمرأة فرعون منها قوله ﷺ «خير نساء العالمين أربع، مريم إبنة عمران، وآسية إمرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله»، ومنها قوله ﷺ: حسبك من نساء العالمين بأربع، مريم بنت عمران وآسية إمرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد» وقوله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية إمرأة فرعون» (وأنظر عن هذه الأحاديث الشريفة وروايات أخرى لها: إبن كثير: التفسير ٢/ ٣٢ - ٣٤، البداية والنهاية ٢/ ٥٩ - ٦٣، تفسير الطبري ٦/ ٣٩٣--!؟، صحيح البخاري ٤/ ١٩٣، ٦/ ٢٣٩، صحيح مسلم ٢/ ٢٤٣، سنن الترمذي ٤/ ٣٦٥ - ٣٦٦، المستدرك للحاكم ٣/ ١٨٤، =

أودع الله في قلبها حب موسى عليهارلسلام، والشفقة عليه، والرحمة به منذ أول لحظة رأته فيها، **﴿وقالت إمرأة فرعون قرن عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾**[1].

وعلى أي حال، فلقد علم موسى عليه السلام أن فرعون ماض في غلوائه وكبريائه، كما علم بنو إسرائيل ما ينتظرهم من المحن والبلايا والفتن، فتملكهم الرعب، ولم يجدوا في أنفسهم قوة تعينهم على مجرد الصبر والإحتمال، فقد قال لهم موسى: **﴿إستعينوا بالله وأصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾**، فكان جوابهم مما حكاه القرآن عنهم: **﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾**، وهو جواب ينم عن عدم الإيمان بالله والثقة بعونه ونصره، كما ينم عن شعورهم بهوان قدرهم والعجز عن الصبر[2].

ونقرأ في التوراة أن موسى ضرب النهر بعصاه، فتحول الماء دماً، ومات السمك وأنتن النهر، وبعد أيام سبعة سلط الله عليهم الضفادع حتى إكتظت بها الأرض، وحتى خيل أن الأرض تتحرك بسببها، مما جعل فرعون يطلب من موسى أن يسأل ربه أن يرفع عنه هذا البلاء، وحين أجيب إلى مسئوله عاد ثانية فإشتد قلبه[3]، فسلط الله على كل أرض مصر البعوض[4]، فإذا ما تذكرنا أن المصريين كانوا قوماً يراعون منتهى الدقة في النظافة، كما

= تحفة الأحوذي ١٠/ ٣٨٩) وأن إمرأة فرعون ستكون زوجة للنبي ﷺ في الجنة (أنظر: البداية والنهاية ٢/ ٦٢).

(١) سورة القصص: آية ٩.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٢٨ - ١٢٩، عبد الرحيم مودة: المرجع السابق ص ١٨٣.

(٣) خروج ٧/ ١٤ - ٢٢، ٨/ ١ - ١٥، ف. ب. ماير: حياة موسى - ترجمة القس مرقص داود ص ١٠٤.

(٤) إستعملت الترجمة العربية والألمانيّة للتوراة كلمة «البعوض»، وأما الترجمة الإنجليزية والفرنسية وهامش الكتاب المقدس، فقد إستعملت كلمة «القمل» بدلاً من كلمة «البعوض».

كان الـكهنة أكثر القوم مراعـاة للنظافة كانوا يغتسلـون مراراً، ويحلقون شعورهم لكي لا يعلق بها أي دنس يعطلهم عن واجباتهم الدينية، ومن ثم فقد كانت ضربة «البعوض» هذه، فوق أنها أليمة، فهي بغيضة إلى نفوسهم، فإذا أضفنا إلى ذلك الذباب، ولعله الجعران، لعرفنا السبب الـذي جعـل فرعون يكرر طلبه إلى موسى أن يسأل ربه أن يرفع عن مصر هذه المصائب، في مقابل أن يسمح لبني إسرائيل أن يذبحوا لربهـم في البريـة، علـى ألا يبتعدوا كثيراً، فما أن دعا موسى ربه، وفرج الله كربة فرعون وقومه، حتى عاد الطاغية إلـى سيـرته الأولـى، فإشتد علـى بني إسرائيـل، ومنعهـم من الخروج، ومن ثم فإن دعوات موسى بالمصائب على فرعون وقومه سرعان ما تتكرر، ولكنهـا هذه المـرة في الحقـول، وعلـى الخيل والحمير والجمال[1]. والبقر والغنم، ولا يستثنى رب إسرائيـل من هذا الـوباء غيـر ماشيـة بني إسرائيل، ولعـل الأخيـرة كانت السبب في أن فرعـون لم يطلـق سراح بني إسرائيل، بجانب عناده وإصراره على الكفر والعناد، ومن ثم فقد كرر رب إسرائيل مصائبه على فرعون وقومه، فإذا الدمامل تنتشر في كل أرض مصر.

ومع ذلك فإن فرعون لم يؤمن بدعـوة موسى وهـارون، ولـم يسمح بخروج بني إسرائيل من مصر، ومن ثم فقد سلط الله عليه وعلى قومه عاصفة محملة بالرعد والبرد، ولم تهدأ إلا برجاء من فرعون لموسى بأن يكف الله هذا البرد، وذلك الرعد عن البلاد والعباد، وما أن تم ذلك حتى عاد فرعون سيرته الأولى، فسلط الله عليه الجراد، حتى أصبح وجه مصر الأخضر أسمراً

(١) لعـل كلمة «الجمال» هنا من تحريفات التوراة، ذلك لأن الجمال وقت ذاك ظلـت علـى التحقيق غريبة على المصريين، بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر من الساميين، فقد جاءت قبيلة «أبشاي» في الأسرة الثانيـة عشرة علـى الحمير، لا الجمال، بل إن إستعمال الجمال لم يعرف في هذه المنطقة إلا في أخريات القرن الثالث قبل الميلاد، وربما بعدذلك (حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص ١٢ ـ ١٣، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٢٦).

بسبب الجراد، وأخيراً، وبدون إنذار، حل الظلام على الأرض، حتى لم يبصر أحد أخاه، فشلت كل حركة في البلاد، وإرتعدت أقسى القلوب، وطلب فرعون من موسى ألا يرى وجهه أبداً[1].

هذه هي الضربات التي أوقعها رب إسرائيل بفرعون وقومه، كما جاءت في توراة يهود، وهي وإن إتسمت بالمبالغة أحياناً، وعدم الدقة أحياناً أخرى، فإن ملامح مما جاء عنها في الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل[2] والضفادع والدم آيات مفصلات فإستكبروا وكانوا قوماً مجرمين، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى أدع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون، فانتقمنا منهم فأعرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾[3].

وروى إبن كثير في التفسير عن سعيد بن جبير، وغيره من السلف، قال: لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له: إرسل معي بني إسرائيل،

---

(1) خروج ٨/ ١٦ ـ ٣٢، ٩/ ١ ـ ٣٥، ١٠/ ١ ـ ٢٩، مزمور ٧٨/ ٤٧ ـ ٤٨، ماير: المرجع السابق ص ١١١ ـ ١١٨.

(2) إختلف المفسرون في لفظ «القمل» فقيل هي «الدبا» (الدبي) بفتح الباء، وهي صغار الجراد الذي لا أجنحة له، وهي البراغيث، وهي داوب سود صغار، وهي «الحمنان» وهي ضرب من القردان، وأحدتها «حمنانة» فوق القمقامة، وهي ضرب شديد التشبث بأصول الشعر، وهي السوس الذي يخرج من الحنطة، وهي الجعلان وهو دابة سوداء من دواب الأرض، وهي القمل جمع قملة، وهي دابة تشبه القمل تأكل الإبل (تفسير إبن كثير ٣/ ٤٦١ ـ ٤٦٣، تفسير الطبري ١٣/ ٥٤ ـ ٥٦، مجاز القرآن ١/ ٢٢٦، الدر المنثور ٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨، تفسير القرطبي ص ٢٧٠٥ ـ ٢٧٠٦، تفسير النسفي ٢/ ٧٢، صفوة التفاسير ١/ ٤٦٧).

(3) سورة الأعراف: آية ١٣٠ ـ ١٣٦، وأنظر: تفسير الطبري ١٣/ ٤٥ ـ ٧٥، تفسير المنار ٩/ ٧٤ ـ ٨٤، تفسير إبن كثير ٣/ ٤٥٥ ـ ٤٦٤، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٤/ ٢١٠ ـ ٢١٢، تفسير القرطبي ص ٢٦٩٩ ـ ٢٧٠٨، تفسير البيضاوي ٣/ ٢٤ ـ ٢٥، الدر المنثور ٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر، فصب عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا أدع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمار والكلأ، فقالوا هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع، فقالوا يا موسى أدع لنا ربك فيكشف عنا الجراد، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرزوا في البيوت فقالوا قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القمل، وهو السوس الذي يخرج منه، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفرة، فقالوا يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون ما تلقى أنت وقومك من هذا، فقال وما عسى أن يكون كيد هذا، فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه، فقالوا يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقروا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً، فشكوا إلى فرعون فقالوا إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب، فقال إنه قد سحركم، فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً، وقالوا يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل»[1].

---

(١) مختصر تفسير إبن كثير ٢/ ٤٥ - ٤٦.

وعلى أية حال، فإن الكوارث التي جاءت في القرآن الكريم وترددت في التوراة، على أنها لحقت بمصر سنين عدداً، فأصيبت البلاد بالقحط والعلل والآفات، إنما تصدقها أحداث التاريخ، فمصر لم تكن، كما رأينا من قبل، بمنجاة مما قد ينزل بها من كوارث، فربما انحبس النيل فصوّح الزرع، أو زاد فأغرق البلاد بطوفان عظيم، وهو على الحالين، كما يدمنا، نذير النوازل ونقص في الثمرات، فإذا وقعت الواقعة إنتشرت بها الأدواء والأوبئة، فحصدت الناس حصداً يعجزهم عن تشييع موتاهم إلى القبور، وقد حدث مثل ذلك على أيام الثورة الإجتماعية، وفي أخريات أيام الأسرة العشرين، كما حدثنا «إيبو ـ ور» عن الأولى، وكما تحدثت وثائق أخريات أيام الدولة الحديثة عن عام إشتد فيه الجوع بالناس، حتى سموه «عام الضياع»[1].

على أن الأمر هنا، بين موسى وفرعون، فيما نعتقده ونؤمن به، إنما هو معجزة نبي، وبدهي أنه ليس بالضرورة أن تتفق المعجزات مع بعض أحداث في التاريخ، فإذا ما كان لها صدى في هذه الأحداث التاريخية، فإن ذلك تصديقاً لهذه الأحداث، وليس للمعجزات، والتي سوف نتحدث عنها بالتفصيل عند حديثنا عن إنقلاب البحر لموسى عليه السلام، وعلى أي حال، فالواضح من نصوص التوراة وآي الذكر الحكيم أن البلاد قد أضيبت في تلك الفترة بالقحط والجدب، ونقصت ثمراتها بالجوائح الجوية والآفات السماوية، وغرقت أرضها بطوفان، وهجمت عليها جيوش جرارة من الجراد تجتاح الأخضر واليابس، وإمتلأ الجو بالبعوض، وكثر «الدبا» في الأرض، وكذا الضفادع التي نغصت على الناس حياتهم، فكانوا يجدونها في كل

---

(1) محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩، وكذا .A. Erman, LAE, 1927, p. 95 وكذا .J. Cerny, AO, 6, 1933, p. 173 - 177

مكان، وهكذا كانت النقمة عامة، وكان بلاء من السماء، لم يصب الطبقة الحاكمة وحدها، وإنما شمل الناس جميعاً، بما فيهم الكهنة وعامة الناس[1]، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ **وإتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾[2].

ومع ذلك فقد ظل فرعون على عناده وكفره وكبريائه، فدعا موسى على فرعون وملئه، واستجاب الله لدعاء نبيّه الكريم وأخذ فرعون وقومه ببعض ذنوبهم، لعل فرعون يرعوي ويؤمن بموسى ورسالته، ويطلق بني إسرائيل من أسره، غير أن ذلك لم يزده إلا تجبراً وتكبراً، فيعلن للملأ: ﴿ **يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري، فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى، وإني لأظنه من الكاذبين**﴾[3]، ولعل من الأهمية بمكان أن نقف قليلاً عند هذه الآية الكريمة، ذلك أن ما عرف عن فراعين مصر، وما تشهد به اليوم آثارهم، أنهم إنما كانوا ينشئون، ما شاءوا، من الحجر، وهو كثير وافر يغنيهم عما سواه، إن أرادوا لما ينشئون الدوام وطول البقاء، فكانوا يتخذون منه المعابد والمسلات والقبور، ولم يصطنعوا الطوب المحروق، ولغير ذلك كانوا يتخذون اللبن من طين غير محروق، فكانوا يتخذون منه بيوتهم، سواء أكانت للعلية من القوم والملوك، أم للعامة وغمار الناس، وربما تردد القارىء غير المسلم فيما يسمع من قول الله في أمر فرعون أن يوقد له هامان على الطين، وقد عرف أن المصريين فيما خلفوا من آثارهم لم يتخذوا الآجر المحروق في البناء قبل عصر الرومان[4].

---

(١) عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) سورة الأنفال: آية ٢٥.

(٣) سورة القصص: آية ٣٨، وأنظر: سورة غافر: آية ٣٦.

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١٣٧ - ١٣٨.

وهنا لعلنا نتساءل: ماذا عن الطوب المحروق الذي جاء في الآية الكريمة على عهد فرعون موسى، وقد سبق عصره عصر الرومان بما لا يقل عن ألف من الأعوام؟

يروي الإمام الطبري في تاريخه عن قتادة أن فرعون موسى كان أول من طبخ الآجر ليبني به الصرح، وروى الإمام النسفي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فأوقد لي يا هامان على الطين**﴾، أي أطبخ لي الآجر وإتخذه، وإنما لم يقل مكان الطين هذا لأنه أول من عمل الآجر، فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة، ولأنه أفصح وأشبه بكلام الجبابرة، إذ أمر هامان وزيره بالإيقاء على الطين فنادى باسمه بـ «يا» في وسط الكلام، دليل التعظم والتجبر، وروى القرطبي عن حبر الأمة وترجمان القرآن، عبدالله بن عباس، رضي الله عنهما، أن فرعون موسى إنما كان أول من صنع الآجر وبنى به، وروى عن الإمام السيوطي في تفسيره عن إبن أبي حاتم عن قتادة: كان فرعون أول من طبخ الآجر وصنع له الصرح، وأخرج إبن المنذر عن إبن جريج قال: فرعون أول من صنع الآجر وبنى به، وأخرج عبد بن حميد وإبن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله: «فأوقد لي يا هامان على الطين» قال: أوقد على الطين حتى يكون آجراً، وقال الإمام البيضاوي: أول من إتخذ الآجر فرعون، ولذلك أمر بإتخاذه على وجه يتضمن تعليم الصنعة، مع ما فيه من تعظيم، ولذا نادى هامان بإسمه بيا في وسط الكلام[1]، ومن ثم فأكبر الظن أن المفسرين، كما بدا لنا من قبل، قد كانوا يستندون إلى طائفة من الخبر الصحيح كانت بين أيديهم، وأن إختلط كذلك بما لا قيمة له من الأوهام، كحديثهم عن أصل فرعون موسى هذا[2].

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ٢٣٧، تفسير الدر المنثور ٥/ ١٢٩، تفسير القرطبي ص ٥٠٠٤، تفسير البيضاوي ٤/ ١٢٨، تاريخ الطبري ١/ ٤٠٥.

(٢) يروي المفسرون عن فرعون موسى حكايات أشبه بالأساطير منها بحقائق التاريخ، فهو، فيما =

ومهما يكـــن من أمر، فلقد أعثرتنا الأحافيـر علـــى ما يوافق أقوال المفسرين من حيث البناء بالآجر، فلقد عثر «بتري» على طائفة من غير مألوف المصريين من الآجر المحروق، بنيت به قبور، وأقيمت به بعض من أسس المنشآت، ترجع إلـى عصور الفراعيـن: رعمسيس الثاني ومرنبتاح وسيتي

يزعمون، الوليد بن مصعب أو مصعب بن ريان أو هو قنطوس أو قابوس، وكنيته أبو مرة، وهو مصري أو هو من بني عمليق ومن بقايا عاد، على أن أسوأ ما في هذه الأساطير أن يكـون فرعون مصر، (أعظم دول العالم وقت ذاك، وأعرقهـا حضارة وأرسخهـا ملكـاً، وأقدمهـا عرشاً، بل ويكاد الوحيد، فيما نعلم، في كل تاريخ النبوات الذي أرسل إليه نبيّين، وليس نبياً واحداً) فرعون مصر هذا، فيما يزعم المفسرون، كان فارسياً من أصطخر أو أصفهان، وكان عطاراً ركبته الديون فأفلس، فخرج إلى الشام فلم يتسن له المقام، فدخل مصر، ورأى في ظاهره حملاً من البطيخ بدرهم، وفي نفسه بطيخة بدرهم فخرج إلى السواد فإشترى حملاً بدرهم، وتوجه إلى السوق فكل من لقيه من المكاسين أخذ منه بطيخة، فدخل مصر وما معه إلا بطيخة فباعها بدرهم، ورأى أهل البلد وتروكين سدى لا يتعاطى أحد سياستهم (تصور هذا في عصر الإمبراطورية وفي وقت كانت مصر تحكم فيه الشرق، وكان ملكها سيد الملوك طراً، لأنه أعظمهم وأغناهم وأقواهم) فتوجه نحو المقابر فرأى ميتا يدفن فتعرض لأوليائه، على أنه آمين المقابر، ومنعهم من دفنه حتى يدفعوا خمسة دراهم، فدفعوهـا، وكـذا فعـل آخرون، حتى جمع في ثلاثة أشهر مالاً عظيماً، ثم تعرض له يوماً أحد أولياء متوفي وذهبوا به إلى فرعون، فسأله: من أنت ومن أقامك بهذا المقام، فقال لم يقمني أحد، وإني فعلت ذلك لأحضر إلى مجلسك، فأنبئك إلى إختلال حال قومك، وقد جمعت بهذا الطريق هذا المال وأحضره ودفعه إلـى فرعـون، ثم قال ولني أمورك ترني أميناً فولاه فسار بهـم سيـرة حسنة فإنتظمت مصالح العسكر وإستقامت أحوال الرعيـة ولبث فيهـم أمداً طويـلاً، وترامى أمره بالعدل والصلاح (وبدهي أن المفسرين تأثروا في هذا بقصة يوسف عليه السلام) فلما مات فرعون أقامه مقامه، فكان من أمره ما كان، وكان فرعون يوسف ريان، وكان بينهما أكثر من أربعمائة عام (ولا تعليق علـى هذه الأساطيـر سوى أنهـا تدل علـى جهـل فاضح بالتاريـخ المصري القديم).

وعلى أية حال، فلقد ذهب الزمخشري إلى فرعون إسم علم لمن ملك العمالقة، كقيصر لملك الـروم وكسرى لملك الفرس. ولعتو الفراعنة إشتقوا تفرعـن إذا عتا وتجبر (تفسيـر الكشاف ١/ ١٠٢، الدر المنثور ٣/ ١٠٥، روح المعاني ١/ ٢٥٣، تفسير أبي السعود ١/ ١٧٢).

الثاني، من الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ ـ ١١٨٤ ق . م)، وكان عثوره عليها في «نبيشة» و «دفنة» غير بعيد من «بي رعمسيس» (قنيتر) عاصمة هؤلاء الفراعين في شرق الدلتا، وقال «بتري» في ذلك: إن حرق اللبن قد ظل نادراً إلى عصر الرومان، وهو قول لا يكاد يخالف قول المفسرين من بدء إتخاذ الآجر المحروق، على عهد فرعون موسى، وهو كذلك من قرائن القرآن الكريم التي نتخذها مطمئنين في تحديد عصر خروج بني إسرائيل من مصر، وبأنه كان على أيام الأسرة التاسعة عشرة التي بدأت، كما أثبتت الحفائر، وألمع القرآن الكريم، تصطنع في بنائها الآجر المحروق[1].

(٣) ألوهية الفرعون المزعومة : ـ

لعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا، وقبل أن نترك موضوع موسى وفرعون، أن نشير إلى «ألوهية الفرعون المزعومة» التي رأيناها موضوع جدل شديد بين النبي الكريم والملك الفرعون بل هي الصخرة التي تحطمت عليها، فيما نعتقد، كل أوجه التقارب بينهما، ومما يزيد الأمر أهمية أننا لا نعرف في تاريخ النبوات، دعوة يتعرض صاحبها لزعم كذوب ممن أرسل إليه، على أنه إله للناس، بل إن الفرعون إنما يهدد النبي الكريم نفسه **﴿قال لئن إتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾**[2]، ثم يعلن للناس عامة **﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾**[3]، وعندما يتقدم له موسى عليه السلام بمعجزات تدل على صدق رسالته، إذا به يرفض الدعوة كلها **﴿ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى﴾**[4].

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١٣٨، وكذا W. M. F. Petrie, Nbesheh and Defeneh, p. 18 - 19, 47.

(٢) سورة الشعراء: آية ٢٩.

(٣) سورة القصص: آية ٣٨.

(٤) سورة النازعات: آية ٢٢ ـ ٢٤.

فما قصة ألوهية فرعون هذه :

يحدثنا التاريخ أن مؤسس الأسرة المصرية الأولى، إستطاع أن يكوّن لمصر حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، حكومة مركزية قوية ثابتة الأركان، كان على رأسها «الملك المؤله» الذي استطاع أن يجمع بين يديه كل السلطات، حكومة كان الملك فيها هو المحور، بل هو الروح التي تبعث الحياة في الدولة هو المحور، بل هو الروح التي تبعث الحياة في الدولة، وكل ما يحدث فيها وحي منه، على أسس دينية عميقة الأثر، فهو «الإله الأعظم»، وهو «الإله الصقر حور»، الذي تجسم في هيئة بشرية، ولهذا فهو - في نظر رعاياه - إله حي على شكل إنسان، يتساوى مع غيره من الآلهة الأخرى فيما لها من حقوق، ومن ثم فله حق الإتصال بهم، وله على شعبه - ما لغيره من الآلهة - من التقديس والمهابة[1].

ومن هنا كان الأساس السياسي والإجتماعي الذي قامت عليه الحضارة المصرية، هو التأكيد كل التأكيد، بأن مصر يحكمها إله، وأن هذا الإله الجالس على العرش غير محدود المعرفة والمقدرة، وأنه على علم بكل ما يدور في أرض الكنانة، ومن هنا كان من الصعب أن نفرق بين الملك والدولة، إذ كانت كلمته قانون، ورغبته أمر، ورعيته ملك يمينه، يتصرف فيها كيف شاء، ومتى شاء[2].

وقد إختلف المؤرخون فيما بينهم في كيفية إيمان المصريين بأن الجالس على العرش إله يحكم بشراً؟ وكيف أصبحت ألوهية الفرعون عقيدة الدولة الرسمية، فهناك من يرى أنها إنما كانت وليدة أسباب إنتصاره على

---

(١) محمد بيومي مهران: التنظيم السياسي في مصر والعراق القديم ص ٤ (الإسكندرية ١٩٧٠)، الحضارة المصرية - الإسكندرية ١٩٨٤ ص ٩٩ - ١١٥.

(٢) محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦ ص ١٧.

منافسيه. ثم إصطناعه صفات إلهية، حتى غدا إلهاً بين الآلهة[1]، ومن يرى أن الصعاب التي لاقاها مؤسسوا الوحدة دافعاً للقول بأن مصر يحكمها إله، تتمثل فيه القوى التي تهيمن على القطرين (الصعيد والدلتا)، بل إنه أدعى منذ الأسرة الخامسة بأنه الإبن الشرعي لإله الشمس «رع»، أعظم الآلهة طراً وسيدهم، وبذلك تمكن الملك من أن يتباعد بنفسه عن أن يكون من البشر، وعن أن يكون منتسباً لأي جزء من أجزاء مصر، ومن ثم فقد إنتفت حجة الوجه البحري في معارضته في أن يحكمه رجل من الصعيد[2].

وهناك وجه آخر للنظر، يذهب إلى أن المصري كان لا يحس بضرورة تحديد الأنواع تحديداً صريحاً، فقد سهل عليه أن ينتقل من البشري إلى الألهي براحة تامة، وأن يقبل العقيدة التي تنص على أن الفرعون الذي كان يعيش بين الناس كأنما هو من لحم ودم إنساني، كان في الحقيقة إلهاً تكرم فأقام فوق الأرض ليحكم أرض مصر، ومن ثم فإن طريقة التفكير هذه، فيما يرى جون ويلسون ـ بجانب العوامل الجغرافية ـ إنما كانت سبباً في عقيدة الملكية الألهية، التي ربما كانت سهلة وطبيعية بالنسبة للمصريين، وربما كانت متأصلة الجذور منذ أيام ما قبل التاريخ[3].

وهناك رأي رابع، يجعلها نتيجة أسباب دينية، ذلك أن المصريين القدامى إنما كانوا يعتقدون ـ كما تروي الأساطير ـ أن آلهة التاسوعيين قد حكموا الواحد تلو الأخر على الأرض في مصر ذاتها، قبل أن يعرجوا إلى السماء ـ أو فيما يختص بالذين ذاقوا الموت قبل أن يهبطوا إلى الجحيم ـ

---

(١) نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم ـ الجزء الرابع ـ ص ٧٤ (الإسكندرية ١٩٦٦.

(٢) عبد المنعم أبو بكر: تاريخ الحضارة المصرية ـ العصر الفرعوني، النظم الإجتماعية ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ١١١.

(٣) J. A. Wilson, op - cit, p. 45, 47.

وكانت القوائم الملكية تبدأ بهم ، بل وتحدد عدد سني حكمهم ـ كما تفعل بردية تورين ـ وقد ترك «أوزير» آخر الآلهة العظام ، لإبنه حور ملك مصر ، ومن «حور» هذا تحدر في زعمهم كل ملوك مصر ، وبناء على ذلك ، فإن حتى الملك يقوم على طبيعته الألهية التي كانت تنتقل مع الدم ، وفي عهد الأسرات الأولى لم تكن ألوهية الملك مؤكدة إلا لتسلسله من «حور» إله الأسرة بغض النظر عن أية مؤلفة دينية[1] .

وتذهب وجهة النظر الخامسة إلى أن ألوهية الفرعون إنما تتصل إتصالاً وثيقاً بالعناصر الأساسية التي شكلت المبادىء والقيم المصرية منذ البداية ، وتتركز تلك العناصر بصفة خاصة على تأثر الإنسان بكافة المقومات البيئية المحلية في مصر تأثراً كاملاً بطريق مباشر أو غير مباشر ، فقد بدأ الإنسان حياته المستقرة بالزراعة ، ونشأ لأول مرة المجتمع الزراعي المستقر والمعتمد على ضمان توفير مياه الري ومساعدة العوامل الطبيعية المختلفة اللازمة للإنتاج الزراعي السليم ، ثم سرعان ما أدرك الإنسان ضرورة ضمان ذلك الإستمرار حتى يطمئن على حياته المستقلة ، وفي نفس الوقت آمن بالظواهر الطبيعية المحيطة به والمسيطرة على تلك البيئة ، وشعر بإرتباط حياته ومستقبله بتلك القوى الكونية المسيطرة على هذا العالم ، وقد اعتبر الملك أحق من يقوم بوظيفة الوساطة بين الإنسان والآلهة ، حتى يستطيع أن يضمن رضى تلك القوى على الإنسان ، وبالتالي إطمئنانه على حياته الحاضرة والمستقبلة ، ولذلك إرتبط ملوك مصر بعالم الآلهة إرتباطاً كبيراً لم يألفه المؤرخ في أنظمة الحكم الأخرى في منطقة الشرق الأدنى القديم[2] .

---

(١) أيتين دريوتيوجاك فانديه : مصر ، ترجمة عباس بيومي ، القاهرة ١٩٥٠ ص ٩٠ - ٩١.

(٢) رشيد الناضوري : جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا ـ الكتاب الأول ـ بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

وهكذا نرى العلماء يختلفون في تفسيرهم لألوهية الملك المصري، وكيف نشأت؟ وكيف إقتنع المجتمع المصري وآمن بألوهية ملوكه؟

وإذا أردنا مناقشة هذا كله، لرأينا أن الأسباب العسكرية لا تستطيع وحدها أن تصل بالمغلوبين إلى الإيمان بألوهية ملوكهم، ذلك لأن الغزو قد يجبر قوماً على الخضوع لآخرين، وقد يجعل من زعيم المنتصرين «دكتاتوراً» يأمر فيطيع المغلوبين، ولكنه لا يجعل منه ـ بحال من الأحوال ـ إلهاً يؤمن الناس به، كواحد من آلهتهم الأخرى، وحتى لو آمنوا به في فترة الغزو ـ وفي أعقابه لفترة ما ـ فكيف تسنى لملوك مصر أن يجعلوا من ألوهيتهم عقيدة يؤمن بها الناس حتى نهاية العصور الفرعونية.

وأما النظرية التي تجعل الصعاب التي لاقاها مؤسسوا الوحدة دافعاً إلى القول بأن مصر يحكمها إله تتمثل فيه القوى التي تهيمن على القطرين، فقد يكون الأمر كذلك إلى حد ما، وفي هذه الحال، فإن توطيد هذا المبدأ في جميع أنحاء البلاد إنما إحتاج إلى وقت طويل، حتى قبل القوم أن ذلك الإنسان الذي يحكمهم ليس بشراً، بل هو من نوع آخر، فلدينا ما يثبت أن الوحدة التي قامت في أول عصر التأسيس لم يكتب لها البقاء طويلاً، وإنما إنهارت في النصف الثاني من عصر الأسرة الثانية، إذ تدلنا آثار الملك «خع سخم» ـ والتي تقتصر على مدينة «نخن» ـ على مدى جهوده في إسترجاع الدلتا، وتوطيد الوحدة، والقضاء على الفتنة، الأمر الذي تمّ على يد خلفه «خع سخموي».

وأما الرأي الذي جعل من العوامل الجغرافية ـ إلى جانب طريقة التفكير المصري ـ سبباً في الإيمان بألوهية الفرعون، فإنها تضعف كثيراً، إذا ما تذكرنا أن ألوهية الملك المصري إنما كانت مرتبطة إلى حد كبير بتقدم البلاد وازدهارها ـ وليس بالعوامل الجغرافية فيها، وأن أية فترة من الفترات

التي كان يضعف فيها الحكم، كان القطران ينفصلان بعضهما عن البعض الآخر، ولم يمسك عليهما وحدتهما إلا إعتمادهما المشترك على مياه النيل.

وأما ذلك الرأي الذي أرجعها لأسباب دينية، فهو في الواقع إنما يعتمد على الأساطير - أكثر من إعتماده على الأدلة التاريخية - إذ لو كان الأمر كذلك، وكان مؤسس الوحدة معترفاً بألوهيته على إعتبار أنه سليل الإله «حور»، لما احتاجت الوحدة إلى كل هذه الحروب التي خاضها أبطال التوحيد، من أمثال «عقرب» و «عحا»، ولما أحتاجت كذلك إلى جهود خلفائهم بعد النكسة التي أصيبت بها الوحدة في عصر الأسرة الثانية.

وأمّا النظرية الإقتصادية، فرغم أهمية ضمان توفير الأمن الإقتصادي وغيره من مظاهر الاستقرار في المجتمع، على أساس إمكان توسط الفراعنة بعد حملهم لتلك الصفة الإلهية من أجل تحقيق ذلك، فإن ذلك الأمر ليس بكاف لتعليل إيمان المصريين بألوهية ملوكهم، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان ملوك العراق القديم أحق بالألوهية من ملوك مصر، فبلاد الرافدين إنما كانت معرضة بصورة مستمرة بتقلبات الجوية التي تحول دون الإستقرار والطمأنينة، مما أدى إلى تعدد القوى الآلهية، وظواهر التنبؤ والتمائم، بينما كانت البيئة المصرية مطمئنة إلى حد كبير[1].

ومن ثم، فالرأي عندي: أن هذه الأسباب مجتمعة هي التي عملت على تأليه الفرعون في أرض الكنانة، وربما كانت هناك فكرة أصيلة عن الملكية الآلهية في مصر، ولكنها فكرة غير منتظمة، ثم جاءت الأسرة الأولى وإنتهزت فرصة وجود هذا الرأي لتأييد النظام الجديد، فرفعت الفرعون من رتبة بشر متميز - من الجائز أن ينازعه في سلطانه بشر آخر متميزون وأقوياء - إلى مرتبة «إله» لا يمكن منازعته، وهكذا كانت عقيدة الملكية الإلهية، كما

---

(١) رشيد الناضوري: التطور التاريخي للفكر الديني ص ١٦١، ١٦٣.

نعرفها قد صيغت وعدلت كثيراً، ثم وجدت قبولاً رسمياً في أوائل أيام الأسرات، وهذا قول لا يمكن إثباته بالتأكيد، ولكننا نستطيع القول أن العوامل الإقتصادية. وحاجة الناس إلى وسيط يكون بينهم وبين آلهتهم، لتحقيق ما يمكن أن نسميه «بالأمن الوقائي» ضد كل ما يصيبهم بأذى من قريب أو بعيد، ثم بدأ الملوك ينسبون أنفسهم ـ بعد قيام الوحدة وإخضاع الدلتا ـ إلى الإله «حور»، خليفة أبيه «أوزير» ـ آخر الآلهة العظام الذين حكموا مصر في عصور ممعنة في القدم ـ ومنذ الأسرة الخامسة (حوالى عام ٢٤٨٠ ق. م)، يصبح الملوك أبناء للإله «رع» من صلبه، وفي عصور تالية، وحين يصبح آمون ـ سيد الآلهة وكبيرهم ـ يصبحون أبناء له.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن ألوهية الفرعون لم تكن بمعنى أنه خالق الكون ومدبره أو أن له سلطاناً في عالم الأسباب الكونية، إنما كان يدعي الألوهية على شعبه، بمعنى أنه حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه، وأنه بإرادته وأمره تمضي الشئون وتقضي الأمور، كما أشرنا من قبل، كذلك لم يكن الناس، في مصر يتعبدون إلى فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له، فقد كانت لهم آلهتهم، كما كان لفرعون نفسه آلهته التي يعبدها كذلك، كما هو ظاهر، من قول الملأ له «ويذرك وآلهتك»، وكما يثبت ذلك تاريخ مصر في العصور الفرعونية، ومن هنا فإن هذا الملك المؤله لم تكن تقام له المعابد، كما كانت تقام لغيره من الآلهة، كما لم تكن تقدم له القرابين[1]، وأن تسميته بالإله العظيم لم تقف حائلاً، دون أن تكون له شخصية بشرية، وأن طبيعته لم تمنع القوم من أن ينظروا إليه كحاكم بشري، له أملاكه الخاصة ومخازنه ودواوينه الخاصة.

---

(١) قارن حالات: أمنحتب الثالث ورعمسيس الثاني والثالث (محمد بيومي مهران ـ الحضارة المصرية ـ الإسكندرية ١٩٨٤ ص ١٢٨).

وبدهي أنه في مقابل هذه الحقوق التي كان يتمتع بها الفرعون، كان عليه عدة واجبات، فهو المسئول عن مصر وحماية حدودها من غارات الشعوب المجاورة الطامعة في خيراتها، وهو الذي يعمل على تدعيم العدالة ونشر لواء الحوربين أفراد شعبه، وهو المسئول عن تأمين وسائل الحياة للمصريين بحفر الترع وإقامة الجسور ليتيسر فلاحة الأرض وزراعتها، كما كان عليه حماية المدن من غائلة الفيضان، وتشجيع الصناع والفنانين، فضلاً عن إقامة المعابد للآلهة وتقديم القرابين لها، فإن أهمل واجباته، كلها أو بعضها، فقد قدسيته، ومن ثم يحور لغيره من الآلهة ألا يعترفوا به كواحد منهم، وهكذا يبدو أن الملكية، وإن أفاءت على الملك القداسة والألوهية، فهي في الوقت نفسه، قد حددت من سلطانه، بما فرضت عليه من واجبات.

ومن هنا فإن القوم في عصر الثورة الإجتماعية الأولى، وقد تدهورت أحوال البلاد الداخلية والخارجية، فضلاً عن ظهور اللامركزية منذ أخريات الدولة القديمة، لم يعودوا ينظرون إلى ملوكهم تلك النظرة التي كان أسلافهم ينظرون بها إلى ملوك الأسرة الرابعة مثلاً، الأمر الذي أدى إلى التقليل من هالة التقديس التي كان يُحاط بها الملك أو يحيط بها نفسه، وهكذا لم يعد الملك ذلك الإلة المترفع والحاكم الجبار فوق البشر، والذي يرجو رعاياه عطفه ورضاه، وإنما أصبح شخصاً غير معصوم يتحدث عن ضعفه وعن خطاياه، كما يتحدث الآخرون من رعاياه، بل إننا نرى في هذا العصر الحكيم «إيبو - ور» يتهم الفرعون بأنه سبب الفوضى والإضطرابات التي سادت في البلاد، فرغم أنه قد أعطي الحكمة والسلطة، فقد بقي في قصره يحيط نفسه بمجموعة من المنافقين، حتى ساءت الحال وفقد الناس الأمن والأمان، ثم يبلغ به العنف أشده حتى يتمنى للملك أن يذوق البؤس بنفسه، وحين يرد الفرعون بأنه حاول جهده أن يحمي شعبه، يتهمه «إيبو - ور» بالجهل وعدم الكفاءة للمنصب الخطير، ثم يرسم له صورة الملك

الأمثل بأنه الحاكم العادل الكفء الذي لا يحمل في قلبه شرّاً لرعيته، ويعمل جهده على جمع كلمتها وتوحيد صفوفها، إنه كالراعي يصرف يومه في جمع قطيعه بعضه إلى بعض، ومن ثم فإن الثورة رغم أنها أبقت على مبدأ الملكية الإلهية، فإنها في الوقت نفسه نادت بحقوق الأفراد وبالعدالة الإجتماعية مما جعل الملك المؤله راعياً لشعبه يسهر على مصالحهم ويضني نفسه في سبيل سعادتهم، وهكذا لم يعد الملك ذلك الحاكم الجبار، فوق البشر، وإنما غدا إنسان له ما للإنسان من ضعف ونزوات، وحاكماً يعمل لخير شعبه، ويجهد نفسه على أن يكون دائم اليقظة، حتى لا يؤخذ على غرة، شأنه في ذلك، شأن أي إنسان، قد يفعل الخير فيجد خيراً، وقد لا يجد سوى الشر.

هذا وقد أشرنا من قبل عن أن مصر لم تكن أبداً تعرف عبادة الملك الحي طوال العصور الفرعونية، وإن حاول ذلك «أمنحتب الثالث»، وعلى إستحياء شديد في النوبة، وليس في مصر نفسها، ثم حاول كذلك رعمسيس الثاني في معابده التي أقامها في النوبة للآلهة المصرية وفي «هربيط» وكانت مدينة عسكرية، ثم رعمسيس الثالث في منف وفي العاصمة «بي رعمسيس»، وإن لم تشر سجلات عصره في بردية هاريس ومدينته هابو إلى ذلك أبداً[1].

(1) أنظر عن الموضوع والمراجع (محمد بيومي مهران: الثورة الإجتماعية الأولى، الإسكندرية ١٩٦٦ ص ١٩٠ - ٢٤٠، الحضارة المصرية - الإسكندرية ١٩٨٤ ص ٩٧ - ١٢٨).

البَابُ الثاني

خرُوج بَني إسرَائيل مِن مِصْر

الفصل الأول

الخروج - أسبابه وتاريخه ومكانه

(١) أسباب الخروج :

يختلف العلماء في أسباب خروج بني إسرائيل من مصر، أو طردهم منها، ولعل السبب في ذلك تناقض نصوص التوراة بشأنها، فهي تصوره، وكأنه إضراب عن العمل، ومن ثم فإنها تتحدث عن تمرد العمال العبرانيين على رؤسائهم المصريين، كما تتحدث عن تكاسلهم عن القيام بواجباتهم بسبب رغبتهم في الخروج إلى البرية ليذبحوا للرب إلههم، ولكن فرعون يرفض ذلك[١]، الأمر الذي دفع «وارد» إلى القول بأن الخروج لم يكن إلا إضراباً عن العمل[٢]، ويذهب «كيلر» إلى أن الإسرائيليين إنما كانوا يكوّنون رصيداً هائلاً من الأيدي العاملة الرخيصة، والأجنبية كذلك، وما كان المصريين براغبين في تركهم يخرجون من البلاد[٣]، في فترة البناء النشطة في عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م) والذي كان اهتمامه مركزاً في الدلتا الشرقية، ومن هنا حاول الإسرائيليون الهروب ضد رغبة المصريين[٤]،

---

(١) خروج ٥/ ٤ - ٥.

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ٢/ ٣٢٦، وكذا Ward, Ancient Lowly, II, P. 76.

(٣) W. Keller, The Bible as History, 1967, P. 123.

(٤) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 114.

على أن هناك من يذهب إلى أن مصر عندما قررت التوسع شرقاً إلى بابل، رأت أنه من ضروريات السياسة الجديدة إقرار البدو نشراً للأمن، فضلاً عن الاستقرار، فشق هذا الوضع الجديد على بني إسرائيل الذين كانوا ينزلون «وادي جوشن» من عهد يوسف عليه السلام، كبدو يروحون ويغدون، وهم بحكم هذا الضرب من الحياة تغلب عليهم النزعة الفردية، وينفرون من الملكية الجماعية، ومن ثم فقد تمردوا مفضلين البداوة والترحال، على الحضارة والإستقرار[1].

على أن هناك وجهاً آخر للنظر، يذهب إلى أن الخروج إنما قد تم برغبة المصريين، ذلك لأن الطاعون قد انتشر بين الإسرائيليين، مما اضطر المصريون إلى أن يتركونهم يخرجون حتى لا ينتشر الوباء بين المصريين أنفسهم، ولعل هذا الرأي إنما يتفق مع ما وراه «يوسف اليهودي» نقلاً عن مانيتو، من أن خروج بني إسرائيل من مصر، إنما كان رغبة من المصريين في أن يتقوا وباء فشا بين اليهود المستعبدين المملقين، وأن موسى نفسه إنما كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بين اليهود المجذومين، وأنه علمهم قواعد النظافة على نسق القواعد المتبعة عند الكهنة المصريين، هذا فضلاً عن أن المؤرخين الأغارقة والرومان إنما يفسرون قصة الخروج على هذا النحو[2].

ولعل الوصول إلى رأي في المشكلة يقرب من الصواب، أو يكاد، من وجهة نظر التوراة، إنما يتطلب منا الرجوع إلى نصوص التوراة نفسها، وبخاصة فيما يتصل بدعوة موسى عليه السلام، وهل كانت لهداية المصريين والإسرائيليين سواء بسواء، أم أنها كانت تهدي إلى إخراج بني إسرائيل من

---

(١) فؤاد حسنين: إسرائيل عبر التاريخ ١/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) ول ديورانت: المرجع السابق ص ٣٢٦، وكذا A. Lods, Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eighth Century, Londmn, 1962, P. 168.

مصر فحسب، ومن هنا لعلنا نعرف قدر الطاقة، هل خرج بنو إسرائيل من مصر راغبين أم مكرهين؟

إن التوراة تزخر بالنصوص التي تدل على أن دعوة موسى عليه السلام، إنما كانت تهدف إلى إخراج بني إسرائيل من مصر، وإطلاق سراحهم من عبودية المصريين، يبدو هذا واضحاً خاصة من الإصحاحات العشرة الأولى من سفر الخروج[1]، ومن ثم فالهدف من دعوة موسى، كما تصورها التوراة، إنما هو إخراج بني إسرائيل من مصر، وأن يقيهم شر العذاب المهين الذي كانوا يتعرضون له في أرض الكنانة.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القول بأن موضوع رسالة موسى إنما كان إطلاق بني إسرائيل من عبودية فرعون وقومه، إنما هو أمر يقرره القرآن الكريم في عدة سور، من ذلك قول الله تعالى: ﴿**وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين، حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**فأتياه فقولا إنا رسولاً ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين، أن أرسل معنا بني إسرائيل**﴾[4]، ويقول صاحب الظلال: وواضح من هذا أن موسى عليه السلام لم يكن رسولاً إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته، إنما كان رسولاً إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون، وقد كانوا أهل دينَ منذ أبيهم إسرائيل، وهو يعقوب أبو يوسف

---

(١) أنظر: خروج ٣/ ٧ - ١١، ٥/ ١ - ٥، ١٠ - ١٣، ٢٦ - ٧/ ٢ - ٥، ١٤، ٨/ ١ - ٢، ٢٠ - ٣٢، ٩/ ١ - ٢، ١٣، ١٧، ٢٨، ٣٥، ١٠/ ٣، ٧ - ١١، ٢٠.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) سورة طه: آية ٤٧.

(٤) سورة الشعراء: آية ١٦ - ١٧.

عليهما السلام، فبهت هذا الدين في نفوسهم، وفسدت عقائدهم، فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون، ويعيد تربيتهم على دين التوحيد، ويقول في مكان آخر من تفسيره أن موضوع رسالتهما (أي موسى وهارون) ﴿ **فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم** ﴾، ففي هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون، لاستنقاذ بني إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها إلى أن يفسدوا فيها فيدمرهم تدميراً[1].

ويقول أبو حيان في بحره المحيط في تفسير آية الأعراف (١٠٥) لم يطلب موسى من فرعون في هذه الآية إلا إرسال بني إسرائيل معه، وفي غيرها دعاه إلى الإقرار بتوحيد الله وربوبيته، قال تعالى: ﴿ **فقل هل لك إلى أن تزكي، وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾[2]، وكل بدعوته إلى توحيد الله، وقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿ **فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون** ﴾[3] فهذا ونظائره دليل على أنه طلب منه الإيمان، خلافاً لمن قال إن موسى لم يدعه إلى الإيمان، ولا إلى التزام شرعه، وليس بنو إسرائيل من قوم فرعون ولا من المصريين (القبط)، ألا ترى أن بقية المصريين، وهم الأكثر، لم يرجع إليهم موسى[4].

وعودا على بدء، عودا إلى التوراة، حيث نرى اتجاه النصوص يتغير عندما يعلن فرعون موافقته على رغبة موسى بإطلاق الرجال من بني إسرائيل ليعبدوا للرب إلههم في البرية، غير أن موسى لا يرضى إلا أن يخرج

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٧، ٥/ ٢٥٩٠.

(٢) سورة النازعات: آية ١٨ ـ ١٩.

(٣) سورة المؤمنين: آية ٤٧.

(٤) تفسير البحر المحيط ٤/ ٣٥٦.

الإسرائيليون جميعاً، بل حتى الغنم والبقر، وهنا يرفض الفرعون، وإن كان لا يمضي طويل وقت حتى يوافق على خروج بني إسرائيل جميعاً، وإن استثنى من ذلك الأغنام والأبقار، غير أن موسى لا يقبل إلا بخروج أغنامهم وأبقارهم معهم، لأن بني إسرائيل، فيما ترى توراتهم، ما كانوا بقادرين على عبادة ربهم بدون مواشيهم[1]، ويصر الفرعون على رأيه، وهنا تبدأ التوراة لا تتحدث عن خروج بني إسرائيل من مصر، وإنما تتحدث عن طردهم[2]، كما تبدأ النصوص التوراتية تخطط لسرقة المصريين[3]، وعن البلاياء التي نزلت بمصر مما اضطر فرعون إلى أن يوافق على خروج الإسرائيليين بأغنامهم وأبقارهم[4]، وهنا لا يتورع كتبة التوراة أن يدونوا في نصوصها أن مشروع سرقة المصريين الذي كان قد دبر بليل، إنما قد تم تنفيذه الآن «وأعطي الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، أمتعة فضة وأمتعة ذهب، فسلبوا المصريين[5]»، وأن هذا قد تم برضى من موسى وبأمر منه، وفي الحقيقة أن الإساءة إلى الأنبياء الكرام من بني إسرائيل أنفسهم، أمر معروف في التوراة، ونظائره كثيرة.

وأياً ما كان الأمر، فإن نصوص التوراة تشير إلى أن الخروج إنما قد تم بأمر فرعون وموافقته، بل إنها تشير صراحة إلى أن بني إسرائيل قد أكرهوا على الخروج من مصر[6]، أو على الأقل، فإنهم لم يكونوا جميعاً راضين عن الخروج، إذ وافق عليه فريق، وأنكره آخرون، إلا أن الغلبة إنما كانت

---

(١) خروج ١٠/ ٩-١١، ٢٤-٢٦، ١١/ ١-٢.
(٢) خروج ٦/ ١.
(٣) خروج ١١/ ١-٣.
(٤) خروج ١٢/ ٢٩-٣٣.
(٥) خروج ١٢/ ٣٤-٣٦.
(٦) خروج ١٢/ ٣٩.

للأولين على الآخرين، ومن هنا فإن الله لم يهدهم إلى أقرب الطرق إلى كنعان «لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر[1]»، بل إن هناك نصوصاً توراتية تقرر أن بني إسرائيل إنما كانوا يعارضون فكرة الخروج من مصر منذ أن عرضها عليهم موسى، باديء ذي بدء، وأنهم حين خرجوا منها، سواء أكان ذلك بأمر فرعون أو بتحريض من موسى، فقد كانوا لذلك من الكارهين، ومن هنا فقد كثرت ثوراتهم على موسى في سيناء، بل حتى وهم على أبواب كنعان، حيث نادوا بخلع موسى، والمناداة برئيس جديد يستطيع أن يعود بها إلى أرض الكنانة «أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر، فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر[2]».

على أن آي الذكر الحكيم إنما تقرر أن الخروج من مصر، إنما كان بوحي من الله تعالى إلى موسى عليه السلام، قال تعالى: **﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون﴾**[4]، وقال تعالى: **﴿فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون، واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون﴾**[5] وهذا كله يفيد أن الخروج إنما كان بأمر من الله لموسى عليه السلام، فلقد أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسري بعباده، وأن يرحل بهم ليلاً، بعد تدبير وتنظيم، ونبأه أن فرعون سيتبعهم بجنده، وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر[6]، وبدهي أنه ليس بعد قول الله تعالى قول،

---

(١) خروج ١٣/ ١٧ - ١٨.
(٢) خروج ١٤/ ١١ - ١٢، عدد ١٤/ ٣ - ٤.
(٣) سورة طه: آية ٧٧.
(٤) سورة الشعراء: آية ٥٢.
(٥) سورة الدخان: آية ٢٣ - ٢٤.
(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٧.

وبالتالي فإن الخروج من مصر إنما تم بأمر الله تعالى، وليس بأمر موسى أو فرعون.

(٢) تاريخ الخروج : -

إختلف المؤرخون، القدامى منهم والمحدثون، في تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، وبالتالي في الاستقرار الذي تلاه في كنعان (فلسطين)، ومن ثم فقد قدموا لنا نظريات مختلفة، يصل الفرق بين أقدمها وأحدثها إلى أربعة قرون، ومن ثم فقد رأينا البعض يجعل من طرد الهكسوس من مصر (حوالي عام ١٥٧٥ ق. م) تاريخاً للخروج، بينما يتأخر آخرون إلى ما بعد عصر رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق. م)، والفرق بينهما، كما رأينا، كبير، يصل إلى أربعة قرون، وفي نفس الوقت، إنما يشير إلى الغموض الذي يرين على تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، بقيادة موسى عليه السلام.

ولعل صعوبة الوصول إلى رأي محدد بشأن تاريخ الخروج، إنما يرجع، في أكبر الظن، إلى أسباب ثلاثة، أولها: أن الآثار المصرية، وكذا الفلسطينية، لم تقدم لنا تاريخاً محدداً عن هذا الحدث الخطير، والذي أصبح له تأثير ضخم على التاريخ الديني، وما برح حتى الآن يؤثر في نفسية اليهود، بل إنه هو الذي أثمر بصفة عامة ذاتيتهم الخاصة، وأما سبب عدم ذكر هذا الحادث في الآثار أو الوثائق المصرية، فيرجع، فيما نرى، إلى أمرين، أولهما: أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء والرسل، صلوات وسلامة عليهم، في النصوص الإنسانية، وخاصة المصرية، ضعيف إلى درجة كبيرة، في ذلك لأن حقيقة الصراع بين القيم السماوية والبشرية، ربما كان سبباً، وهو كذلك، في إغفال ذكرها، وهذه ظاهرة يلمسها المؤرخ في تاريخ الشرق الأدنى القديم بوجه عام، بالنسبة إلى تعمد عدم التعريف

بالمعارضين[1]، وثانيهما: أن المصادر المصرية القديمة، والتي تمتاز عن غيرها من مصادر الشرق الأدنى القديم بوضوحها وكثرة آثارها ونصوصها، كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر المصرية بمعلومات كافية عن موسى عليه السلام، غير أن هذه المصادر، في غالبيتها، إنما كتبت بأمر من الملوك، أو بوحي منهم، أو على الأقل برضى منهم، فإذا تذكرنا أن الملك كان في العقيدة المصرية القديمة مؤلها، كان من الطبيعي ألا يستسيغ الفكر المصري أن يهزم الملك المؤله أو الإله في حرب خاض غمارها، ولهذا فالنصر كاد أن يكون حليفه فيها، وقد تكون الحقيقة غير ذلك[2]، ومن المعروف أن قصة موسى، كما جاءت في التوراة والقرآن العظيم، إنما انتهت بغرق الفرعون وجنوده في البحر، ونجاة موسى ومن آمن معه بالواحد الأحد، وليس من المقبول، طبقاً للعقيدة الملكية الإلهية في مصر القديمة، أن تسجل النصوص غرق الفرعون الإله، ونجاة عبيده العبرانيين، ومن هنا كان من الصعب العثور على إسم موسى وقصة خروجه ببني إسرائيل من مصر، حتى الآن على الأقل، رغم ضخامة التركة الأثرية التي خلفتها لنا مصر في العصور الفرعونية[3].

وأما ثاني الأسباب فإنما يرجع إلى الإضطراب الواضح بين نصوص التوراة، حتى استطاع العلماء أن يستخرجوا منها تاريخين مختلفين للخروج في وقتين مختلفين، يكاد الواحد منهما يبعد عن الآخر بأكثر من قرنين من الزمان، حيث اعتمد البعض على نص في سفر الملوك، توصلوا إلى أن الخروج إنما كان على أيام تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق. م)[4] بينما

(١) رشيد الناضوري: الفكر الديني - بيروت ١٩٦٩ ص ١٧٤.
(٢) محمد بيومي مهران: الثورة الإجتماعية الأولى في مصر الفراعنة ص ٣.
(٣) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٣١٤ - ٣١٥.
(٤) ملوك أول ٦/ ١.

اعتمد آخرون على نص في سفر الخروج توصلوا منه إلى أن الخروج إنما كان على أيام رعمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق . م)[1].

وأما ثالث الأسباب، فيرجع إلى أن القرآن الكريم، وكذا التوراة، لم يذكر أي منهما إسم الفرعون الذي عاصر موسى عليه السلام وذلك على الرغم من أن أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم قصتان مسهبتان في أجزائه لأنهما ترويان نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارات الإنسانية، وهما أمة وادي النهرين وأمة وادي النيل، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة، جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم، ولعل السبب في عدم ذكر القرآن لإسم فرعون موسى، أن الإسم لا أهمية له في موضوع القرآن أو في صميم رسالته، فإنه كتاب هداية وإرشاد، ومن ثم فهو يكتفي من القصة والوقائع التاريخية الصحيحة بالقدر الذي يستخلص منه العبرة، ويقتضيه المقام، ومن ثم فهدف قصة موسى في القرآن، كهدف غيرها، ليس التاريخ لهما، وإنما عبراً تفرض الإفادة بما حل بالسابقين.

وعلى أي حال، فإن أهم الآراء التي دارت حول تاريخ الخروج خمسة، أولها رأي يذهب أصحابه إلى أن الخروج إنما تم أثناء طرد الهكسوس من مصر على أيام أحمس الأول، حوالي عام ١٥٧٥ ق . م، وثانيهما أنه تم على أيام تحوتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق . م) أو ولده أمنحتب الثاني (١٤٣٦ ـ ١٤١٣ ق . م)، وثالثها أنه تم في أعقاب أيام إخناتون (١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ ق . م)، وربما في الفترة ما بين موت أخناتون وتوليه حور محب العرش حوالي عام ١٣٣٥ ق . م، ورابعها أنه تم على أيام رعمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق . م)، وخامسها أنه على أيام ولده «مرنبتاح» (١٢٢٤ ـ ١٢١٤ ق . م)، فإذا كان هذا الرأي صحيحاً، وهذا ما

(١) خروج ١/ ١٠.

نميل إليه ونرجحه، فإن الخروج لا بد وأن يكون في العام الأخير من حكم مرنبتاح، سواء أكان هذا العام العاشر من الحكم (حوالي عام ١٢١٤ ق. م) أو العام الثامن من الحكم (حوالى عام ١٢١٦ ق. م)، على خلاف في الرأي، وذلك لأن التوراة[1] والقرآن العظيم إنما يقولان إن الفرعون قد غرق في البحر، وإن أضاف القرآن الكريم أن جثة الفرعون قد انتشلت لتكون آية لمن خلفه[2]، على أن هناك آراء أخرى، ذهب أولها إلى أن الخروج تم على أيام «سيتي الثاني»، وذهب ثانيها إلى أنه كان في نهاية الأسرة التاسعة عشرة، وأما ثالث الآراء فقد تأخر به إلى ما بعد عهد رعمسيس الثالث، ثاني ملوك الأسرة العشرين، الأمر الذي سنناقشه بالتفصيل في الفصل الثالث (فرعون موسى) من هذا الباب الثاني.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الوصول إلى تاريخ محدد، على وجه اليقين أو حتى على وجه التقريب، أمر في غاية الأهمية من الناحيتين التاريخية والدينية، فأما من الناحية التاريخية، فلعلنا نستطيع، عن طريق معرفتنا لتاريخ الخروج، أن نعرف وقت دخول بني إسرائيل فلسطين، وبالتالي بداية التاريخ الإسرائيلي، ذلك لأن تاريخ بني إسرائيل كشعب، لا يبدأ إلا بالخروج من مصر، وأما من الناحية الدينية، فإننا نستطيع أن نعرف بداية ظهور اليهودية، ذلك أننا إذا عرفنا فرعون مصر الذي خرج اليهود في عهده من مصر، فإننا نستطيع، اعتماداً على وضوح التاريخ المصري على أيام الفراعين، أن نحدد عصر موسى عليه السلام، ذلك العصر الذي يعتبر واحداً من أهم الأعصر في تاريخ البشرية الديني، لأنه العصر الذي ظهرت فيه أولى الديانات السماوية الثلاثة الكبرى المعاصرة، اليهودية والمسيحية والإسلام.

---

(١) خروج ١٤/ ٢٦ - ٣١، ١٥/ ١ - ٥، الرسالة إلى العبرانيين ١٥/ ٢٩.

(٢) سورة يونس: آية ٩٠ - ٩٢.

ولعل مما يزيد الأمر أهمية أننا نعرف البداية المؤكدة للمسيحية والإسلام، عن طريق معرفتنا لتاريخ نبيّيهما الكريمين سيدنا عيسى وسيدنا ومولانا محمد رسول الله، صلوات الله وسلامه عليهما، فأما المسيح عليه السلام، فقد ولد على أيام أول قياصرة روما «أوغسطس» (٢٧ ق. م - ١٤ م)، وأيام «هرودوس الكبير» (٣٧ - ٤ ق. م) أو ولده «إرخيلاوس» (٤ ق. م - ٦م) حاكمي اليهودية من قبل الرومان، وعلى أيام «الحارث الرابع» (٩ ق. م - ٤٠ م) ملك الأنباط، هذا ويذهب البعض إلى أن المسيح ولد ما بين عامي ٦، ٢ قبل الميلاد، بينما رأى آخرون أنه ولد عام ٥ ق. م، أو أوائل عام ٤ ق. م، أما الإحتفال بمولده في ٢٥ ديسمبر، فقد بدأ في القرن الرابع الميلادي، ومن ثم فربما كان مولده في ٢٥ ديسمبر عام ٥ ق. م، وهذا يجعله سابقاً للتاريخ الذي وضعه «ديونيسيوس» في ٢٥ ديسمبر عام ١ م، بخمس سنوات، على أن هناك من يراه قد ولد في عام ٤ م، وأنه رفع إلى السماء في عام ٢٧ م، وربما في ٢٣ مارس عام ٢٩ م، على أن هناك من يرى المسيح بدأ دعوته، وقد ناهز الثلاثين من عمره في عهد الإمبراطور «تيبريوس» (١٤ - ٣٧ م)[1].

وأما المولد النبوي الشريف لمولانا وسيدنا وجدنا محمد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان، طبقاً للمصادر الإسلامية، في عام الفيل[2]،

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٦٨٤، ه. ج. ويلز: تاريخ العالم - القاهرة ١٩٦٧ ص ١٧٢، ٤١٦، فيليب حتي: المرجع السابق ١/ ٣١١ - ٣١٢، ٣٦٣، محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٣٥٩، ٢/ ١١٤٥، وكذا Josephus, Antquities, XIV, 8, 3, 5, XV, 6, 41 وكذا Josephus, The Jewish War, I, XIII,8.

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ١٥٥ - ١٥٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٥٩ - ٢٦٣، سيرة ابن هشام ١/ ١٥٨ - ١٥٩، دلائل النبوة للبيهقي، عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ص ٣٧، محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ٣٨٨ - ٤١٠ (الرياض ١٩٨٠).

غير أن عام الفيل نفسه غير معروف على وجه التحديد[1]، والأمر كذلك إلى من يرونه يتفق وموقعه «ذي قار»[2]، ومن ثم فقد اعتمد العلماء على تاريخين محققين من السيرة النبوية الشريفة، لتحقيق المولد النبوي الشريف، وهما: تاريخ الهجرة في عام ٦٢٢ م، وتاريخ الإنتقال إلى الرفيق الأعلى في عام ٦٣٢ م، ومع ذلك لم يصل العلماء، إلى نتائج مؤكدة.

وعلى أية حال، فإن «جوستاف لوبون» يرى أن مولد المصطفى ﷺ إنما كان يوم ٢٧ أغسطس عام ٥٧٠ م، بينما يتأخر به «كوسان دي برسيفال» يومين، فيراه في ٢٩ أغسطس ٥٧٠ م، وأما محمود باشا الفلكي فقد حدد لمولد مولانا وسيدنا وجدنا رسول الله ﷺ يوم ٩ ربيع الأول، الموافق ٢٠ أبريل عام ٥٧١ م، ويتفق معه في ذلك «سلفستر دي ساسي»، والحق أن الإمام السهيلي (١١١٤ - ١١٨٥ م) قد سبق كلا من الفلكي وسلفستر في تاريخهما للمولد النبوي الشريف بيوم ٢٠ أبريل (نيسان)، على أن المترجمين لحياة سيدنا رسول الله ﷺ إنما يجمعون على أنه ولد يوم الإثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول من عام الفيل، ويذهب جمهور كبير من العلماء على أن هذا التاريخ يوافق العام الثالث والخمسين قبل الهجرة، أي عام ٥٧١ م، وأما الإنتقال إلى الرفيق الأعلى فقد كان يوم ١٢ أو ١٣ ربيع الأول عام ١١ هـ، الموافق ٧ أو ٨ يونيه عام ٦٣٢ م، بعد أن بلغ ﷺ ٦٣ عاماً قمرياً بالكامل، أي أكثر من واحد وستين عاماً شمسياً، بحوالي شهر وأكثر من نصف الشهر، روى البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس أنه قال: مكث النبي ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة يوحي إليه، وبالمدينة عشراً، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة[3]».

---

(١) تتراوح تقديرات العلماء فيما بين أعوام ٥٥٢ م، ٥٦٣ م، ٥٧٠ م، ٥٧١ م.

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ص ٥٩٤ - ٥٩٧.

(٣) محمود الفلكي: التقويم العربي قبل الإسلام ص ٣٨، محمد عبد الله دراز: مدخل إلى =

(٣) مكان الخروج وبدايته :

إلتف بنو إسرائيل حول موسى عليه السلام في مصر، لا كنبي، وإنما كقائد يرجي على يديه الخلاص من استعباد المصريين، وبدأ موسى مسيرة الخروج، ومعه بطانة من السحرة المصريين الذين آمنوا به وصدقوه، بل كما وصفهم القرآن الكريم ﴿**أول المؤمنين**﴾، هذا فضلاً عن الإسرائيليين ومن لاذ بهم ممن آمنوا بموسى ودعوته، وكانت بداية المسيرة من مدينة «بي رعمسيس» مقر الفرعون وعاصمة الإمبراطورية المصرية وقت ذاك، والتي قام جدل طويل بين العلماء حول موقفها، وإذا كان صحيحاً ما ذهبنا إليه من دراسات سابقة لنا، فإنها تقع مكان قرية «قنتير»، على مبعدة ١٩ كيلاً إلى الجنوب من صان الحجر، وعلى مبعدة ٩ كيلاً إلى الشمال الشرقي من فاقوس شرقية[١].

وعلى أية حال، فلقد ارتحل بنو إسرائيل من «بي رعمسيس». (رعمسيس في التوراة) إلى سكوت[٢]، وكان عددهم، فيما تروي التوراة،

القرآن الكريم ص ٢٢، وانظر: صحيح البخاره ٦/ ١٩، صحيح مسلم ١٥/ ٩٩ - ١٠٤ (بيروت ١٩٨١) وكذا Cussin de Perceval, Essai sur L'Histoire des Arabes avant L'Islamisme, وكذا P. Lammanens, Age de I, P. 283 R. Blachere, Le Proplem de Mahomet, P. 15 Mohammad, P. 209.

(١) محمد بيومي مهران : مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث - الإسكندرية ١٩٦٩ ص ٤٦ - ٦٢، إسرائيل ١/ ٤٣٩ - ٤٤٣.

(٢) سكوت : مكان غير معروف الآن بالضبط، ولكنها تقع في الإقليم الثامن من أقاليم الدلتا، وكان يسمى «واع إيب» أو «نفر إيب» ويقع في نهاية الدلتا الشرقية بين وادي طميلات والبحر الأحمر، ويذهب البعض إلى أن سكوت هي تل المسخوطة علىّ مبعدة ١٥ كيلاً شرقي الإسماعيلية ومن يرى أنها «بيثوم» (فيثوم) (بر آتوم) وهي تل سليمان على مبعدة ٣ كيلاً من غربة أبو سعيد، قريباً من القصاصين، وعلى مبعدة ١٣ كيلاً غربي تل المسخوطة، أو هي التل الكبير على مبعدة ٤٩ كيلاً غربي الإسماعيلية، ومن يرى أنها «ثكو» عند المصريين القدامى =

نحو ستمائة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد[1]، وقد تابع بعض المؤرخين والمفسرين[2] التوراة في ذكر تلك الأرقام، التي أثارت جدلاً بين العلماء حول صحتها، ذلك لأن رقم (٦٠٠ ألف) إنما يصل ببيت يعقوب، والذين كانوا سبعين نفساً يوم دخلوا مصر على أيام يوسف[3] منذ ٢١٥ عاماً، طبقاً للترجمة السبعينية[4] للتوراة، أو ضعف هذا الرقم طبقاً لرواية التوراة العبرية، يصل بهم الآن، وعند الخروج من مصر، إلى ما يزيد عن المليونين، وربما الثلاثة، تقول التوراة: كان من بينهم «نحو ست مئة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد، فكان جميع الأبكار الذكور، من ابن شهر فصاعد، اثنين وعشرين ألفاً ومائتين وثلاثة وسبعون[5]»، فإذا ضاعفنا هذا الرقم كان الأبكار من الجنسين قرابة ٤٥ ألفاً.

ومن ثم فقد رفض كثير من العلماء هذه الأرقام، وإن قبلها آخرون، بينما حاول فريق ثالث إيجاد تفسير آخر لهذه الأرقام ومن ثم فقد ذهب «فلند

= على مبعدة ١٠ كيلاً من قنتير، وإن رأى فريق رابع أن ذلك أمراً يحتمل الكثير من الشك، (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية ـ الإسكندرية ١٩٨٤ ص ١٧٢ ـ ١٧٣).

(١) خروج ١٢/ ٣٧.

(٢) أنظر: تاريخ الطبري ١/ ٤٠٤، تاريخ ابن خلدون ١/ ٩٤، الكامل لابن الأثير ١/ ١٠٦، البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٧٠، تاريخ اليعقوبي ١/ ٣٦، مروج الذهب للمسعودي ١/ ٦١، تفسير روح المعاني ١/ ٢٧٠، تفسير الدر المنثور ٥/ ٨٤، تفسير أبي السعود ٦/ ٢٤٤، ثم قارن ذلك بما جاء في تفسير النسفي (٣/ ٦٠) حيث جعل بني إسرائيل سبعين ألفاً فقط، وأن فرعون ركب إليهم في ستمائة ألف، هذا وقد جاء في تفسير السيوطي (٥/ ٨٥): روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: كان أصحاب موسى الذين جاوزوا البحر اثنى عشر سبطاً، فكان في كل طريق اثنى عشر الفاً، كلهم ولد يعقوب عليه السلام.

(٣) تكوين ٤٦/ ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) أنظر عن الترجمة السبعينية للتوراة: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ١٠٧ ـ ١١٢.

(٥) خروج ١٢/ ٣٢، عدد ٤٣/ ٤٣، وانظر: عصام الدين حفني ناصف: محنة التوراة على أيدي اليهود ـ القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٥.

رزبتري» إلى القول بأن الألف إنما تعني الأسرة والجماعة أو العشيرة أو الخيمة، وعلى ذلك فإن ٤٠٠و ٥٤ مثلاً، لا تعني إن هناك ٥٤٤٠٠ شخصاً، وإنما تعني (٥٤) عشيرة، عدتها (٤٠٠) فرداً، ثم يفترض «بتري» بعد ذلك أن الخيمة الواحدة كانت تضم في المتوسط تسعة أفراد، هم الجدين والوالدين وثلاثة أطفال، فضلاً عن اثنين من الرعاة أو التابعين من الجمهور المختلط الذي صعد معهم، وهذا على اختلاف بين القبائل، فالقبيلة الفقيرة كانت تضم خيامها خمسة أفراد وثلاثة أطفال، بينما تضم القبيلة الغنية أطفالاً أكثر، ثم يقترح «بتري» بعد ذلك أن المجموع الكلي كان ٥٥٥٠ (خمسة الآف وخمسمائة وخمسون شخصاً) وبهذا يمكن لموسى عليه السلام أن يحكم في كل الخصومات التي تنشب بين حوالي ستمائة خيمة أو مجموعة، لأن الفصل بين ستمائة ألف رجل جد محال[١].

هذا فضلاً عن أن هناك قابلتين، هما شفرة وفوعة[٢]، كانتا تقومان بمساعدة نساء بني إسرائيل في مصر أثناء الوضع، وربما كان مقر الواحدة منهما في مدينة «بي رعمسيس»، والأخرى «فيثوم» (بر أتوم)، وهو أمر مقبول بالنسبة لمجموعة تعدادها ستة آلاف، ومواليدها بمعدل مولود كل أسبوع[٣]، أضف إلى ذلك أننا لو أخذنا الرقم الأكبر، وهو ستمائة ألف، فهذا يعني ١٤٠ مولوداً في كل يوم، وهو أمر جد محال بالنسبة لأية قابلة[٤]، هذا فضلاً عن أننا لو قسمنا عدد الجماعة على الأبكار لخلصنا إلى أن المرأة الإسرائيلية كانت تلد زهاء ٦٥ وليداً، وهذا أمر لا يستقيم مع المنطق، فضلاً عما تعرضوا له من ذل وعسف تحت رؤساء التسخير، ولا مع ما روى من عبورهم البحر في

---

(١) W. M. F. Petric, Egypt and Israel, London, 1925, P. 42 - 44.

(٢) خروج ١/ ١٥.

(٣) W. M. F. Petrie, op - cit, p. 44 - 46.

(٤) نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم ٣/ ٣٨٨.

سويعات قصار، ومن ثم فإن علماء اللاهوت والمؤرخين سواء بسواء، أصبحوا الآن لا يعلقون على هذه الأقام التي ذكرتها التوراة أية أهمية، ويعتبرونها محض خيال إسرائيلي[1].

وعلى أية حال، فإن التوراة تروي أن الرب كان يعلم ما في الإسرائيليين «من صغر النفس ومن العبودية القاسية»، وأنهم لم يصبحوا بعد أكفاء لدفع ثمن الحرية، أو حتى جادين في الخروج من مصر، حرصاً منهم على حياة، وتقاعساً عن جهاد، وخوفاً من موت، ومن ثم فإنه لم يهدهم إلى أقرب الطرق إلى كنعان، مع أنها قريبة، «لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر، فأدار الله الشعب في طريق بحر سوف[2]»، وربما كان السبب أن لا يمروا بجوار الحصون المصرية التي كانت تحمي البلاد من غارات البدو، وبخاصة عند «ثارو» (وهي تل أبو صيفة الحالي في مجاورات القنطرة شرق) وقد علمنا من نص موظف الحدود، ويرجع إلى العام الثامن من عهد مرنبتاح، كيف كانت سلطات الأمن تسيطر سيطرة كاملة على حركات الناس والبدو في تلك البقاع من تخوم مصر الشرقية[3].

وهكذا ارتحل بنو إسرائيل من سكوت، ونزلوا في «إيثام» في طريق البرية، ثم كلم الرب موسى قائلاً «كلم بني إسرائيل أن يرجعوا، وينزلوا أمام فم الحيروت، بين مجدل والبحر، أمام بعل صفون، مقابله تنزلون عند البحر[4]».

---

(١) عصام الدين حفني ناصف: المرجع السابق ص ٣٥، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٧٣، وكذا S. A. Cook, The Rise of Israel, in CAH, II, 1931, p. 358.

(٢) خروج ١٣/ ١٧ ـ ١٨.

(٣) أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٤١٥ ـ ٤١٦، وكذا A. H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1966, P. 76 - 77 وكذا J. Wilson, ANET, P. 258 - 259 وكذا J. H. Breasted, ARE, III, No. 636 - 638.

(٤) خروج ١٣/ ٢٠، ١٤/ ١ ـ ٢.

الفَصْلُ الثّاني

مُعجِزةُ انفِلاقِ البَحر

علم فرعون أن بني إسرائيل قد فروا بليل، وأنهم قد أخذوا معهم[1] ما

(١) جاء في التوراة في ختام قصة يوسف عليه السلام أنه أوصى عند موته أن يحمل بنو إسرائيل عظامه معهم حين يخرجهم الرب من مصر إلى الأرض التي وعدهم بها (تكوين ٥٠/ ٢٤ - ٢٦) وأخرج أبو يعلي والحاكم بسنده عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل، فقال أصحابه يا رسول الله وما عجوز بني إسرائيل، قال: إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلوا الطريق، فقال ما هذا؟ فقال علماؤهم نحن نحدثك، إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا، قال: فمن علم موضع قبره، قالوا: ما ندري أين قبر يوسف إلا عجوز من بني إسرائيل فبعثنا إليها فأتته، فقال: دلوني على قبر يوسف، قالت: ، والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك، قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك فأوحى الله إليه أعطيها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء، فقالت: انضبوا هذا الماء فأنضبوا، قالت: احفروا واستخرجوا يوسف، فلما أقلوها إلى الأرض إذا الطريق مثل ضوء النهار» (محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة بيروت ١٤٠٣ هـ، حديث رقم ٣١٣). وتذهب رواية إسلامية عن عروة بن الزبير عن أبيه أن الله حين أمر موسى بالمسير ببني إسرائيل أمره أن يحتمل يوسف معه حتى يضعه في الأرض المقدسة، فسأل موسى عمن يعرف موضع قبره، فما وجد، إلا عجوزاً من بني إسرائيل فقالت: يا بني الله: أنا أعرف مكانه، إن أنت أخرجتني معك ولم تخلفني بأرض مصر دللتك عليه، (وأضافت رواية الخازن: ألا ينزل موسى غرفة من غرف الجنة إلا نزلتها معك، فأجابها إلى ذلك، بعد أن سأل ربه، فقالت: هو في (النيل في جوف الماء) فخرجت به العجوز حتى أرته إياه في ناحية من النيل في الماء، فاستخرجه موسى صندوقاً من مرمر، فاحتمله معه، قال عروة: فمن ذلك تحمل اليهود موتاها =

أعاره المصريون لهم من الأمتعة والذهب والفضة[1] وطبقاً لرواية التوراة، فلقد تغير قلب فرعون وملئه على بني إسرائيل، «وقالوا: ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا[2]»، وهنا لم يجد الفرعون مناصاً من أن يلحق بالفارين حتى يعيد ما سرقوه، إن لم يردهم إلى ما كانوا عليه من ذل العبودية، أو يفتك بهم ويستأصل شأفتهم من البلاد، ومن ثم فقد أمر بما يسمى في عصرنا الحاضر «التعبئة العامة»، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون الجند، وإن كان هذا الجمع، كما يقول صاحب الظلال، قد يشي بانزعاج فرعون، وبقوة موسى ومن معه وعظيم خطرهم، حتى ليحتاج الملك بزعمه، إلى التعبئة العامة، ولا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين **﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون، وإنا لجميع حاذرون﴾**، مستيقظون لمكائدهم محتاطون لأمرهم، ممسكون بزمام الأمور، قال الزمخشري: وهذه معاذير اعتذر بها إلى قومه لئلا يُظن به ما يكسر من قهره وسلطانه[3].

وتقول التوراة: وشدد الرب قلب فرعون حتى سعى وراء بني إسرائيل، وأدركتهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه، وهم نازلون عند البحر، ورأى بنو إسرائيل الخطر الزاحف من خلفهم، وهو يقترب منهم، فتملكهم الذعر والخوف، وأيقنوا أنهم هالكون، وصاحوا

= من كل أرض إلى الأرض المقدسة (تاريخ الطبري ١/ ٤١٩، الكامل لابن الأثير ١/ ١٠٥، تفسير الخازن ١/ ٥٧ ـ ٥٨، تاريخ اليعقوبي ١/ ٣٥).

(١) خروج ١٢/ ٣٥ ـ ٣٦، وانظر: تاريخ الطبري ١/ ٤١٣ ـ ٤١٤، تفسير الخازن ١/ ٥٧، الدر المنثور ٥/ ٨٤، ابن الأثير ١/ ١٠٦.

(٢) خروج ١٤/ ٥.

(٣) سورة الشعراء: آية ٥٢ ـ ٥٦، في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٧ ـ ٢٥٩٨، تفسير الكشاف ٣/ ٢٤٨.

بموسى «ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر، قائلين: كف عنا فنخدم المصريين، لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية»[1]، ويصبح موسى عليه السلام في مأزق حرج، فقد كانت بحيرة البوص على يمينه، وحصن مجدل، بما فيه من حامية، أمامه، ساداً الطريق من جهة الشمال، وعلى يساره مستنقعات فرع النيل البيلوزي، وخلفه الفرعون وقواته الضاربة، وهكذا وقف موسى وقومه أمام البحر، ليس معهم سفن، ولا هم يملكون خوضه، وما هم بمسلحين، وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم ولا يرحمون، وقالت دلائل الحال كلها: أن لا مفر والبحر أمامهم، والعدو خلفهم[2]، وهنا صاح بنو إسرائيل: «إنا لمدركون»، وقالوا يا موسى: أوذينا من قبل أن تأتينا، كانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا، ومن بعد ما جئتنا اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا، إنا لمدركون البحر من بين أيدينا، وفرعون من خلفنا، وفي

---

(١) خروج ١٤/ ٨-١٢.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٨، محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٤٥٠.

(٣) تذهب روايات المفسرين والمؤرخين إلى كثير من المبالغة، بل الخيال، في تقدير أعداد جيش فرعون، فتذهب رواية إلى أن فرعون تبع بني إسرائيل في ألف ألف (مليون) وقيل في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان (مليون وسبعمائة ألف) وتذهب أخرى إلى أنهم مليون وستمائة ألف، وتذهب رواية ثالثة إلى أنهم مليون ومائة ألف، وتذهب رابعة إلى أنهم مليون وخمسمائة ملك، مع كل ملك ألف، وخرج فرعون في جمع عظيم، وكانت مقدمته سبعمائة ألف فارس، وتذهب رواية خامسة إلى أن فرعون كان في سبعة الآف (٧ مليون) وكان بين يديه مائة ألف ألف ناشب، ومائة ألف ألف حراب، ومائة ألف ألف معهم الأعمدة، وبدهي أن سكان مصر جميعاً وقت ذاك، ربما لم يبلغوا هذا العدد، ثم إننا حتى لو صدقنا مبالغات التوراة ومن تابعها من المفسرين عن أعداد بني إسرائيل وقت الخروج، فإن عددهم (ستمائة ألف غير الأولاد والشيوخ) لا يتطلب بحال من الأحوال هذه الملايين من جنود مصر، لمطاردتهم، ثم كيف تمكن فرعون من جمع هذه الملايين من الرجال والخيل من كل أنحاء مصر، حين علم فجأة بخروج بني إسرائيل، وراءهم مطارداً، وربما كان أقرب إلى الصواب =

رواية قالوا يا موسى: أين ما وعدتنا، فكيف نصنع، هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا، والبحر أمامنا إن دخلناه غرقنا[1].

وهكذا سدت السبل أمام بني إسرائيل، ولم يجد موسى عليه السلام من وسيلة لإنقاذهم سوى طلب العون والرحمة من الله، ومن ثم فهو يصيح في وجوه الخائفين الفزعين من أتباعه «إن معي ربي سيهدين»، قال الرازي: قوّى نفوسهم بأمرين أحدهما أن ربه معه، وهذا دلالة النصر والتكفل بالمعونة، والثاني قوله «سيهدين» أي إلى طريق النجاة والخلاص، وإذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصر، وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن سلام: أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء، والكائن بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله **﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾**[2]، وهنا تحدث المعجزة الكبرى، إذ أوحى الله إلى موسى **﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾**[3].

ولعل سؤال البداهة الآن: أين ومتى وكيف تم انغلاق البحر لموسى عليه السلام؟

= ما قاله الإمام النسفي «فخرج موسى ببني إسرائيل من أول الليل، وكانوا سبعين ألفاً، وقد استعاروا حليهم، فركب فرعون في ستمائة ألف من القبط فقص أثرهم (تفسير الطبري ١/ ٢٧٥ - ٢٧٩، تفسير الخازن ١/ ٥٨، الدر المنثور ٥/ ٨٤، تفسير أبي السعود ٦/ ٢٤٤، تفسير النسفي ٣/ ٦٠، تفسير البغوي ١/ ٥٨، تاريخ الطبري ١/ ٤١٤ - ٤١٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٧٠، تاريخ اليعقوبي ١/ ٣٦، ثم قارن خروج ١٤/ ٥ - ٩).

(١) تاريخ الطبري ١/ ٤١٥، تفسير الخازن ١/ ٥٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٣٨ مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٤٨.

(٣) سورة الشعراء: آية ٦٣ - ٦٧.

(١) مكان انغلاق البحر: -

قام جدل طويل بين العلماء حول تحديد هذا البحر الذي انغلق لموسى عليه السلام، فهو البحر الأحمر، في رأي التوراة، وهو بحيرة المنزلة أو جزء منها، في رأي آخر، وهو المنطقة التي كان يطلق عليها في العصور الهلينستية والرومانية «بحر سربونين» (Sirbonian Sea) أي «سبخة البردويل» في رأي ثالث، أو هو النهاية الشمالية لخليج السويس، في رأي رابع، أو إحدى البحيرات المرة، دونما تحديد لواحدة منها بالذات، في رأي خامس، أو حتى خليج السويس، في رأي سادس[١].

وهو عند المفسرين والمؤرخين المسلمين بحر القُلْزم (بحر السويس = أي البحر الأحمر وخليج السويس) أو هو عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات، أو هو النيل (أي أحد فروع النيل في الدلتا الشرقية) أو هو بحر «إساف أو ساف» من وراء مصر، فلقد أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في تفسير قوله تعالى: **﴿فنبذناهم في أليم﴾** قال: في البحر، بحر يقال له ساف من وراء مصر، أغرقهم الله فيه، بل إن هناك رواية عن ابن عباس جاءت في تفسير الفخر الرازي تذهب إلى أن موسى لما انتهى إلى البحر مع بني إسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا، إلا يوشع بن نون، فإنه ضرب دابته وخاض في البحر حتى عبر ثم رجع، فأبوا أن يخوضوا، وربما كان هذا يشير إلى بعض البحيرات وربما إلى بحيرة المنزلة بالذات[٢].

على أن الحماس لإثبات أن البحر الذي انغلق هو البحر الأحمر،

---

(١) The Cambridge Ancient History, III, Part. 2, Cambridge, 1975, P. 323.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٣٩، تفسير روح المعاني ١/ ٢٥٥، تفسير النسفي ٣/ ١٨٥، تفسير الخازن ١/ ٥٨، تفسير الدر المنثور ٥/ ١٢٩، تفسير البيضاوي ٤/ ٦٧، تفسير أبي السعود ٤/ ٣٧٧، صفوة التفاسير ١/ ٤٦٨، تاريخ ابن خلدون ١/ ٩٤.

وصل بالبعض إلى أن يتعسفوا له الحلول، وأن يتكلفوا النظريات ومن هنا قامت نظرية تنادي بأن فرعون قد غرق في البحر الأحمر، مع خلاف على المكان الذي وقع فيه هذا الحادث العظيم، فهناك ما كان يفكر فيه الحجاج المسيحيون القدامى، وهو الطريق الشمالي لخليج السويس، قرب مدينة السويس الحالية[1]، وهناك من يرون أن البحر الأحمر كان يمتد إلى الشمال بعد خليج السويس الحالي، ومن هؤلاء علماء الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) الذين افترضوا أن خليج السويس كان في العصور اليونانية يمتد شمالاً حتى بحيرة التمساح الحالية، ثم جاء «لينان دي بلفون» وقام بدراسة برزخ السويس، والمنطقة التي تليها حتى البحر المتوسط في الفترة ما بين عامي ١٨٢١، ١٨٤٠ م، وذهب إلى أن تربة البحيرات المرة قبل أن تملؤها المياه قبل حفر قناة السويس، كانت بها أصداف ونباتات لها مثيل على ساحل البحر الأحمر، ومن ثم فقد رأى أن مياه البحر الأحمر كانت تغطي هذه الأماكن في فترة غير بعيدة جداً، لا تمتد إلى أبعد من العصور التاريخية[2]، بل وزاد البعض فذهب إلى أن خليج السويس ربما كان في الألف الثانية قبل الميلاد (حيث تم الخروج في أخرياته) ما يزال على اتصال بالبحيرات المرة، بل ومع بحيرة التمساح كذلك، هذا فضلاً عن أن بحيرة البلاح إنما كانت على اتصال بالبحر المتوسط، ومن ثم فقد كان هناك برزخ ضيق نسبياً بين بحيرة التمساح وبحيرة الملاح، لعل الحادث العظيم كان قد وقع فيه[3].

ويتشكك كثير من العلماء، ومنهم جادرنر وكوثمان، فيما قدمناه آنفاً،

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ١/ ١٦٤، وكذا Martin Noth, the History of Istrael, London, 1965, P. 116.

(٢) E. Noville, in JEA, 10, 1924, P. 36 - 48.

(٣) M. Noth, op - cit, P. 116.

لعدم وجود أدلة تدعم هذا الرأي[1] ، بل إن «مارتن نوث» إنما يذهب إلى أنه ليس هناك شيء مؤكد بالنسبة لهذا الأمر، سوى أن هذا الحادث قد وقع على حدود الدلتا الشرقية، ومن المستحيل التحقق من مكان الحادث العظيم بدقة أكثر من ذلك، حتى لو كانت لدينا معلومات صحيحة عن امتداد فروع البحر والبحيرات في منطقة قناة السويس الحالية في الفترة التي وقع فيها هذا الحادث[2] .

على أن هناك من يرى أن مكان انغلاق البحر إنما كان إلى الجنوب من مدينة السويس، ومن هذا الفريق «روبر تسون» الذي خفض مستوى البحر الأحمر بما يتراوح ما بين خمسة عشرة عقدة، وعشرين عقدة، ليجعل عبوره من قبالة الطور ممكناً، وبذلك يقدم للناس اتساعاً معقولاً، بين سلسلة الجبال المعروفة باسم جلال الشمالية والجنوبية[3] ، وربما قريب من هذا ما يراه البعض من أن هناك مكاناً في خليج السويس يدعى «بركة قارون» يقولون: إن العبور كان بها، وهي بعيدة عن السويس كثيراً، بينما هناك من يرى أن بني إسرائيل قد عبروا في مكان ما، شمالي المكان المعروف باسم «عيون موسى» في البر الأسيوي، وهو لا يبعد كثيراً عن مدينة السويس[4] .

هذا ويرى فريق من العلماء في نص التوراة «كلم بني إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروت بين مجدل والبحر، أمام بعل صفون، مقابلة تنزلون عند البحر»[5] ، بعض الإشارات الموجزة، والتي تعتبر واضحة

(1) E. Noville, op - cit, P. 36.

(2) M. Noth, op - cit, P. 115.

(3) سليم حسن: مصر القديمة ٧/ ١٢٨.

(4) عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص ٢٠٣.

(5) خروج ١٤/ ٢.

بما يكفي للقول بأنها تخص منطقة كان يطلق عليها في العصور الهلينستية والرومانية «بحر سربونين» (أي سبخة البردويل الحالية)، ولكن رغم أن الإشارة دقيقة، فإنها موجودة فقط في النص الكهنوتي[1]، وربما كانت تصور مجهوداً متأخراً، لوضع الحادث العظيم والحاسم في مكان يتفق والوضع التقليدي للأحداث التاريخية، ذلك لأن أقدم رواية في «البنتاتوك»[2] تبدو وكأنها على غير دارية بمثل هذا المكان المحدد بدقة، والذي لم نتوصل إليه حتى الآن، وإن أشير فقط، وبغموض، إلى مكان «على البحر»[3].

هذا ويذهب فريق من الباحثين إلى أن المراد بالبحر هنا «بحيرة المنزلة أو جزء منها»، على أساس أن ترجمة «يم سوف» بالبحر الأحمر، ترجمة خاطئة، والصحيح «بحيرة البوص أو القصب»، ذلك لأن كلمة «يم» ما تزال تعيش في لغتنا العربية، ونفهم أن من معناه «الماء»، وأما قديماً فكانت تطلق على فروع النيل، وأما كلمة «سوف» فهي كلمة دخلت في اللغة العبرية من اللغة المصرية القديمة، وتعني «البوص» وهو نبات يكثر وجوده في المياه الضحضاحة عند مصبات الترع والمصارف العامة، وفي بحيرة المنزلة، قبالة «قنتير» (وهو مدينة بي رعمسيس التي بدأ منها الخروج) بصفة خاصة، ولما كان هذا النبات الذي تمتد فروعه كالسيوف ينمو بكثرة، وبارتفاع عظيم، في هذه الجهة، وكانت بلاد مصر، ولا سيما العاصمة «بي رعمسيس» (قنتير) تأخذ منه حاجتها، وكانت كلمة «البردي» التي أطلقت عليه من بعد لم تعرف وقت ذاك، لأنها لم تظهر في اللغة المصرية القديمة، إلا في عهد الدولة

---

(١) أنظر عن: النص الكهنوتي وغيره من مصادر التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل ـ الجزء الثالث ـ الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٩٧ ـ ١٠٦).

(٢) أنظر عن «البنتاتوك» (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٣٢، ١٣٦).

(٣) CAH, III, Part 2, 1975, P. 323 وكذا M. Noth, op - cit, P. 115 - 116.

الحديثة، فقد عرفت مصر القديمة هذه البحيرة باسم «يم سوف»[١] وليس هناك من ريب في أن النصوص المصرية مليئة بالإشارات إلى مستنقعات القصب في مجاورات «صوعن» (تانيس) أو مستنقعات البردي في شرق الدلتا، وهكذا يتضح لنا أن المعنى من كلمة «سوف» التي جاءت في الأصل العربي، وترجمت في التوراة إلى «بحر سوف» فإن معناها العبري هو «بحر القصب»، والذي ترجم خطأ إلى «البحر الأحمر»، وهو لا يعني شيئاً سوى «بحيرة المنزلة» إن لم يكن جزء منها، بخاصة وأن مدينة «بي رعمسيس» هي «قنتير» الحالية، وليست «تانيس»، كما يعتقد بعض الأثريين من قبل[٢].

هذا فضلاً عن أن «اليم» في اللغة العربية «البحر أو النهر»، وهو كذلك في اللغة المصرية القديمة، إذ «اليم» لفظة سامية عرفت في اللغة المصرية القديمة منذ الأسرة الثامنة عشرة، حوالي القرن السادس عشر قبل الميلاد، وكان المصريون يطلقون على البحر والنهر، وما اتسع من لج الماء لفظة «أليم»، ومنه جاء إسم منخفض الفيوم بعد إضافة «فاء التعريف» في المصرية إليه (وكانت في الدولة القديمة تدعى تاحنت إن مرور)، على أن الذي يستوقف النظر هنا أن اللفظ ورد في القرآن الكريم ثماني مرات[٣]، لم يذكر في أحد ما غير ما يخص مصر، ليس غير، حيث ذكر بمفهوم النيل ثلاثاً، وأطلق على البحر الذي غرق فيه فرعون أربعاً، والثامنة بشأن عجل السامري، فكأنما يشير القرآن الكريم إلى موضع معلوم، كما يدعوه أهله

---

(١) سليم حسن: المرجع السابق ص ١٢٩، أبكار السقاف: إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة - القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩٦.

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص ٤٦ - ٦٢، وكذا M. Hamza, ASAE, 30, 1930, P. 31 - 68. وكذا W. Hayes, The Scepter of Egypt, II, P. 256. وكذا L. Habachi, ASAE, L 11, 1952, P. 433 - 559.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٣٦، طه: آية ٣٩، ٣٩، ٧٨، ٩٧، القصص: آية ٧، ٤٠، الذاريات: آية ٤٠.

باسمه المعلوم[1]، هذا ورغم أن كثيراً من المفسرين يرون أنه بحر القلزم، يعنون بذلك البحر الأحمر، غير أن طائفة منهم ترى أنه النيل، ولعلهم يعنون أحد فروع النيل، ويرون أن العرب كانت تسمي الماء والملح والعذب بحراً، إذا كثر، هذا إلى أن فريقاً ثالثاً ذهب إلى أنه بحر ساف (بحر سوف)، بل إن الإمام الفخر الرازي روى عن ابن عباس أن يوشع بن نون ضرب دابته وخاض في البحر حتى عبر ثم رجع[2]، كما رأينا من قبل، وبدهي أن يوشع لا يمكنه أن يخوض البحر الأحمر بدابته، ومن ثم فربما هذه الرواية قد تشير إلى مكان آخر، غير البحر الأحمر، وربما كانت بحيرة المنزلة.

هذه هي الآراء المختلفة التي دارت حول مكان انغلاق البحر لموسى عليه السلام، وكل منها له مؤيدوه ومعارضوه، ومن ثم فإنني لا أستطيع أن أجزم بمكان بعينه انغلاق فيه البحر لموسى، ما دمنا لا نملك نصاً صريحاً واضحاً، وكل ما قدمناه إنما هو اجتهادات، وفوق كل ذي علم عليم، والله وحده يعلم الغيب من الأمر، وهو وحده العليم بكل شيء.

(٢) تاريخ انغلاق البحر: -

في الواقع أن تاريخ انغلاق البحر لموسى عليه السلام، إنما يتصل بتاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، وغرق فرعون وجنده، ونجاة موسى ومن معه، وهذا ما سوف نناقشه بالتفصيل عند حديثنا عن «فرعون مصر»، وهو موضوع الفصل الثالث من هذا الباب، ويكفي أن نشير الآن إلى أننا نرجح أن فرعون موسى إنما هو «مرنبتاح» (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق. م)، على أن يكون تاريخ الخروج وغرق الفرعون في العام الأخير من حكمه، ذلك لأن

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٨٧.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٤/ ١٣٩، تفسير روح المعاني ١/ ٢٥٥، تفسير النسفي ٣/ ١٨٥، وانظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٤٤٦ - ٤٤٩.

التوراة والإنجيل والقرآن العظيم إنما تجمع كلها على أن الفرعون قد غرق في البحر عندما أراد اللحاق ببني إسرائيل[1] .

والقرآن العظيم لا يحدد زمناً بعينه للحادث الجلل ، ذلك لأن التحديد التاريخي ، كما هو معروف ، ليس هدفاً من أهداف القصة القرآنية ولا تزيد في دلالتها شيئاً ، وأما الحديث النبوي الشريف ، فليس فيه ، على قدر ما أعلم ، سوى أن الحادث الجليل إنما كان يوم عاشوراء ، فلقد روى البخاري ومسلم والنسائي والبيهقي عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة ، واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا اليوم الذي تصومونه ، فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : وأنتم أحق بموسى منهم فصوموه» وأخرج أبو يعلي وابن مردوية عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال : فلق البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء» ، وأخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه ، من طرق ، عن ابن عباس أنه قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا اليوم الذي تصومون ، قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ «أنا أحق بموسى منكم ، فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه»[2] .

وأما التوراة فلا تذكر إلا أن الخروج حدث في شهر أبيب[3] ، وهو

---

(١) أنظر : محمد بيومي مهران : إسرائيل ١/ ٤١٣ - ٤٣٦ .

(٢) تفسير الدر المنثور ١/ ٦٩ ، تفسير النسفي ٢/ ٧٣ ، تفسير الخازن ١/ ٥٩ ، تفسير ابن كثير ١/ ١٣٨ ، ٢/ ٦٦٧ - ٦٦٨ ، صحيح البخاري ٣/ ٥٦ ، ٥٧ ، ٦/ ٩١ ، صحيح مسلم ٨/ ٩ - ١٠ ، مسند أحمد ١/ ٢٩٢ ، ٣١٠ ، مجمع الزوائد ٣/ ١٨٨ ، المطالب العالمية ص ٣٤٦٧ ، تفسير القرطبي ص ٣٣٣ .

(٣) خروج ١٣/ ٤ .

الشهر قبل الأخير من شهور السنة المصرية القديمة، (المعروفة خطأ بالشهور القبطية)، وليس العبرية، غير أن اليهود إنما يحتفلون بخروجهم من مصر في عيدهم الأكبر، في الشهر الأول من السنة العبرية، شهر أبيب (نيسان = أبريل)، ويبدو أن الطريقة القديمة للتقويم العبري تجعل بدء السنة في الربيع، وربما كان بدء التأريخ هو قصة خروج بني إسرائيل من مصر، في الفترة التي يقع فيها عيدهم الأكبر «عيد الفصح» حيث يتم الإحتفال به بين العشاءين (أي بين المغرب والعتمة) في ليلة الرابع عشر من أبريل[1].

(٣) معجزة إنغلاق البحر: -

رأينا من قبل كيف أحاط فرعون بقواته الضاربة ببني إسرائيل، وكيف تملكهم الذعر والخوف، وأيقنوا أنهم هالكون، وكيف بلغ بهم الكرب مداه، وإن هي إلا دقائق تمر، ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين، ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه لا يشك لحظة، وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة، وإن كان لا يدري كيف تكون، فهي لا بد كائنة، والله هو الذي يوجهه ويرعاه، «قال كلا إن معي ربي سيهدين»، وهكذا، وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون **﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾**، وهكذا وقعت المعجزة، وانكشف بين فرقي الماء طريق، ووقف الماء على جانبي الطريق كالطود العظيم[2]، وأرسل الله الريح على أرض البحر، فلحفته حتى صار يابساً كوجه الأرض[3]، فلهذا قال: **﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا**

---

(١) أنظر: عن التقويم العبري وعيد الفصح (محمد بيومي مهران: إسرائيل - الجزء الرابع - الإسكندرية ١٩٧٩ ص ١٥٣ - ١٦٣).

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٨ - ٢٥٩٩.

(٣) أخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير: أن هرقل كتب إلى معاوية بن أبي =

تخاف دركاً ولا تخشى﴾[1] .

واقتحم بنو إسرائيل البحر الذي صار فيه إثنا عشر طريقاً، في كل طريق سبط، وكأن الطريق إذ انغلقت بجدران، فقال: كل سبط، قد قتل أصحابنا، فلما رأى ذلك دعا الله فجعلها قناطر كهيئة الطيقان، فنظر آخرهم إلى أولهم، حتى خرجوا جميعاً، ثم دنا فرعون وأصحابه فلما نظر فرعون إلى البحر متغلقاً، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم وندم في نفسه على خروجه في طلب بني إسرائيل، لكنه أظهر لجنوده تجلداً، وقال: ألا ترون البحر فرق مني، وقد تفتح لي حتى أدرك أعدائي فأقتلهم، فذلك قول الله **﴿وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين﴾**[2] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التوراة قد اختلفت في تفسيرها للمعجزة الكبرى عن القرآن الكريم، فالتوراة ترجعها إلى ريح شرقية هبت فأزالت الماء وظهرت اليابسة، وحينئذ عبر بنو إسرائيل[3]، ويذهب «روبنسون» إلى أن ريحاً شرقية شمالية هبت على هذا الجزء، بدرجة تكفي لطرد الماء من بعض الأماكن، وعلى كل حال، فلقد تغيرت

= سفيان وقال: إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عما أسألهم عنه، قال وكتب إليه يسأله عن المجرة وعن القوس وعن البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة، قال فلما أتى معاوية الكتاب والرسول، قال هذا شيء ما كنت أوبه له أن أسأل إلى يومي هذا، من لهذا؟ فقالوا: ابن عباس (ابن عم النبيﷺ) وطوى معاوية كتاب هرقل وبعثه إلى ابن عباس فكتب إليه: إن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق، والمجرة باب السماء الذي تشق منه، وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار، فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل (الدر المنثور ١/ ٦٩، حلية الأولياء ١/ ٣٢٠).

(١) سورة طه: آية ٧٧.

(٢) سورة الشعراء: آية ٦٤-٦٦، تاريخ الطبري ١/ ٤١٥، البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٧٢.

(٣) خروج ١٤/ ٢١-٣١.

المعالم في الصورة الغابرة، بحيث يتعذر معرفة الموضع بالضبط[1]، وهناك من يرى أن منسوب الماء ما يزال حتى الآن متأثراً بدرجة عظيمة بالريح في بحيرة المنزلة والبرلس، ويلاحظ أن الطريق من بلطيم حتى برج البرلس تغطى بالمياه عندما يهب الهواء غرباً، ثم تصبح جافة عندما يهب الهواء من الشرق، ويمكن للإنسان أن يسير عليها بالسيارة[2]، وفي أنشودة الإحتفال بهذا الخلاص، نرى كاتب سفر الخروج يعلن عن قدرته الشعرية فيقول: «بريح أنفك تراكمت المياه، انتصبت المجاري كرابية»[3]، وقد وضعت هذه التقاليد أخيراً في الترجمات النثرية التي ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد[4].

ويقول «جراي» رغم أننا لا نستطيع أن ننكر التدخل الإلهي في الخلاص العظيم، فإنه لم يتضمن انغلاق البحر، وأن الأمر إنما تم عن طريق عاصفة ممطرة، بطريقة فجائية غير مألوفة، في مكان ووقت يتناسبان مع إرادة الله، ولم تقدم المعجزة بطريقة خارقة للطبيعة، كما جاءت في التوراة[5]، وإنما بطريقة مطابقة لها تماماً[6].

وأما في القرآن الكريم، فالمعجزة واضحة لا ريب فيها، وذلك حين أوحى الله إلى نبيّه موسى عليه السلام **﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾**[7]،

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ١/ ١٦٤.

(٢) سليم حسن: المرجع السابق ص ١٣٥.

(٣) خروج ١٥/ ٨.

(٤) J. Gray, Israel, in the Near Eastern Mythology, N. Y. 1969, P. 107.

(٥) خروج ١٢/ ٣٢.

(٦) J. Gray, op - cit, P. 107.

(٧) سورة الشعراء: آية ٦٢ - ٦٧.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا أن الله، جلت قدرته، قد أسند فرق البحر إلى ذاته الكريمة، ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه، وهو معهم، بعنايته، وقوله تعالى: ﴿ **فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون** ﴾ بياناً للمنة العظمى التي امتن الله بها على بني إسرائيل، والتي ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر ترتب عليه أمران: أولهما: نجاتهم، وثانيهما إهلاك عدوهم، وكلاهما نعمة عظمى، والإيمان الصحيح يقتضي بأن نفهم واقعة انفصال البحر لموسى وقومه على أنها معجزة كونية لموسى عليه السلام، وقد زعم البعض أنها كانت حادثة طبيعية، بدون سند ولا دليل[1].

وانطلاقاً من كل هذا، فإننا نرفض ما يذهب إليه البعض من أن انغلاق البحر، إنما كان نتيجة المد والجزر، وبالتالي فتلك علة طبيعية لنظام جغرافي[2]، كما نرفض كذلك القول بأن عنصر التهويل قد لعب دوره في القصة حتى أظهرها بهذه الصورة، وأن هناك رواية مشابهة لها قد رددتها التوراة عن يشوع[3]، خادم موسى وفتاه، وعبوره الأردن على يبس[4]، وأن

---

(١) محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن والسنة ١/ ٤٥٩ (القاهرة ١٩٦٨).

(٢) C. Roth, A Short Hostory of the Jewish Pople, 1969, P. 6

(٣) يشوع ١/ ١٠ - ١٨، ٤/ ٢٣ - ٢٤.

(٤) تروي المصادر الإسلامية أن الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي كان قد بعثه سيدنا رسول الله ﷺ إلى ملك البحرين المنذر بن ساوي فأسلم على يديه وأقام فيهم الإسلام والعدل، فلما توفي رسول الله ﷺ مات المنذر بعده بقليل، فارتد أهل البحرين، فبعث إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه العلاء بن الحضرمي، ثم حدثت معركة بين المسلمين والمرتدين، انتصر فيها المسلمون انتصارا حاسماً، ففر كثير من المرتدين إلى «دارين» بالبحرين، فتبعهم العلاء حتى أتى ساحل البحر ليركبوا في السفن، فرأى أن الشقة بعيدة، لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداء الله، فاقتحم البحر بفرسه وهو يقول «يا أرحم الراحمين، يا حكيم يا كريم، يا أحد يا صمد، يا حي يا محي، يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت يا ربنا»، وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا، ففعلوا ذلك، فأجاز بهم الخليج بإذن الله، يمشون على مثل رملة دمثة فوقها ماء، لا يغمر أخفاف الإبل، ولا يصل إلى ركب الخيل، =

خليج العقبة دعي في سفر الملوك «بحر سوف»[1] (بحر القصب)، بيد أن سفر القضاة[2] إنما يتحدث عن رحلة بني إسرائيل البرية من مصر إلى بحر سوف[3]، كما أننا لن نقارن أبداً معجزة فرق البحر لموسى عليه السلام، بما جاء في بردية «وستكار» عن أساطير تنسب إلى أحد الكهنة المصريين، وأنه استطاع بفضل تعاويذ سحره من أن يشق البحيرة، للملك «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة، وأن يضع ماء أحد جانبيها على الجانب الآخر، ثم يستخرج حلية كانت قد ضاعت من إحدى المغنيات، ثم يعيد الماء إلى مكانه الأول[4]، كما أننا لا نوافق «برستد» من أن هناك انفجاراً بركانياً حدث في سيناء، حينما ضاق الخناق على بني إسرائيل عند خروجهم من مصر، وأن الزلزال الذي صحب ذلك الإنفجار، وموجة المد التي نتجت عنه، هما اللذان أفضيا إلى ابتلاع الجنود المصريين الذين كانوا يتعقبون بني إسرائيل الفارين[5].

= ومسيرته للسفن يوم وليلة، فقطعه إلى الساحل الأخر، فقاتل عدوه وقهرهم، واجتاز غنائمهم، ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر، فعاد إلى موضعه الأول، وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مخبرا، واستاق الذراري والأنعام والأموال، ولم يفقد المسلمون شيئا سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين، ومع ذلك رجع العلاء فجاء بها، ثم قسم الغنائم فأصاب الفارس ألفين، والراجل ألفا، مع كثرة الجيش، وكتب إلى الصديق فأعلمه بذلك، وروى أن راهبا من هجر رأى ذلك فأسلم، وقال: خشيت إن لم أفعل أن يمسخني الله، لما شاهدت من الآيات (ابن كثير: البداية والنهاية ٦/ ٣٦٩ - ٣٧١، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٠٥).

(١) ملوك أول ٩/ ٢٦.

(٢) قضاة ١١/ ١٦.

(٣) S. A. Cook, op - cit, P. 91.

(٤) أنظر عن بردية وستكار: A. Erman, وكذا Max Pieper, Die Agyptische Literatur., P. 55F. LAE, P. 36 - 46 G. Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de L'Epoque Pharaonique, Paris, 1949, P. 70 - 77. وكذا J. Maspero, Popular Stories of Ancient Egypt, P. 21F.

(٥) J. H. Breasted, A History of Egypt, N. Y, 1946, P. 342.

وأما سبب رفضنا للآراء السابقة، فذلك لأننا نرى في حادث انغلاق البحر لموسى رأياً آخر، فهو، فيما نعتقد ونؤمن به الإيمان كل الإيمان، أنه معجزة موسى الكبرى، والمعجزة، فيما نعلم، قوى إلهية يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، والحصول على نظير لها، ولا تأتي إلا في مقام التحدي والإعجاز، وهي، كغيرها من معجزات الأنبياء، من عمل الله، ولا فضل لأحد فيها سواه سبحانه وتعالى، فليس لنبي يد في هذه الخوارق التي بهرت الناس وقهرت الخلق، وقامت أدلة صادقة على صدق من ظهرت على أيديهم في أنهم مبلغون عن الله سبحانه وتعالى، ومن هنا خاف موسى عليه السلام، حين تحولت عصاه حية تسعى، فولّى مدبراً ولم يعقب لشدة خوفه منها، حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه، وعلى هذا الأساس لا يستغرب ولا يستبعد وقوعها ممن لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء[1]، فإنه جل شأنه، كما يقول **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**[2]، هذا فضلاً عن أن المعجزة إنما هي من البراهين العقلية التي تقرر قيومية الله الخالق عز شأنه، وإطلاق قدرته من قيود القوانين والعادات المعلومة في حدود مدارك العقول الإنسانية إلى سنن كونية وقوانين للوجود فوق آفاق تلك العقول، تحدث على وفقها تلك الأحداث الكونية والأعاجيب الإعجازية، إذا تطلبها أسبابها، وحانت مناسبتها، والله سبحانه وتعالى فعال لما يريد لا يسأل عما يفعل[3].

ويقول الإمام الفخر الرازي أن انغلاق البحر لموسى معجزة من

---

(١) أنظر: سورة طه: آية ٦٦ - ٦٩، النمل: آية ١٠، القصص: آية ٣١ - ٣٢، عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص ١٠٩.

(٢) سورة يس: آية ٨٢.

(٣) محمد الصادق عرجون: معجزة الأنبياء بين العقل والعلم - الإسكندرية ١٩٥٥ ص ٢، ثم أنظر عن المعجزة وشروطها: الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن - القاهرة ١٩٦٩ ص ٧٠ - ٧٢.

وجوه، منها (أولاً) أن تفرق ذلك الماء معجزة، وثانياً: إن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضاً لأنه كان لا يمتنع في الماء الذي أزيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن، فلما جمع على الطرفين صار مؤكداً لهذا الإعجاز، وثالثاً: أنه إن ثبت ما روى في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الريح والظلمة ما حيّرهم، فاحتبسوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني إسرائيل، فهو معجز ثالث، ورابعاً: أن الله تعالى جعل في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم إلى بعض، فهو معجز رابع، وخامساً: أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا منها آل فرعون وطمعوا أن يتخلصوا من البحر، كما تخلص قوم موسى، فهو معجز خامس[1].

وهكذا نستطيع أن نصل من ذلك كله إلى نتيجة واحدة هي: أن انغلاق البحر لموسى عليه السلام، لا علاقة له ببني إسرائيل فتلك معجزة نبي، كما أن غرق فرعون لم يكن تكريماً للإسرائيليين، فتلك عاقبة من أصر على كفر، ولم يؤمن بالله الواحد الأحد، بل وتجاوزه لكل الحدود البشرية، فقال: ﴿ **يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري** ﴾[2]، ثم يهدد النبي الكريم ﴿ **قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين** ﴾[3]، وأخيراً اندفاعه في العذاب وإسرافه في القتل للمذنب وغير المذنب على سواء، وأما حساب بني إسرائيل فعسير عند الله تعالى، حتى أنه عز وجل، ليكتب على هؤلاء الذين أنجاهم من فرعون أن يتيهوا في الأرض أربعين عاماً، ثم يحرم عليهم الأرض المقدسة أبداً[4].

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٣٩.

(٢) سورة القصص: آية ٣٨.

(٣) سورة الشعراء: آية ٢٩.

(٤) سورة المائدة: آية ٢١ - ٢٦، سفر العدد ٤/ ٣٤، أعمال الرسل ٧/ ٢٦، ٤٢.

(٤) إيمان فرعون عند الغرق : ـ

تحدث القرآن الكريم عن إيمان فرعون حين أدركه الغرق، فقال تعالى: ﴿**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر، فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدوا، حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون**﴾[1]. والآيات الكريمة تشير إلى أن فرعون حين غشيته سكرات الموت آمن، حيث لا ينفعه الإيمان، ولهذا قال تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿**الآن وقد عصيت قبل**﴾، وذلك لأن التوبة، كما يقول علماء السلف، قبل المرض والموت، وروى الترمذي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»، أي ما لم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به[2].

ويقول ابن السعود في تفسيره: إن فرعون حين أدركه الغرق «قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل»، لم يقل كمقالة السحرة «آمنابرب العالمين رب موسى وهارون»، بل عبّر عنه تعالى بالموصول، وجعل صلته إيمان بني إسرائيل به، تعالى للإشعار برجوعه عن الإستعصاء، وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعاً في القبول والانتظام معهم في سلك النجاة[3]، وقال النسفي إن في الآية دليل على إن الإيمان والإسلام واحد، قال آمنت، ثم قال: وأنا من المسلمين»، كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ

---

(١) سورة يونس: آية ٩٠ ـ ٩٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠٥، حسن باجودة: التفسير البسيط للقرآن الكريم ٤/ ٢٨٦ (مكة المكرمة ٢٨٦، تفسير القرطبي ص ١٦٦٢.

(٣) تفسير النسفي ٢/ ١٧٤ ـ ١٧٥.

وقته، وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الإختيار، أتؤمن الآن في وقت الإضطرار، حين أدركك الغرق، وأيست من نفسك، وروى الخازن في تفسير عن ابن عباس أنه قال: لم يقبل الله إيمانه عند نزول العذاب وقد كان في مهل، وقال العلماء: إيمانه، غير مقبول لأن الإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين، وقيل إنه قال ليدفع ما نزل به من البلية الحاضرة، ولم يكن قصد به الإقرار بوحدانية الله، والاعتراف له بالربوبية، وقيل إن فرعون كان من الدهريين المنكرين لوجود الخالق، فلهذا قال: «آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل»، فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في إيمانه، ولما رجع فرعون إلى الإيمان والتوبة حين أغلق بابهما، بحضور الموت ومعاينة الملائكة، قيل له: «الآن وقد عصيت من قبل»، يعني الآن تتوب، وقد أضعت التوبة في وقتها، وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية، وقيل إن المخاطب بذلك لفرعون هو جبريل وقيل الملائكة، وقيل هو الله تعالى، عرف فرعون قبيح صنعه وما كان عليه من الفساد في الأرض، بدليل قوله تعالى: ﴿**فاليوم ننجيك ببدنك**﴾، والقول الأول أشهر[1]، ويعضده ما روى عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لما قال فرعون: «آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة»[2]، وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله، فيغفر له، يعني فرعون. وفي بعض الروايات إن جبريل قال: ما بغضت أحداً بغضي لفرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، ولقد

---

(١) تفسير الخازن ٣/ ٢٠٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠٦، وأنظر: تفسير الدر المنثور ٣/ ٣١٥.

جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال»[1].

على أن الإمام فخر الدين الرازي اعترض في تفسيره على ذلك، فقال: هل يصح أن جبريل أخذ يملأ فمه بالطين، لئلا يتوب غضباً عليه، والجواب الأقرب أنه لا يصح، لأنه في تلك الحال إما أن التكليف كان ثابتاً أم لا، فإن كان ثابتاً لا يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة، بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة، وأما إن كان التكليف زائلاً عن فرعون في ذلك الوقت، فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب إلى جبريل فائدة، وأيضاً لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر، والرضا بالكفر كفر، وأيضاً كيف يليق بجلال الله بأن يمنعه من الإيمان، وإذا قيل إن جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله، فهذا يبطله قول جبريل: **﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾**.

وعلى أي حال، فإن موسى عليه السلام حين أخبر بني إسرائيل بغرق فرعون وقومه، قالوا: ما مات وذلك لعظمته عندهم، وما حصل في قلوبهم من الرعب لأجله، فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً، كأنه ثور، فرآه بنو إسرائيل، فمن ذلك الوقت لا يقبل البحر ميتاً أبداً، وروى عن ابن عباس: أن الله أنجى فرعون لبني إسرائيل من البحر، فنظروا إليه بعدما غرق، وأما معنى قوله تعالى: **﴿ببدنك﴾**، يعني نلقيك جسداً بلا روح فيه، وقيل هذا الخطاب، على سبيل التهكم والاستهزاء، كأنه قيل له ننجيك، ولكن النجاة لبدنك، لا لروحك، وقيل أراد بالبدن الدروع، وكان، لفرعون دروع من ذهب مرصع بالجواهر يعرف في درعه عرفوه، وقيل ننجيك ببدنك، أي نجعلك على نجوة من الأرض كي ينظروا فيعرفوا أنك مت، وأخرج ابن الأبياري عن ابن سعود أنه قرأ «فاليوم ننجيك بندائك»[2].

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٧٣.

(2) تفسير الخازن ٣/ ٢٠٧ - ٢٠٩، الدر المنثور ٣/ ٣١٥ - ٣١٦.

وأما قوله تعالى: ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾، أي عظة وعبرة، وذلك أن بني إسرائيل ادعوا أن قتل فرعون لا يموت أبداً، فأظهره الله حتى يشاهدوه وهو ميت لتزول الشبهة من قلوبهم، ويعتبروا به لأنه كان في غاية العظمة فصار إلى نهاية الخسة والذلة، ملقى على الأرض لا يهابه أحد، أو لتكون أية لمن يأتي بعدك من القرون، إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالاً عن الطغيان، أو حجة تدل على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء الملك، إنما هو مملوك مقهور بعيد عن فطان الربوبية، وقرئي «لمن خلقك» أي لخالقك آية كسائر الآيات، فإن إفراده إياك بالإلقاء إلى الساحل، دليل على أنه نعمد منه لكشف تزويرك وإماطة الشبهة في أمرك، ودليل على كمال قدرته وعلمه وإرادته، وأياً كان المعنى، فإنه لم يكن آية لمن خلفه لمدة جيل أو جيلين، وإنما بقي آية للعشرات الكثيرة من الأجيال، والمئات الكثيرة من السنين، وذلك بما كان رب العرش لأهل مصر من سلطان العلم وأسرار التحنيط[1].

بقيت الإشارة إلى أن موت فرعون غرقاً، ناسب هلاك بني إسرائيل على يديه بالذبح فيه تعجيل الموت بأنهار الدم، والغرق فيه إبطاء الموت ولا دم خارج، ولما كان الغرق من أعسر الموتات، وأعظمها شدة، فكان لمن ادعى الربوبية وقال: «أنا ربكم الأعلى»، وعلى قدر الذنب يكون العقاب، ولك أن تقول: لما افتخر فرعون بالماء، وقال: «أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي»، جعل الله موته بالماء، بما افتخر به[2].

---

(1) تفسير البيضاوي ٣/ ١٠٠، الدر المنثور ٣/ ٣١٦، تفسير الخازن ٣/ ٢٠٩، أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص ١٢٣، تفسير النسفي ٢/ ١٧٥.

(2) تفسير روح المعاني ١/ ٢٥٥ - ٢٥٧.

الفصل الثالث

فرعون موسى

إختلفت الآراء، كما أشرنا من قبل، في هذا الفرعون الذي كان يعذب بني إسرائيل، فيذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، ثم يرفض بعد ذلك دعوة موسى عليه السلام، وكان الفرعون الذي أغرقه الله في البحر، انتقاماً منه لتجبره وكفره، وما آل إليه أمره من الطغيان والكفر، وادعاء الألوهية، فقال: ﴿**يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري**﴾[1]، وقوله لموسى: ﴿**لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين**﴾[2]، وقوله: «أنا ربكم الأعلى»، ومن ثم فقد جاء بعد هذه الآية ﴿**فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى**﴾[3]، هذا فضلاً عن تجاوزه لحدوده البشرية، واندفاعه في التعذيب، وإسرافه في القتل للمذنب وغير المذنب على سواء.

وسنحاول هنا، قدر الطاقة، مناقشة الآراء المختلفة التي دارت حول تحديد اسم هذا الفرعون، لعلنا نستطيع، بمشيئة الله، أن نصل إلى رأي قريب من الصواب، أو لا يبعد عن الصواب كثيراً، مؤمنين تمام الإيمان، أن اليقين ما زال، وسيظل أبد الدهر، عند صاحب اليقين، وما زال، وسيظل، العلم عند رب العلم، يؤتيه من عباده من يشاء، وهو علام الغيوب، وما نقوم

---

(١) سورة القصص: آية ٣٨.

(٢) سورة الشعراء. آية ٢٩.

(٣) سورة النازعات: آية ٢٢ ـ ٢٦.

به، أو يقوم به غيرنا، لا يعدو محاولات قد تخطىء وتصيب، بل قد تخطىء كثيراً وتصيب قليلاً.

(١) الرأي الأول: فرعون موسى هو أحمس الأول: -

يزعم اليهودي «يوسف بن متي» (٣٧ - ٩٨ أو ١٠٠ م) أن «مانيتو» المؤرخ المصري، الذي كتب تاريخه حوالي عام ٢٨٠ قبل الميلاد، إنما يرجع بالهكسوس[١] إلى أصول يهودية[٢]، ومن ثم فالخروج، في نظر المؤرخ اليهودي، إنما هو طرد الهكسوس من مصر حوالي عام ١٥٧٥ ق. م، بقيادة أحمس الأول (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق. م)، وبالتالي فإن أحمس الأول هو فرعون موسى، هذا وقد تابع يوسف اليهودي بعض المؤرخين، ومنهم الدكتور هول والدكتور باهور لبيب.

ويذهب «هول» إلى توحيد «الخابيرو» بالعابيرو (العبرانيين)، وأن الخابيرو هم قبائل بدوية قدمت إلى الجنوب الشرقي لفلسطين، فاكتسحت كنعان في الفترة ما بين عامي ١٣٩٠، ١٣٦٠ قبل الميلاد، وأن رسائل العمارنة تظهر لنا كيف أشاعت هذه القبائل الذعر بين الكنعانيين، ثم سيطرت على فلسطين بعد انسحاب السلطة المصرية منها على أيام «إخناتون» (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م)، ومن ثم يجب أن يكون الخروج قبل أيام «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق. م)، ثم يقترح أن تكون لحظة خروج بني إسرائيل من مصر، هي لحظة قيام الأسرة الثامنة عشرة، وأن مؤسس هذه الأسرة الملك «أحمس الأول» هو فرعون موسى الذي روت التوراة أنه «لم يكن يعرف يوسف»، وبالتالي فإن التقرير التوراتي عن

---

(١) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن عصر الهكسوس وطردهم من مصر (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٦ ص ١٠١ - ٢٢٣).

(٢) W. G. Weddel, Manetho, (The Loeb Classical Library) Cambridge, 1940, P. 77F.

الخروج إنما هو ترجمة عبرية لطرد الهكسوس من مصر[1].

ولعل مما يعضد نظرية «هول» ما يؤكده «إرنست سيللين»، طبقاً لبقايا فخارية عثر عليها في موقع أريحا، من أن المدينة قد دمرت حوالي عام ١٥٠٠ ق. م، أو حتى بعد فترة وجيزة من عام ١٦٠٠ ق. م، فيما يرى «كارل فتزينجر»، وهو مكتشف آخر موقع أريحا، ولكن «سيللين» يرفض أن يكون الإسرائيليون هم الذين دمروا أريحا[2]، كما أن «روبنسون» يرى أنه ليس من الميسور أن نضع رواية التوراة في هذا الإطار[3].

وأما الدكتور «باهور لبيب» فيذهب إلى أن الأبحاث الحديثة قد أسفرت عن أن الهكسوس من أصل سامي وموطنهم فلسطين، وأنهم من طائفة اليهود الذين جاء ذكرهم في التوراة والقرآن الكريم[4]، اعتماداً على أن «مانيتو» رأى أنهم قوم شرقيون أتو إلى مصر من الشرق، وأنهم من بني إسرائيل، وأن أسماءهم من أصل سامي، وأن لهم علاقة بفلسطين، حيث يقطن اليهود، وأن أغلب أسمائهم التي عثر عليها بمصر من أصل سامي كنعاني، مما يدل على أنهم كانوا من أصل يمت بصلة كبيرة إلى العبرانيين، وأن هناك آلهة سامية كانت تعبد أصلاً في فلسطين، وقد ظهرت في مصر على أثر غزو الهكسوس لها، فلو لم يكن الهكسوس ساميين لما نقلوا معهم آلهتهم السامية إلى مصر، كما أن استخدام الجواد والعربة في مصر إنما يرجع إلى عهد الهكسوس، هذا وقد أظهرت الحفريات في فلسطين عدة مقابر ترجع إلى أيام الهكسوس ومؤرخة بأسماء ملوكهم، وهذا دليل مادي على وجود صلة

---

(١) H. R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1963, . 406 - 409.

(٢) أنظر: Ernst Sellin and Carl Watzinger, Jericho, London, 1913. وكذا A. Lods, op - cit, P. 182.

(٣) H. W. Robinson, The History of Israel, P. 29.

(٤) Pahour Labib, Die Herschaft der Hyksos in Aegypten, 1934, P. 8F.

بين الهكسوس واليهود في فلسطين، كما أن العبرانيين كانوا يعبدون الحمار، فإذا أمكن هذه هي كل حجج الباحثين الذين رأوا في اليهود دليلاً على أنهم من أصل سامي[1].

هذه هي كل حجج الباحثين الذين رأوا في اليهود هكسوساً، أو في الهكسوس يهوداً، ولعل من الأفضل قبل مناقشتنا لهذا الإتجاه، الإشارة إلى أننا لا نطمئن تماماً إلى رواية المؤرخ اليهودي «يوسف بن متي» ومن دعوا بدعوته، من أنهم ينقلون عن «مانيتو»، ما دمنا لا نملك النص الكامل لكتاب «مانيتو»، والذي فقد في حريق الإسكندرية عام ٤٨ ق. م، وقد وصلت إلينا منه مقتطفات مختصرة أحياناً، ومبتورة أحياناً أخرى، وما دمنا، في نفس الوقت، لا نملك من الأدلة التاريخية ما يقوم دليلاً على صحة ما نقله «يوسف اليهودي» وغيره، عن «مانيتو»، بل إن رواية يوسف اليهودي نفسه، والتي يزعم أنه نقلها عن مانيتو، من أن اليهود هم الهكسوس، تناقضها روايته التي أشرنا إليها من قبل، من أن سبب خروج بني إسرائيل من مصر، إنما كان رغبة المصريين في اتقاء وباء تفشى بين اليهود.

هذا فضلاً عن أن يوسف اليهودي لم يقبل تفسير مانيتو لكلمة الهكسوس من أنها تعني «الملوك الرعاة» على أساس أن «هك» تعني في اللغة المقدسة «ملك»، وأن «سوس» تعني في اللغة الدارجة «راعي»، فيتابع هذا الإشتقاق باشتقاق آخر لاسم الهكسوس من مصدر آخر، بمعنى «الأسرى الرعاة» لأن كلمة «هك» تعني «أسير»، وهو يفضل هذا الاشتقاق، لأنه يعتقد أن قصة التوراة عن دخول الإسرائيليين مصر، ثم الخروج بعد ذلك، لهما أصول في احتلال الهكسوس ثم طردهما فيما بعد، والواقع،

---

(١) باهور لبيب: لمحات من الدراسات المصرية القديمة ـ القاهرة ١٩٤٧ ص ٤١ ـ ٤٥، وكذا P. Labib, op - cit, P. 25.

فيما يرى «سير ألن جاردنر»، العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة، أنه على الرغم من وجود أسس لغوية للإشتقاق، فإنه قد جانبه الصواب، وأن كلمة «هكسوس» مشتقة من غير شك من اصطلاح «حقاخست»، أي «رئيس البلد الأجنبية الجبلية» التي كانت تعني منذ عهد الدولة الوسطى «مشايخ البدو»[1].

وأما أن قصة دخول بني إسرائيل مصر، ثم الخروج منها، لها صلة بدخول الهكسوس مصر، ثم الخروج منها، كما روج ذلك يوسف اليهودي، فقد كان يوسف هذا يهدف منها إلى رفع شأن قومه اليهود، الذين كان يحتقرهم الإغريق ويحطون من قدرهم، وليبرهن للملأ أن اليهود والهكسوس من عنصر واحد، وأنهم قد خرجوا من مصر حوالي ألف عام قبل حرب طروادة، التي يراها الإغريق تاريخاً سحيقاً من القدم، غير أن كثيراً من المؤرخين ينكرون الصلة بين اليهود والهكسوس، فيذهب «جاردنر» إلى أنه ليست هناك صلة بين الإثنين، بدليل أن الهكسوس لم يتركوا أي أثر في قصص العبرانيين، كما روتها التوراة، كما أن مجيء يوسف عليه السلام إلى مصر، إنما قد حدث، كما أثبتنا من قبل، على أيام حكم الهكسوس لمصر، هذا فضلاً عن أن أحداث الملوك الرعاة (الهكسوس) لم تصور أبداً في قصة خروج بني إسرائيل من مصر، بل إن مدينة «بي رعمسيس» التي أنشأها رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م)، بعد طرد الهكسوس، بحوالي ثلاثة قرون، إنما تدخل في قصة بني إسرائيل في مصر وخروجهم منها، فهي المدينة التي سخر بنو إسرائيل في بنائها، كما أنها كانت بداية مسيرة الخروج من مصر[2]، ومن ثم فليس من المستحيل أن تكون اقتباسات يوسف اليهودي

(١) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, P. 154.

(٢) خروج ١/ ١١، ١٢/ ٣٧.

من مانيتو، إنما توحي بأحداث وقعت فيما بعد، في أوائل عهد الأسرة التاسعة عشرة، وأنها قد اختلطت بذكر حوادث الهكسوس، وهناك ما يشير إلى مثل هذه العلاقات الموجودة في أغلب الأحيان بين مصر وأولئك البدو الذين يعيشون على تخومها، جاء ذكرها في «بردية أنسطاسى، السادسة»، ولكن ليس هناك ما يشير إلى حدوث مأساة كالتي مثلت في التوراة، كما جاءت في سفر الخروج[1].

وأما ما ذهب إليه «هول» فيناقضه أنه يتعارض تماماً مع ما جاء في التوراة والقرآن العظيم بشأن دخول وخروج بني إسرائيل من مصر[2]، كما أن حملات تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق. م) المظفرة، تكون طبقاً لهذا، قد حدثت بعد استقرار بني إسرائيل نهائياً في فلسطين، وهنا فمن الصعب أن نجد تفسيراً لصمت التقاليد الإسرائيلية فيما يختص بالنزاع الذي لا يمكن تجنبه مع الفاتحين المصريين، وخاصة فيما يتعلق بإدارة البلاد بموظفين مصريين، فضلاً عن وجود الحاميات المصرية في فلسطين، تلك الحقيقة التاريخية التي كانت أهميتها تظهر أكثر فأكثر[3]، هذا فضلاً عن أن التوراة تجعل إقامة بني إسرائيل في مصر ٤٣٠ سنة[4]، بينما يتفق العلماء الآن على أن مدة حكم الهكسوس في مصر لا تتجاوز القرن ونصف القرن (١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق. م)[5]، أضف إلى ذلك أن التوراة والإنجيل والقرآن

---

(١) A. H. Gardiner, The Geography of The Exoudus, in JEA, 10, 1924, P. 87 - 88.

(٢) انظر: سورة يوسف: آية ٨ - ٢٢، ٥٧ - ١٠٠، سفر التكوين: الاصحاحات ٣٧ - ٤٧، خروج: اصحاحات ١٢ - ١٤.

(٣) A. Lods, op - cit, P. 182 - 183.

(٤) خروج ١٢/ ٤٠ - ٤١.

(٥) انظر: عن عصر الهكسوس في مصر (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٣٧ - ١٣٨، ٢١١).

العظيم، إنما تجعل فترة التيه أربعين سنة[1]، بينما فترة التيه هنا تتجاوز القرنين من الزمان، وهي فترة أطول بكثير مما يجب، ومما افترضته التقاليد العبرانية، كما يرى «هول» نفسه[2].

وأما أدلة «باهور لبيب»، غير اعتماده على رواية مانيتو، كما نقلها يوسف اليهودي، فإنها تقوم أساساً على ما ذهب إليه من أن الهكسوس ساميون، ومن فلسطين، وبالتالي فهم يهود، والواقع أن رأيه هذا يحمل كثيراً من وجوه الخطأ، منها (أولاً) أن وجود أسماء كنعانية بين الهكسوس، لا يعني أن اليهود كنعانيون، وإن كان كل منهما ينتمي إلى نفس المجموعة البشرية السامية وإن كانت التوراة ترفض، لأسباب سياسية ودينية، أن يكون الكنعانيون ساميين[3]، مع أنهم كانوا يعلمون ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات لغوية وبشرية[4]، ومنها (ثانياً) أن العبرانيين لم تكن لهم لغة خاصة بهم قبل عام ١٠٠٠ ق. م، إذ كانوا يتكلمون الأرامية قبل دخولهم فلسطين، والكنعانية بعد ذلك، كما أن اللغة العبرية نفسها، ليست إلا خليطاً من الأرامية والكنعانية وكثير من اللغات السامية وغير السامية[5]، ومن ثم فإن الاعتماد على اللغة كأساس للعلاقة بين اليهود والهكسوس، اعتماد مضلل لا يثبت تلك العلاقة، ومنها (ثالثاً) أن القول بأن اليهود كانوا يعبدون الحمار، قول غير صحيح، على وجه اليقين، بل إنه من المؤكد أن بني إسرائيل كانوا

---

(١) أنظر: سورة المائدة: آية ٢٦، حيث يقول تعالى: ﴿**قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين**﴾، وانظر: سفر العدد ١٤/ ٣٣، أعمال الرسل ٧/ ٣٦، ٤٠.

(٢) H. R. Hall, op - cit, P. 408.

(٣) تكوين ١٠/ ٦.

(٤) أنظر: محمد بيومي مهران: الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي - الرياض ١٩٧٤ ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٥) فؤاد حسنين: التوراة الهيروغليفية ص ٤، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٣٢.

قبل دخولهم مصر موحدين، على ملة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، قال تعالى على لسان يوسف: ﴿ **واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾[1]، ومن ثم فعبادة الهكسوس للحمار أو عدم عبادتهم لا تفيدنا في معرفة العلاقة بين اليهود والهكسوس، كما أنه ليس هناك من دليل على أن اليهود عبدوا الحمار في مصر.

ومنها (رابعاً) أن استخدام العربة والحصان في عصر الهكسوس لا يدل أبداً على أن اليهود هم الهكسوس، وإن كانت الأسماء كنعانية وليس الكنعانيون هم اليهود على أية حال، ومع ذلك فهناك من يرى أن الحصان، وربما العربة التي تجرها الخيل، قد عرفا في وادي النيل، وفي ميزوبوتاميا، قبل عصر الهكسوس[2]، بل ويذهب أمري» أن ذلك كان منذ أيام الدولة الوسطى، فقد عثر في حفرياته في منطقة بوهن (وادي حلفا) في عام ١٩٦٢ م على هياكل دفنت في مستويات قديمة من أحد الحصون المصرية حددها بعصر الدولة الوسطى، وإن لم يعرفوا العربة، وإن كان أستاذنا المرحوم عبد المنعم أبو بكر (١٩٠٧ - ١٩٧٦) طيب الله ثراه، يرد هذا المستوى إلى عهد الدولة الحديثة[3]، هذا فضلاً عن أن هناك من يرى أن الهكسوس لم يستخدموا الحصان حتى فترة متأخرة جداً من حكمهم، وأن أقدم نص يشير إلى ذلك إنما يتحدث عن طرد الهكسوس، وأما المقابر التي وجدها «بتري» في تل العجول بجنوب فلسطين، وقد دفنت فيها الحمير مع الخيول، مع الموتى من الآدميين، وأنها تدل على استخدام الهكسوس للحصان، فهي

---

(١) سورة يوسف: آية ٣٨.

(٢) W. Hayes, Egypt from the Death of Ammenemes II, to Sequenenre, II Cambridge, 1965, P. 18.

(٣) عبد العزيز صالح: مصر والعراق ص ١٩٠، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ١/ ٤٠٧.

ترجع إلى فترة متأخرة من عهد الهكسوس، وربما ترجع إلـى بداية الدولـة الحديثة، أما في مصر، فليست هناك أية دفنة لحصان واحد، أو حتى عظام حصان، في المقابر العديدة التي ترجع إلى عهد الهكسوس، كما أنه لا يوجد نقش واحد لحصان ما[1].

ومنها (خامساً) أن توحيد كلمة «خابيرو» بكلمة «عابيرو»، وأنهـا هي نفس الكلمة الحالية «عبري»، فقد اتفقت جمهرة من العلماء على أن هؤلاء العابيرو، لم يكونوا أبداً من بني إسرائيل، والأرجح أن الكلمة سامية لقبائل بدوية كانت تعيش في شرق الأردن، بل حتى الذيـن ينادون بتوحيـد كلمة خابيرو بعابيرو، يرون أن الأمر غير مؤكد، ولا يمكن أن نتخذه أساساً لأية نتيجة تاريخية[2]، ومنها (سادساً) أن اليهود ساميون، بينما الأمر جد مختلف بالنسبة للهـكسوس فمـن يؤكـد أنهـم سلالـة آريـة كان موطنهـا في آسيـا الصغرى[3]، ومن يرى أنهم من أعراب شبه الجزيرة العربية[4]، بل ويذهب المؤرخون المسلمون إلى أنهم العمالقة أو من العرب البائدة[5]، ويذهب «جاردنر» إلـى أن اصطلاح «حقاخست» (حيـق خاس) أي رئيس البلديـة الجبلية الأجنبية يشير إلى الحكام، وليس، كما يظن يوسف اليهودي، إلى

---

(١) E. Otto, وكذا T. Save - Sodervergh, The Hyksos Rule in Egypt, JEA, 37, 1951, P. 59 - 60
F. W. Von Bissing, AFOF, II, P. 333, No. 61. وكذا ZDPV, 61, P. 259

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٢٢ ـ ٢٨، الكسندر شارف: تاريخ مصر ص ١٤٤، تيودور روبنسون: إسرائيل في ضوء التاريخ ص ١٠٨، وكـذا I, Epstien, Judaism, 1970, P. 13 - 14 وكـذا J. Finegan, op - cit, P. 118. وكـذا J. Wilson, op - cit, P. 201 وكـذا W. F. Albright, ANET, 1966, P. 486, No. 13. وكذا E. Dharme, La Religion des Hebreux Nomades, N. S. E, Bruxelles, 1937, P. 75 - 85.

(٣) H. Junker, Geschichte der Aegypter, 1933, P. 105.

(٤) L. W. King, Studies in Eastern History, Egypt and Western Asia..., London, 1907, P. 134F.

(٥) تفسير القرطبي ص ٤٢٧، تاريخ الطبري ١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦، تاريخ ابن الأثير ١/ ١٠، ١٠٤، تاريخ إبن خلدون ٢/ ٢٧.

الجنس كله، وطالما أخطأ الباحثون في هذا الأمر، بل إن البعض منهم، كما رأينا، يرى أن الهكسوس جنس معين من الغزاة شقوا طريقهم إلى مصر، بعد أن تم لهم غزو سورية وفلسطين، وليس هناك ما يؤكد وجهة النظر هذه، وإن بدا أن كلمات مانيتو قد تشير إلى ذلك[1]، ومن هنا فإن العلماء يكادون يجمعون على أن الهكسوس ليسوا شعباً معيناً، وإنما خليط من شعوب متعددة، اختلطت بعضها بالبعض الآخر وهي في طريقها إلى مصر، وهذا يبدو واضحاً في أسمائهم التي تنبىء عن خليط من أجناس مختلفة، حتى وإن غلبت فيها الأسماء السامية، ففيها كذلك عناصر غير سامية، لا شك أن بعضها «كاسي»، والآخر «حوري»، وكلا الجنسين من أصل «هندو - أوربي» نزل من أواسط آسيا، وعلى أية حال، فإن الساميين لا يكاد يتألف منهم العامل الرئيسي المسئول عن الزحف الجديد، وقد تغري غلبة الأسماء السامية المعروفة لنا الآن بتفوق الساميين في العدد، ولكن يمكن أن يرجع سببها لعدم كفاية الأدلة التي في متناولنا، أو لأن العناصر غير السامية قد هضمت بسرعة[2].

ومنها (سابعاً) أن هذا الرأي الذي يرى في طرد الهكسوس قصة خروج بني إسرائيل من مصر، إنما يتعارض تماماً عما جاء في التوراة والقرآن الكريم[3]، اللذين لم يتحدثا أبداً عن دخول بني إسرائيل أرض الكنانة غزاة فاتحين، أو أن ملوك مصر كانوا يوماً ما ينتمون إلى أرومة سرائيلية، وإن

---

(١) A. Gardiner, op - cit, P. 156.

(٢) أحمد فخري: مصر الفرعونية ص ١٨٧، سليم حسن: مصر القديمة ٤/ ١٨٧، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٤٠٢، وكذا A. Gardiner, op - cit, P. 157. وكذا J. Wilson, op - cit, P. 164.

(٣) أنظر: سورة يوسف: آية ٤١ - ١٠٠، تكوين: إصحاحات ٣٧ - ٤٧، وأنظر: قصة يوسف في هذه الدراسة.

تحدثنا عن وصول يوسف الصديق إلى منصب كبير في الحكومة المصرية على أيام الهكسوس كما أشرنا إلى ذلك من قبل، كما تحدثنا عن دخول بني إسرائيل مصر، وقد عضهم الجوع في أرض كنعان، فأتوا إلى أرض النيل يلتمسون المأوى والشبع، وقد حققت لهم مصر ما يريدون، وتلك عادتها طوال عصور التاريخ، ومنها (ثامناً) أن التوراة تتحدث في سفر التكوين أن الرب أخبر خليله إبراهيم بأن بني إسرائيل سوف تكتب عليهم الذلة والمسكنة في مصر فترة قوامها قروناً أربعة، زادها سفر الخروج ثلاثين عاماً، كما تحدثت عن خروج القوم من مصر، وقد كانوا في عجلة من أمرهم، حتى أنهم ما كانوا قادرين على أن ينتظروا حتى يختمر عجينهم، ومن ثم فقد خرجوا دون أن يصنعوا لأنفسهم زاداً[1]، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الإسرائيليين قد خرجوا من مصر بأمر الله ليلاً قال تعالى في سورة الدخان: **﴿فاسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون﴾**، وقال تعالى: **﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون﴾**[2].

ومنها (تاسعاً) أن التوراة تجعل من مدينة «بي رعمسيس» نقطة التجمع التي بدا منها بنو إسرائيل الخروج من مصر[3]، وهذه لم تنشأ، كما أشرنا من قبل، إلا على أيام «رعمسيس الثاني» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م)، ومنها (عاشراً) أن التوراة والقرآن العظيم يصفان حياة بني إسرائيل في مصر، بكل الذل والهوان، تقول التوراة «فاستعبد المصريون بني أسرائيل بعنف، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وكل عمل في الحقل، كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفاً»[4]، وكان الهدف، فيما يرى جيمس

(١) تكوين ١٥/ ١٣، خروج ١٢/ ٣١ - ٤٠.
(٢) سورة الشعراء: آية ٥٢، وأنظر سورة طه: آية ٧٧.
(٣) خروج ١٢/ ٣٧.
(٤) خروج ١/ ١٣ - ١٤، ٢٣ - ٢٤.

فريزر، أن المصريين أرادوا أن يحولوا دون تكاثرهم عن طريق تشغيلهم في الأعمال الشاقة التي ربما قضت عليهم، ولما فشلت هذه المعاملة في تحقيق النتيجة المرغوبة، أمر الملك بقتل الذكور من أطفالهم إثر ولادتهم، غير أن القابلات اللاتي كلفن بذلك كن يتهربن في تنفيذه[1]، ومن ثم فقد أمر فرعون شعبه جميعاً بأن «كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن البنت تستحيونها»[2]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **وإذا أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾[3]، وكان من نتائج ذلك كله، أن غدا العرف الشائع بين العبرانيين أنهم يتشاءمون تشاؤماً تقليدياً بالأيام التي قضوها بمصر، ويحسبونها بلية البلايا، ومحنة المحن في تاريخهم كله، من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد النازية الهتلرية، أي طوال أربعين قرناً، من القرن العشرين قبل الميلاد إلى القرن العشرين بعد الميلاد، وقد مرت بهم محنة السبي إلى وادي النهرين، ولكنهم لا يتشاءمون بها، كما تشاءموا بالمقام في مصر، ولا يجعلون الخروج من بابل (عام ٥٣٩ ق. م) عيداً باقياً متجدداً، كعيد الخروج من أرض وادي النيل في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهكذا كان الخروج من مصر أكبر أعياد اليهود، عيد الفصح، في الرابع عشر من شهر نيسان (أبريل) بين العشاءين.

وهكذا نستطيع أن نقول، دون أن يخالجنا ريب فيما نقول، أن دعوى

---

(١) جيمس فريزر: الفلكور في العهد القديم ـ القاهرة ١٩٧٤ ص ٥ (مترجم) وانظر: خروج ١/ ١٥ ـ ٢١.

(٢) خروج ١/ ٢٢.

(٣) سورة البقرة: آية ٤٩، وانظر: سورة الأعراف: آية ١٤١، سورة القصص: آية ٤ عباس محمود العقاد: الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ـ القاهرة ١٩٦٠ ص ٥٨، وانظر عن هذا الرأي الأول (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٣٦١ ـ ٣٧٦).

يوسف اليهودي في الربط بين الهكسوس وأجداده العبرانيين لم تكن إلا من نوع تلك الدعاوي الكذوب التي لا يزال يحذقها أحفادهم الصهاينة المحدثون، وأنه ليست هناك صلة بين الهكسوس واليهود، وذلك لأن اليهود لم يكونوا وقت ذاك قد استوطنوا فلسطين كقوم لهم كيان يستطيعون أن يحتلوا دولة كبرى كمصر، بل أكبر وأعظم دول الشرق الأدنى القديم قاطبة، الأمر الذي لم يكتب لهم أبداً، بل إنهم لم يكونوا حتى هذه المرحلة إلا مجموعة من الرحل الذين يستقرون على أطراف إقليم زراعي بموافقة أصحابه، وهم في مركز الرعايا الخاضعين، إن لم يكونوا العبيد المستذلين، وما حدثنا التاريخ من قبل ومن بعد عن مستعمر يستذل في أرض يستعمرها، ومن هنا فإننا نستبعد هذا الرأي تماماً، ولا نرى أن خروج بني إسرائيل من مصر، بقيادة موسى عليه السلام، وكاموزا وأحمس الأول، وبالتالي فإن أحمس الأول ليس هو فرعون موسى.

(٢) الرأي الثاني: تحوتمس الثالث هو فرعون موسى: -

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن فرعون موسى هو تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق. م) أو ابنه «أمنحتب الثاني» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق. م)[١] اعتماداً على نص التوراة «وكان في سنة الأربع مئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة لملك سليمان على بني إسرائيل، في شهر زيو، هو الشهر الثاني أنه بنى البيت للرب»[٢]، ولما كان حكم سليمان يقع في الفترة (٩٧٢ - ٩٣٦ ق. م)[٣]، فالعام الرابع إذن هو عام ٩٦٧ ق. م

(١) قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٩٣٣.

(٢) ملوك أول ٦/ ١.

(٣) يختلف المؤرخون في فترة حكم سليمان، فيرى فضلو حوراني أنها في الفترة (٩٧٤ - ٩٣٢ ق. م) ويرى حسن ظاظا أنها في الفترة (٩٧٣ - ٩٣٦ ق. م) ويرى شموكل أنها في الفترة =

(أو عام ٩٦٧/ ٩٦٦ ق. م)، وبالتالي فالخروج في عام ١٤٤٦ أو ١٤٤٧ ق. م[١]، إذا ما عدنا إلى الوراء ٤٨٠ عاماً، ومن ثم فالخروج تم في عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق. م) أو بالأحرى في العقد الأخير من عهده.

ويرى أصحاب هذا الإتجاه أن الصورة التي تقدم لتحوتمس الثالث كفرعون لموسى مقبولة تماماً، لأنه كان بناء عظيماً، ولأنه استخدم الأسرى الأسيويين في مشروعاته البنائية، ولأن مدة الأربعين سنة التي قدرت لفترة التيه[٢]، تجعل الإسرائيليين يصلون إلى كنعان حوالي عام ١٤٠٠ ق. م، ومن هنا يمكن توحيد العبرانيين (العابيرو) بالخابيرو الذين كانوا يضغطون على كنعان وقت ذاك[٣]، هذا إلى جانب ما يقوله «جون جارستلنج» من أنه قد كشف في مقابر أريحا الملكية ما يشير إلى أن موسى قد انتشلته من الماء الأميرة المصرية «حتشبسوت» عام ١٥٢٧ قبل الميلاد، على وجه التحقيق، وأنه قد تربي في بلاطها بين حاشيتها، ثم فر من مصر حين جلس على العرش المصري عدوها، تحوتمس الثالث، ويعتقد «جارستانج» كذلك أن المخلفات التي وجدت في قبور أريحا (جريكو Jericho) تؤيد ما جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر يشوع، وأن هذه البقايا ترجع إلى حوالي عام ١٤٠٠ ق. م، وأن الخروج تم عام ١٤٤٧ ق. م[٤].

= (٩٧٠-٩٣٢ ق. م) ويرى فيلب حتي أنها في الفترة (٩٦٣-٩٢٣ ق. م) ويرى هيتون أنها في الفترة (٩٦١ - ٩٢٢ ق. م) ويرى أولبرايت أنها في الفترة (٩٦٠ - ٩٢٢ ق. م) وهكذا.

(١) أنظر: W. F. Albright, BASOR, 100, 1945, P. 16 - 22. وكذا J. Liver, IEJ, 3, 1953, P. 113 - 122. وكذا E. R. Thiele, JNES, 3, 1944, P. 147 - 184.

(٢) خروج ١٦/ ٣٥، تثنية ٢/ ٧، يشوع ٥/ ٦.

(٣) J. W. Jack, The Date of the Exodus, Edinburgh, 1925. وكذا J. Finegan, op - cit, P. 117 - 118.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة - الجزء الثاني - ترجمة محمد بدران - القاهرة ١٩٦١ ص ٣٢٦، وانظر: عن هذا الرأي الثاني (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٣٧٧ - ٣٩٠).

هذا ويؤيد «هومل» و «أور» هذا الرأي، مع بعض الاختلافات، فهما يذهبان إلى أن دخول بني إسرائيل مصر، وغزو الهكسوس لها، إنما كان في عام ١٨٧٧ ق. م، وأن الخروج، طبقاً لرواية التوراة التي تجعل إقامة الإسرائيليين في مصر ٤٣٠ سنة، إنما كان في عام ١٤٤٧ ق. م، في عهد الملك أمنحتب الثاني، وأن غزو فلسطين تم بعد ذلك بأربعين سنة وهذا بالضبط عصر رسائل العمارنة[١]، ثم بدأ سليمان في بناء معبده بعد خروج أسلافه من مصر بـ ٤٨٠ سنة، أي في عام ٩٦٧ ق. م[٢].

ولعل قريباً من هذا ما يراه «أونجر» من أن موسى عليه السلام ولد في عام ١٥٢٠ قبل الميلاد، على أيام الملك تحوتمس الأول (١٥٢٨ - ١٥١٠ ق. م) وأن ابنة فرعون التي أنجته هي حتشبسوت، وأن اضطهاد بني إسرائيل قد بدأ بعد أن نشب النزاع بين حتشبسوت وتحوتمس الثالث، ثم وصول الأخير إلى العرش المصري، ومن ثم فإن «أونجر» يحدد تاريخ الخروج بعام ١٤٤١ ق. م، على أيام أمنحتب الثاني الذي يراه قد حكم في الفترة (١٤٥٠-١٤٢٥ ق. م)، وأن أباه تحوتمس الثالث قد حكم في الفترة (١٤٨٢ - ١٤٥٠ ق. م)[٣].

ورغم جاذبية هذه النظرية، فيما يرى البعض، إلا أننا نعتقد أن هناك عقبات كؤود تقف في طريق قبولنا لها، والتي منها (أولاً) أن توحيد «عابيرو» رسائل العمارنة بعبراني التوراة أمر بعيد الاحتمال، كما أشرنا آنفاً، ومنها (ثانياً) أن رسائل «عبد خيبا» أمير أورشليم من قبل الفرعون إنما تفيد أن

(١) أنظر: عن رسائل العمارنة وعصرها (محمد بيومي مهران: إخناتون - الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٣٣ - ٢٤٥).

(٢) خروج ١٢/ ٤٠، ملوك أول ٦/ ١، وكذا Orr, the Problem of the old Testament, Geneva, 1908, P. 422 - 424 وكذا A. Lods, op - cit, P. 182.

(٣) M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, 1970, P. 332 - 333.

مدينته كانت عرضة لهجوم كبير[1]، هذا مع أن رواية التوراة يفهم منها أورشليم لم تكن هدفاً ريسياً بالنسبة إلى يشوع، بل إن احتلالها، طبقاً لرواية التوراة لم يتم إلا على أيام داود عليه السلام[2]، ومنها (ثالثاً) أن التفاصيل التي يقدمها سفر يشوع والقضاة عن الاستيطان الإسرائيلي النهائي في فلسطين، لا يتفق بصفة عامة مع المادة التاريخية التي جاءت في رسائل العمارنة، فمثلاً أسماء الملوك الكنعانيين التي جاءت في سفري يشوع والقضاة، إنما تختلف عن أسماء الأمراء الذين حكموا نفس المدن أثناء عهد أمنحتب الثالث وولده إخناتون، فمثلاً «عبدي خيبا» من رسائل العمارنة[3]، هو «أدوني صادق» من يشوع، أو «أدوني بازاق» في القضاة[4]، وكذلك حاكم «جارز» هو «يباخي» أو «يباخو» في رسائل العمارنة[5]، وهو «هورام» في يشوع[6]، وحاكم صور هو «عيد تيرش» في رسائل العمارنة[7]، وهو «يابين» في سفري يشوع والقضاة[8] ... وهكذا.

ومنها (رابعاً) أن نص سفر الملوك الأول (٦/ ١) والذي يحدد الفترة من الخروج وحتى بناء المعبد في العام الرابع من حكم سليمان بمدة ٤٨٠

---

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٨٢٦ - ٨٢٧، إخناتون ص ٢٣٣، وكذا W. F. Albright, وكذا J. A. Kundtzon and o. Weber, Die El - Amarna Tafeln, Leipaig, 1915, P. 877. وكذا ANET, P. 487 - 489, S.A.B. Mercer, the Tell el - Amarna Tablets, II, Toronto, 1934, P. 721, 727.

(٢) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٨٢٨ - ٨٣٩، وكذا R. A. S. Macalister, in CAH, III, 1965, P. 342 - 346 وكذا J. Finegan, op - cit, P. 118.

(٣) ANET, P. 487 - 489.

(٤) يشوع ١٠/ ١، قضاة ١/ ٥ - ٧.

(٥) ANET, P. 490.

(٦) يشوع ١٠/ ٣٣.

(٧) S. A. Cook, op - cit, P. 356 - 7, وكذا A. Lods, op - cit, P. 182 - 184.

(٨) يشوع ١١/ ١، قضاة ٤/ ٢.

سنة، يناقضه، فيما يرى سبينوزا، من يجعل هذه الفترة نفسها ٤٤٠ سنة، كما أن هذه المادة، طبقاً لنصوص من التوراة تصل إلى ٥٨٠ سنة[١]، ومن ثم فقد رأى البعض أن مدة أل ٤٨٠ سنة، إنما هي عنصر متأخر في النص، وأن الترجمة السبعينية للتوراة قد وضعته في مكان آخر، ومن ثم فربما كان تخميناً لأحد المؤلفين المتأخرين نسبياً، والذي ربما قد استخلصها من السجلات التوراتية، ذلك لأن هناك فترة اثنى عشر جيلاً تقع ما بين الحادثين (الخروج وبناء المعبد)، وأنه قد أعطى لكل جيل كتقدير أعلى أربعين عاماً، فكانت النتيجة ٤٨٠ عاماً (٤٠ × ١٢ = ٤٨٠ عاماً)، ومن ثم فنفس الشيء يكون صحيحاً في حالة التقويمات المتصلة في أسفار يشوع والقضاة وصموئيل، والتي تقوم على نفس التقدير، أي ٤٠ عاماً لكل جيل[٢]، وهناك افتراض آخر، هو أن أل ٤٨٠ عاماً، ربما تشير إلى الوقت الذي دخلت فيه مجموعة مبكرة، ربما يهوداً أو قبائل أخرى، إلى فلسطين من الجنوب، وهذا يفصلها عن قبائل «بيت يوسف» التي خرجت من مصر تحت قيادة موسى ويسوع، كما يجعلها سابقة لها، ولو أن التقاليد التوراتية، وكذا آي الذكر الحكيم، تجعل الحادثتين مرتبطتين معاً في النهاية[٣].

ومنها (خامساً) أن الخروج، طبقاً لهذه النظرية، كان في عام ١٤٤٧ ق. م، وإذا سمحنا بفترة ٤٣٠ سنة للإقامة في مصر، طبقاً لرواية التوراة[٤]، فإننا سوف نصل إلى عام ١٨٧٧ ق. م، كما رأى هومل وأور، وهذا يصل بنا إلى قرابة قرن ونصف القرن قبل دخول الهكسوس مصر، وإنه لأمر غير

---

(١) باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة - القاهرة ١٩٧١ ص ٢٩٠ - ٢٩٦ (مترجم).

(٢) H. H.Rowley, J. Finegan, op - cit, P. 120 - 121 وكذا From Joseph to Joshua, London, 1950, P. 139F, 147F.

(٣) J. Finegan, op - cit, P. 118.

(٤) خروج ١٢/ ٤٠.

مقبول أن يدخل بنو إسرائيل مصر قبل عصر الهكسوس، لأسباب سبق لنا مناقشتها عند الحديث عن يوسف عليه السلام، هذا فضلاً عن أن دخول بني إسرائيل مصر عام ١٨٧٧ ق. م، فإن ذلك يجعل دخولهم على أيام الأسرة الثانية عشرة، وفي عصر «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق. م) على وجه التحديد، إلا إذا اعتمدنا على النص السبتاجوني للتوراة الذي يختزل مدة الإقامة في مصر إلى النصف، أو أخذنا بوجهة النظر التي إذا اعتمدنا على النص السبتاجوني للتوتربط بين مجموعة «أبشاي» الأسيوية، وعددهم ٣٧ فرداً، والتي دخلت مصر على أيام سنوسرت الثاني (١٨٩٧ - ١٨٧٧ ق. م) وقد وجدت مناظرهم في مقبة «خنوم حتب» أمير بني حسن بمحافظة المنيا[١]، وبين دخول سيدنا إبراهيم عليه السلام أرض الكنانة، فضلاً عن دخول بني إسرائيل، بقيادة يعقوب عليه السلام إليها[٢]، غير أنه من المعروف أن إبراهيم دخل مصر على أيام سنوسرت الثالث (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق. م)، وأن يعقوب عليه السلام كان يعيش في الفترة (١٧٨٠ - ١٦٣٣ ق. م) وأنه دخل مصر، هو وأسرته، على أيام الهكسوس (١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق. م) بدعوة من الصديق عليه السلام، وكان عددهم، طبقاً لرواية التوراة، ٧٠ نفساً، وأقاموا في وادي جوشن على حدود الدلتا الشرقية[٣]، كما أشرنا ألى ذلك بالتفصيل من قبل.

ومنها (سادساً) أن نص التوراة (ملوك أول ٦/ ١) الذي يعضد هذه النظرية، يناقضه نص آخر من التوراة (خروج ١/ ١١) يجعل رعمسيس الثاني فرعوناً للتسخير، لأن بني إسرائيل قد سخروا في بناء مدينتي «بي رعمسيس وفيثوم»،

---

(١) محمد بيومي مهران: مصر - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٨٢ ص ٦٤٦ - ٦٤٨، وكذا P. E. Newberry, Beni - Hassan, I, London, 1893, Pls. 28 - 31.

(٢) Vergote, Joseph en Egypt, paris, 1969, P. 16.

(٣) أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٢١٣ - ٣٥٩.

وقد دلت الحفائر على أن الأولى قد أنشئت في عهد رعمسيس الثاني، والثانية قد أعيد بناؤها، كما سنشير فيما بعد بالتفصيل، ومنها (سابعاً) أن تحوتمس الثالث كان بناء عظيماً، دون شك، وكما يقول أصحاب هذه النظرية، ولكن مشاريعه البنائية كانت في الصعيد، وبخاصة في العاصمة طيبة[1] (الأقصر الحالية)، هذا فضلاً عن أن عاصمة الفراعين المصريين لم تكن أبداً في الدلتا، فيما قبل الأسرة التاسعة عشرة، كما أنه لم تكن هناك اهتمامات رئيسية بمشروعات بنائية في الدلتا، وبخاصة في شرقها، حيث كان يقيم بنو إسرائيل هناك[2]، بل إنه بالكاد يفهم أن التحامسة قد كرهوا هذا المكان لاتصاله بالغزاة الهكسوس المكروهين وربما كان هذا هو السبب في عدم وجود آثار للأسرة الثامنة عشرة في «تانيس» عاصمة الهكسوس، وأما في الأسرة التاسعة عشرة، والتي كان ملوكها من هذه المنطقة، فقد وجد لدى رعمسيس الثاني الباعث السياسي لاختيار عاصمة ملكه في الدلتا، فبنى أو أعاد بناء «فيثوم»، ثم بنى «بي رعمسيس» التي حملت اسمه[3]، ومنها (ثامناً) أن الفترة ما بين عامي ١٥٠٠، ١٢٠٠ ق. م، إنما تمثل فترة التقدم الذي أظهره الصناع الكنعانيون في وسائلهم الفنية تحت التأثير الإيجي، ومن ثم فقد كان هذا العصر هو العصر الذهبي لصناعة الفخار الكنعاني، ومن العجيب أن يتطابق إزدهار الفن، مع غزو البلاد بواسطة هؤلاء البدو، الذين كانوا بالتأكيد أقل مدينة من السكان الأصليين، ولهذا فمن الطبيعي جداً أن يتفق دخول هؤلاء البرابرة أرض كنعان، مع فترة التدهور التي نملك عليها الكثير من الأدلة، والتي جاءت بعد عام ١٢٠٠ ق. م.

ومنها (تاسعاً) أن النتائج التي توصل إليها «جون جارستانج» من أن

---

(١) أنظر: سليم حسن: مصر القديمة ٤/ ٤٥٥ - ٤٩٦.

(٢) A. Lods, op - cit, P. 183.

(٣) A. Gardiner, JEA, 19, 1933, P. 126 - 127.

أريحا وحاصور، قد دمرتا حوالـــي عام ١٤٠٠ ق. م[١]، هناك من يتقدم بحادث تدميرهما إلى عام ١٥٠٠ ق. م، ومن يتقدم إلى ما بعد عام ١٦٠٠ ق. م، بفترة وجيزة[٢]، وهناك من يتأخر به إلى ما بين عامي ١٢٥٠، ١٢٠٠ ق. م[٣]، هذا فضلاً عن أن تخريب مدن كنعان، ليس بالضرورة أن يكون قد تم على أيدي بني إسرائيل الخارجين من مصر، ومن المرجح أنه حدث في فترة الفوضى التي صحبت عهـد إخناتون (١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ ق. م) والتي انتهـت بانسحاب السيـادة المصريــة إلـــى حيـــن، وأما عن «أريحا»، فإن حفائر «سيللّين» و «جارستانج» و «مس كنيون» دلت على أنها كانت دائماً معرضة لهجوم البدو المشاغبين، والذين كانوا دائمـاً يهاجمونها جتى يفتحوا طريقهم إلى فلسطين، وقد وجدت «مس كنيون» أن الحائط القديم، والذي كان قد بني من الآجر الطيني المسطح، قد هدم وأعيد بناؤه أكثر من ١٧ مرة، وأن الآجر المتبقي من انهياره الأول يشير إلى أنه كان بفعل الزلازل، وأن الأخير كان بفعل الغزاة الأراميين، حوالي عام ١٢٠٠ ق. م[٤]، وعلى حال، فلا يوجد حتى الآن أي دليل في الموقع يساعدنا على تحديد التاريخ الذي احتل فيه يشوع أريحا[٥]، وقد كانت مدينة في القرن الرابع عشر قبـل الميـلاد، ولكنها اختفت تماماً في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وإذا كانت جدران

---

(١) J. Finegan, op - cit, P. 164 وكذا J. Garstang, Joshu, Judges, the Foundations of Bible History, P. 184F, 382F.

(٢) A. Lods, op - cit, P. 182.

(٣) W. Keller, the Bible as History, 1967, P. 160.

(٤) J and J. B. E. Garstang, the Story of Jericho, 1940 وكذا J. Finegan, op - cit, P. 156 - 157 وكذا K. M. Kenyon, in PEQ, 1952, P. 64, 1953, P. 88F, 1954, P. 55F, 1955, P. 114F.

(٥) أريحا: وتعني مدينة القمر أو مكان الروايح العطرية، وهي تل السلطان الحالية، وتقع على مبعدة خمسة أميال غربي نهر الأردن، ١٣ ميلاً شمال شرقي القدس، وقد أثبتت الحفريات أنها واحدة من أقدم مدن العالم (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٦٠٥).

المدينة قد انهارت أمام قوات يشوع، فهناك احتمال على أن الزلازل ربما كانت هي السبب، لأن الموقع الجيولوجي للمدينة يبعث على مثل تلك الأحداث هذا إلى أن الجدار الأول، والذي يرجع إلى عصر البرونز المبكر، كان فيما يبدو، قد انهار بسبب الزلازل كذلك[١].

ومنها (عاشراً) أن الدليل الأثري من عبر النهر (شرق الأردن) وكذا من لخيش[٢] ودبير، لا يتفق مع الخروج المبكر، فلقد قام «نلسون جلوك» بمسح أثري لمنطقة شرق الأردن، وتوصل إلى أن الفترة فيما بين عامي ١٩٠٠، ١٣٠٠ ق. م، تمثل ثغرة في السكان المقيمين في المنطقة، فإذا كان خروج بني إسرائيل من مصر، حوالي عام ١٤٠٠ ق. م، فالمفروض، والأمر كذلك، ألا يلتقوا بالملوك الأدوميين والعمونيين والمؤابيين، الذين عاقوا تقدمهم، كما تقول التوراة، وإنما كان هناك بدو متفرقون هنا وهناك، والأمر كذلك بالنسبة للدليل الأثري من «لخيش» و «دبير»[٣]، ومنها (حادي عشر) أن الحفريات التي أجريت في دبير، (تل بيت مرسيم الحالية على مبعدة ١٣ ميلاً جنوب غربي جبرون)[٤] اكتشفت طريق الفرعون أمنحتب الثالث، والذي كان ما يزال يستعمله الموظفون في دبير، مما يدل على أن مصر كانت ما تزال صاحبة السيادة هناك حتى عصر أمنحتب الثالث، وأن الإسرائيليين لم يكونوا قد قدموا بعد إلى هذه المنطقة، وفي نهاية عصر البرونز المتأخر وجدت آثار حريق هائل، وفوقها بقايا إسرائيلية، مما يدل على عدم وصول

(١) J. Fingan, op - cit, P. 159. وكذا J. Garstang, op - cit, P. 144F

(٢) لخيش: وهي تل الدوير الحالية، على مبعدة خمسة أميال جنوب غرب بيت جبرين، وقد أثبتت الحفائر أنها سكنت منذ عصر البرونز المبكر (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٦١٤).

(٣) M. F. Unger, op - cit, P. 334.

(٤) Ibid., P. 255. وكذا J. Finegan, op - cit, P. 163.

الإسراميليين حتى هذا العصر[1]، ومنها (ثاني عشر) أن حفائر متحف جامعة بنسلفانيا في بيت شان[2] (بيسان) في سهل يزرعيل أثبتت أن المنطقة ظلت تحت سيطرة الحاميات المصرية[3]، كما كانت على أيام أمنحتب الثالث، وحتى أيام رعمسيس الثاني، حيث وجدت أسماؤها على معبد المدينة[4]، مع أنها ذكرت من بين المدن التي استولى عليها يشوع[5] .

ومنها (ثالث عشر) أن التاريخ يحدثنا أن «حتشبسوت» حكمت مع أختها تحوتمس الثاني (١٥١٠ ـ ١٤٩٠ ق . م)، كزوجة وليست كملكة، ثم حكمت بعد ذلك مع ابن أخيها تحوتمس الثالث، كوصية على العرش، وإن ظلت المراسيم تصدر باسمه فترة ما بين أربع وسبع سنوات، بل إن «جاردنر» يرى أن هناك نصاً لم ينشر بعد، يحدد تتويج حتشبوت كملك بالسنة الثانية[6]، واستمرت كذلك حتى عام ١٤٦٨ ق . م، حيث خلفها تحوتمس الثالث، والذي خلفه ولده أمنحتب الثاني، وإذا ما طبقنا ذلك على ما أرتآه «جارستانج» من أن موسى عليه السلام هرب من مصر بعد وفاة حتشبسوت، وجلوس عدوها تحوتمس الثالث على العرش، ثم خروج بني إسرائيل في أخريات عهده، لرأينا ذلك إنما يتناقض مع ما جاء في التوراة والقرآن العظيم من أن موسى عليه السلام قد خرج من مصر إلى مدين لأنه قتل مصرياً على سبيل الخطأ[7]، كما أننا لو صدقنا «جارستانج» ومن تابعه في رأيه، من أن

---

(١) A. F. Albright, وكذا M. G. Kyle, Excavations Kirjath Sepher's Ten Cities, op - cit, P. 192
AASOR, 13, P. 55 - 128, 17, P. 21 - 22, 79.

(٢) أنظر: A. Rowe, The Topography and History of Beth - Shan, Pennsylvania, 1930.

(٣) W. F. Albright, op - cit, P. 125.

(٤) M. F. Unger, op - cit, P. 142.

(٥) يشوع ١٧/ ١١.

(٦) A. Gardiner, op - cit, P. 184.

(٧) سورة القصص: آية ١٥ ـ ٢٢، خروج ٢/ ١١ ـ ١٥.

هروب موسى من مصر كان بسبب إستيلاء تحوتمس الثالث على العرش، لكان على موسى ألا يعود إلى مصر إلا بعد وفاة تحوتمس الثالث، خاصة وأن التوراة تشير إلى أن عودة موسى إلى مصر كانت مرتبطة بوفاة من كان يطالبه بالقصاص[1]، هذا فضلاً عن أن تدمير أريحا إن كان في عام ١٤٠٧ أو عام ١٤٠٠ ق. م، فهذا يعني أنه حدث في أخريات، عهد تحوتمس الرابع، أو أوائل عهد أمنحتب الثالث، وفي كلا العهدين كانت مصر، دون شك، ما تزال تحتفظ بامبراطوريتها الواسعة في آسيا الغربية، بل إن تحوتمس الرابع إنما يعتبر واحداً من الفراعين العظام، وأنه قام بواجبه تماماً في الحفاظ على الامبراطورية المصرية هذا فضلاً عن أن أمنحتب الثالث كان، على الأقل، في النصف الأول من حكمه كبير ملوك الشرق الأدنى دون منازع.

ولعل سؤال البداهة الآن: كيف استطاع بنو إسرائيل دخول كنعان، وهي ولاية مصرية، ثم تدمير أريحا وعاي وبيت أيل وغيرها من فلسطين، دون أن يحرك الفرعون ساكناً؟ في الحقيقة إن هذا أمراً لا يمكن قبوله بسهولة، ما لم تعضده أدلة قوية، وهذا ما لم يثبت حتى الآن، فضلاً عن أنه أمر تحيط به عوامل الشك والريبة من كل جانب، ومن ثم، فإنني أتردد كثيراً في الأخذ بهذا الرأي.

ومنها (ثالث عشر) أن بعثة «جامعة ستراسبرج» كشفت عام ١٩٦٥ م عن نص في معبد أمنحتب الثالث في «صولب» في النوبة السودانية، وفيه ذكر لقبائل من بدو الصحراء، ومنهم قبيلة «يهوه» في عصر أمنحتب الثالث[2]، ولعلنا نستنتج من هذا أن قبيلة يهوه البدوية كانت عصر أمنحتب الثالث (١٤٠٥ ـ ١٣٦٧ ق. م) ما تزال في مصر، وإن كنا على غير يقين من أن اسم

---

(١) خروج ٢/ ٢٣ ـ ٢٥، ٤/ ١٩.

(٢) مراد كامل: الكتب التاريخية في العهد القديم ـ القاهرة ١٩٦٨ ص ١٩.

«يهوه» هنا له صلة ببني إسرائيل أم لا، ومع ذلك، فهو، على الأقل، يثير ظلالاً من شك حول نظرية الخروج في عهد تحوتمس الثالث أو ولده أمنحتب الثاني.

(٣) توت عنخ آمون: هو فرعون موسى: -

يعتمد هذا الرأي على آراء العالم اليهودي «سيجموند فرويد» (١٨٥٦ - ١٩٣٩م) في موسى الذي يراه مصرياً، وليس عبرانياً، وفي ديانة إخناتون، ومن ثم فقد عقد مقارنة بين الديانتين، الموسوية والمصرية القديمة، وخلص منها إلى أنهما على طريق نقيض، فبينما نرى في الموسوية وحدانية متشددة[١]، نرى في المصرية القديمة وثنية مفرقة في التعدد، هذا فضلاً عن أننا نكاد نعرف شعباً آخر في تاريخ العالم القديم وصل إلى الدرجة التي وصل إليها المصريون من تجاهل للموت، ولا بذل ما بذلوا لتأمين معيشتهم في الآخر، في الوقت الذي أغفلت فيه الموسوية الحياة الأبدية تماماً، فلم يرد في أي موضع من التوراة ذكر لإمكان حياة بعد الموت[٢]، وهو أمر تزيد غرابته، إذا تبين لنا أن الإيمان بالآخرة يتفق تماماً مع عقيدة التوحيد[٣].

---

(١) لا ريب في أن دعوة موسى عليه السلام، شأنها في ذلك شأن بقية دعوات الأنبياء الكرام، إنما هي دعوة توحيدية صحيحة غير أن دعوة موسى تلقاها عن ربه، شيء، وما سجلته توراة اليهود، وليست توراة موسى، عن التوحيد شيء آخر، وقد قدمنا دراسة مفصلة عن الديانة اليهودية، اعتماداً على ما جاء في توراة اليهود المتداولة اليوم، والتي تبعد عن دعوات التوحيد كثيراً أو قليلاً (محمد بيومي مهران: إسرائيل - الجزء الرابع - الباب الأول (٧ فصول) الديانة اليهودية ص ١ - ٢١٨).

(٢) أنظر عن الحياة بعد الموت، كما قدمتها توراة اليهود (محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل - ص ١٠٢ - ١٠٦، إسرائيل ٤/ ٢٣٤ - ٢٣٦، وكذا: حبيب سعيد: أديان العالم ص ١٨٢ - ١٨٣، وكذا: - S. Freud, Moses and Monotheism, N. Y, 1939, P. 18 - 29. وكذا E. W. Heaton, The old Testament Prophets, 1969, P. 134 - 137. وكذا E. Renan, Histoire du Peuple d'Israel, i, P. 128F.

(٣) S. Freud, Moses and Monotheism, N. Y, 1939, P. 18 - 20.

وهنا يبدأ «فرويد» يتحدث عن ديانة إخناتون، ثم يعقد مقارنة بينها وبين ديانة العبرانيين، فيقدم لنا صورة عن عقيدة الشمس منذ نشأتها حتى أيام إخناتون (١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ ق. م)، ثم اعتناق الفرعون لعقيدة التوحيد، وتمجيده لها في أناشيده[١]، وعلى أن إله الشمس هو الخالق والحافظ لكل الكائنات، وعن الحرارة التي تبدو في تسبيحاته، والتي تسبه تلك التي تسري بعد ذلك ببضعة قرون في المزامير التي تمجد «يهوه» إله اليهود[٢]، غير أن إخناتون، على وجه اليقين، لم يعبد الشمس على أنها شيء مادي، وإنما على أنها لكائن مقدس تنم هذه الأشعة عن قدرته، وهو أمر ذهب إليه من قبل كثير من الباحثين، من أمثال إرمان وبرستد وهول وغيرهم[٣]، هذا فضلاً عن إخناتون قد أضاف إلى فكرة عالمية الرب شيئاً جديداً أوضح فيه فكرة الوحدانية، وهي الطبيعة الخاصة به، ومن ثم فهو يقول في تسبيحاته «اللهم إنك أنت الإله الواحد الذي ليس معه سواه»[٤]، ومن هنا فقد أغلقت معابد الألهة في كل أنحاء الإمبراطورية المصرية، وصودرت ممتلكاتها، وعطلت شعائرها، وضرب الحجز على خزائن الكهنوت، وذهب إخناتون في حماسه إلى حد أنه أمر بفحص الآثار المصرية، ومحو كلمة «الألهة» حيثما وجدت منقوشة عليها في صيغة الجمع، لأن الله واحد لا يجمع[٥]، كما حرم

---

(١) أنظر: عن عقيدة الشمس قبل أيام إخناتون، وعن التوحيد في دعوة إخناتون وأناشيده (محمد بيومي مهران: إخناتون ص ٢٩٥ ـ ٣١٥، ص ٣٣٧ ـ ٣٨٢).

(٢) S. Frued, op - cit, P. 21.

(٣) محمد بيومي مهران: إخناتون ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠، أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة ص ١٢٥ ـ ١٤٦ ـ القاهرة ١٩٥٢ (مترجم)، وكذا H. R. Hall, op - cit, P. 298 - 300.
S. Freud, op. cit., p. 21-22.

(٤) J. H. Breasted, The Dawn of Consciencen, N. Y., 1939, P. 278 - 280.

(٥) أدولف إرمان: المرجع السابق ص ١٣٣ ـ ١٣٨ وكذا S. Freud, op - cit, P. 22 وكذا J. H. Breasted, op - cit, P. 280.

إخناتون جميع الأساطير وأعمال السحر، وعدم السماح بعمل أي صنم لإلهه «آتون»[1] لأن الإله الحق لا صورة له، هذا فضلاً عن التغيير في التعبير الشكلي لإله الشمس، فلم يصور بصورة هرم صغير وصقر، وإنما بأسلوب يكاد يكون عقلانياً، يبدو فيه قرص الشمس وقد انبعثت منه أشعة نهايتها على شكل الأيدي، وأخيراً فلم يرد أي ذكر للإله «أوزير»، إله الموتى ورب الآخرة عند المصريين، ولا لمملكة الموتى والحساب في الآخرة[2].

ثم يبدأ «فرويد» في عقد مقارنة بين الديانتين، الإخناتونية والموسوية، مع إقراره بأن ذلك سيكون أمراً صعباً، ذلك لأن تعطش كهنة آمون الحاقدين للثأر من ديانة آتون، قد حرمنا الكثير من المعلومات عنها، بسبب تحطيم الغالبية العظمى من آثار إخناتون، كما أننا لا نعرف ديانة موسى عليه السلام، إلا في شكلها، كما تم تثبيتها بعد موسى عليه السلام، بثمانية قرون، على الأقل، (إذا أخذنا بالرأي الذي ينادي بأن الخروج كان على أيام مرنبتاح) على يد رجال الدين اليهودي، في العصر الذي تلا السبي البابلي (٥٨٦ - ٥٣٩ ق. م)، حيث ابتعثت دولة يهوذا في ظل الحماية الفارسية على يد «عزرا» الذي جاء من السبي، فيما يرى كثير من المؤرخين، حوالي عام ٣٩٨ ق. م[3]، هو الذي يعزي إليه إرساء العقيدة اليهودية، كما تطالعنا الآن[4].

---

(١) A. H. Gardiner, op - cit, P. 227.

(٢) J. H. Breasted, op - cit, P. 300. وكذا S. Freud, op - cit, P. 22 - 26.

(٣) أنظر: نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٤٦٩، W. F. Albright, The Archaeology of Plastine and the Bible, P. 169F H. Rowley, The Servant of The Lord and other Essay on The Old Testament, 1952, P. 131 - 159. وكذا J. Finegan, op - cit, P. 239 وكذا S. A. Cook, op - cit, P. 413 وكذا M. Noth, op - cit, P. 230.

(٤) إذا كان «عزرا» هذا، هو «عزيز» الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، وهذا ما نميل إليه ونرجحه، فإن اليهود وقت ذاك القرن (القرن ٤ ق. م) قد أشركوا بربهم، وجعلوا من عزيز =

هذا ويقدم لنا «فرويد» بعض المقابلات بين الديانتين، لعل من أهمها (أولاً) أن صيغة إعلان الإيمان (الشهادة اليهودية) إنما تنطق على الوجه التالي «شمع يسرائيل أدوناي إلو هينو أدوناي أحاد» وترجمته إلى اللغة العربية كالتالي «إسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا إله واحد»، فإذا لم يكن بالصدفة هذا التشابه في اللفظين بين «أتون» المصري، و «أدوناي» العبري و «أدونيس» السوري، وإذا كان هذا التشابه بالعكس نتيجة تماثل في الأصل من حيث اللفظ والمعنى، أمكن أن نترجم الجملة العبرية هكذا «إسمع يا إسرائيل آتون إلهنا إله واحد»، ومنها (ثانياً) أنه من السهل أن نبيّن أوجه الشبه والخلاف بين الديانتين، فكلاهما مظهر لوحدانية مطلقة دقيقة[1]، ويميل «فرويد» أن يرد، من أول وهلة، لهذا الطابع الأساسي فيهما كل نقاط التشابه القائمة بينهما، ومنها (ثالثاً) أن الدين اليهودي، كما قدمته لنا توراة اليهود المتداولة اليوم، كان يجهل الآخرة والحياة بعد الموت، وهي معتقدات لا تتعارض مع الوحدانية مهما بلغت من الشدة، والأمر كذلك بالنسبة لديانة إخناتون، وهذا التوافق بين اليهودية والآتونية في هذه النقطة، إنما يعتبر أول حجة جديدة، إلى جانب مصرية موسى، وإن كانت ليست بالحجة الوحيدة[2].

ومنها (رابعاً) أن موسى عليه السلام لم يعط اليهود ديناً جديداً فحسب، وإنما فرض عليهم الختان كذلك، ورغم أن التوراة ترجعه إلى عصر الآباء

= ابنا لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، قال تعالى: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ (التوبة: آية ٣٠).

(١) أنظر عن الوحدانية في الآتونية واليهودية (محمد بيومي مهران: إخناتون ص ٤٦٢ - ٤٧٧، إسرائيل ٤/ ٨٣ - ١٢١).

(٢) S. Freud, op - cit, P. 27 - 29.

الأولين، وأن الرب غضب على موسى عند تركه وكاد أن يقتله، لولا أن أسرعت زوجه المدينية وقامت بختان ابنها[1]، غير أن الحقيقة التي لا شبهة فيها أن الختان جاء إلى اليهود من مصر، وأنه لا يوجد شعب آخر في حوض البحر المتوسط يتبع هذه السنة غير المصريين، الذين تدل آثارهم على أنهم عرفوا الختان منذ عصور ما قبل التاريخ، حوالي عام ٤٠٠٠ ق . م، كما تدل على ذلك أجسام بلغ من حفظها أن أمكن فحصها والاستدلال منها على اتباع المصريين لسنة الختان، هذا فضلاً عن صور تمثل عملية الختان يقوم بها جراح مصري في قبر جبانة مثقف من الدولة القديمة، وآخر في الكرنك من الدولة الحديثة[2]، كما أن رواية التوراة[3] يفهم منها أن إبراهيم عليه السلام قام بعملية الختان بعد عودته من مصر، وإنجابه ولده إسماعيل عليه السلام، هذا فضلاً عن أن النص نفسه إنما دونه أحبار السبي البابلي، فيما بين القرن السادس والخامس ق . م.[4]، أي بعد عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، بما يربو عن ألف وخمسمائة عام، كما أنه لم يدخل في صلب أسفار الشريعة في صورتها الحالية، إلا في عام ٤٠٠ ق . م، فلا غرو أن يتعارض تعارضاً جذرياً مع روايات أخرى في سفر التثنية[5]، والتي ربما كانت أصداء خافتة لوقائع في صورة من أساطير عن نشأة سنة الختان، تلك السنة كانت عادة مصرية متأصلة[6].

---

(١) تكوين ١٧/ ١٠-١١، خروج ٤/ ٢٤ - ٢٦.

(٢) J. Breasted, op - cit, P. 303, No. 10.

(٣) تكوين ١٧/ ١٠ - ١١، ٢٣ - ٢٧، وانظر: محمد بيومي مهران: قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (٢) مجلة الأسطول - العدد ٦٧، الإسكندرية ١٩٧١ ص ٥ - ٦.

(٤) A. Lods, op - cit, P. 152.

(٥) تثنية ٥/ ١ - ٣، وكذا A. Lods, op - cit, P. 199.

(٦) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٦، وكذا A. P. Davies, Ten Commandments, N. Y, 1956, P. 59 - 60.

وهنا يتساءل فرويد: إذا كان موسى يهودياً راغباً في تحرير بني جلدته من نير المصريين، فما الذي دعاه إلى فرض سنة الختان على قومه، وكل ما يتوقع منها أن تجعل اليهود مصريين، وما الداعي لتخليد ذكرى مصر فيما بينهم، رغم أن جهوده كانت موجهة إلى عكس ذلك، وهذا كله يدل على أن موسى لم يكن يهودياً، بل كان مصرياً[1]، الأمر الذي يترتب عليه أن الديانة الموسوية كانت على الأرجح ديانة مصرية، ولكن ليست الديانة السائدة بين الشعب، وإنما ديانة إخناتون التي تتفق مع اليهودية في كثير من النقاط.

وهنا يتجه «فرويد» إلى هدفه مباشرة، وهو أن موسى كان مصرياً، وكان طموحاً عالي الهمة، وربما راودته فكرة أن يصبح في يوم ما زعيم شعبه، ورئيس الإمبراطورية المصرية، ولما كان من المقربين إلى فرعون (إخناتون) فقد أبدى حماسة شديدة بالعقيدة الجديدة التي فهم أفكارها الرئيسية وتشربها، ولكن عندما زحفت الرجعية على إثر موت إخناتون، رأى موسى أن كل آماله وتدابيره تنهار، فمصر لم يعد عندها ما تعطيه له، اللهم إلا إذا كفرت بمعتقداتها التليدة، وهكذا أصبح موسى رجلاً فقد وطنه، وهنا واتته فكرة: إن إخناتون الحالم قد بلبل فكر شعبه وترك إمبراطوريته تتمزق إرباً، فإذا موسى، بما جبل عليه من علو الهمة، يتصور خطة ينشىء بها إمبراطورية أخرى يكون دينها هو الدين الجديد الذي نبذته مصر، وربما كان في ذلك الوقت حاكماً للإقليم المتاخم للحدود الشرقية، حيث تقيم في «جوشن» بعض القبائل السامية منذ أيام الهكسوس، فمن هذه القبائل يقرر موسى أن يتخذ له شعباً جديداً، ومن ثم فقد قام بإنشاء علاقات مع القبائل السامية في أرض جوشن ونصب نفسه زعيماً عليها، وقادها إلى الخروج «بيد

---

(١) ليس صحيحاً، على وجه اليقين، أن موسى كان مصرياً، وسوف نناقش هذه القضية بالتفصيل في هذه الدراسة (الباب الرابع ـ الفصل الأول).

قوية»، ويمكننا خلافاً للتراث العبراني افتراض أن الخروج تم بسلام وبدون مطاردة، فإن سلطة موسى جعلت ذلك ممكناً، ولم يكن هناك حينئذ قوة مركزية يمكنها أن تمنعه، ثم يرى «فرويد»أن الخروج من مصر حدث خلال فترة السنوات الثماني التي تلت موت إخناتون وسبقت استيلاء «حو رمحب» على العرش[1]، بل إن «آرثر ويجال» إنما يحدد الخروج بعام ١٣٤٦ ق. م، ويرى أنه تم في آخر عهد «توت عنخ آمون»[2].

وفي الواقع فإن «كارل أبراهام» إنما سبق «فرويد» في القول بأن إخناتون إنما كان مصلحاً، ونبياً عظيماً، ففي عصره لم ترسم الآلهة في شكل آدمي، وهكذا كان إخناتون رائد التوحيد الموسوي، بل الأبعد من ذلك أنه كان رائد المسيح عليه السلام، ففكرة إخناتون عن الإله أقرب إلى الفكرة المسيحية منها إلى الفكرة الموسوية[3]، هذا ويذهب المؤرخ "Weech" إلى أن موسى قد دعا بني إسرائيل إلى التوحيد، وكانت هذه العقيدة قد ظهرت في العالم قبل ذلك على يد «إخناتون»، ويبدو أن موسى، وقد أمضى طفولته وصباه وشبابه في مصر، قد عرف هذه العقيدة وتأثر بها ودعا إليها[4]، وعلى أية حال، فنحن وإن كنا نرفض الربط بين وحدانية موسى عليه السلام، ودعوة إخناتون، ذلك الربط الذي يصل عند «فرويد» إلى أن الأولى منقولة عن الثانية، فلا نشك في وجود مقابلات بين الديانتين، حتى وإن كانت غير مباشرة، فالوحدانية المطلقة كانت من أوضح الصور الشائعة بينهما، وعلى سبيل المثال، فإله إسرائيل يقول «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي»[5]،

---

(١) S. Freud, op - cit, P. 29 - 32.

(٢) A. Weigal, Histoire de L'Egypte Ancienne, Paris, 1968, P. 146.

(٣) C. Abraham, Imago, I, 1912, P. 346 - 364.

(٤) E. H. Weech, Civilization of the Near East, P. 88.

(٥) خروج ٢٠/ ٣.

وإخناتون يصف إلهه بأنه «الإله الذي لا إله إلا هو»، ثم التأكيد بعد ذلك في التعاليم الآتونية، والضغط المستمر على «الإله الواحد، والخالق لكل شيء»، فآتون، كيهوه، هو الإله الخالق لكل من يأتي إلى هذه الحياة وما يأتي إليها[1].

وأياً ما كان الأمر، فهناك من الأسباب ما يجعلنا نرفض وجهة نظر «فرويد» هذه، منها (أولاً) أن هذه النظرية تحتاج إلى دراسة جادة عميقة متأنية للديانتين، الموسوية والآتونية، وهذا أمر في منتهى الصعوبة، إن لم يكن محالاً، وقد تنبه فرويد نفسه إلى ذلك فنحن حتى الآن لا نستطيع القول بأننا نملك، على وجه اليقين، الصورة الصحيحة للآتونية أو الموسوية، فالأولى قد أضاع حقد كهان آمون أكثر الكثير من نصوصها، والثانية لعبت فيها أيدي اليهود بما شاءت لهم أهواؤهم، كما أن معلوماتنا الحالية عنها إنما ترجع إلى نصوص كتب بعد الأسر البابلي أو أثناه (٥٨٦ - ٥٣٩ ق. م)، وموسى عليه السلام عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إن لم يكن في القرن السادس عشر قبل الميلاد، كما رأينا من قبل، والفرق بين نزول الرسالة على موسى وبين تدوينها، فرق كبير، يصل إلى ثمانية قرون على رأي، وقد يصل إلى أحد عشر قرناً أو حتى عشرة قرون فيما يرى آخرون، ومنها (ثانياً) أننا لا نعرف عن إخناتون غير أنه الملك الذي جلس على عرش الكنانة في الفترة (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م)، وأنه نادى بعبادة الإله الواحد الأحد ومن ثم فقد أغلقت معابد الآلهة في كل أنحاء الإمبراطورية المصرية، وصودرت ممتلكاتها وعطلت شعائرها، مما أثار عليه تجار الدين من كهنة آمون وغيرهم، ومن ثم فقد هاجر من طيبة إلى بقعة عذراء لم تشهد عبادة إله آخر من قبل، فأقام عليها مدينته الجديدة «آخت آتون» (العمارنة)[2]، وبقي

---

(١) W. F. Albright, The Biblical Period, From Abraham to Ezra, N. Y, 1963, P. 15 - 16.

(٢) العمارنة، وتقع على مبعدة ١٩٠ ميلاً جنوبي القاهرة، ٢٦٠ ميلاً شمالي الأقصر، فيما بين =

هناك حيناً من جدهر، يتعبد إلى ربه ويزعم مجالس الدعوة إليه، وأخيراً تجمعت قوى الشر ضده حتى انتهى أمره، فصب كهان آمون كل حقدهم عليه وعلى دعوته واصطلموا أتباعه، ونصّبوا من بعده على العرش صبيّاً لما يّفع، فمكن لهم وأطلق أيديهم، فأبادوا ديانة آتون، وأعادوا ديانة آمون[1].

ولعل سؤال البداهة الآن: ما صلة كل هذا بأستاذية إخناتون لموسى عليه السلام؟ وهل كانت دعوة إخناتون إرهاصاً لدعوة موسى عليه السلام؟ أو هي تمهيد لدعوة التوحيد بين قوم ألفوا تعدد الآلهة، دون أن يجدوا في ذلك أمراً إدّاً؟ أم أن إخناتون نبي، كما يرى بعض الباحثين؟

إن الإجابة على واحدة من هذه الأسئلة، لا يستطيع صاحب هذا الكتاب أن يتحمل مسئوليتها أمام الله تعالى، أو قل: لا يستطيع أن يتحمل وزر الخطأ فيها رجل صحب القرآن الكريم، وهو لما يعدو السادسة من عمره، وما يزال وسيظل، إن شاء الله في صحبته الكريمة ما دام حياً يرزق في هذه الدنيا، حيث الصحبة الأبدية، إن شاء الله، في عالم الآخرة، ذلك لأننا نحن المسلمين ملتزمين بما جاء في محكم التنزيل عن الأنبياء عليهم السلام، وليس إخناتون، بالتأكيد، واحداً ممن جاء ذكرهم في القرآن الكريم، وفي نفس الوقت نحن نعلم كمسلمين، أن موسى عليه السلام، نبي

= ملوي وديروط، في مقابل دير مواس عبر النهر، وكانت تمتد على مسافة تقرب من الميل شمالي قرية التل، وحتى الحوطة شرقي النهر، وتمثل العمارنة (أخيتاتون) في الوقت الحاضر، قرى بني عمران والحاج قنديل والعمارنة والحوطة، ثم الخرائب القليلة التي تقع على طول المدينة القديمة ومن ورائها المقابر، وتحمل «أخيتاتون» إسم مليكها لأن المقطعين آخت وأخن مشتقان من نفس الجزع، على حين ألحقت كلمة أتون بكل من إسم الملك وعاصمته.

(1) أنظر عن النكسة التي أصابت دعوة إخناتون وعودة الوثنية (محمد بيومي مهران: إخناتون ص ٣٨٣ - ٤٢١).

الله ورسوله، كما نص على ذلك الذكر الحكيم[1]، بل ونعلم كذلك أسماء خمسة وعشرين من هؤلاء المصطفين الأخيار[2]، غير أننا في الوقت نفسه لا نستطيع القول، ونحن مطمئنون إلى ما نقوله عن إخناتون إنما هو الحق كل الحق، ذلك لأن سبحانه تعالى أخبرنا في كتابه العزيز، أنه ما من أمة إلا وجاءها رسول من عند الله، العزيز الحكيم، قال تعالى: **﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين﴾**[4] ثم يخبر نبيّه ورسوله سيدنا محمدﷺ **﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾**[5]، وقال تعالى: **﴿رسلاً قد قصصناهم عليك من قبل، ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾**[6].

ومن هنا كان الخلاف على عدد الأنبياء عليهم السلام، فمن قائل إنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ومن قائل إنهم ثمانية الآف نبي، منهم أربعة الآف نبي من بني إسرائيل، ومن قائل إنهم أربعة الآف، ومن قائل إنهم ثلاثة الآف[7]، وأن الرسل من الأنبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم

---

(١) أنظر: عن نبوة موسى عليه السلام: سورة البقرة (٨٧) آل عمران (٨٤) الأنعام (٩١، ١٥٤) الأعراف (١٠٣، ١٠٤، ١٤٤) يونس (٧٥) هود (٩٦)، إبراهيم (٥) مريم (٥١) طه (٢٤، ٤٣، ٤٧) الأنبياء (٤٨) المؤمنون (٤٥) الفرقان (٣٥) الشعراء (١٠، ١٦، ٢٧) النمل (١٠) القصص (٣٢، ٣٦) العنكبوت (٣٩) الأحزاب (٧) الصافات (١٧ - ١٨) غافر (٣٢) الزخرف (٤٦) الدخان (١٧) الذاريات (٣٨).

(٢) هم: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحي وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم.

(٣) سورة فاطر: آية ٢٤.

(٤) سورة الزخرف: آية ٦.

(٥) سورة غافر: آية ٧٨.

(٦) سورة النساء: آية ١٦٤.

(٧) ابن قتيبة: كتاب المعارف ص ٢٦، الماوردي: أعلام النبوة ص ٥٢، مجمع الزوائد ٨/ =

آدم، وآخرهم محمدﷺ [1]، وعلى أي حال، فليس من المستحب الخوض في إحصاء الرسل والأنبياء، فإنه لا يعلم إلا بوحي من الله تعالى، ولم يبيّن الله ذلك في كتابه الكريم، ولا رسوله فيما صح عنه من الخبر[2]، غير أن حديث أبي ذر المشهور، فيما رواه ابن مردوية، وقد جاء فيه أنه دخل المسجد النبوي الشريف، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده، فسأله عن أشياء، منها الصلاة والهجرة والجهاد والصيام والصدقة، ثم قال: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، قال قلت يا رسول الله: كم الرسل من ذلك، قال ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير، كثير طيب، قلت يا رسول الله: من كان أولهم، قال: آدم، قلت يا رسول الله نبي مرسل؟ قال نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبيلاً، وقد روى هذا الحديث من وجه آخر عن صحابي آخر، فقال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة، قال قلت: يا نبي الله كم الأنبياء؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر، جماً غفيراً[3]، غير أن هناك رواية عن أنس بن مالك تذهب إلى أن رسول الله ﷺ بعث بعد ثمانية الآف نبي، منهم أربعة الآف من بني إسرائيل[4].

وبدهي أنه ليس في كل هذا ما يشير من قريب أو بعيد، على أن إخناتون كان واحداً من أنبياء الله الكرام، وإن كانت آيات القرآن الكريم لا تمنع من أن يكون من الذين لم يقصصهم الله على رسولهﷺ ، وهذا يعني

= ٢١٠، تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٨، تفسير الكشاف ٣/ ١٨ ـ ١٩، تفسير القرطبي ص ٢٠١٤ ـ ٢٠١٥، تفسير روح المعاني ٤/ ٨٨ ـ ٨٩.

(١) أنظر: تفسير القرطبي ص ٤٤٧٢ (دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠).

(٢) محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم ص٢٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٦، مختصر التفسير ١/ ٤٦٥مختصر التفسير ١/ ٤٦٥، ثم قارن سند الإمام أحمد ٥/ ٢٦٥، ٢٦٦، تفسير روح المعاني ٢٤/ ٨٨.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٤، مجمع الزوائد ٨/ ٢١٠.

أن سؤالنـا ما يزال بغير جواب، هل كان إخناتـون واحـداً من أنبياء الله الأطهار؟ أم أنه لا يعدو أن يكون مجرد ملك ثار على دين قومه، وأتى لهم بدين جديد انتهى بانتهاء حياته؟ في الواقع أنه لا توجد لدى صاحب هذا الكتاب إجابة، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله.

ومنها (ثالثاً) أن هذا الرأي يذهب إلى أن فرعون الخروج (فرعون موسى) إنما هو «توت عنخ آمون» طبقاً لما صرح به «آرثر ويجال» أو لما ارتآه «فرويد»، صاحب النظرية، من أن الخروج تم بعد موت إخناتون بثماني سنوات، ومن المعروف أن فترة حكم «توت عنخ آمون» كانت، فيما يرى جاردنر في الفترة (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق. م) أو في الفترة (١٣٥٢ - ١٣٤٣ ق. م) فيما ترى «كريستيان نوبلكور»، وكلا التأريخين يقع في الفترة التي حددها «ويجال» (أي في عام ١٣٤٦ ق. م)، أو ما بين عامي ١٣٥٠، ١٣٤٢ ق. م، فيما يرى فرويد، غير أن آخر فحص لمومياء «توت عنخ آمون» في عام ١٩٧١، قد أثبتت أن الفرعون الشاب كان عمره في لحظة الوفاة فيما بين الثامنة عشرة والعشرين، كما أثبتت كذلك أنه مات بسبب حادث أو اغتيال، وذلك من أثر صدمة عنيفة في مؤخر رأسه، قد تكون ضربة من هراوة أو سقوطاً من مرتفع[1]، ولم يثبت الفحص أنه مات غريقاً، وهو الأمر المؤكد في وفاة فرعون موسى، كما أشارت إلى ذلك التوراة والقرآن العظيم[2].

هذا فضلاً عن أن أحداث قصة فرعون مع موسى، وتجبره وعناده وإصراره على الكفر، ووصف الله تعالى له في القرآن الكريم بقوله تعالى: **﴿وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾**، وقوله تعالى:

---

(١) C. D. Noblecourt, Tutan khamen, 1963, P. 173, 215.

(٢) سورة يونس: آية ٩٠ - ٩٢، خروج ١٤/ ٢٦ - ٣١.

﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾[1] وقوله تعالى: **﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾**[2]، وقوله تعالى: **﴿إذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾**[3]، وأخيراً إدعاؤه الألوهية، كما جاء ذلك في كثير من آي الذكر الحكيم[4]، كل هذا وغيره إنما يتناقض وما نعرفه تاريخياً عن «توت عنخ آمون»، ذلك الطفل الذي ولي العرش صبياً في التاسعة، وربما الثامنة من عمره، بتدبير من كهان آمون، فمكّن لهم وأطلق أيديهم في شؤون الدين والدنيا، ولم يعمر على عرش الفراعين سوى عقد من الزمان، ثم ذهب غير مأسوف عليه، وإن كانت الأقدار قد حققت لذلك النكرة بين الفراعين أمجاداً كان أولى بها غيره من الفرعين العظام، وسبحان علام الغيوب الذي أضاع آثار كبار الفراعين، من أمثال تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني، وأبقى للدنيا آثار نكرة، ما كان لها في تاريخ مصر دور يعتد به، حتى بين المعاصرين لها، وذلك بسبب الكشف المثير الذي قام به، «هوارد كارتر» في الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٢ م (١٣٤٢ هـ) في طيبة الغربية، حيث عثر على مقبرته بكل ما فيها[5].

ومنها (رابعاً) أن هذه النظرية لا يمكن أن تكون مقبولة أصلاً، إلا إذا كان موسى عليه السلام يعيش فعلاً على أيام إخناتون، وأنه، كما يقول جون

---

(١) سورة الزخرف: آية ٥٤.

(٢) سورة القصص: آية ٤.

(٣) سورة طه: آية ٤٣ ـ ٤٥.

(٤) سورة الشعراء: آية ٢٩، القصص: آية ٣٨، النازعات: آية ٢٢ ـ ٢٦.

(٥) أنظر: Howard Carter, The Tomb of Tut - Ankh - Amen, 3 Vols, London, 1923 - 1933.

ويلسون، انتهز فرصة الضعف التي سادت أخريات أيام إخناتون وعهد خليفتيه الضعيفين (سمنخ كارع وتوت عنخ آمون) ثم نجح مع فريق صغير من الإسرائيليين في الخروج من مصر، وذلك بأن خادعوا فرعوناً من الفراعين، وهربوا إلى صحراء سيناء، وكان ذلك الفريق أكثر العبرانيين تمصراً[1]، وحتى لو صدقنا ذلك كله، فكيف يمكن أن نفسر عدم ذكر إسرائيل في عهد سيتي الأول ورعمسيس الثاني، والمعروف أن «سيتي الأول» أول من عمل على استرداد الإمبراطورية المصرية بعد أزمة العمارنة، فقام بأربع حملات إلى سورية وفلسطين، هذا فضلاً عن أن عهد رعمسيس الثاني بالذات، وهو الذي كتب له نجْحاً بعيد المدى في استرداد الإمبراطورية المصرية في غربي آسيا، وبخاصة في حملة العام الثامن (حوالي عام ١٢٨٢ ق. م) والتي أخضع فيها كل فلسطين وسورية، بل ووصل إلى أطراف بلاد ما بين النهرين وبلاد الحيثيين[2]، فإذا تذكرنا أن دخول بني إسرائيل فلسطين، طبقاً لهذه النظرية، سوف يكون على أيام سيتي الأول (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق. م) على أساس أن إخناتون مات عام ١٣٥٠ ق. م، وأن الخروج عام ١٣٤٢ ق. م، أو حتى ما بين عامي ١٣٥٠، ١٣٤٢ ق. م، ودخول فلسطين عام ١٣٠٢ ق. م، على أساس أن فترة التيه كانت أربعين عاماً، كما جاء في التوراة والقرآن العظيم[3]، فهل استطاع بنو إسرائيل حقاً دخول فلسطين في عهد سيتي الأول وهل استطاعوا حقاً أن ينزلوا بفلسطين كل هذا الدمار والخراب الذي

---

(1) J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, 1963, P. 256.

(2) محمد بيومي مهران؛ مصر - الجزء الثاني - الإسكندرية ١٩٨٤ ص ١٧٥ - ١٨٣، وكذا R. O. Faulkner, JEA, 33, 1947, P. 37 - 39. وكذا A. Burn, JEA, 7, 1921, P. 194 - 195 وكذا A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1961, P. 247 - 263 وكذا H. Goedick, JEA, 52, 1966, P. 72 - 79. وكذا A. Weigall, op - cit, P. 157 - 159.

(3) سورة المائدة: آية ٢٦، عدد ١٤/ ٢٢ - ٣٥.

روته التوراة، ورعمسيس الثاني حي يرزق، بل وما يزال يجلس على عرش الكنانة، ولمدة تقارب ثلاثة أرباع القرن (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق. م) دون أن ينجح في القضاء على هؤلاء البدو الرحل، وهو الذي كتب له أن يهزم أكبر قوة في عصره، بعد مصر، وهي قوة الحيثيين، ثم يصبح بعد ذلك سيد الشرق كله، وهل من المنطق أن نتصور أنه لم يلتق بهم في حملة السنة الرابعة أو الخامسة أو الثامنة، أو حتى في حملة عامه الحادي والعشرين، ثم كيف استطاع أن يخضع كل فلسطين، ويحارب الحيثيين في شمال سورية، وبنو إسرائيل يعبثون في فلسطين فساداً وينشرون في ربوعها الخراب والدمار، بل ويستولون على مدنها الواحدة تلو الأخرى، كما يحلو لمن كتبوا التوراة، أن يصفوا عمالهم، بعد دخولهم فلسطين، بقيادة يشوع بن نون[١]، كل هذه أسئلة لا نجد لها جواباً يتفق وخروج بني إسرائيل من مصر، بعد موت إخناتون بسنوات ثمان، أي في عام ١٣٤٢ ق. م، طبقاً لنظرية «فرويد» هذه.

ومن هنا، فإننا نرى «فرويد» نفسه، يتردد في قبول نظريته هذه، ثم يفترض أن موسى عليه السلام، ربما عاش في عصر لاحق لإخناتون (وبهذا يهدم نظريته كلها من أساس) وأن هذا سوف يتأخر بتاريخ الخروج بعض الوقت، ويجعله إلى الزمن المفترض أكثر قرباً، أي إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وإن كان يعود ثانية ليفضل الخروج في أعقاب موت إخناتون[٢].

وأخيراً (خامساً) فليس لهذه النظرية من أساس من الآثار والتاريخ

---

(١) أنظر: سفر يشوع، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٦٠١ ـ ٦٢٢ (الإسكندرية ١٩٧٨)، ف. ب. ماير: يشوع وأرض الموعد ـ ترجمة مرقس داود ـ القاهرة ١٩٤٩. وكذا
J. Garstang, Joshua, Judges, The Foundations of Bible History, 1931.

(٢) S. Freud, op - cit, P. 35 - 36.

تعتمد عليه، غير اعتمادها إلى افتراضات فرويد، هذا فضلاً عن معارضتها لكل ما جاء في التوراة والقرآن العظيم بشأن قصة خروج بني إسـرائيل من مصر، مثل محاجة موسى فرعون وتقديم المعجزات الباهرة[1]، وتنكيل الله تعالى بفرعون وقومه[2]، فضلاً عن الجدل الذي طال واستطال حول ألوهية الفرعون المزعومة[3]، ومحاولة فرعون قتل موسى[4]، وخروج بني إسرائيل من مصر ليلاً[5]، وأن فرعون قد تبعهم ولكن الله فرق لهم البحر، فاتخذوا لهم فيه سبيلاً إلى النجاة، بينما هلك فرعون وجنده غرقاً في البحر[6]، وأن موسى تلقى رسالة ربه على طور سيناء[7]، وغير ذلك من أحداث فصلناها من قبل في قصة موسى عليه السلام، تجاهلها فرويد في نظريته هذه، وارتضى أن الخروج تم بسهولة لمكانة موسى في مصر، سواء أكانت هذه المكانة دينية أو سياسية أو عسكرية، وأن التفاصيل التي ذكرتها التوراة عن موسى والخروج، ليست أكثر من أسطورة دينية تسجل تراثاً انحدر من زمن سحيق على نحو يخدم ميولها[8].

وانطلاقاً من كل هذا، فإننا نرفض رأي فرويد هذا، لأنه مبني على

---

(١) أنظر: سورة الأعراف: آية ١٠٣ - ١٢٦، طه: آية ١٧ - ٢٤، ٤٢ - ٧٦، الشعراء: آية ١٠ - ٥١، النمل: آية ٨ - ١٤، القصص: آية ٢٩ - ٤٢.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٣٠ - ٣٦، خروج ٧/ ١٩ - ٢٤، ٨/ ١١ - ٣٢، ٩/ ١ - ٣٥، ١٠/ ١ - ٢٩.

(٣) سورة الشعراء: آية ٢٩، القصص: آية ٣٨، النازعات: آية ٢٢ - ٢٦، ثم قارن: سورة المؤمنون: آية ٤٥ - ٤٩.

(٤) سورة غافر: آية ٢٦ - ٢٨.

(٥) سورة طه: آية ٧٧، الشعراء،اية ٥٢، الدخان: آية ٢٣ - ٢٤.

(٦) سورة البقرة: آية ٥٠، يونس: آية ٩٠ - ٩٢، طه: آية ٧٧ - ٩٩، الشعراء: آية ٥٢ - ٦٨، القصص: آية ٤٠، الدخان: آية ٢٣ - ٢٤، الذاريات: آية ٤٠، خروج ١٤/ ٥ - ٣١.

(٧) سورة طه: آية ٩ - ١٦، القصص: آية ٢٩ - ٣٥، خروج ٣/ ١ - ١٨.

(٨) S. Freud, op - cit, P. 38.

افتراضات، وأحياناً تخيلات، تتعارض مع الحقائق الدينية والتاريخية، ومن ثم فالإيمان بها إنما يتعارض مع إيماننا بما جاء في القرآن الكريم بشأن قصة موسى عليه السلام، وهذا ما نبرأ إلى الله منه.

(٤) رعمسيس الثاني: هو فرعون موسى: -

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن فرعون موسى الذي حدث الخروج في عهده، إنما هو رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م)، ولعل من أشهر المنادين بهذا الرأي، أولبرايت وإيسفلت وروكس وأونجر[١]، معتمدين في ذلك على أن رعمسيس الثاني إنما وجد جالية من العبرانيين كبيرة، سخرها فيما اختطه وزراؤه ومهندسوه من العمائر والمنشآت، وكان على أي حال، فيما أثبتت وثائق التاريخ يسخر الأسرى ومن حكمهم في إقامة ما يريد، فلقد حفظ لنا من النصوص عند «معبد السبوع» بالنوبة، ما يتحدث فيه، «ستاو» نائب الملك بالنوبة، عما كان من استخدامه أسرى من قبائل «التمحو»[٢] غربي مصر في بناء هذا المعبد[٣]، وعند معبديه في أبو سنبل، ما يتحدث فيه «رعمسيس عشاحب» عن مليكه من أنه أتى بأفواج العمال من أسرى سيفه من كل البلاد، وأنه ملأ بيوت الأرباب بأبناء «رتنو»[٤] الأسيويين.

ومن ثم فقد بدأ فريق من المؤرخين يربطون بين الجهود التي بذلت في إنشاء مدينة «بي رعمسيس» (قنتير) وبين ما روته التوراة في قصة الخروج

---

(١) W. F. Albright, From the Stone Age to Christianty, N. Y, 1957, P. 194 F' وكذا
O. Eiasfeldt; The Exodus and Wanderings, in CAH, II, Part, 2, 1975, P. 319 - 323 وكذا
M. F. Unger, op - cit, P. 331 وكذا G Roux, op - cit, P. 242

(٢) أنظر عن التحو (محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص ١٤٥ - ١٥٣).

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ٨٥.

(٤) J. H. Breasted, ARE, No. 498.

من تسخير فرعون للعبرانيين في إنشاء مدينة ضخمة في أرض جوشن بشرق الدلتا، تقول التوراة «فجعلوا عليهم (أي بني إسرائيل) رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس»[1]، واعتماداً على هذا النص رأى البعض أن بني إسرائيل بنوا لفرعون التسخير مدينتين، الواحدة فيثوم، والثانية رعمسيس، وقد دلت الحفائر على أن الأولى قد أعيد بناؤها، وأن الثانية قد أنشئت في عهد رعمسيس الثاني، وأن الإشارة إلى المدينتين في سفر الخروج لا يمكن أن تكون مصادفة، لأن ذلك إنما يتطابق مع كل ما نعرفه من المصادر الأخرى عن إقامة بني إسرائيل في مصر، لدرجة أنها يمكن أن تعتبر تقاليد يمكن الاعتماد عليها، فإذا كان ذلك كذلك، فإن هذه المعلومات لها وزن تاريخي أكثر من الافتراض المبهم حول الظروف التاريخية، وتاريخ دخول بني إسرائيل مصر.

وانطلاقاً من هذا كله، فقد نظر بعض الباحثين إلى رعمسيس الثاني، على أنه «فرعون التسخير»[2]، وهو أمر يتفق تماماً مع نشاطه البنائي الكبير، بخاصة وأنه قد استقر في شرق الدلتا، وأن الإنطباع العام الذي يعطيه لنا سفر الخروج أن بني إسرائيل إنما كانوا يقيمون في مكان ما ليس بعيداً عن البلاط الملكي في قنتير، هذا فضلاً عن أن المزمور (٧٨) إنما يعطينا تأكيداً بأنهم قد عاشوا في «أرض مصر في حقول صوعن»[3]، وصوعن هو الإسم العبري لمدينة «تانيس» (على مبعدة ١٩ كيلاً من قنتير) حيث كان بلاط الفرعون في هذه المنطقة في عهد رعمسيس الثاني، وليس في فترة مبكرة على أيام تحوتمس الثالث.

---

(١) خروج ١/ ١١.

(٢) M. Noth, op - cit, P. 120.

(٣) مزمور ٧٨/ ١٢، ٤١.

ويذهب «جاك فنجان»[1] إلى أن بني إسرائيل قد استخدموا، بادىء ذي بدء، في عهد «سيتي الأول»، ولكنهم لم يحملوا أثقالهم إلا في أيام رعمسيس الثاني، مما دفعهم إلى الهروب، وفي هذا الوقت ولد موسى عليه السلام، وتربى ثم عاش في البرية، وأخيراً عاد إلى مصر، كما يروي سفر الخروج (٢/ ١ - ٢٥) وهكذا فإن عصر رعمسيس الثاني يجب أن يكون عصر رحيل القوم المستعبدين، ومن ثم فيجب أن يكون وصول الإسرائيليين إلى فلسطين وتوغلهم في البلاد والتقاء مرنبتاح بهم في حوالي عام ١٢٢٠ ق. م، وهذا بالكاد يعطيهم الوقت للتيه في البرية مدة الأربعين سنة، وربما كان هذا الرقم تقليدياً، لأن التيه في الواقع كان أقصر من ذلك[2]، وأما «وليم أولبرايت» فيحدد عام ١٢٩٠ قبل الميلاد، تاريخاً للخروج، على أساس أن حكم رعمسيس الثاني في رأيه كان في الفترة (١٣٠١ - ١٢٣٤ ق. م) وأن السنين العشرة الأولى من حكمه قد شغلت بالنشاط العمراني الكبير في المدينة التي حملت اسمه (بررعمسيس)[3]، ويذهب «كيلر» إلى أن المطابقة المدهشة بين هذا التاريخ (أي عام ١٢٩٠ ق. م) وبين طول مدة إقامتهم بمصر، والتي يحددها سفر الخروج (١٢/ ٤٠) بمدة ٤٣٠ سنة، تكاد تكون تامة، وهي في نفس الوقت جديرة بالاعتبار، ومن ثم فإن الهجرة الإسرائيلية إلى مصر يجب أن تكون قد حدثت في عام ١٧٢٠ ق. م[4].

غير أن هناك من العقبات ما يقف في وجه قبولنا لوجهة النظر هذه، منها

---

(١) J. Finegan., Op-cit, P. 120, 134.

(٢) إن فترة التيه أربعون سنة على وجه التأكيد كما تشير إلى ذلك والإنجيل والقرآن العظيم (سورة المائدة: آية ٢٦، عدد ١٤/ ٣٣، أعمال الرسل ٧/ ٣٦).

(٣) W. F. Albright, op - cit, P. 194. وكذا M. F. Unger, op - cit, P. 332

(٤) جون الدر: الأحجار تتكلم ص ٥٥ (كترجم)، وكذا W. Keller, The Bible as History, 1967, P. 121 - 122.

(أولاً) أنها تجعل من رعمسيس الثاني فرعوناً للتسخير وللخروج في آن واحد، وهذا يتعارض مع بعض نصوص التوراة، التي تفرق بينهما[1]، هذا وقد أشرنا من قبل، إلى تحريض الملأ من قوم فرعون على أن يقوم فرعون، بعد إيمان السحرة بدعوة موسى، وفضيحة فرعون أمام موسى بين الناس، بمذبحة جديدة بين بني إسرائيل، وإلى هذا أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك، قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال، وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾**[3]، ونحن نعرف أن بني إسرائيل قد عانوا من قبل، من إبان مولد موسى مثل التنكيل الوحشي من فرعون وملئه، كما يقول تعالى: **﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ويذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾**[4]، ومن ثم فهناك، فيما يرى صاحب الظلال، أحد احتمالين، أولهما: أن فرعون الذي أصدر ذلك الأمر الأخير، كان قد مات وخلفه ابنه وولي عهده، ولم يكن الأمر منفذاً في العهد الجديد، حتى جاء موسى وواجه الفرعون الجديد، الذي كان يعرفه وهو ولي العهد، ويعرف قصته، والاحتمال الثاني أن فرعون الذي تبنى موسى ما يزال على عرشه، ولكنه تراخى أو وقف ذبح الأبناء واستحياء النساء، فالحاشية تشير بتجديده، وتخص به الذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب

---

(١) خروج ٢/ ٢٣ - ٢٥، ٤/ ١٩.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٢٧.

(٣) سورة غافر: آية ٢٥ - ٢٦.

(٤) سورة القصص: آية ٤.

والتخويف [1]، وبدهي أن الاحتمال الأول يثير الشك حول أن يكون رعمسيس الثاني هو فرعون الخروج.

ومنها (ثانياً) أن الفترة الأولى من حكم رعمسيس الثاني، والتي شغلت ببناء المدينة، كما يقول أصحاب هذا الرأي، لا تتناسب، مدة بقاء موسى في مدين أربعين عاماً، كما تقول التقاليد اليهودية والمسيحية [2]، وإن كنا نحن المسلمين لدينا ما يتناقض ذلك، ذلك أن الله تعالى قد أخبرنا في كتابه الكريم أنها سنون ثمان أو عشراً، وهو الأرجح، كما بينا من قبل، قال تعالى: ﴿ **قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين، قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل** ﴾ [3]، ومنها (ثالثاً) أننا لا نستطيع حتى الآن أن نحدد تاريخاً معيناً لبناء مدينة «بر رعمسيس» بالنسبة إلى عهد الفرعون، فضلاً عن أن يكون ذلك في العقد الأول منه بالذات، وهو الذي حدثت فيه كل حروبه تقريباً في غربي آسيا (حملات العام الرابع والخامس والثامن من حكمه)، ومن ثم فربما كان النصف الثاني من عهد رعمسيس الثاني أكثر ملاءمة لبناء المدينة من النصف الأول، وأن لزواجه ببنت ملك الحيثيين «خاتوسيل» في عام حكمه الرابع والثلاثين (حوالي عام ١٢٥٦ ق. م)، نتيجة لمعاهدة التحالف بين البلدين في العام الحادي والعشرين من عهد رعمسيس الثاني (حوالي عام ١٢٦٩ ق. م) إلى جانب أسباب أخرى، أثر في بناء المدينة،

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٧٧ ـ ٣٠٧٨، وانظر: البداية والنهاية ١/ ٢٥٠.

(٢) خروج ٧/ ٧، أعمال الرسل ٧/ ٢٣، ٣٠، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٩٣١، شاهين مكاريوس: تاريخ الأمة الإسرائيلية ـ القاهرة ١٩٠٤ ص ٤٠.

(٣) سورة القصص: آية ٢٧ ـ ٢٨.

مما يجعل بناءها في فترة متأخرة من عهده، وليس، على أية حال، في العقد الأول من عهده[1].

ومنها (رابعاً) أن فترة التيه، وهي أربعون سنة، ليست رقماً تقليدياً، كما يقول أصحاب هذا الرأي، وإنما هي حقيقة دينية وتاريخية مؤكدة كل التأكيد، ذلك أن هذا الرقم إنما جاء في التوراة والإنجيل والقرآن العظيم[2]، وبدهي أنه ليس من العلم، فضلاً عن الإيمان بكتب السماء، أن نشك في أمر أجمعت عليه هذه الكتب، ومنها (خامساً) أن القول بدخول بني إسرائيل مصر عام ١٧٢٠ ق. م، أمر غير مقبول، لأنه يجعل دخولهم مصر مع أو قبل دخول الهكسوس مصر، ذلك لأن الهكسوس، طبقاً للوحة الأربعمائة سنة[3]، قد دخلوا مصر ما بين عامي ١٧٣٠، ١٧٢٠ ق. م، بل إن «ردفورد» إنما يذهب إلى أن بداية حكم الهكسوس في مصر يجب أن تكون في وقت ما في السنوات العشر التي تقع ما بين عامي ١٦٦٠، ١٦٤٩ قبل الميلاد[4]، ومن المعروف، كما فصلنا من قبل، أن يوسف عليه السلام دخل مصر على أيام الهكسوس وبعد فترة لا تقل عن ربع قرن بحال من الأحوال، استدعى أباه وإخوته، بل إن هناك، كما رأينا من قبل، من يجعل دخول بني إسرائيل مصر على أيام أمنحتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق. م)، وإن كنا نرجح الرأي الأول، الذي يذهب إلى أنهم دخلوا على أيام الهكسوس، ومن ثم فإن هذه الفترة من دخول بني إسرائيل مصر وحتى خروجهم منها، كما

---

(١) أنظر: محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث - الإسكندرية ١٩٦٩ ص ٤٦ - ٦٢، مصر - الجزء الثاني - الإسكندرية ١٩٨٤ ص ١٧٥ - ١٨٣.

(٢) سورة المائدة: آية ٢٦، عدد ١٤/ ٣٣ - ٣٤، أعمال الرسل ٧/ ٣٦، ٤٢.

(٣) أنظر: محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٦ ص ١٣٧ - ١٣٩، وكذا. P. Montet, Le Stele de L'an 400, Kemi, IV, 1933, P. 191 - 215.

(٤) D. B. Rdeford, The Hyksos Invasion in History and Tradition, Orientaba, 39, 1970, P. 28.

يرى أصحاب هذا الرأي، لا تتفق وبقائهم في مصر مدة ٤٣٠ سنة، وبالتالي فإن رعمسيس الثاني قد يكون فرعون التسخير، ولكنه ليس فرعون الخروج.

(٥) مرنبتاح: هو فرعون موسى: -

يعتمد أصحاب هذا الرأي الذي يذهب إليه مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق. م) هو فرعون موسى، على نص التوراة الخاص ببناء مدينتي فيثوم ورعمسيس[١]، وعلى ما جاء في «لوح إسرائيل»[٢]، والذي ذكر فيه إسم إسرائيل لأول مرة في النصوص المصرية، وهكذا رأت جمهرة كبيرة من المؤرخين أن مرنبتاح هو فرعون الخروج، وأن أباه رعمسيس الثاني هو فرعون التسخير، وتتفق آراء «نافيل» و «بتري» و «سايس» على أن خروج بني إسرائيل من مصر إنما حدث على أيام مرنبتاح، ذلك لأن «نافيل» ظل متمسكاً برأي «لبسيوس» من أن رعمسيس الثاني هو مضطهد اليهود، وأن ولده مرنبتاح هو الفرعون الذي خرجوا في عهده من مصر[٣]، وأما «سايس» فإنه يرى أن الآثار المصرية إنما تحصر هذا الحادث في عصر مرنبتاح[٤]، وأما «بتري» فيرى في كتابه «تاريخ مصر»[٥] أن الخروج تم في عصر مرنبتاح، وفي عام ١٢١٣ ق. م بالذات، ثم يقدم لنا في كتابه «مصر وإسرائيل»[٦] التقويم التالي: دخول بني إسرائيل مصر في عام ١٦٥٠ ق.

---

(١) خروج ١/ ١١.

(٢) لوح إسرائيل: محفوظ بالمتحف المصري بالقاهرة برقم ٣٤٠٢٥، وقد عثر عليه «بتري» عام ١٨٩٦ م في خرائب معبد مرنبتاح الجنازي في طيبة الغربية، وقد نشره كثير من العلماء، منهم بتري وبرستد وكونتز وإرمان وويلسون وغيرهم.

(٣) E. Naville, Archaeology of The Old Testament, London, 1913, P. 93.

(٤) A. H. Sayce, The Egypt of The Hebrews and Herodotus, London, 1896.

(٥) W. M. F. Petrie, A History of Egypt, III, London, 1927, P. 115.

(٦) W. M. F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, P. 38.

م، وبداية الاضطهاد في عام ١٥٨٠ ق. م، ثم الخروج من مصر في عام ١٢٢٠ ق. م، وبناء معبد سليمان في عام ٩٧٣ ق. م، وأن الاضطهاد قد استمر، طبقاً للتقاليد اليهودية والمسيحية، أربعة قرون[١].

ويرى الدكتور عبد الحميد زايد أن حفائر «بيير مونتييه» في تانيس إنما تثبت صحة الرأي القائل بخروج اليهود في عهد مرنبتاح، وأنه لا يوجد أي نشاط لملوك الأسرة الثامنة عشرة هناك، فقد كانت «بي رعمسيس» من إنشاء رعمسيس الثاني، وليست من عمل ملك آخر، وقد جاء في المزامير (١٢، ٤٣، ١٣٨) ما يفيد أن الحوادث التي سبقت خروج اليهود قد وقعت في تانيس، وتميل جمهرة العلماء إلى ترجيح خروج بني إسرائيل من مصر في الأيام الأولى لعهد مرنبتاح[٢]، وأما «فيليب حتي» فيرى أن الفرعون الذي «لم يكن يعرف يوسف» إنما هو رعمسيس الثاني، وأن الخروج قد حدث على أيام ولده مرنبتاح[٣]، وأما «رولي» فالرأي عنده أن الخروج كان في عهد مرنبتاح، وفي عام ١٢٢٥ ق. م[٤]، ولعل من الأفضل أن نناقش أدلة المعارضين والمؤيديين كل على حدة.

(١) أدلة المعارضين ومناقشتها: -

ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور أحمد فخري طيب الله ثراه، من أن تحقيق هذا الموضوع من تاريخ العبرانيين واحتساب الزمن، ثم ما جاء من نتائج التنقيبات الأثرية في فلسطين، جعل خروج بني إسرائيل في عهد

---

(١) تكوين ١٥/ ١٣، أعمال الرسل ٧/ ٦.

(٢) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد - القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٧٨.

(٣) فيلب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - بيروت ١٩٥٨، ١/ ١٩٣ (مترجم).

(٤) M. F. Unger, op - cit, P. 332 وكذا H. H. Rowley, From Joseph to Jashua, London, 1950, P. 550.

مرنبتاح أمراً غير مؤكد[١] ، ويجب أن يكون في عهد الأسرة الثامنة عشرة، إلا أنه حتى الآن لم توجد أدلة أثرية تؤيد هذا الرأي[٢]، ومنها (ثانياً) ما عرف بتقرير موظف الحدود، والذي يذكر صاحبه أنه سمح لقبائل البدو من أدوم بالعبور من قلعة مرنبتاح لرعي ماشيتهم بالقرب من فيثوم، ومن البدهي أن هذا لا يمكن أن يحدث لو كان الإسرائيليون لا يزالون بمصر، حتى كتابه التقرير في السنة الثامنة من عهد مرنبتاح[٣]، ومنها (ثالثاً) ما يراه البعض من أن هذه النظرية إنما تضعف بحقيقة أن جسد الفرعون قد وجد في طيبة الغربية، وبذلك فلا يمكن أن يكون قد غرق في البحر الأحمر، طبقاً للتقاليد الإسرائيلية[٤]، ومنها (رابعاً) أن مرنبتاح قد اعتبرهم من نزلاء فلسطين، ولم يذكر أنهم كانوا من رعايا أرض الكنانة، وهذا يعني أن بني إسرائيل قد نزلوا فلسطين قبل عهد مرنبتاح، وبالتالي فقد خرجوا من مصر قبل عهده[٥].

ويمكن الرد على ذلك في النقاط التالية، والتي منها (أولاً) أن لوح إسرائيل الذي يرى البعض أنه اعتبرهم من نزلاء فلسطين، وبالتالي فقد خرجوا قبل عهد مرنبتاح، قد جاء فيه بعد المقدمة «الأمراء منبطحون يصرخون طالبين الرحمة، وليس من بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه، الخراب للتحنو، بلاد خاتي هادئة، وكنعان قد استلبت في قسوة، وأخذت عقلان، وقبض على جازر، وصارت ينوعام كأن لم يكن لها وجود،

---

(١) أحمد فخري: مصر الفرعونية ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٣٥٩.

(٢) محمد عبد القادر: الساميون في العصور القديمة ص ١٩٧.

(٣) A. H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1966, P. 76 - 77. وكذا J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 258 - 259. وكذا J. H. Breasted, ARE, III, No. 636 - 638.

(٤) خروج ١٤/ ٢٦ ـ ٣١، ١٥/ ١ ـ ٢١، وكذا W. O. E. Oesterley, The Lgecy of Egypt, Oxford, 1947, P. 223.

(٥) عبد العزيز صالح: مصر والعراق ص ٢٣٦، R. O. Faulkner, CAH, II, Part, 2, 1975, P. 234.

وإسرائيل قد خربت وأزيلت بذرتها، وأصبحت خارو أرملة لمصر»[1]، فالنص إذن يتحدث عن جهود الفرعون في السنة الخامسة من الحكم عن جهود الفرعون الحربية ضد الأقواس التسعة، والتي يرى «جاردنر» أنها الشعوب المختلفة في وعلى حدود مصر[2]، وضد التحنو وخاتي (الحيثيين) وكنعان، ثم ضد عقلان وجازر وينوعام وإسرائيل وخارو، وليس في هذا من دليل على أن بني إسرائيل كانوا في فلسطين وقت ذاك، لأن النص إنما يتحدث عن حروب الفرعون في فلسطين، وحروبه ضد الحيثيين، أي خاتي، وهي دولة، وعن تحنو وإسرائيل، وهما أقوام، وعن عقلان وجازر وينوعام، وهي مدن، أي عن حروب مرنبتاح في مصر، وخارج مصر، على الحدود الشرقية والغربية، بل وقد تجاوز ذلك حتى بلاد الحيثيين (آسيا الصغرى).

هذا فضلاً عن أن إسم «إسرائيل» في النص إنما كان مصحوباً بالمخصص الذي كان يشار به إلى «قوم» وليس إلى «منطقة» مثل ليبيا وعقلان وجازر وينوعام، ومن هنا يمكن أن نستنتج أن إسرائيل كانت ما تزال قبيلة أو مجموعة قبائل، ولم تكن بعد مثل الليبيين والحيثيين تسكن منطقة مأهولة بالسكان منذ فترة طويلة[3]، ويفسر الدكتور عبد الحميد زايد[4]، ذلك بأن المخصص الذي كتب به الإسرائيليون، يختلف عن المخصصات التي كتبت بها بقية الجماعات التي هزمت أو الأقطار التي قضى عليها مرنبتاح، فجميع تلك البلاد قد وضع لها المخصص الخاص بالبلاد الأجنبية، أما إسم

(١) B. Porter and R. L. Moss, Topographical Bibligraphy of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, II, P. 159 وكذا A. Gardiner, op - cit, P. 273.

(٢) A. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, P. 303.

(٣) A. Lods, op - cit, P. 187 - 188.

(٤) عبد الحميد زايد: المرجع السابق ص ٧٤٦.

«إسرائيل» فقد مثل برجل وامرأة وثلاثة خطوط رأسية خاصة بالجمع، ولا سبيل في هذه القصيدة إلى التشكيك بما قد يقال من احتمال خطأ الكاتب المصري القديم وسهوه، كما ذهب إلى ذلك «جون ويلسون»[1]، ومن ثم فهذا المخصص على هذه الصورة إنما يشير إلى أقوام أجانب أو قبائل أجنبية، وليس إلى أرض أجنبية[2]، وفي الواقع أننا لو نظرنا إلى ترتيب المناطق، كما جاء على اللوح، فإننا نجد أنها قد كتبت من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، في داخل كل قطاع، ولا شك في أن الكتاب المصري إنما كان موفقاً واعياً، فلقد وردت أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية في ذلك النص تسع عشرة مرة، لم يغفل رسم الأرض الأجنبية في واحدة منها، مما سبق إسم إسرائيل أو لحق به، بل كان من دقته أنه في ذكر إسم الشرطة المصرية وقد كان رجالها يتخذون من بجاة النوبة، قد اقتصر مع رسم رمز الناس، على رمز يدل على الأجنبي، دون رسم الأرض، لأنهم في غير أرض لهم[3].

وانطلاقاً من هذا كله، يمكننا القول أن إسرائيل إنما ذكرت على أنهم أقوام عاشوا على الحدود المصرية، وأنهم كانوا لا وطن لهم طوال تاريخهم، ومن ثم فإن التوراة تسميهم «أبناء إسرائيل»، وأنهم ليسوا سكان هذه الأرض أو تلك، ومن ذلك نعرف أن عناصر النقش نفسه إنما تعارض القول بأن الإسرائيليين كانوا يسكنون فلسطين، بل على العكس، فإنها تميل إلى أن الأرض التي كانت، في نظرهم، تفيض بالمن والسلوى لم تكن قد احتلت بعد، إذ كانت كنعان ما تزال بعد، الأرض الموعودة، ولم تصبح بعد

---

(١) J. A. Wilson, ANET, P. 378, No. 18.

(٢) O. Eissfeldt, CAH, Part, 2, Cambridge, 1975, P. 544.

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١٤٥.

الأرض المملوكة، وإذا اعترفنا بذلك، فضلاً عن أهمية الرموز المختلفة المخصصة التي استعملت للأقوام المختلفين وإذا قبلنا ترجمة «إدوارد نافيل» ورأيه في كلمة «بذرة»، فمن البدهي إذن القول بأن النقش يشير هنا إلى خروج بني إسرائيل من مصر، وفي الوقت نفسه، فإنه يعني أن جنساً أجنبياً من البدو ويدعى «إسرائيل» قد خرج من مصر، ومن ثم يصبح لا وجود لهم بالنسبة إلى مصر، والواقع أن ما جاء في متن هذا اللوح، على ما يظن، إنما يعدو سجلاً معاصراً لخروج بني إسرائيل من مصر، كما يدل على أنه قد وقع في السنة الخامسة من عهد مرنبتاح، فيما يعتقد «نافيل»[1].

ومنها (ثانياً) أن تقرير موظف الحدود إنما يتحدث عن السماح لبدو أدوم بالعبور من قلعة مرنبتاح في العام الثامن من حكم مرنبتاح، ومن المعروف أن بدو أدم ليسوا من بني إسرائيل، وإن كانوا أبناء عمومة، فالإسرائيليون إنما هم أبناء يعقوب عليه السلام، والذي لقب «إسرائيل»[2]، وأما الأدوميون فهم أبناء شقيقه التوأم «عيسو» (العيص من المصادر العربية) والذي دعي «أدوم»، وبدهي أن الذين لجأوا إلى مصر من قحط كنعان إنما هم الإسرائيليون أبناء يعقوب، وليسوا الأدوميين أبناء عيسو، هذا وقد كان الأدوميون وقت خروج بني إسرائيل من مصر، وتجوالهم في التيه، فيما تروي التوراة[3]، يسكنون في شرق الأردن، مكونين مملكة قوية ذات حضارة مزدهرة[4]، كما كان لهم موقف معارض من الإسرائيليين، حتى أنهم منعوهم من أن يمروا في طرقهم[5]، كما أن كلمة «بدو» تعادل الكلمة

---

(١) سليم حسن: مصر القديمة ٧/ ١١٢، وكذا.E. Naville, JEA, 21, P. 3 - 6

(٢) أنظر عن لقب «إسرائيل» (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٢٩ ـ ٣٢، ١٩٩ ـ ٢٠٥).

(٣) عدد ٢٠/ ١٤ ـ ١٧.

(٤) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٥٤٧ ـ ٥٥٢، وكذا.J. Finegan, op - cit, P. 152

(٥) عدد ٢٠/ ٢٢ ـ ٢٩.

المصرية «شاسو»، وهم يمثلون القبائل الأسيوية المحيطة بمصر بصفة عامة، هذا فضلاً عن أن لنا رأياً خاصاً فيما يختص بتاريخ الخروج في عهد مرنبتاح، يتفق وما جاء في القرآن الكريم عن غرق الفرعون في البحر، وهو ليس في السنة الخامسة على أية حال، كما سنشير إليه في مكانه من هذه الدراسة.

ومنها (ثالثاً) أن تحقيق تاريخ الخروج واحتساب الزمن، ونتائج الحفريات الأثرية في فلسطين، إنما تؤيد هذا الرأي ولا تعارضه، ذلك أننا لو افترضنا أن الخروج كان في السنة الخامسة من عهد مرنبتاح، كما يقول الكثير من العلماء، أي في عام ١٢٢٠ ق. م، ثم عدنا إلى الوراء مدة ٤٣٠ سنة، وهي المدة التي حددتها التوراة[1] لإقامة بني إسرائيل في مصر، لوصلنا إلى عام ١٦٥٠ ق. م، وهو تاريخ دخول بني إسرائيل مصر، وهو تاريخ يتفق تماماً مع عصر الهكسوس، إلا إذا قبلنا وجهة نظر النص السبتاجوني، والذي بكلمة واحدة تختزل هذه المرحلة إلى النصف، وأما التنقيبات الأثرية، فقد ناقشناها من قبل، وتبيّن لنا أنه لا يوجد حتى الآن دليل أثري واحد نستطيع أن نحدد به وقت دخول بني إسرائيل أرض كنعان، بل إن حفائر «فيشر» في بيسان (بيت شان القديمة) قد كشفت عن قلعة مصرية عثر بها على لوحات من عهد سيتي الأول ورعمسيس الثاني، بل وكذا تمثال لرعمسيس الثالث من الإسرة العشرين، ويقول «فيشر» إن هذه الآثار إنما تقدم برهاناً كافياً على أن بيسان ظلت في أيدي المصريين فعلاً، من عام ١٣١٣ إلى عام ١١٦٧ ق. م، وقد أثبتت الحفائر المتوالية أن أيدي الرعامسة ظلت قوية باستمرار على الأرض الموعودة[2].

---

(١) خروج ١٢/ ٤٠ - ٤١.

(٢) A. Gardiner, JEA, 10, 1924, P. 88.

ومنها (رابعاً) أن اكتشاف جثة مرنبتاح في طيبة الغربية، وتناقض ذلك مع التقاليد العبرية التي ترى أن الفرعون غرق في البحر الأحمر، إنما تلك وجهة نظر التوراة، كما جاءت في سفر الخروج[1]، ولكننا نحن المسلمين لدينا ما يناقض ذلك تماماً، فلقد أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أن الفرعون قد أنجى ببدنه بعد غرقه، ليكون آية لمن خلفه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل بالتفصيل، وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾[2]، ومن ثم فإن وجود جثة مرنبتاح بين جثث الفراعين لا تحل المشكلة، كما أنها لا تعقدها كذلك، هذا فضلاً عن أن كل الفراعين الذين دارت حولهم روايات تاريخ الخروج، وأيهم فرعون موسى، من أمثال أحمس الأول وتحوتمس الثالث وأمنحتب الثاني وتوت عنخ آمون ورعمسيس الثاني ومرنبتاح وسيتي الثاني، قد اكتشفت جثثهم[3]، وفي هذا إعجاز للقرآن ما بعده إعجاز.

ومنها (خامساً) أن نص التوراة (ملوك أول ٦/ ١) والذي يتحدث عن إقامة سليمان عليه السلام، لهيكله بعد خروج بني إسرائيل من مصر بمدة ٤٨٠ سنة، والذي اعتبره بعض العلماء المادة الأساسية في المشكلة[4]، فقد ناقشناه من قبل، وتبيّن لنا مدى الصعوبات التي تقف عائقاً في وجه قبولنا إياه، فضلاً عن أن هذا الرأي الذي يرجح الخروج في عهد مرنبتاح، إنما يعتمد كذلك على نص توراتي آخر (خروج ١/ ١١) والذي يتحدث عن

---

(١) خروج ١٤/ ٢٦ - ٣١، ١٥/ ١ - ٢١.

(٢) سورة يونس: آية ٩٢، وانظر: تفسير الطبري ١٥/ ١٩٤ - ١٩٨، تفسير القرطبي ص ٣٢١٨ - ٣٢٢٠، تفسير ابن كثير ٤/ ٣٢٦ - ٣٢٩، تفسير المنار ١١/ ٣٨٧ - ٣٩٠.

(٣) أنظر: سليم حسن: مصر القديمة ٤/ ٢١٧، ٥٠١، ٦٩٢-٦٩٣، ٦/ ٣٥٧-٣٥٩، ٨/ ٦٧٣ - ٦٩٨، أحمد فخري: مصر الفرعونية ص ٣٩٠ - ٣٩٢ ألن جاردنر: مصر الفراعنة ص ٣٥٠ - ٣٥١، وكذا C. D. Noblecourt, op - cit, P. 173, 215 F.

(٤) M. F. Unger, Archaeology and The old Testament, Michigan, 1954, P. 141.

تسخير بني إسرائيل في مدينتي فيثوم ورعمسيس، وهكذا استطاع العلماء أن يستخرجوا من التوراة تاريخين للخروج في وقتين مختلفين، يكاد الواحد منهما يبعد عن الآخر بأكثر من قرنين من الزمان.

(٢) أدلة المؤيدين ومناقشتها:

وهكذا يبدو لنا مما سبق بوضوح أن أدلة المعارضين لهذا الرأي الذي يرجح أن مرنبتاح هو فرعون الخروج (فرعون موسى) لم تكن بكافية لإسقاطه، أو حتى صرف النظر عنه، بل إننا نستطيع أن نعضده بحجج أخرى، غير ما ذكرنا، منها (أولاً) أن التوراة إنما تذكر أن مدينة «رعمسيس» (بر رعمسيس) كانت هي المدينة التي بدأت منها مسيرة الإسرائيليين نحو سيناء، حيث التيه أربعين سنة، ومن المعروف أن مدينة «بر رعمسيس» إنما كانت من إنشاء رعمسيس الثاني وحده، وليس من عمل ملك آخر، بل إننا لنعرف أنه ابتداء من عصر هذا الفرعون قد انتقل مركز الثقل من الصعيد إلى شرق الدلتا، حيث المدينة التي حملت اسمه، وغدت عاصمة البلاد على أيام الرعامسة[1]، ومنها (ثانياً) أنه من المعروف تاريخيا أن رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م) إنما قدّر له أن يجلس على عرش الكنانة ٦٧ عاماً وهي أطول فترة عرفها التاريخ المصري لحكم ملك من الملوك، إذا استثنينا ببي الثاني الذي حكم ٩٤ عاماً[2]، ومن ثم فهو قد حكم الفترة التي تتطلبها التقاليد الإسرائيلية، كما جاءت في التوراة، بشأن هروب موسى إلى مدين ثم بقائه هناك أربعين عاماً، حتى إذا ما علم بوفاة الفرعون عاد إلى مصر لإطلاق سراح بني إسرائيل[3]، وإن اختلفت وجهة النظر الإسلامية في

(١) أنظر: محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص ٤٦ - ٦٢، مصر - الجزء الثاني ص ١٣٣ - ١٣٦.

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران: مصر ١/ ٤٤٢ - ٤٤٣، ٢/ ١٣٠.

(٣) خروج ٢/ ٢٣، ٤/ ١٩، ٧/ ٧، أعمال الرسل ٧/ ٣٠، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٩٣١، شاهين مكاريوس: المرجع السابق ص ٤٠.

هذه المدة، فهي في القرآن الكريم، سنون ثمان، والأرجح أنها كانت عشراً[1]، كما أشرنا من قبل.

ومنها (ثالثاً) أن القائمة القديمة «للملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبلما مَلَكَ مَلِك لبني إسرائيل[2]، لا تذكر إلا ثمانية ملوك بين «بالع بن بعود»، والذي وحّد ببلعام بن بعور، طبقاً لتقاليد جاءت في التوراة[3] وبين هدار، فإذا سمحنا بفترة من ٢٥ إلى ٣٠ سنة، كحد وسط لكل عهد، فسوف نحصل على مجموع من السنوات ما بين مائتين وأربعين عاماً، وهذه الفترة تتناسب مع الفترة منذ خروج بني إسرائيل من مصر، طبقاً لهذه النظرية، وبين قيام ملكية شاؤل (طالوت في القرآن)، قبل القرن العاشر قبل الميلاد، بعقد أو عقدين من الزمان[4]، ومنها (رابعاً) أن هذه النظرية التي تذهب إلى أن مرنبتاح هو فرعون موسى، إنما يمكن أن تعطينا تفسيراً لما حدث في فلسطين في الفترة من ١٤٠٠ إلى ١٣٠٠ ق. م (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) فيما يتصل بوجود أسماء «شمعون» و «أشير»، فربما كانا إسمين لمجموعتين عبريتين لم تهاجر إلى مصر، وهذا يخالف التقاليد العبرية[5] فضلاً عما جاء في القرآن الكريم بشأن دعوة يوسف عليه السلام أهله أجمعين إلى مصر[6]، أو ربما كانا اسمين لأماكن أو مدن كنعانية، أطلقها الإسرائيليون عليها فيما بعد، وهذا ما نميل إليه ونرجحه، وربما كان نفس الشيء صحيحاً بالنسبة

---

(١) سورة القصص: آية ٢٧ - ٢٨.

(٢) تكوين ٣٦/ ٣١ - ٣٩.

(٣) عدد ٢٢/ ١٤ - ٤١.

(٤) أنظر عن قيام ملكية شاؤل (طالوت): محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٦٦٨ - ٦٧٤ (الإسكندرية ١٩٧٨).

(٥) تكوين ٤٦/ ٢٦ - ٢٧.

(٦) سورة يوسف: آية ٩٢ - ١٠٠.

إلى «يعقوب إل» و «يوسف إل»[1] .

ومنها (خامساً) أن الفترة الأولى من عهد مرنبتاح قد تميزت بالإضطرابات والحروب، مما اضطره إلى الخروج إلى غربي آسيا، لإخماد ثورة شبت هناك في السنة الثالثة من حكمه، أو لأن شعوب البحر كانت قد وصلت إلى حدوده الشرقية في تلك السنة، ومن ثم فقد زحف إلى فلسطين وسورية، ثم وجه إلى العصاة ضربة قاسية انتهت بإذلالهم[2]، ورغم أن البعض يرى أن مرنبتاح، الذي كان مهدداً في دولته بالليبيين، لا يمكن أن يقوم بفتوحات في فلسطين وسورية في السنتين الأولى والثانية من حكمه، فإن العلماء يكادون يجمعون على قيامه بهذا النشاط الحربي في فلسطين[3]، ولعل مما يؤكد ذلك نعت «قاهر جازر» الذي نلتقي به في نقش معبد عمداً، هذا فضلاً عن أنه من العسير أن نوافق على أن نص «لوح إسرائيل» مختلف تماماً، إذ يصعب عندئذ أن نجد تفسيراً مقبولاً في قائمة الأقاليم المذكورة، بل إن مجرد ذكر إسرائيل يخلع على النص شبهة من الحق لا يمكن إنكارها، لأنه لم يرد في أي نص مصري من قبل[4]، وأياً ما كان الأمر، ففي السنة الخامسة من عهد مرنبتاح تتعرض حدود مصر الغربية للخطر، ذلك أن شعوب البحر، فضلاً عن قبائل «ريبو»، أخذوا يتدفقون نحو غرب الدلتا، فخرج إليهم الفرعون بقواته، حيث دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس، انتهت بهزيمة ساحقة للغزاة[5]، وإن اختلف

---

(١) A. Lods, op - cit, P. 188.

(٢) محمد بيومي مهران: مصر ٢/ ١٨٣ - ١٨٤، دريوتون وفانديبه: مصر ص ٤٨٠، وكذا ANET, P.376 - 378 وكذا G. Legrain, ASAE, 2, 1901, P. 269 - 279. وكذا J. Breasted, op - cit, P. 165 - 166.

(٣) J. Wilson, The culture of Ancient Egypt, P. 255. وكذا E. Naville, JEA, 12, 1915, P. 196.

(٤) A. Gardiner, op - cit, P. 273.

(٥) AJSL, L 1, 1935, P. 75 - 76 وكذا J. Wilson, op - cit, P. 254 - 255, وكذا W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, II, Harvard, 1959, P. 353.

المؤرخون في مكانها، ولعل أرجحها ما ذهب إليه «بتري»[1] من أنها كانت في مكان بين الضهرية (١١ كيلاً من كوم حمادة) وبين النجيلية (١٥ كيلاً من كوم حمادة) بمحافظة البحيرة، وعلى أي حال، فأكبر الظن، أنه في هذه الأوقات العصيبة بدأ تفكير الإسرائيليين في الهروب من مصر، دون إذن من الفرعون الذي رفض السماح لهم بالخروج مراراً، بل إن «جان يويوت» يرى أن الهروب إنما تم أثناء الزحف الليبي نفسه[2]، ولعل هذا يفسر قول التوراة على لسان فرعون «فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض»[3]، على أن ما جاء في القرآن الكريم إنما يفيد أن الخروج لم يكن بتدبير من بني إسرائيل، وإنما كان بأمر من الله لموسى، وكان ليلاً، وذلك حين أحس موسى عليه السلام أن القوم لن يؤمنوا له، ولن يستجيبوا لدعوته، ولن يسالموه أو يعتزلوه **﴿فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾**، وأجابه ربه الكريم **﴿فاسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون﴾**، والسري لا يكون إلا ليلاً، فالنص عليه يعيد تصوير مشهد السري بعباد الله، وهم بنو إسرائيل، ثم للإيحاء بجو الخفية، لأن سراهم كان خفية عن عيون فرعون ومن وراء علمه[4]، فإذا كانت هناك علاقة بين سري بني إسرائيل ليلاً بين الحرب الليبية، فلا بد أن تكون في أعقابها بفترة ما، وليس أثناءها، لأن الفرعون سرعان ما لحق بالقوم قبل أن يعبروا البحر، فأتبعهم بجنوده، حيث غرقوا جميعاً، ونجا موسى ومن معه، هذا فضلاً عن هذه الحرب كانت في السنة الخامسة، ومن المعروف أن فرعون غرق في البحر أثناء مطاردته لبني إسرائيل، ومن ثم فإن الخروج يجب أن يكون في السنة

---

(١) W. M. F. Petrie, A History of Egypt, III, London, 1927, P. 109.

(٢) جان يويوت: مصر الفرعونية ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤٠ (مترجم).

(٣) خروج ١/ ١٠.

(٤) سورة الدخان: آية ٢٢ ـ ٢٣، وانظر: سورة طه: آية ٧٧، الشعراء: آية ٥٢، في ظلال القرآن ٥/ ٣٢١٣.

الأخيرة من حكمه، الثامنة أو العاشرة على خلاف في الرأي، وليس في السنة الخامسة.

ومنها (سادساً) أن الحفريات والأبحاث أثبتت أن ممالك أدوم ومؤاب وعمون[1]، لم تكن قد تكون حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مع أن سفر يشوع يذكر هذه الممالك بالإسم، بل ويذهب إلى أنها كانت نامية ومزدهرة إبان فتوحات يشوع وحملاته الحربية[2]، ومنها (سابعاً) استمرار السلطة المصرية في فلسطين على أيام أمنحتب الثالث (١٤٠٥ ـ ١٣٦٧ ق. م) بدليل اكتشاف جعول صيد الأسود، التي وجدت في «لخيش» (تل الدوير على مبعدة خمسة أميال جنوب غرب بيت جبرين) تخليداً لمهارة الفرعون في صيد ١٠٢ أسداً، خلال السنوات العشر الأولى من حكمه[3]، وفي الواقع فإن مصر على أيام أمنحتب الثالث إنما كانت مركز الدنيا وقلبها النابض، وكان ملوك مصر حكام العالم دون منازع، على الأقل في النصف الأول من حكم هذا الفرعون، ومن ثم فقد سعت الدنيا إلى بلاط هذا الإمبراطور العظيم تحمل جزيتها، وتثبت لنا الإحتجاجات المتذللة التي نقرؤها في رسائل العمارنة التي كان نرسلها أصحابها من حكام الشرق وأمرائه، يؤكدون فيها ولاءهم وخضوعهم، وتسلط مصر على العالم[4]، وقد استمرت السيادة المصرية على هذا المنوال حتى القرن الثالث عشر، إلا على أيام أزمة العمارنة، بدليل وجود جعارين من عهد رعمسيس الثاني، وكما تدلنا كذلك حروبه وحروب أبيه من قبل على السيادة المصرية في فلسطين وسورية[5]،

(١) أنظر عن هذه الممالك (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٥٤٧ ـ ٥٥٨).

(٢) جون إلدر: الأحجار تتكلم ـ علم الآثار يؤيد الكتاب المقدس ص ٥٤ (مترجم)، وكذا M.F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 334.

(٣) J. H. Breasted, ARE, II, P. 346 - 347. وكذا A. H. Gardiner, op - cit, P. 206

(٤) J. A. Wilson, op - cit, P. 204.

(٥) J. Finegan, op - cit, P. 162.

ومنها (ثامناً) وجود إناء مكسور عليه كتابة مصرية لأحد جباة الضرائب في «لخيش» وقد سجل فيها تسلمه لشحنة من القمح، في السنة الرابعة من عهد فرعون معين، تشير الدلائل جميعها على أنه «مرنبتاح»، ومن ثم فالسنة الرابعة هنا إنما تعني عام ١٢٢٠ قبل الميلاد[١]، مما يؤكد أن السيادة المصرية على فلسطين ظلت قائمة حتى السنة الرابعة من عهد مرنبتاح، وأن الإسرائيليين لم يكونوا قد استولوا على المدينة حتى هذا الوقت أي عام ١٢٢٠ ق. م.

ومنها (تاسعاً) أن سلسلة الأنساب الكهنوتية، وكذا تقارير التوراة في سفر القضاة إنما تتفق مع هذا التاريخ المتأخر[٢] (أي الخروج في عهد مرنبتاح)، ومنها (عاشراً) أن إسرائيل لم تظهر في حملات رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق. م) ثاني ملوك الأسرة العشرين، سواء قبل هزيمته لشعوب البحر في عام حكمه الثامن[٣] (١١٧٤ ق. م) أو بعده، وإنما ظل الفرعون محتفظاً بإمبراطوريته الواسعة في فلسطين وجنوب سورية، وقد عثر له على تمثال في بيسان، وآخر في مجدو، فضلاً عن بنائه معبداً لآمون في فلسطين وكان خط الحدود المصرية عند «زاهي» في مكان ما عند الشاطىء في فينيقيا الجنوبية، ومن هنا فإن حملة الفرعون الثانية على آمور، إنما كان الهدف منها هو الحفاظ على أملاك مصر في فلسطين بصفة خاصة، وفي سورية بصفة عامة، وبدهي أن هذا كله إنما يدل على عدم وجود إسرائيل، ككيان مستقر في فلسطين حتى أيام رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق. م).

---

(١) جون الدر: المرجع السابق ص ٧٠ وكذا W.F. Albright, BASO, 68, 1937, P. 23 F, 74, 1939, P. 20 - 22, 132, 1953, P. 46 وكذا J. Finegan, op - cit, P. 162.

(٢) W. M. F. Petrie, Egypt (٢)d Israel, 1925, P. 38.

(٣) H. Nelson, The Noval Battle Pictures at Medinet Habu, JNES, 4, 1943, P. 40 - 55.

ومنها (حادي عشر) أن حالة الاضطرابات التي كتب على الكنانة أن تعيشها في الفترة فيما بين وفاة مرنبتاح عام ١٢١٤ ق. م، وبداية عهد رعمسيس الثالث في عام ١١٨٢ ق. م، كانت أكثر الفترات ملاءمة لأن يعيش بنو إسرائيل في التيه، وهم في مأمن من أن تهاجمهم القوات المصرية فتقضي عليهم أو تعيدهم إلى مصر ثانية، ذلك أعقب موت مرنبتاح فترة من الاضطرابات حدثت فيها مؤامرات شتى حول العرش المصري، فتعاقب عليه عدد من الملوك لم يحكموا سوى فترات قصيرة، كما كانوا ملوكاً ضعافاً، مما أدى في نهاية الأمر إلى اضطراب الأمور وتعقيدها، وزادت الحال سوءاً بالتدريج، حتى آلت آخر الأمر إلى فوضى شاملة، وصفتها «بردية هاريس» بأن أرض مصر قد اضطربت، وأصبح كل رجل يضع شريعته الخاصة، ولم يكن هناك قائد مدى بضع سنين سابقة، حتى كانت مصر في أوقات أخرى تضم أمراء وحكام قرى، ثم جاء وقت بعد سنين فارغة... وسوري معهم أصبح أميراً، وجعل البلاد كلها تدفع الضرائب»[1]، ومن هذا النص استنتج المؤرخون أن «إرسو» السوري حكم البلاد في نهاية الأسرة التاسعة عشرة وربما كان «إرسو» هذا، هو «باي» رئيس الديوان الذي أرغم الملكة «تا أوسرت» على أن تُجلس «سبتاح» على العرش تحت وصايتها، وإن انفردت بالعرش بعد وفاته، ثم بقي الحال هكذا حتى نجح «ست نخت» في أن ينقذ البلاد من وهدتها، وأن يجلس على العرش المصري قرابة عامين (١١٨٤ - ١١٨٢ ق. م) ليخلفه ولده رعمسيس الثالث[2].

ومنها (ثاني عشر) أن اضطراب الأمور في سورية وفلسطين بسبب

(١) J. Wilson, ANET, 1966, P. 160.

(٢) محمد بيومي مهران: مصر ٢/ ١٤١ - ١٤٣، ألكسندر شارف: تاريخ مصر ص ١٥٩، وكذا V. J. Cerny, وكذا A. Gardiner, op - cit, P. 279 - 281. وكذا Beckerath, JEA, 49, 1963, P. 71 - 74. JEA, 29, P. 243 - 258.

شعوب البحر، التي أدت إلى القضاء على الدولة الحيثية[1]، وبالتالي هروب الحيثيين، مع شعوب أخرى، إلى سورية وفلسطين، الأمر الذي يبدو واضحاً في التقاليد اليهودية التي تحدثنا عن تجمعات حيثية كبيرة استقرت في أرض كنعان، واحتلت الإقليم الجبلي، وقد وجدها رُسل موسى عليه السلام، الذين ذهبوا يستطلعون الأرض الموعودة التي تفيض لبناً وعسلاً، وتخوفوا منهم قائلين «لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا»[2]، ومنها (ثالث عشر) أن فترة دخول بني إسرائيل كنعان، طبقاً لهذه النظرية، تتفق وغزوات شعوب البحر على سورية، واشتباك رعمسيس الثالث معهم في حرب ضروس، دارت رحاها على الأرض الأسيوية مرة، وعلى الأرض الأفريقية مرتين، بل إن انتهاء فترة التيه، وبداية دخول بني إسرائيل أرض كنعان، إنما تتفق وحملة رعمسيس الثالث على سورية في عام حكمه الثامن (حوالي عام ١١٧٤ ق. م)، للاشتباك مع شعوب البحر عند «زاهي» ثم انشغاله بعد ذلك في حروبه ضد شعوب البحر على حدوده الغربية[3]، فإذا كان ذلك كذلك، فقد مكنت هذه الظروف بني إسرائيل من دخول كنعان وأعطتهم الفرصة ليعبثوا في الأرض فساداً.

ومنها (رابع عشر) أن خلفاء رعمسيس الثالث ما كانوا بقادرين على الحفاظ على الإمبراطورية المصرية في آسيا، ربما لأنهم كانوا أضعف من ذلك، وربما لأن الظروف الداخلية والخارجية لم تساعدهم على ذلك،

---

(١) O. R. Gurney, The Hittites, 1969, P. 38 - 39.

(٢) عدد ١٣/ ١ - ٣٣.

(٣) محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص ٢٠٠ - ٢٤١، حركات التحرير في مصر القديمة ص ٢٥١ - ٢٦٨، مصر ٢/ ١٨٥ - ١٩٧، وكذا W. Holscher, Lilyan and Aegypten, Hamburg, 1937 وكذا W. Edgerton and J. Wilson, Historical Records of Ramsses, III, Chicago, 1936.

وربما لتغير ميزان الاقتصاد العالمي، بظهور معدن الحديد، قد اضطر مصر إلى التخلي عن سلطانها في آسيا الغربية، وربما كانت هذه الأسباب مجتمعة هي السبب، وأياً ما كان الأمر، فليس هناك من دليل واضح على أن مصر، بعد وفاة رعمسيس الثالث، قد احتفظت بإمبراطوريتها في فلسطين وسورية، وإن ظل لها نفوذ في كثير من المناطق، بدليل العثور على جعارين لرعمسيس الرابع في تل الصافي وتل زكريا وتل جازر، ولرعمسيس السادس في تل أسانة في سورية، وتمثال من البرونز لنفس الفرعون في مجدو، على أن مثل هذه الأشياء الصغيرة لا تدل على معان قوية لها من القيمة ما لها من ناحية سلطان مصر في غربي آسيا، ومن هنا كانت فرصة بني إسرائيل في الاستيلاء على جزء من فلسطين، كما تمكن البلست (الفلسطينيين) من احتلال بعض مدن كنعان الساحلية، وكذا الثيكر الذين احتلوا مدينة «دور» جنوبي الكرمل[1].

ومنها (خامس عشر) ما جاء في القرآن الكريم من أن فرعون قد طلب من هامان أن يوقد له على الطين فيبني له صرحاً، قال تعالى: ﴿ **وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإنه لأظنه من الكاذبين** ﴾[2]، وقد ناقشنا من قبل قصة الآجر المحروق، وكيف أن المفسرين، ومنهم الإمام الطبري والقرطبي والنسفي والبيضاوي والسيوطي وغيرهم، رووا عن علماء السلف، كابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير وابن جريج وعبد بن حميد وغيرهم، أنهم قالوا: إن فرعون موسى كان أول من اتخذ الآجر ليبني به

(١) J. Cerney, Egypt of the Death of Ramsses,III, to The End of The Twenty - First Dynasty, 1965, P. 11 - 13.

(٢) سورة القصص: آية ٣٨، وانظر: غافر: آية ٣٦.

الصرح[1]، مما يشير إلى أنهم كانوا يستندون إلى طائفة من الخبر الصحيح، هذا وقد أعثرتنا حفائر «بتري» في «نبيشة» و «دفنة» غير بعيد من مدينة «بي رعمسيس» عاصمة ملوك الأسرة التاسعة عشرة، على غير مألوف الفراعين بالبناء بالآجر المحروق، حيث بنيت به قبور، وأقيمت به بعض من أسس المنشآت التي ترجع إلى عصر الفراعين: رعمسيس الثاني ومرنبتاح وسيتي الثاني، وقد قال «بتري» إن حرق اللبن ظل نادراً في مصر إلى عصر الرومان، وهو قول لا يكاد يخالف المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى، وهو كذلك من قرائن القرآن الكريم التي نتخذها مطمئنين في تحديد عصر خروج بني إسرائيل من مصر على أيام الأسرة التاسعة عشرة التي بدأت، كما ألمح القرآن الكريم وأثبتت الحفائر، تصطنع في بنائها الآجر المحروق[2]، والذي نرجح من جانبنا أنه عصر مرنبتاح.

ومنها (سادس عشر) ذلك الحديث النبوي الشريف[3]، حيث يروي أنس بن مالك عن سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ أنه قال: «خير نساء العالمين أربع، مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رسول الله»، وإذا تذكرنا أن «است نفرت»

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ٢٣٧، تفسير القرطبي ص ٥٠٠٤ تفسير البيضاوي ٤/ ١٢٨، تفسير الدر المنثور للسيوطي ٥/ ١٢٩، تاريخ الطبري ١/ ٤٠٥.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١٣٨، وكذا W. M. F. Petrie, Nebesheh and Defenneh, P. 18 - 19, 47.

(٣) أنظر عن الحديث الشريف ورواياته المختلفة: تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢ - ٣٤، البداية والنهاية ١/ ٥٩ - ٦٢، تفسير الطبري ٦/ ٣٩٣ - ٣٩٨، صحيح البخاري ٤/ ١٩٣، ٣٣٩، صحيح مسلم ٢/ ٢٤٣، سنن الترمذي ٤/ ٣٦٥ - ٣٣٦، مسند الإمام أحمد ٣/ ١٣٦، تحفة الأحوذي ١٠/ ٣٨٩، المستدرك الحاكم ٣/ ١٨٤.

(أيسة نفرة) كانت الزوجة الثانية لرعمسيس الثاني بعد «نفر تاري»، بل إن الأثرية «مس مري»[1] إنما ترى أنها الزوجة الرئيسية، كما أن بعض الباحثين إنما يعتبرها «أم الأمراء» الذين لهم حق وراثة العرش[2]، وهناك في متحف بروكسل جزء من تمثال صغيرة لهذه الملكة، ما زالت عليه بعض نعوت لها تكاد تكون فريدة في بابها، فعلى الجهة اليمنى نقرأ «وعندما تدخل في المقر المزدوج، فإن قاعة الإستقبال في القصر تضوع بشذي عبيرها، وإنها لحلوة الرائحة، بجانب والدها الذي يبتهج لرؤيتها، الزوجة الملكية. . .»، وعلى الجهة اليسرى نقرأ «التي تملأ قاعة الجلسة بعبيرها، وهي المنقطعة النظير بعطورها، إذ تعادل بلاد بونت[3] (حيث كان القوم يحصلون على أخشاب البخور والمر وغيرها من الأشجار ذات الرائحة الزكية) بشذي أعضائها، الزوجة الملكية»، وفي الواقع أن هذه النعوت النسوية الدالة على طيب العبير، وما يضوع منها من شذي العطور، لم توصف بها ملكة من قبل[4].

ولعل هذا إنما يدل على شدة حب الفرعون لها، ودالتها عليه، وإذا ما وضعنا هذا في اعتبارنا، وتذكرنا قصة موسى عليه السلام، كما جاءت في التوراة والقرآن العظيم، وكيف ألقته أمه في اليم فالتقطه آل فرعون لينشأ في قصر فرعون نفسه، وذلك عندما **﴿ قالت امرأة فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾**[5]، إذا تذكرنا ذلك كله، وقارنا بين إسم امرأة فرعون، كما ورد في الحديث النبوي الشريف، وفي الآثار

(١) Miss Murry, Ancient Egypt, 1925, P. 100 - 104.

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران: مصر ٢/ ١٣٩ - ١٤٠.

(٣) أنظر عن: بلاد بونت والآراء التي دارت حولها (محمد بيومي مهران: العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة - الرياض ١٩٧٦ - ص ٣٠٧ - ٣١٠).

(٤) سليم حسن: مصر القديمة ٦/ ٦٣٤ - ٦٣٧، وكذا Chronique d'Egypt, 33, 1934, P. 74 - 79.

(٥) سورة القصص: آية ٩.

المصرية، لما وجدنا صعوبة كبيرة في تقريب «إيسة» (أو إيسي أو حتى إست) إلى آسية (أو آسيا)، مع مراعاة اختلاف قراءة أسماء الأعلام في اللغتين العربية والمصرية القديمة، وهكذا نستطيع القول إن الفرعون الذي التقطت امرأته موسى عليه السلام، هو رعمسيس الثاني، وهو فرعون التسخير، وأن الفرعون الذي جابهه موسى هو «مرنبتاح»، ولعل مرنبتاح نفسه هو الذي ذكر موسى بتربيتهم له، وتنشئتهم إياه على فراشهم، ثم قتله واحداً من رعاياهم وهروبه إلى مدين، ثم إذا به يعود آخر الأمر فيدعوهم إلى إطلاق سراح بني إسرائيل، وإلى هذا يشير القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ **قال ألم نربك فينا وليداً، ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين، قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين، وتلك نعمة تمنّها علي أن عبدت بني إسرائيل** ﴾[1].

وهكذا يبدو لي، بعد كل الحجج التي قدمناها، أن الرأي الذي يجعل خروج بني إسرائيل في عهد مرنبتاح، وبالتالي فهو فرعون موسى، إنما هو أقرب الآراء إلى الصواب، وهو الرأي الذي نميل إليه ونرجحه، على أن يكون الخروج في العام الأخير من حكم مرنبتاح، وليس في العام الخامس كما هو المفترض، سواء أكان هذا العام الأخير، هو العام العاشر (عام ١٢١٤ ق. م) كما ترى جمهرة المؤرخين، أم كان ذلك العام هو العام الثامن (عام ١٢١٦ ق. م) فيما يرى البعض، وأما سبب تحديدنا للعام الأخير من حكم مرنبتاح للخروج، فهو أن التوراة[2] والقرآن العظيم[3] يرويان أن الفرعون

(١) سورة الشعراء: آية ١٨ ـ ٢٢.

(٢) خروج ١٤/ ٢٦ ـ ٣١، ١٥/ ١ ـ ٥، الرسالة إلى العبرانيين ٥/ ٢٩.

(٣) أنظر: سورة البقرة: آية ٥٠، الأعراف: آية ١٣٦، يونس: آية ٩٠ ـ ٩٢، طه: آية ٧٨، الشعراء: آية ٦٣ ـ ٦٦ وغيرها.

قد غرق في البحر عند محاولته اللحاق بموسى وبني إسرائيل، وإن أضاف القرآن الكريم أن جثة الفرعون قد انتشلت لتكون آية لمن خلفه، قال تعالى: **﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾**[1]، ولم تكن الآية لمن خلفه جيلاً أو جيلين، بل بقيت آية للعشرات الكثيرة من الأجيال، والمئات الكثيرة من السنين، وهي إنما صارت كذلك بما مكّن رب العرش لأهل هذا المصر من سلطان العلم وأسرار التحنيط[2].

وهكذا نستطيع، عن طريق تحديدنا للخروج بالعام الأخير من حكم مرنبتاح، أن نوفق إلى حد كبير، بين أحداث التاريخ القديم، وبين ما جاء عن هذه الأحداث في التوراة والقرآن العظيم، فضلاً عن إيجاد تفسير مقبول لتسجيل انتصار مرنبتاح على لوحة ليست له، وإنما لسلفه البعيد «أمنحتب الثالث»، وذلك بسبب موته المفاجىء، وأما أن اللوحة قد حددت حادث الخروج بالعام الخامس من حكم مرنبتاح، فذلك يتناقض تماماً مع ما جاء في التوراة والقرآن العظيم عنه، إذ أن ذلك يعني أن الفرعون قد بقي على قيد الحياة بعد خروج بني إسرائيل من مصر[3]، هذا فضلاً عن أن حملته على سورية، والتي ذكرت في اللوح، إنما كانت في العام الثالث، وأما تحديد العام الخامس بالذات تاريخاً للنص، فربما كان يهدف من كتبه (بعد غرق الفرعون) تخليد ذكرى انتصاره على الليبيين وخلفائهم من القهق

---

(1) سورة يونس: آية ٩٢.

(2) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١٢٣.

(3) ذهب الدكتور سليم حسن إلى أن الفرعون لم يمت، إذ أنه لا يتصور أن يغرق وعربته ومن معه في ضحضاح لا يزيد عمقه عن قدمين أو ثلاث، ويرى أن خيل الفرعون وعرباته قد ساخت في الأوحال فسقط مغشياً عليه، وأن ما جاء في القرآن عن الحادث لا يشعر بأن الفرعون قد غرق ومات (مصر القديمة ٧/ ١٣٥)، وهذا الإتجاه، فوق مخالفته لكل آراء المفسرين، فهو تعسف في تفسير النصوص المقدسة، وخطأ في الإستنتاج.

والمشوش، إلى جانب خمسة من شعوب البحر، وإنقاذ أرض الكنانة من أن تقع في أيديهم.

(٦) آراء آخرى : -

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الآراء الخمسة، الآنفة الذكر، ليست هي كل ما ذهبت إليه أفكار الباحثين بالنسبة إلى تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، وبالتالي فرعون موسى، وإنما هناك آراء أخرى لعل أهمها ثلاثة:

أولهما: ما ذهب إليه الزميل الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف من أن فرعون الخروج إنما هو «سيتي الثاني» (سيتي مرنبتاح)، وليس مرنبتاح نفسه، اعتماداً على تقرير موظف الحدود، الآنف الذكر، والذي رأى فيه دليلاً على سواد الهدوء والنظام على التخوم الشرقية، وعلى ما كان لسلطات الأمن في عهد مرنبتاح من سيطرة على حركات الناس والبدو في تلك البقاع، وعلى أن مومياء مرنبتاح تدل على أنه كان قد طعن في السن وتقدمت به الأيام، مما يقعد به عن الخروج في حملات الحرب والقتال، ومن ثم فإن فرعون الخروج، على ما يرجح، إنما كان شاباً أو رجلاً مكتمل الصحة موفور النشاط، وهو ما يتبين من جثة سيتي الثاني بمتحف القاهرة، حيث الموت المفاجىء بغرق أدنى إلى العقل والاقتناع[1].

وأما الرأي الثاني، فيذهب أصحابه إلى أن الخروج تم بعد نهاية الأسرة التاسعة عشرة[2]، وأما ثالث الأراء، فيذهب إلى أن الخروج إنما كان بعد عهد رعمسيس الثالث[3]، بل إن صاحب هذا يرى أن هناك

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١٣٩ - ١٤٧، وكذا Elliot Smith, Royal Mummies, Cairo, 1912, P. 69.

(٢) W. O. E. Oesterley, Egypt and Israel, in the Legacy of Egypt, Oxford, 1947, P. 223.

(٣) H. R. Hall, The Ancient History of the Near East, London, 1963, P. 408.

خروجين، الواحد: عند نهاية حكم تحوتمس الثالث، والآخر بعد أيام رعمسيس الثالث، وإن كان من البدهي أن ذلك أمراً غير مقبول، على أننا في نفس الوقت، لا نستطيع القول أن هناك ما يمنع طوائف من بني إسرائيل من الخروج من مصر عن طريق الهجرة أو التسلل في أوقات الضعف والاضطرابات التي رأت مصر بعضاً منها في تلك القرون الأربعة التي عاشها بنو إسرائيل في مصر، فيما بين عهدي يوسف وموسى عليهما السلام، خاصة وأن بني إسرائيل إنما كانوا يكوّنون في مصر مجموعة من الرحل يقومون برعي أغنامهم في وادي طميلات بشرق الدلتا أو يستقرون على أطراف الإقليم الزراعي هناك في أغلب الأحايين.

(٧) صمت الآثار المصرية عن قصة بني إسرائيل: -

من الغريب أن الآثار المصرية تصمت تماماً عن موضوع بني إسرائيل في مصر، اللهم إلا تلك الجملة القصيرة التي جاءت في لوح إسرائيل من عهد مرنبتاح «وخربت إسرائيل وزالت بذرتها»، ومن ثم فقد نظر بعض العلماء إلى القصة كلها بعين الحذر، ويذهب «جاردنر» إلى أن قصة خروج بني إسرائيل من مصر يجب أن تبقى تفاصيلها - حتى تظهر في الأفق براهين جديدة تختلف في شكلها عن التي في متناول أيدينا الآن - وكأنها أسطورة، مثلها في ذلك مثل قصة الخلق المذكورة في سفر التكوين من التوراة[١]، وعلينا أن نسعى في تفسير هذه القصص على فرض أنها أساطير، وإن رأى بعد ذلك أنه بعيد عن القول أن كل قصة الخروج خرافية، إذا أنها تعكس في مجموعها حادثة تاريخية معينة هي طرد الهكسوس من مصر[٢].

---

(١) أنظر: تكوين ١/ ١ - ٣١، ٢/ ١ - ٢٥، محمد بيومي مهران: إسرائيل - الجزء الثالث - الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٣٣٦ - ٣٤٠.

(٢) A. H. Gardiner, The Geography of Exodus, in JEA, 10, 1924, P. 88.

ويعلل «سمث» سكوت المصادر المصرية عن قصة الخروج بأن ذلك لا يدعو إلى الدهشة، لأن الآثار الفرعونية لم تحفل بحادث خروج بني إسرائيل ولم تسجل خطواته، ذلك لأن فرار مجموعة من العبيد من سادتهم لا يمثل حدثاً يثير الإهتمام الفكري لدى المصريين، خاصة وأن بني إسرائيل قد عاصروا بمصر عهوداً حافلة بجلائل الأعمال استنفذت، فيما يبدو، نشاط المثالين ومدوني التاريخ[1].

والرأي عندي أن العلامة «جاردنر» قد أخطأ كثيراً في تصوره عن قصة خروج بني إسرائيل من مصر، ذلك، لأن القصة وإن لم تذكر في المصادر المصرية القديمة لأسباب سنذكرها حالاً، فقد ذكرت بالتفصيل في التوراة والإنجيل والقرآن العظيم، كما رأينا من قبل، وبدهي أنه ليس من العلم، فضلاً عن الإيمان بكتب السماء، وأن نشك في أمر أجمعت عليه هذه الكتب، كما أنه ليس ببعيد أن تكشف أعمال التنقيب، فيما تكشف، عن بعض الآثار التي تروي هذه القصة أو حتى تعين على مزيد من الإيضاح.

وأما تعليل «سمث» للحدث الخطير فبعيد عن الصواب كذلك، لأن الآثار الفرعونية لم تحفل بحادث خروج بني إسرائيل، من مصر لأسباب أخرى، غير ما ذكر «سمث»، منها (أولاً) أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء والرسل في النصوص الإنسانية ضعيف، ذلك لأن حقيقة الصراع بين دعوات الأنبياء، وسلطات الملوك المؤلهين أو شبه المؤلهين يدعو إلى عدم سماح الملوك بتسجيل مبادىء هذه الدعوات والصراع بينها وبينهم، وتلك ظاهرة يلمسها المؤرخ بوضوح في تاريخ الشرق الأدنى القديم، كما في قصة إبراهيم عليه السلام مع ملك العراق، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون مصر، على سبيل المثال، ومنها (ثانياً) أن المصادر المصرية

---

(1) J. W. D. Smith, God and Man in Early Israel, P. 38.

القديمة، والتي تمتاز عن غيرها من مصادر الشرق الأدنى القديم، بوضوحها وكثرة آثارها، كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر بمعلومات عن قصة بني إسرائيل في مصر، منذ عهد يوسف وحتى عهد موسى، عليهما السلام، غير أن هذه المصادر، كما هو معروف، إنما كتبت بأمر من الملوك، أو بوحي منهم، أو على الأقل برضى منهم، فإذا ما تذكرنا أن الملك كان في العقيدة المصرية القديمة، كما أثبتت النصوص وألمع القرآن الكريم[1]، يزعم أنه إله أكثر منه بشراً، ومن ثم فقد كان من الطبيعي ألا يستسيغ المصريون أن يهزم الملك في حرب خاض غمارها، ولهذا فإن النصر كان أن يكون حليفه، وقد تكون الحقيقة غير ذلك[2].

ومن المعروف أن قصة خروج بني إسرائيل من مصر، بقيادة موسى عليه السلام، كما جاءت في التوراة والإنجيل والقرآن العظيم، إنما انتهت بغرق الفرعون وجنوده في البحر، ونجاة موسى ومن آمن معه بالله الواحد القهار، ومن ثم فليس من المقبول، طبقاً للعقيدة المصرية القديمة، أن تسجل نصوص الفراعين، غرق الإله الفرعون، ونجاة عبيده العبرانيين، ومن هنا كان من الصعب العثور على آثار تتحدث عن موسى وقومه، رغم ضخامة التركة الأثرية التي خلفتها لنا مصر الفرعونية، وإن كان هذا لا يقطع الأمل في العثور على تلك الآثار، التي ربما سجلت بطريقة أو بأخرى عن طريق المعارضين لفرعون، المؤمنين برب موسى وهارون، والله وحده يعلم الغيب من الأمر.

---

(١) أنظر: سورة الشعراء: آية ٢٩، سورة القصص: آية ٣٨، سورة النازعات: آية ٢٢ - ٢٤.

(٢) محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية ص ٣.

البَابُ الثالِثُ

مُوسَى وَبَني إسرائيل
مُنذ انفلاقِ البحرِ وحتى مَوْتِ مُوسَى عَليْهِ السَّلام

الفصل الأول

بنو إسرائيل في سيناء

(١) محاولة الردة الأولى وعبادة الأصنام: ـ

إنتهت قصة بني إسرائيل مع مصر، وفرعون مصر، بعد انغلاق البحر وغرق فرعون وجنده، ونجاة موسى وقومه، فضلاً عن الذين آمنوا معه من غيرهم، بالله الواحد القهار، وهنا تبدأ حلقة جديدة من حياة موسى مع بني إسرائيل، بما فيها من كفر وغدر، ولو كان موسى مجرد زعيم مخلص عرض حياته للخطر أكثر من مرة لإنقاذهم، لكان له عليهم حق السمع والطاعة والإخلاص، وإن كان موسى مجرد زعيم مخلص عرض حياته للخطر أكثر من مرة لإنقاذهم، لكان له عليهم حق السمع والطاعة والإخلاص، وامتثال أمره، واتباع هداه، ولكنه فوق ذلك رسول ونبي من الله تعالى، مؤيد بالمعجزات الباهرة، ومع ذلك فإن كليم الله عليه السلام لم يجد منهم إلا العناء والتمرد، فضلاً عن الكفر والفسوق والعصيان.

وفي الواقع، فإن التراث الديني اليهودي ليزخر بأدلة لا تقبل الشك على أن اليهود الذين رافقوا موسى عليه السلام، إلى سيناء لم يكونوا أكفاء لحمل عبء التوحيد وفلسفته التجريدية الروحية الرفيعة، ولم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية، بل إنه لا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصاً

على عقيدة دينية ، فإنهم أسفوا على ما تعودوه من المراسيم الدينية في مصر ، وودوا لو أنهم يعودون إليها ويعيدونها منسوخة ممسوخة في الصحراوت[1] .

كانت سيناء منذ أقدم العصور من أوفر مصادر مصر بالفيروز والنحاس ، كانت مستودعاً غنياً بالنحاس ومن كريم الحجر وبالفيروزج بنوع خاص ، ومن ثم فقد كانت ميداناً لنشاط اقتصادي خصيب ، حرص ملوك مصر منذ طلائع الأسرة الأولى على رعايته وحمايته ، وهكذا كان من الواجبات الملقاة على عاتق الملوك منذ قيام الملكية المصرية ، حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، أن يكفلوا حماية القوافل وبعثات المناجم والمحاجر التي تجوس خلال الصحراوات في سيناء ، كما تشير إلى ذلك الأدلة التاريخية من عهد الملك «جر» و «دن» (وديمو) من الأسرة الأولى[2] ، مما يدل على أن مصر إنما كانت جد حريصة على حماية سيناء منذ عصورها المبكرة ، الأمر لم تتخل عنه مصر أبداً .

وعلى أي حال ، فلقد كانت مناجم الفيروزج تكثر في وادي مغارة وسرابة الخادم ، حيث أقيم معبد للإلهة «حاتحور» ربه الفيروزج منذ أيام الدولة الوسطى التي عملت على استغلال تلك المنطقة باهتمام كبير ، وما زالت تلك البقاع من سيناء تحفظ على صخورها الآفاً من نقوش المصريين ، ممن كانوا في تلك البقاع عاملين ، وفي الوقت نفسه للإلهة «حاتور» متعبدين[3] ، وقد حدث في سيناء منذ أقدم العصور التاريخ الفرعوني اتصال بين الإلهة المصرية «حاتور» (والتي كانت الصفة القمرية من بين صفاتها العديدة في مصر) وبين الإلهة السامية القمرية التي كانت تعبد في الكهف

(١) عباس العقاد : مطلع النور - أو طوالع البعثة المحمدية - القاهرة ١٩٦٨ ص ١٠٧ .

(٢) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, P. 414 - 415 وكذا ZAS, XXXV, P. 7F.

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ١٢٥ ، ١٧٥ .

المقدس في معبد سرابيط الخادم في سيناء قبل مجيء المصريين، والتي حلت حلت «خاتور» المصرية محلها[1].

هذا وقد عبد المصريون الإلهة «حاتور» (حوت حور = مكان أو بيت حور)، وقد حازت شهرة واسعة منذ عصور ما قبل الأسرات وفي عصر الأسرتين الأولى والثانية، كإلهة للسماء، كما كانت وقت ذاك تمثل الصورة النسائية لـ «حور» وقد صورت في الفن الديني المصري بأشكال تكاد لا تحصر، ولكنها غالباً كانت تصور كبقرة، أو بشكل امرأة يزين رأسها قرص الشمس بين قرني البقرة، وفي كثير من الأحيان كانت تمثل كامرأة لها رأس بقرة تحمل قرص الشمس والقرنين، وقد اختلطت الفكرتان الخاصتان برأس المرأة ورأس البقرة تدريجياً، حتى انتهى الأمر إلى أن تمثل برأس امرأة وأذني بقرة، وهو مظهر كانت تصور به حاتور باستمرار، فنراه مثلاً كحلية ليد المرأة البدوية أو كعنصر معماري لتاج عمود، وبهذا الشكل الأخير نرى الإلهة ممثلة في صالة معبد دندرة (٥ كيلاً شمالي قناعير عبر النهر)، كما كانت حاتور في عقيدة القوم مرضعة «حور بن إيزة) ثم ربه الحب والحنان والموسيقى، ثم صارت ربه للجبانة ترعى الموت وترأمهم، وكانت صاحبة ألقاب ونعوت كثيرة، منها «الذهبية» و «ربة الذهب» و «صاحبة القلادة البراقة كالسماء بنجومها»، كما كانت لها تماثيل مموهة بالذهب حفظت بمتحف القاهرة[2].

هذا وقد انفرد القرآن الكريم، من دون التوراة، بأن بني إسرائيل لم

---

(١) A. Gardiner, A. T. Peet and J. Cerny, The Inscriptions of Sina, II, London, 1955, P. 41.

(٢) محمد بيومي مهران ـ الحضارة المصرية ص ٣٣٧ ـ ٣٤١، جيمس بيكي: الآثار المصرية في وادي النيل ٢/ ١٩٠، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١٣٧، وكذا H. Frankfort, Kingship and the Gods, P. 10 - 12.

يكادوا يمضون مع موسى عليه السلام، بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من آل فرعون، حتى رأوا قوماً يعبدون أصناماً لهم، فتسوا كل ما كانوا يذكرونه من آيات الله لموسى ونجاتهم معه وقالوا ما حكاه القرآن في قوله تعالى: **﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾**[1]، و «الفاء» في قوله تعالى: **﴿فأتوا﴾** تفيد، كما هو معروف، الترتيب والتعقيب، ومعنى ذلك أنه لم يمضي وقت بعد خروجهم من البحر ونجاتهم من الهلاك، حتى عادوا إلى الوثنية التي ألفوها، وألفوا الذل معها، وهذا يدل على أن الإيمان لم يخالط بشاشة قلوبهم، ولم يتمكن من ضمائرهم ومشاعرهم، ولم يثمر فيهم الثمرة الطيبة لكل شجرة طيبة، وإنما كان إيمانهم بموسى إيماناً بإمامته وزعامته، لا إيماناً بالله الذي خلقه وسواه[2].

وليس هناك من ريب في أن بني إسرائيل باتخاذهم العجل من بعد موسى، كما سنرى، وبمطالبتهم موسى أن يتخذ لهم إلهاً، كما لهؤلاء القوم المتعبدين لحاتور آلهة، إنما كانوا في الحالتين، لما اعتادوا في مصر من الآلهة الوثنية مرتدين، وأنهم ربما اتخذوا العجل من حليهم من الذهب فتنة بـ «حاتور الذهبية»، وما كان لها من منزلة في النفوس وقت ذاك، هذا فضلاً تأثروا به من حب المصريين للذهب وصنع تماثيلهم الثمين منه، وما ندري لعل لله تعالى حكمة فيما كان من أمره بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وأنها «بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين»، ولقد كان البقر في مصر من أنواع

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٣٨ - ١٣٩، وانظر: تفسير الطبري ١٣/ ٨٠ - ٨٤، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٤/ ٢١٥ - ٢١٦، تفسير القرطبي ص ٢٧٠٩ - ٢٧١٠، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٤ - ٤٦٥، تفسير المنار ٩/ ٩١ - ٩٩، تفسير النسفي ٢/ ٧٣ - ٧٤.

(٢) عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص ١٩٣ - ١٩٤.

وألوان حيث كان فيه الأسود، ونوع آخر لا نراه اليوم يجمع بين البياض والسواد، ويشبه ما هو معروف في أوربا اليوم، ولعل فيما أبدى بنو إسرائيل من تلكؤ ومراوغة في ذبح البقرة، وما كان من تنطعهم في التساؤل عنها وعن لونها من أثر ما كان قد وقر في نفوسهم من تقديس «حاتور»[1]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **وإذا قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا أتتخذنا هزواً، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون، قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾[2].

وهكذا يبدو واضحاً مدى تأثير الديانة المصرية القديمة في بني إسرائيل، تلك الديانة التي تمكنت من نفوسهم إبان إقامتهم الطويلة في مصر، والتي جاوزت قروناً أربعة، لدرجة أنهم ما كانوا بمستطيعين الإيمان بدعوة موسى، إما خوفاً من فرعون، وإما خوفاً من شيوخ بني إسرائيل، كما أشرنا من قبل، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم** ﴾[3]،

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) سورة البقرة: آية ٦٧ ـ ٧١، وانظر عن القصة: تفسير الطبري ٢/ ١٨٢ ـ ٢٢٢، تفسير المنار ١/ ٢٨٦ ـ ٢٩٠، تفسير ابن كثير ١/ ١٥٤ ـ ١٦٠، البداية والنهاية ١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٥، تفسير النسفي ١/ ٥٣ ـ ٥٥، تفسير القرطبي ص ٣٧٨ ـ ٣٨٧.

(٣) سورة يونس: آية ٨٣، وانظر، تفسير المنار ١١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤، معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧، تفسير الطبري ١٥/ ١٦٣ ـ ١٦٧، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣، تفسير القرطبي ص ٣٢٠٨ ـ ٣٢٠٩.

باعتبار أن الضمير في «ملئهم» راجع إلى قوم موسى، بل إن القوم برموا بموسى وضجروا به، و ﴿ **قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾[1].

هذا ويذهب المفسرون والمؤرخون المسلمون إلى أن الأصنام التي وجدها بنو إسرائيل بعد انغلاق البحر، إنما هي تماثيل بقر، وذلك، فيما يرى البيضاوي، أول عبادة العجل، ويقول الطبري في تفسيره أن القوم كانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلما كان عجل السامري شبه إليهم أنه من تلك البقر، ومن ثم فقد أثار ذلك شبهة لهم في عبادة العجل بعد ذلك، وأما صاحب البحر المحيط، فقد أورد روايتين، الواحدة تذهب إلى أن البقر كان بقراً حقيقياً، وتذهب الثانية إلى أنه كان تماثيل بقر من حجارة وعيدان ونحوه، وكان ذلك أول فتنة العجل، على أن الإمام السيوطي إنما يذهب إلى أنها تماثيل بقر من نحاس، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر، فذلك أول شأن العجل لتكون لله عليهم حجة فينتقم منهم بعد ذلك، ويقول ابن عطية: الظاهر أنهم استحسنوا ما رأوا، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى، وفي جملة ما يتقرب به إلى الله تعالى، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى: «إجعل لنا إلهاً نفرده بالعبادة»[2]، فإذا كان ذلك كذلك، فإن القوم ما عرفوا بعد دعوة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام، ومن ثم فما آمنوا بعد برب موسى، أو على الأقل أكثرهم، حتى بعد انغلاق البحر، وما سبقه من معجزات، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾[3]، وتقول التوراة «فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد

(١) سورة الأعراف: آية ١٢٩.

(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٥، تفسير الطبري ٣/ ٨٠ ـ ٨٤، تفسير المحيط ٤/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨، تفسير الدر المنثور للسيوطي ٣/ ١١٤، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧، صفوة التفاسير للصابوني ١/ ٤٦٨، تفسير النسفي ٢/ ٧٤.

(٣) سورة الشعراء: آية ٦٥ ـ ٦٧.

المصريين، ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطىء البحر، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين، فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى»[1].

هذا فضلاً عن أن ذلك يتعارض مع قول الله تعالى، على لسان موسى: ﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً﴾، وما ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا نبي الله: إجعل لنا هذه ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر هذه كما قالت بنو إسرائيل لموسى: إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن من قبلكم»، وما رواه الإمام النسفي في تفسيره من أن يهودياً قال للإمام على بن أبي طالب، كرم الله وجهه في الجنة: اختلفتم بعد نبيّكم قبل أن تجف دماؤه، فقال الإمام: قلتم اجعل لنا إلهاً ولم تجف أقدامكم»، وعلى أي حال، فإن موسى عليه السلام وصف قومه في قول الله تعالى: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾، أي إنكم قوم تجهلون عظمة الله تعالى، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والنظير، قال الإمام الزمخشري: تعجب من قولهم، على إثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى (إنغلاق البحر) فوصفهم بالجهل المطلق وأكده، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع، وكما يقول أبو حيان: أتى بلفظ «تجهلون» ولم يقل «جهلتم» إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة، لا ينفصلون عنه في ماض ولا مستقبل[2].

وهكذا لم يطل العهد ببني إسرائيل، كما يقول صاحب الظلال، منذ

---

(١) خروج ١٤/ ٣٠-٣١.

(٢) تفسير الكشاف ٢/ ١٥٠، تفسير البحر المحيط ٤/ ٣٧٨، تفسير النسفي ٢/ ٧٤، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧.

أن كانوا يسامون الخسف في ظل الوثنية الفرعونية عند فرعون وملئه، ومنذ أن أنقذهم نبيّهم وزعيمهم موسى عليه السلام باسم الله الواحد رب العالمين الذي أهلك عدوهم، وشق لهم البحر، وأنجاهم من العذاب الوحشي الذي كانوا يسامون، إنهم خارجون للتو واللحظة من مصر ووثنيتها، ولكن ها هم أولاء ما أن يجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم وثنيين عاكفين على أصنام لهم (للمعبودة حاتور في هيئة بقرة أو غيرها من الأشكال) مستغرقين في طقوسهم الوثنية، وإذا هم يطلبون إلى موسى، النبي الرسول، الذي أخرجهم من مصر باسم الإسلام والتوحيد، أن يتخذ لهم وثناً يعبدونه من جديد، ومن ثم فإن موسى يغضب لربه أن يشرك به قومه **﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾**، ثم ترتفع نغمة الغيرة في كلمات موسى على ربه والغضب له، والتعجب لنسيان قومه لنعمة الله تعالى عليهم، وهي حاضرة ظاهرة، **﴿قال أغير الله أبغيكم الله وهو فضلكم على العالمين﴾**.

والتفضيل على العالمين يجب أن يكون واضحاً أنه كان في زمانهم فحسب، كما يجمع المفسرون، ذلك لأن لكل زمان عالماً، ويجب الحمل على ذلك، لأن أمة محمد ﷺ أفضل منهم لقوله تعالى: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾**، وقول سيدنا رسول الله ﷺ «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله» (رواه أصحاب السنن)، وعلى أي حال، فإن تفضيل بني إسرائيل في زمانهم إنما تتجلى في اختيارهم لرسالة التوحيد من بين المشركين، وليس وراء ذلك فضل ولا منة، فهذا ما لا يعدله فضل ولا منة، فكيف بعد هذا يطلبون إلى نبيّهم أن يطلب لهم إلهاً غير الله، وهم في نعمته وفضله يتقلبون[1].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٦٥ - ١٣٦٧، مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦٢، تفسير النسفي ٢/ ٧٤.

(٢) التمرد الإسرائيلي بسبب الماء والطعام : ـ

ما أن تمضي أيام ثلاثة على انغلاق البحر آية الله الكبرى لموسى وقومه عند «يم سوف» حتى تذمر بنو إسرائيل لأنهم «لم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر، لذلك دعي اسمها مارة، فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب، فصرخ إلى الرب فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذباً»[١]، وما أن يمضي شهر ونصف الشهر حتى يعود بنو إسرائيل إلى التذمر مرة أخرى، ومن الغريب أن مصدر التذمر الآن، كما كان في المرة الأولى، شهوة رخيصة، وسعي وراء لذة دنيوية، فإذا كانت الأولى بسبب الماء العذب، فقد كانت الثانية بسبب حرمانهم من طعام كانوا يحصلون عليه من فتات الموائد وفضلات المصريين، كانوا يجدون في سيناء «المن» أو العسل البري يشتارونه في غير مشقة ولا جهد، وكانوا يجدون «السلوى»[٢]، ولعله

---

(١) خروج ١٥/ ٢٣ ـ ٢٥.

(٢) المن والسلوى: أما المن فقد اختلف المفسرون فيه، قال ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على اشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا، وقال السدى كان يسقط على شجرة الزنجبيل، وقال قتادة كان ينزل عليهم في محلتهم سقوط الثلج أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منه ما يكفيه يومه، ولا يدخر إلا يوم الجمعة فإدخاره مباح ليوم السبت، وقال عبد الرحمن بن أسلم: إنه العسل، وقال الربيع بن أنس كان المن ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، وقيل هو الترنجين أو ما يسقط على شجرة الترنجين أو الزنجبيل، وهو يشبه الصمغ حلو مع شيء من الحموضة، وقيل المن خبز الرقاق، وقيل كان شراباً حلواً يطبخونه فيشربونه، وقيل هو جميع ما منّ الله به عليهم في التيه جاءهم عفواً بلا تعب، **وأما السلوى**: فهو طائر السماني أو طائر يشبه السماني، وكانت تأتيهم من السماء بكرة وعشياً أو متى أحبوا، أو ان ريح الجنوب كانت تسوقها إليهم فيذبح الرجل منها ما يكفيه، وقيل كانت تنزل عليهم مطبوخة أو مشوية، وكان ينزل عليهم، كالمن، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ما عدا يوم السبت، فكان الواحد منهم يأخذ حاجته ليومه، ما عدا يوم الجمعة فيأخذ ليومين، فخالفوا وادخروا، فدوّد وفسد، فقطع الله عنهم ذلك، ويروي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز =

السماني، وفيراً يسيراً صيده، وكانت سيناء، وما زالت، قبلة للأفواج الكثيرة من طيور الهجرة تقبل في الخريف متعبة مرهقة بعد عبور البحر، فما أن تجد الأرض حتى تحط، فإذا لاحت تباشير الربيع عادت إلى اجتياز سيناء في طريقها إلى البحر تعبره إلى حيث تقيم، ومع ذلك فلم يرضى اليهود بما أنزل عليهم من رزق الله[1].

وليس هناك من ريب في أن ذلك إن دل على شيء، فإنما يدل على أن اليهود إنما كانوا يفضلون الحياة الذليلة تحت سياط الرق والاستعباد، بجوار قدور اللحم، على حياة الحرية والكرَامة، تقول التوراة «فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرية وقال لهما بنو إسرائيل «ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر، لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع»[2]، ثم طفقوا يعددّون ما كانوا يجدون في مصر من الخير وألوان الطعام، تقول التوراة «فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا: من يطعمنا لحماً، قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم، والآن قد يبست أنفسنا ليس شيء غير أن أعيننا إلى هذا المن»[3]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها**

= اللحم»، وروى السدى أن السلوى هو العسل بلغة كنعان. (تفسير الطبري ١/ ٢٩٣ - ٢٩٨، تفسير النسفي ١/ ٤٩، تفسير الخازن ٣/ ٦٣، تفسير روح المعاني ١/ ٢٦٣ - ٢٦٤، الدر المنثور ١/ ٧٠ - ٧١، ابن الأثير ١/ ١١٠ - ١١١، صفوة التفاسير ١/ ٦٠، مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦٦ - ٦٧).

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١٢٨ - ١٢٩ وكذا Meinertziragen, Nicoll's Birds Egypt, P. 41, 468 - 469.

(٢) خروج ١٦/ ٢ - ٣.

(٣) عدد ١١/ ٤ - ٦.

وفومها[1] وعدسها وبصلها، قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيّين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾[2] .

ثم ما يمضي حين حتى تقوم ثورة أخرى، فهناك في «رفيديم» «خاصم الشعب موسى وقالوا أعطونا ماء لنشرب، وتذمر الشعب على موسى وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش»، ويأمر الرب نبيّه «أن اضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب، ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل، ودعا اسم الموضع مسه ومريبه، من أجل مخاصمة بني إسرائيل ومن أجل تجربتهم للرب قائلين: أفي وسطنا الرب أم لا»[3]، ويفسر «يوسف اليهودي» ذلك بأنهم وصلوا إلى رفيديم في حالة يرثى لها بسبب العطش، ولا شك في أن الصخرة في «حوريب» حيث يوجد ماء مغطى، ويرى رواد الصحراء الذين درسوا تربتها وجاسوا خلالها، أمثال «جارفس» و «وولي» أنه يمكن الحصول أحياناً على الماء في هذه النواحي تحت طبقة رقيقة من الحجر الجيري على عمق قدمين ويظل مخزوناً طوال العام[4] .

---

(١) الفوم: قيل الثوم وقيل الحنطة، وهو البر الذي يصنع من الخبز، وقال الفخر الرازي: الثوم أوفق للعدس والبصل من الحنطة، ولقراءة ابن مسعود «وثومها»، وأما القثاء فهو الخيار (تفسير النسفي ١/ ٥١، تفسير القرطبي ١/ ٤٢٥، صفوة التفاسير ١/ ٦٤).

(٢) سورة البقرة: آية ٦١، وانظر تفسير الطبري ٢/ ١٣٠ - ١٤٢، تفسير الطبرسي ١/ ٢٦٩ - ٢٧٨، تفسير النسفي ١/ ٥٥ - ٥٦، تفسير روح المعاني ١/ ٢٧٣ - ٢٧٨، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ١/ ٧٣ - ٧٤، تفسير أبي السعود ١/ ١٨٢ - ١٨٣، في ظلال القرآن ١/ ٧٥، تفسير ابن كثير ١/ ١٤٥ - ١٠٢، تفسير القرطبي ص ٣٥٩ - ٣٧٠، تفسير المنار ١/ ٢٧٣ - ٢٧٦، تفسير القاسمي ٢/ ١٣٧ - ١٤٠، تفسير الفخر الرازي ٣/ ٩٨ - ١٠٢، التفسير الكاشف ١/ ١١٤ - ١١٦، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١/ ٧٤ - ٧٧.

(٣) خروج ١٧/ ١ - ٧.

(٤) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٣٠٤.

والرأي عندي أن الأمر ليس كما فسره هؤلاء الباحثون، وإنما هو، فيما أومن به واعتقده، معجزة من معجزات موسى عليه السلام، إذ أمره الله تعالى بأن يضرب الحجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، بقدر عدد أسباط إسرائيل، لكل سبط عين قد عرفوها، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾**[1]، وقال ابن عباس: وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع، وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها، وقال قتادة: كان حجراً طورياً، أي من الطور، يحملونه معهم إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه، وقال النسفي: اللام للعهد، والإشارة إلى حجر معلوم، فقد روى أنه حجر طوري حمله معه، وكان مربعاً له أربعة أوجه، كانت تنبع من كل وجهه ثلاث أعين، لكل سبط عين، وقيل هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه حين اغتسل[2]، فقال له جبريل: إرفع هذا الحجر فإن فيه قدرة، ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته، قال الزمخشري: ويحتمل أن تكون اللام

---

(١) سورة البقرة: آية ٦٠، وانظر: تفسير النسفي ١/ ٥٠ - ٥١، مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦٨ - ٦٩.

(٢) أخرج البخاري عند تفسير آية الأحزاب (٦٩) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن موسى كان رجلاً حيياً ستيّراً، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برصي، وإما أُدره (إنتفاخ الخصية) وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى مرّ على ملأ من بني إسرائيل فرأوه أحسن ما خلق الله عرياناً، وأبرأه مما يقولون... قال:، فذلك قوله تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾** (صحيح البخاري ٦/ ٣١٢).

للجنس، لا للعهد، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن البصري: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة، فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر، ثم يضربه فييبس، وعلى أي حال، فإن انفجار الماء، إنما كان على وجه المعجزة، وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصم الذي ليس من شأنه الانفجار بالماء، وهنا تكون المعجزة أوضح، والبرهان أسطع[1].

(٣) بنو إسرائيل والعماليق: -

تشير التوراة إلى أن بني إسرائيل قد التقوا بالعماليق في «رفيديم» حيث جرت بينهم المعركة الرئيسية على امتلاك الشريط الخصيب الوحيد في شبه جزيرة سيناء، وهو «وادي فيران» الحالي[2]، وطبقاً لرواية التوراة فلقد «أتى عماليق وحارب إسرائيل في رفيديم فقال موسى ليشوع: انتخب لنا رجلاً وأخرج حارب عماليق، وغدا أقف أنا على رأس التلة وعصا الله في يدي، ففعل يشوع كما قال له موسى ليحارب عماليق، وأما موسى وهارون وحور فصعدوا على رأس التلة، وكان إذا رفع موسى يده أن إسرائيل يغلب، وإذا أخفض يده أن عماليق يغلب، فلما صارت يدا موسى ثقيلتين أخذا حجراً، ووضعاه تحته فجلس عليه، ودعم هارون وحور يديه، الواحد من هنا والآخر من هناك؛ فكانت يداه ثابتتين إلى غروب الشمس، فهزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف»[3].

وعلى أي حال، فما تنتهي المعركة، حتى يلتقي موسى عليه السلام

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٣٠٦ - ٣٠٩، تفسير الكشاف ١/ ١٠٧، تفسير النسفي ١/ ٥٠، تفسير ابي السعود ١/ ١٨٠، مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦٩، صفوة التفاسير ١/ ٦٢ - ٦٤.

(٢) W. F. Petrie, Egypt and Israel, 1925, P. 4.

(٣) خروج ١٧/ ٨ - ١٣.

بحميه يثرون، الذي جاء ومعه صفورة، امرأة موسى وولداه جرشوم وإليعازر[1]، هذا مع أن التوراة قد ذكرت من قبل، وفي نفس سفر الخروج أن موسى قد هبط مصر ومعه زوجه وولداه[2]، ولكن هذا لا يزعجنا كثيراً، فهو نوع من تناقض نصوص التوراة، ونظائره كثيرة، وعلى أي حال، فإن التوراة[3] تحدثنا أن يثرون، وهو شعيب بني مدين العربي فيما يرجع الكثيرون، كما أشرنا من قبل، كان يقدم القرابين إلى الله، ويتبعه موسى وهارون وشيوخ بني إسرائيل، وأنه قد أسدى إلى موسى النصح باختيار رؤساء للشعب لينظروا في القضايا الثانوية، ويبقى هو المرجع الأعلى، فاتبع نصيحة شعيب، ومعنى هذا أن شعيباً، كما يقول الأستاذ العقاد، تقدم موسى في عقيدته الإلهية، وعلمه تبليغ الشريعة، وتنظيم القضاء في قومه، وأن العبريين كانوا متعلمين من النبي العربي، ولم يكونوا معلمين[4].

(٤) الردة وعبادة العجل في سيناء : ـ

تتحدث التوراة في الإصحاحات من التاسع عشر إلى الحادي والثلاثين من سفر الخروج عن الشريعة الموسوية، وفي الإصحاح الثاني والثلاثين من نفس السفر تتحدث عن ردة بني إسرائيل عن التوحيد، وحبر وصايا الرب لم يجف كما يقولون، ذلك أن موسى عليه السلام، فيما يروي المفسرون، قد وعد بني إسرائيل وهو بمصر، إن أهلك الله عدوهم، أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون ويذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهو شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوق فمه (تغيّر رائحة فمه) فتسوّك، فقالت الملائكة: كنا نشم

(١) خروج ١٨/ ١ ـ ٧.
(٢) خروج ٤ / ٢٠.
(٣) خروج ١٨/ ١٢ ـ ٢٧.
(٤) عباس العقاد: الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين القاهرة ١٩٦٠ ص ٨٠.

من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، أو أن الله أوحي إليه: أما علمت أن خُلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فأمره أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة، روي عن ابن عباس وغيره: فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكلم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾، وكان موسى لما أتم الصيام ثلاثين يوماً وعزم على الذهاب إلى الطور، استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة صلوات الله عليه وعلى سائر الأنبياء، وهناك كما أشرنا، أنكر ريح فمه فاستاك بعود خرنوب أو بلحاء شجرة، فأمره الله أن يصوم عشرة أيام أخرى، وفي تلك الليالي العشر، افتتن بنو إسرائيل، لأن الثلاثين انقضت ولم يرجع إليهم موسى[1]، وإلى هنا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون**﴾[3].

وهكذا لم يمضي وقت طويل على انغلاق البحر لموسى وقومه، حتى كانت الردة وعبادة العجل، كما جاء في التوراة والقرآن العظيم،

---

(١) تفسير الكشاف ٢/ ١٥١، تفسير النسفي ١/ ٤٨، ٢/ ٧٤، تفسير أبي السعود ١/ ١٧٤، الدر المنثور ٣/ ١١٥، تفسير روح المعاني ١/ ٢٥٧ - ٢٥٨، تفسير البحر المحيط ٤/ ٣٧٩، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٨، تاريخ الطبري ١/ ٤٢١ - ٤٢٢، ابن الأثير ١/ ١٠٧.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٤٢.

(٣) سورة البقرة: آية ٥١، ٥٤، ٩٢ - ٩٣ سورة طه: آية ٨٣ - ٩٨.

ويقول تعالى : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً جسداً له خوار، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين، ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين، ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين، قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين، إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾[1] .

وهكذا بقيت الوثنية راسخة في قلوب بني إسرائيل ، حتى بعد انغلاق البحر لهم ، وحتى بعد أن جاوزوه على يبس ، وحتى بعد أن منّ الله عليهم بالمن والسلوى ، وحتى بعد أن استسقوا موسى فضرب الحجر بعصاه فأنجبت منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل سبط من الأسباط الإثني عشر مشربهم ، وحتى بعد أن نزلت عليهم شريعة تحذرهم من اتخاذ آلهة أخرى غير الله ، حتى بعد هذا كله ، فإنهم سرعان ما زاغوا عن الطريق المستقيم ، وكفروا بالله الواحد الأحد ، «وصنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر»[2] ، وهو نفس ما سيفعلونه في دويلة

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٤٨ - ١٥٢ ، وانظر : تفسير الطبري ١٣/ ١١٧ - ١٣٦ ، تفسير الطبرسي ٩/ ٢٦ - ٣٢ ، تفسير القاسمي ٧/ ٢٨٥٩ ، تفسير روح المعاني ٩/ ٦٧ - ٧٠ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٣ - ٤٧٥ ، تفسير المنار ٩/ ١٧٢ - ١٨٣ ، تفسير القرطبي ص ٢٧٢٠ - ٢٧٢٨ ، تفسير الفخر الرازي ١٥/ ١٠٨ - ١١١ ، تفسير الكشاف ٢/ ١١٨ - ١٢٠ ، تفسير أبي السعود ٢/ ٤٠٦ - ٤٠٩ ، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٤/ ٢١٩ - ٢٢١ ، تفسير الجلالين ص ١٥٥ ، تفسير وجدي ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) خروج ٣٢/ ٧ - ٨.

إسرائيل على أيام «يربعام الأول» (٩٢٢ ـ ٩٠١ ق . م) وبعد موت سليمان عليه السلام مباشرة ذلك أن يربعام، خوفاً من أن تعود قلوب القوم تتعلق بأورشليم، قد هداه تفكيره المريض إلى أن يعيد المكانين المقدسين عند القوم، وكان الواحد منهما في «بيت إيل»، والآخر في «دان»، وأن يزود كل منهما «بالعجل الذهبي»، بل إن عاصمتهم السامرة فيما بعد، قد زودت كذلك «بعجل ذهبي»[1].

وليس هناك من ريب في أن هذا، إنما كان، مرة أخرى، من تأثير الوثنية المصرية على بني إسرائيل، ذلك أن عبادة العجل في مصر جد عميقة الجذور، إذ ترجع إلى ما قبل عصر موسى بكثير، إلى أيام الأسرة الأولى حوالي عام ٣٢٠٠ ق. م، ثم استمرت حتى ظهور المسيحية وغلبتها عليها، ويذهب «والتر إمري» إلى أن العجل كان في نظر القوم، رمزاً للقوة في الحروب، كما أنه رمز للإخصاب، في نفس الوقت، وأن عبادته بدأت منذ أيام الأسرة الأولى، اعتماداً على تصوير ملوك هذه الأسرة على هيئة ثيران[2]، هذا وقد اشتهرت هذه العبادة باسم «مرور وعبي» (منفيس وأبيس في تصحيف اليونان) حيث عبد الأول في «أون» (عين شمس) رمزاً لإله الشمس رع، وعبد الثاني في منف مدينة بتاح، رمزاً للإله بتاح، وقد احتفظ المصريون في معبد بتاح بالعجل المقدس «أبيس»، دون أن تكون هناك علاقة ما بين الإلهين، على الأقل في العصور القديمة[3]، كما أن «بتاح» لم يصور أبداً على هيئة ثور، ولم يعتقد أحد أنه تجسد في ثور[4]، ولم يعتبر أبيس كروح للإله بتاح، إلا على أيام الدولة الحديثة، وإن كان هناك اعتقاد

---

(١) ملوك أول ١٢/ ٢٥ ـ ٣٢، هوشع ٨/ ٥ ـ ٦ وكذا M. Noth, op - cit, P. 232.

(٢) W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, P. 124.

(٣) أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٥٢ ص ٣١ (مترجم).

(٤) G. Frankfort, Kingship and the Gods, Chicago, 1942, P. 10.

يجعل من «أبيس»، وكذا «منفيس» عجل أون، رسولين يقومان بتبليغ الرسائل إلى إلههما، وهو اعتقاد يرجع كذلك إلى عهد الدولة الحديثة (١٥٧٥ ـ ١٠٨٧ ق. م)[١].

هذا وقد قام جدال طويل حول حقيقة «العجل» الذي عبده بنو إسرائيل أثناء غياب موسى عليه السلام، فمن قائل أنه كان تمثالاً أجوف من ذهب صاغه السامري من الحلي، وصنع بحيث إذا استدبر الريح دخلت جوفه وخرجت من فمه بصوت جهير يشبه خوار البقر، ومن قائل إن هذا الرجل المحتال خدع بني إسرائيل وأخذ منهم الحلي، ثم رأى عجلاً على هيئة العجول التي رآها تعبد في مصر، فاشتراه وقدمه لهم، على أنه إله، فقال «هذا إلهكم وإله موسى»، ومن قائل غير هذين الرأيين، ولكن المتفق عليه من الكتب السماوية (التوراة والإنجيل والقرآن العظيم) أنهم عبدوا عجلاً، أياً كان هذا العجل[٢].

ويختلف المؤرخون المحدثون حول عبادة العجل الذي عبده بنو إسرائيل، ففريق ينسبها إلى عبادة الإلهة «حابحور» وفريق ينسبها إلى عبادة العجل «أبيس»، ذلك أن «سير ليوناردو وولي»[٣] إنما يذهب إلى أن بني إسرائيل عندما دخلوا منطقة جنوب سيناء، حيث أقام المصريون المشتغلون بالتعدين معبداً لحاتور، ارتدوا عن الوحدانية إلى العقائد التي اكتسبوها في

(١) أدولف إرمان: المرجع السابق ص ٣١.

(٢) عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص ٢٠١، وانظر: تفسير الطبري ١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٥، تفسير النسفي ١/ ٤٨، ٢/ ٧٧ ـ ٧٨، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥١ ـ ٥٢، تفسير البيضاوي ٣/ ٢٧ ـ ٢٨، تفسير الخازن ١/ ٥٩ ـ ٦٢، تاريخ الطبري ١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٥، ابن الأثير ١/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٣) Sir Leonard Wolley, The Beginnings of Civilization, N. Y, 1965, P. 513 - 515.

مصر، وصاغوا العجل الذهبي، تمجيداً للإلهة البقرة، والتي اصطلح على أنها كانت سيدة تلك البلاد.

هذا ويفترض «أوسترلي»[1]، طبقاً لما جاء في التوراة[2]، أن هذا العجل الذهبي إنما كان معبوداً مصرياً، وأنه هو الإلهة حاتور، وأن هناك تمثالاً في المتحف المصري بالقاهرة لهذه الإلهة البقرة يرجع إلى أيام أمنحتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق. م)، وقد غطى الرأس والعنق والقرنان في الأصل بالذهب، ويشير إلى «العجل الذهبي»، وقد وصف في مكان آخر، وكأنه الإلهة ذات القلائد المضيئة «مثل السماء بنجومها»، وهي تدعى «الواحدة الذهبية» أو «ذهب الآلهة»، ولعل في هذا إشارة كذلك إلى السبب الذي من أجله سمي العجل ب «الذهبي»، وقد وجدت صور هذه الإلهة في بيت شان (بيسان) وجازر وأريحا، وإن الإلهة «عشتار» كانت تمثل أحياناً بلباس الرأس الخاص بحاتور، ولهذا كله، فإننا نستطيع أن نوحّد العجل الذهبي بالإلهة المصرية «حاتور»، هذا فضلاً عن أن من صفات حاتور، أنها كانت تدعى إلهة الحب، والالهة المرحلة الطروب، ومن ثم فقد كانوا يسمونها «بالذهبية»، وقد دعاها اليونان «أفروديت»، ومن ثم فقد كانت النسوة يخدمنها ويحتفلن بها، وذلك بإقامة حفلات الرقص والغناء واللعب على الصاجات والشخشخة بقلائدهن، وبالعزف على الدفوف[3].

ولعل من الجدير بالإشارة أن قارىء التوراة يجد في سفر الخروج صدى لهذه الاحتفالات النسوية بحاتور، من إقامة حفلات الرقص والغناء

---

(١) W. O. E. Oesterly, Egypt and Israel, in The Legacy of Egypt, Oxford, 1947.

(٢) خروج ٣٢/ ٢ - ٤، ملوك أول ١٢/ ٢٨.

(٣) أدولف إرمان: المرجع السابق ص ٣٦ - ٣٧، سليم حسن: المرجع السابق ١/ ٢٠٨، جيمس بيكي: المرجع السابق ٢/ ١٨٩.

واللعب، ذلك أن بني إسرائيل، بعد أن صاغوا عجلهم الذهبي، وقدموا له القرابين، «جلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب»[1]، وأن موسى عليه السلام عندما اقترب من المحلة أبصر العجل والرقص[2]، وطبقاً لترجمة اليسوعيين، فلقد «رأى موسى الشعب أنهم عراة، لأن هارون[3] كان قد عراهم أمام أعدائهم، لأجل ما هو عار نجاسه»[4]، وهكذا تصور لنا التوراة جماعة إسرائيل، وهي ترقص عارية، ويذهب بها المرح من حول «العجل الذهبي» كل مذهب، مما يتفق ومظاهر الاحتفال بحاتور[5] .

على أن هناك فريقاً آخر يعارض هذا الاتجاه، ويرى أن بني إسرائيل عبدوا عجلاً، وليس بقرة، فالأستاذ «دياكونوف» (I. M. Diakonoff) يرى أن العجل الذهبي إنما كان في صورة حيوان ذكر، وليس أنثى، ومن هنا فإنه يشك كثير في أن الإسرائيليين قد صاغوا هذا العجل الذهبي تمجيداً للإلهة «حاتور»[6]، ويذهب الدكتور ثروت الأسيوطي إلى أن بني إسرائيل قد قدسوا النجوم، وتقربوا إلى القمر ربيب الرعاة في الليالي الرطبة، بعد الشمس المحرقة، ومن ثم فقد عبدوا العجل باعتباره رمزاً للقمر[7]، بل إن جوستاف لوبون إنما يذهب إلى أن العجل من أصل كلداني، وكان بنو

---

(١) خروج ٣٢/ ٢ - ٨.

(٢) خروج ٣٢/ ١٩.

(٣) لاحظ هنا أن التوراة تجعل هارون، وحاشاه أن يفعل ذلك، هو الذي صنع العجل وأغوى بني إسرائيل، وليس السامري، وهذا ما سنناقشه حالاً.

(٤) نص ترجمة دار الكتاب المقدس بالقاهرة (ط ١٩٨٢) كالتالي: ولما رأى موسى الشعب أنه معري لأن هارون كان قد عراه للهزء بين مقاوميه (خروج ٣٢/ ١٩).

(٥) أنظر عن: الردة وعبادة العجل في سيناء (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٤٦٢ - ٤٧٩ - الاسكندرية ١٩٧٨).

(٦) L. Woolley, op - cit, P. 514.

(٧) ثروت الأسيوطي: نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، بنو إسرائيل ص ١٤٩.

إسرائيل يعبدون العجول المعدنية بعد خروجهم من مصر بطويل زمن، لارتوائهم من مبادىء بلاد ما بين النهرين الدينية، وكأن هذا هو الوجه المفضل الذي يرمزون به إلى ربهم «يهوه»[1].

وهناك ما يشير إلى أن إله العبريين «يهوه» إنما هو في الأصل إله قمري، فقد كان يرسم في العصور القديمة في صورة «ثور» فضلاً عن أننا نجد قرنين في مذبحه[2]، هذا إلى جانب ما يفهم من التوراة (العهد القديم) أن الديانة العبرية كانت توصف قبل السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، بأنها ديانة قمر وشمس وكواكب[3]، مما يدل بوضوح على أن بني إسرائيل، على أيام الملكية، قد تبنى ملوكهم ديانات الشرك، بجانب ديانة يهوه، وأقاموا عجولاً من ذهب وضعوها في مبان كالمعابد، كما فعل يربعام أول ملوك دويلة إسرائيل بعد الانقسام في أعقاب موت سليمان عليه السلام، في مدينتي دان وبيت إيل[4]، كما أشرنا من قبل، وكما فعل خليفته البعيد «أخاب» (٨٦٩ - ٨٥٠ ق. م) في عاصمته السامرة[5].

وانطلاقاً من هذا كله، فالرأي عندي، أن عجل الذهب الذي عبده بنو إسرائيل في أوائل مرحلة الخروج من سيناء، وموسى عليه السلام ما يزال بين ظهرانيهم يتلقى الوحي من ربه في طور سيناء، إنما كان تقليد العبادة العجل المقدس في مصر، وليس تقليداً لعبادة الإلهة البقرة حاتور، وربما كان من أسباب ذلك (أولاً) أن حاتور إنما كانت معبودة في مصر العليا (الصعيد) أكثر منها في مصر السفلى (الدلتا) حيث كان بنو إسرائيل يعيشون على أطراف

---

(١) جوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص ٦١.

(٢) ملوك أول ١٢/ ٢٨، ملوك ثان ٢٣/ ١١، خروج ٣٢/ ٤، هوشع ٨/ ٥ - ٦.

(٣) ملوك ثان ١٧/ ١٦، ٢١/ ٣، ٥، ٢٣/ ٤ - ٥، إرميا ٨/ ٢.

(٤) ملوك أول ١٢/ ٢٦ - ٣٦.

(٥) ملوك أول ١٦/ ٣١ - ٣٣.

الدلتا الشرقية، ومن ثم فقد عبدت حاتور في مناطق كثيرة من الصعيد، في كوم أمبو والجبلين والأقصر وهو بنجع حمادي والقوصية وأطفيح ومنف، كما عبدت في بلاد النوبة وبونت وجبيل، وإن كان أهم مراكز عبادتها في «دندرة» (٥ كيلاً شمالي قنا عبر النهر) حيث معبدها الكبير، والذي يضارع معبد إدفو في روعته واكتماله، وقد بناه بطليموس الثاني (٢٨٤ ـ ٢٤٦ ق. م) على أنقاض معبد حاتور القديم، وإن لم يتم البناء إلا حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد، وما يزال حتى الآن يعدّ من أحسن المعابد المصرية، وأكثرها تأثيراً[1]، وهذا يعني أن بني إسرائيل كانوا يعيشون في منطقة بعيدة عن نفوذ عبادة حاتور، والعكس صحيح بالنسبة إلى عبادة العجول كمنفيس وأبيس.

ومنها (ثانياً) أن القرآن الكريم قد انفرد، من دون التوراة، بذكر نوعين من الردة، الأولى محاولة عبادة حتحور، بينما الثانية وقد ذكرتها التوراة كذلك، عبادة العجل الذهبي، ذلك أن آية الأعراف (١٣٩) إنما تتحدث عن تطلع بني إسرائيل، بمجرد عبورهم البحر، إلى عبادة إله آخر، غير إله موسى، يقول تعالى: **﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾**[2]، وقد أشرنا من قبل، إلى أن مناجم الفيروزج تكثر في وادي مغارة وسرابة الخادم، حيث أقيم معبد للإلهة حاتور، ربة الفيروزج، منذ أيام الدولة الوسطى، التي عملت على استغلال تلك المنطقة باهتمام

---

(١) محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٦٠، ٣٣٧ ـ ٣٤١، وكذا

H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques, I, P. 56, VI, P. 105.

A. وكذا P. Lacau and H. Chevriar, Une chapell de Sesostris Ler a Karnk, Le Cairo, 1956, P. 224

H. Gardiner, op - cit, P. 45, 129 - 130.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٣٩.

كبير، ومن ثم فإن بني إسرائيل عندما دخلوا منطقة جنوب سيناء، حيث أقام المصريون المشتغلون بالتعدين معبداً لحاتور، ارتدوا عن الوحدانية إلى العقائد الوثنية التي اكتسبوها بمصر، وطالبوا موسى عليه السلام بأن يجعل لهم إلهاً، ربما على هيئة حاتور، غير أن كليم الله عليه السلام، استطاع بقوة إيمانه، ورسوخ عقيدته، وقوة شخصيته أن يمنع قطيعه من الردة الأولى هذه، وبالتالي لم يتمكن القطيع من عبادة حاتور أو غيرها من الآلهة الوثنية، لكنهم سرعان ما اهتبلوا فرصة ذهاب موسى لميقات ربه لمدة ثلاثين ليلة، فلما أتمها له ربه أربعين ليلة، كفر القطيع بموسى، وإله موسى، وعادوا إلى ما ألفوه من عبادة العجول في مصر، وانطلاقاً من كل هذا، يمكننا القول أن الردة الأولى إنما كانت لعبادة حاتور، الإلهة البقرة، ولكن موسى عليه السلام نجح في وأد المحاولة في بدايتها، وأما الردة الثانية فكانت لعبادة العجل الذهبي، تقليداً لعبادة العجل منفيس أو أبيس، لا ندري على وجه اليقين.

ومن ثم فإننا نوافق الرأي الذي ذهب إلى أن معبود إسرائيل الذهبي في سيناء إنما كان عجلاً، ولم يكن بقرة، صحيح أن بعض العلماء نادى المعبود إنما كان بقرة، ولكن الذي يلزمنا هنا هو كلام الله عز وجل، كما جاء في الذكر الحكيم[1]، فضلاً عن التوراة[2]، وليس ما درج الباحثون أن يقدموا، فإنما هو اجتهاد، وفوق كل ذي علم عليم، وصدق الله العظيم حيث يقول: **﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾**[3]، ويقول: **﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً**

---

(١) أنظر: سورة البقرة: آية ٥١ - ٥٤، ٩٢ - ٩٣، النساء: آية ١٥٣، الأعراف: آية ١٤٨ - ١٥٢، طه: آية ٨٣ - ٩٨.

(٢) خروج ٣٢/ ٣ - ٦.

(٣) سورة البقرة: آية ٩٢، وانظر: تفسير الطبري ١/ ٣٥٤ - ٣٥٨، تفسير النسفي ١/ ٧١ - ٧٢، =

له خوار، ألم يروأنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ [1] ويقول: **﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار، فقال هذا إلهكم وإله موسى﴾** [2].

ويحاول هارون عليه السلام أن يعيد القوم الضالين إلى عقيدة التوحيد، **﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾** [3]، ولكنهم وقد أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم أجابوه، **﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾** [4]، وأخبر الله تعالى نبيّه موسى بردة قومه، وإخلال السامري لهم، فيعود موسى إلى قومه غضبان أسفاً، ويشتد في اللوم على هارون أخيه، ظناً منه أن قصر، حين انساق القوم إلى عبادة العجل، يقول تعالى: **﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾** [5]، ويقول: **﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، ألا تتبعني أفعصيت أمري، قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾** [6].

وهنا تتجه التوراة إلى منزلق خطر، حيث يذهب كتبتها في الضلال

= تفسير الطبرسي ١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٧، تفسير الكشاف ١/ ١٦٥، تفسير روح المعاني ١/ ٣٢٥ ـ ٣٢٧، تفسير المنار ١/ ٣٠٨، تفسير ابن كثير ١/ ١٨٠ ـ ١٨١.

(١) سورة الأعراف: آية ١٤٨.

(٢) سورة طه: آية ٨٨.

(٣) سورة طه: آية ٩٠.

(٤) سورة طه: آية ٩١.

(٥) سورة الأعراف: آية ١٥٠.

(٦) سورة طه: آية ٩٢ ـ ٩٤.

بعيداً، فيرون في سفر الخروج أن الذي صنع العجل وأغوى بني إسرائيل، إنما هارون، وليس السامري، حين اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار في غيبة موسى[1]، ولست أدري كيف نسي كتبة التوراة أن هارون أخو موسى، ونبي ورسول من الله مع موسى، ونائب وخليفة لموسى في غيابه، ولكنهم بنو إسرائيل دائماً مع الفاسد المفسد، ولو كان السامري، قال تعالى: ﴿**واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيّاً، وناديناه من جانب الطور وقربناه نجياً، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**ولقد مننا على موسى وهارون، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين، وآتيناهم الكتب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم، وتركنا عليهما في الآخرين، سلام على موسى وهارون، إنا كذلك نجزي المحسنين، إنهما من عبادنا المؤمنين**﴾[3].

وعلى أية حال، فإن موسى سرعان ما يقرر، فيما تروي التوراة، أن هذا الشر، وأن هذه الردة، ليس لها من توبة، إلا شفار الأسنة يسلونها ليضرب بها اللاويون، سبط موسى، رقاب الآخرين، وطبقاً لرواية سفر الخروج فلقد «وقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل»[4]، هذا وقد اختلف المفسرون فيمن عبد العجل من بني إسرائيل، فمن قائل عبده ثمانية آلاف، ومن قائل عبده جميعهم، إلا هارون، فضلاً عن اثنى عشر ألفاً منهم، ومن قائل عبده كل بني إسرائيل إلا هارون، وقال عبد الرحمن بن زيد: كانوا سبعين رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه[5]، على

(١) خروج ٣٢/ ١ - ٢٤.

(٢) سورة مريم: آية ٥١ - ٥٣، وانظر: طه: آية ٢٩ - ٣٦، الشعراء: آية ١٢ - ١٧، القصص: آية ٣٤ - ٣٥.

(٣) سورة الصافات: آية ١١٤ - ١٢٢.

(٤) خروج ٣٢/ ٢٦ - ٢٩.

(٥) تفسير الخازن ١/ ٦٢، مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦٥.

أن «سبينوزا» يذهب إلى أن الإسرائيليين جميعاً، قد عبدوا العجل، باستثناء اللاويين[1]، فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان اللاويون، كما يقول فرويد، هم بطانة موسى من السحرة المصريين الذين وصفهم القرآن بأنهم **﴿أول المؤمنين﴾**[2]، ومن ثم فهم، بجانب المؤمنين من بني إسرائيل، هم وحدهم الذين لم يعبدوا العجل، أو قل هم الذين عبدوا رب موسى وهارون عن عقيدة، لم تضعف حتى أمام وعيد فرعون وتهديده، ولعمري إن الذين هددهم فرعون، كما يقول الذكر الحكيم: **﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾**[3]، فكان ردهم: **﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقضي ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى﴾**[4]، وفي آية أخرى: **﴿قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾**[5]، هم أنفسهم الذين بقوا على إيمانهم بالله الواحد القهار، لأن الذين آمنوا من أبناء مصر إنما كان إيمانهم أرسخ من الهرم، وكان استخفافهم بوعيد فرعون وتهديده بقطع أيديهم وأرجلهم وتصليبهم في جذوع النخل، إن هؤلاء ليسوا هم الذين ينكثون عهدهم، ويرتدون عن دينهم، بمجرد أن يتخلف نبيّهم في ميقات ربه أياماً عشرة، فوق الثلاثين المحددة.

وأما عقاب جريمة كفر بني إسرائيل، فقد كان أشد وبالاً ونكالاً من

(١) باروخ سبينوزا: المرجع السابق ص ٤١٥.
(٢) سورة الشعراء: آية ٥١.
(٣) سورة طه: آية ٧١.
(٤) سورة طه: آية ٧٢ - ٧٣.
(٥) سورة الشعراء: آية ٥٠ - ٥١.

المحن الأخرى التي تعرضوا لها، لقد كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم، وها هم الآن يقتلون أنفسهم بأنفسهم، وهكذا نرى أن ما حل ببني إسرائيل في ظل فرعون، كان من جنس ما حلّ بهم في ظل موسى، فقد كان ذلك بلاء من الله، وكان هذا بأمر من الله، وكلاهما محنة تنزل بالعصاة[1]، فلقد كانت توبتهم عن عبادة العجل أن يقتلوا أنفسهم بأنفسهم، قال تعالى: **﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾**[2]، يقول المفسرون أنهم أمروا أن يقتل من لم يعبد العجل من عبده، وكان الرجل منهم يرى قريبه فلا يقدر أن يمضي لأمر الله تعالى، فأرسل الله تعالى ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون بهما، فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشى، حتى دعا موسى وهارون عليهما السلام، فكشفت السحابة ونزلت التوبة، وكان القتلى سبعين ألفاً، وقال السدى في قوله تعالى: **﴿فاقتلوا أنفسكم﴾**: اجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه (أي العجل) بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين شهيداً، حتى كثر القتلى، حتى كادوا أن يهلكوا، وحتى قتل منهم سبعين ألفاً، وحتى دعا موسى وهارون ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا البقية الباقية، فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيدا، ومن بقي مكفراً عنه، فذلك قوله تعالى: **﴿فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾**.

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس: أمر موسى قومه، عن أمر ربه عز وجل، أن يقتلوا أنفسهم، قال: وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة

(١) عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص ٢٠٤.

(٢) سورة البقرة: آية ٥٤.

شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلمة عنهم، وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة، على أن هناك من يرى أن التوبة لم تكن بالقتل، وإنما بالنجع أو بقطع الشهوات[1].

(٥) طلب بني إسرائيل رؤية الله جهرة:

وهذا نوع آخر من ردة بني إسرائيل، فرغم تتابع الحجج عليهم والآيات، ورغم سبوغ النعم من الله تعالى عليهم، فإن موسى عليه السلام لم يجد منهم إلا العناء، فما أن جاوزوا البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنامهم، حتى قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً، كما لهم آلهة، وكأن الله تعالى، الذي فرق لهم البحر ليس هو إلههم الواحد الأحد، وما أن تمضي بضعة أيام حتى يتذمر القوم من حياتهم الجديدة، بسبب عدم وجود الماء العذب مرة، وبسبب حرمانهم من طعام كانوا يحصلون عليه من فتات الموائد وفضلات المصريين مرة أخرى، وما أن يمضي حين من الدهر حتى يعودوا إلى ما ألفوه من عبادة العجول في مصر، وهكذا أتعب بنو إسرائيل أنفسهم، واتعبوا نبي الله معهم، لا يطيعون أمره، ولا ينتهون عما نهى عنه، وكأن شعارهم «سمعنا وعصينا»، حتى إذا ما دعاهم إلى قتال عدوهم، أجابوه: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، وإذا أمرهم أن ادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم، قالوا مستهزئين: حنطة في شعيرة، ويدخلون الباب من قبل أستاهم[2]، إلى غير ذلك من أفعالهم

(١) أنظر: تفسير الطبري ١/ ٢٨٥ - ٢٨٨، تاريخ الطبري ١/ ٤٢٤، ابن كثير: مختصر التفسير ١/ ٦٤ - ٦٥، البداية والنهاية ١/ ٢٨٨، تفسير الخازن ١/ ٦٢، تفسير النسفي ١/ ٤٨ - ٤٩، تفسير أبي السعود ١/ ١٧٥ - ١٧٦، تفسير البغوي ١/ ٦٢، تاريخ ابن الأثير ١/ ١٠٨، ثم قارن: خروج ٣٢/ ٢٢ - ٢٩.

(٢) قال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، وإن استبعده الرازي، =

القبيحة التي آذوا بها نبيّهم، والتي تكاد لا تحصى.

وفي هذه المرة يطلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام، حتى يؤمنوا، أن يروا الله جهرة، وكأنهم بعد كل هذه المعجزات لم يؤمنوا بموسى وإله موسى، فيطلبون منه، في مقابل إيمانهم، رؤية الله جهرة، قال تعالى: **﴿وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾**[1]، هذا وقد اختلف العلماء في طلب الرؤية، وهل كانت قبل التوبة من عبادة العجل أم بعدها، فمن قائل إنها كانت قبل التوبة، ومن قائل إنها بعدها، وهذا ما نميل إليه، روى الطبري عن السدي: أن بني إسرائيل لما تابت من عبادة العجل، وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً، أمر الله تعالى موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا، فاختار موسى من قومه سبعين رجأ على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا إلى ذلك المكان ودنا موسى من الجبل ووقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم، فقالوا له: **﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾**، فإنك قد كلمته فأرناه، فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، وقد أهلكت خيارهم، رب لو شئت أهلكتهم وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، فأوحى الله إليه: إن هؤلاء السبعين ممن اتخذ العجل، ثم إن الله تعالى

= وقال السدي عن ابن مسعود: قيل لهم ادخلوا الباب سجداً فدخلوا مقنعي رؤوسهم، أي رافعي رؤوسهم، خلاف ما أمروا، وروى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً عن النبي ﷺ: قيل لبني إسرائيل أدخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدلوا وقالوا حبة في شعرة» (مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦٨).

(١) سورة البقرة: آية ٥٥ - ٥٦.

أحياهم، فقاموا وعاشوا، رجلاً رجلاً، ينظر بعضهم إلى بعض، كيف يحيون، وذلك قول الله تعالى: **﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾**.

ويقول ابن كثير: إن أهل الكتاب غلطوا في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل، فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه، فكيف يناله هؤلاء السبعون[1]، وهو يشير في ذلك إلى قوله تعالى: **﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾**، ومن هنا كما يقول النسفي في التفسير، تعلقت المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية، لأنه لو كان جائز الرؤية لما عذبوا بسؤال ما هو جائز الثبوت، قلنا (أي النسفي) إنما عوقبوا بكفرهم، لأن قولهم: إنك رأيت الله، فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة كفر منهم، ولأنهم امتنعوا عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم، ولا يجوز اقتراح الآيات عليهم، ولأنهم لم يسألوا سؤال استرشاد، بل سؤال تعنت وعناد.

ثم يقول الإمام النسفي في تفسير آية الأعراف (١٤٣) **﴿قال رب أرني**

---

(١) تقول التوراة إن الله أمر موسى أن يصعد إليه هو وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، وأن يسجدوا للرب من بعيد، ولا يقترب إلا موسى، ثم صعدوا «ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل، فرأوا الله وأكلوا وشربوا» (خروج ٢٤/ ١ - ١١) ومن عجب أن التوراة نفسها، وفي نفس سفر الخروج تقول إن موسى طلب أن يرى الله، فقال له: «لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش»، ثم أمره أن يقف على صخرة، وأن الرب حين يجتاز الصخرة سيضع موسى في نقرة من الصخرة ويستره بيده حتى يجتاز «ثم أرفع يدي فتنظر ورائي، وأما وجهي فلا يرى» (خروج ٣٣/ ٢٠ - ٢٣)، وانظر عن هذا التناقض في روايات التوراة وغيره (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٢٢٤ - ٢٥٢).

أنظر إليك﴾ يعني مكنّي من رؤيتك بأن تتجلى لي حين أراك، وهو دليل لأهل السنة على جواز الرؤية، فإن موسى عليه السلام اعتقد أن الله تعالى يُرى حتى سأله، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر، **﴿قال لن تراني﴾** بالعين الفانية، بل بالعطاء والنوال بعي باقية، وهو دليل لنا أيضاً، لأنه لم يقل «لن أرى» ليكون نفياً للجواز، ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنه ليس بمرئي، إذا الحالة حالة الحاجة إلى البيان، ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني»، وهو دليل لنا أيضاً، لأنه على الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن، وتعليق الشيء بما هو ممكن يدل على إمكانه، كالتعليق بالممتنع يدل على امتناعه، والدليل على أنه ممكن قوله: **﴿جعله دكاً﴾**، ولم يقل أندك، وما أوجده تعالى كان جائز أن لا يوجد، لو لم يوجده، لأنه مختار من فعله، ولأنه تعالى ما آيسه عن ذلك ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك محالاً لعاتبه، كما عاتب نوحاً عليه السلام بقوله: «إني أعظك أن تكون من الجاهلين»، حين سأله إنجاء ابنه من الغرق[1].

(١) تفسير النسفي ١/ ٤٩، ٢/ ٧٥، تفسير الطبري ١/ ٢٨٩ - ٢٩٣، تاريخ الطبري ١/ ٤٢٨، ابن كثير: مختصر التفسير ١/ ٦٥ - ٦٦، ٢/ ٤٨ - ٤٩، البداية والنهاية ١/ ٢٨٣ - ٢٨٦، ٢٨٩، الكامل لابن الأثير ١/ ١٠٨ - ١٠٩، صفوة التفاسير ١/ ٥٩ - ٦٠، ٤٦٩.

الفصل الثاني

بنو إسرائيل في التيه

(١) ظهور فكرة الوطن عند بني إسرائيل : -

بدأ بنو إسرائيل يفكرون في وطن يستقرون فيه، وكان هذا الوطن هو أرض كنعان، رغم أنها لم تكن لهم من قبل دار قرار، إذ أنهم لم يقيموا فيها إلا لفترة وجيزة، لا تتجاوز أيام إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ثم هاجروا منها بسبب قحط عم وطال، فكانت أرض النيل الطيبة هي الملجأ أو المأوى، فقدموا إليها بدعوة من يوسف الصديق عليه السلام، والذي كان قد أصبح وقت ذاك عزيز مصر[١]، وفي تلك الآونة التي أقاموا فيها هناك في الجنوب الفلسطيني لم يمتلكوا، كما تقول توراتهم، حتى مكان خيامهم أو موضع قبورهم[٢]، وهاهم الأن بعد أن خرجوا من مصر، أو على الأصح، بعد أن هربوا منها، يهيمون في صحراوات سيناء المقفرة، وهنا، وهنا فقط، بدأت فكرة الوطن عندهم، ذلك لأن ربهم «يهوه» كان، فيما تروي توراتهم[٣]، قد وعدهم بأرض كنعان، ففكرة الوطن عند اليهود جاءت بعد ظهور بني إسرائيل، وعادة تتطور الشعوب في ظل أوطانها، ولكن بني

(١) سورة يوسف : آية ٥٨ - ١٠٠، تكوين ٤١/ ٥٦ - ٤٦/ ٣٤.

(٢) تكوين ٢٣/ ١ - ٢٠، ٣٧/ ١، ٤٧/ ٩.

(٣) خروج ٣/ ٨، ٣٢/ ١٣، ٣٣/ ١ - ٢.

إسرائيل ظهروا إلى الوجود أولاً، ثم ادعوا ملكية أرض كانت لغيرهم، ولا حق لهم فيها[1].

ولعل سائلاً يتساءل: لم وقع اختيار بني إسرائيل على فلسطين لتكون وطناً لهم؟ ولعل الإجابة إنما تكمن في الأسباب التالية، والتي منها (أولاً) أن العبرانيين قد اعتادوا العيش في أرض مصر الغنية، ومن ثم فهم لا يستطيعون البقاء في الصحراء، ولا بدلهم من الإندفاع تجاه وطن أفضل من هذه الصحراوات القاحلة في شبه جزيرة سيناء، وما داموا لن يستطيعوا العودة إلى أرض مصر الغنية، فليس أمامهم سوى كنعان، ومن المعروف أن العبرانيين، مهما قيل عن أسلافهم وأصلهم التاريخي، فقد كانوا قبائل رحلاً، ولما كانوا رحلاً في الشرق الأدنى، فقد عاشوا، لا في السهول الخضراء التي لا تنتهي، وإنما في رقعة بين البادية وبين الزرع، بين أخصب البقاع وبين نفي الحياة العام، ذلك لأنه في هذه البقعة العجيبة من العالم، إنما يتجاور الخصب والبوار، ومن ثم فلا بد أنهم قد اختبروا رفاه الحياة وعنتها في كلا الحالين، وقد تاق العبرانيون إلى الاستقرار في السهول الممرعة، ولكنهم كانوا يحملون بأرض تفيض غلالاً، كالتي تخيلها المصريون لآخرتهم[2].

ومنها (ثانياً) ذلك السبب التقليدي، إذ كانت هذه القبائل الرحل، ولعدة أجيال متتالية، ترنوا بناظريها إلى «أرض الميعاد»[3]، حيث كان الأجداد يعيشون قبل رحيلهم إلى مصر[4]، ومنها (ثالثاً) أن بني إسرائيل حين

---

(١) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٧٩.

(٢) H. Frankfort and others, Before Philosophy, 1949, P. 246.

(٣) أنظر: محمد بيومي مهران: قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٦، ٦٧، الاسكندرية ١٩٧٠.

(٤) H. R. Hall, op - cit, P. 409.

خرجوا من مصر فراراً من آل فرعون، أصبح عددهم يكفي لأن يقوم عليه مجتمع، له كيان ونظام ومكان، وقد جاءت التوراة بالنظام فأين يجدون المكان؟ إن أقرب مكان تطمح إليه أنظارهم، بعد مصر، إنما هو فلسطين[1]، أو كنعان كما كانوا يسمونها، فهي، كما حدثتهم توراتهم في أسفار موسى الخمسة، تفيض لبناً وعسلاً[2]، ومنها (رابعاً) أن موسى عليه السلام أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، سواء أكانت هذه الأرض هي فلسطين بعامة أو القدس أو أريحا فيما يرجح البعض، تنفيذاً لأمر الله تعالى: **﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾**[3].

(٢) الخوف من دخول كنعان: -

وهكذا بدأ موسى يسير بقومه نحو كنعان، ولكن كنعان كانت عامرة بالسكان، ومن ثم فإن محاولة دخولها إنما تعني الحرب بين بني إسرائيل وبين سكان فلسطين الأصليين، وهنا، وفي برية فاران، أمر الرب موسى أن يرسل بعضاً من رجاله بمثلون الأسباط جميعاً لكي يتجسسوا أرض كنعان، ويقوم الجواسيس بمهمتهم ثم يعودون إلى موسى بتفاصيل عما وجدوه في الأرض من تحصينات، وما فيها من نقاط ضعف وقوة[4]، غير أن الرسل إنما ينقسمون إلى فريقين، الواحد ويضم عشرة رجال، يرى أن اليهود أضعف من أن يقوموا، «لأن الأرض التي مررنا فيها لنتجسسها هي أرض تأكل سكانها، وجميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة، وقد رأينا هناك الجبابرة

---

(١) عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص ٢١٠.

(٢) خروج ٣/ ٨، ٣٢/ ١٣، ٣٣/ ٣، عدد ١٤/ ٨، تثنية ٢٦/ ١٥.

(٣) سورة المائدة: آية ٢١، وانظر: تفسير الطبري ١/ ٢٩٩ - ٣٠٣، تفسير النسفي ٢/ ٢٧٨، تفسير روح المعاني ١/ ٢٦٤، تفسير الخازن ١/ ٦٤، تفسير البيضاوي ١/ ١٤٨.

(٤) عدد ١٣/ ١ - ٢٩.

فكنا في أعيننا كالجراد، وهكذا كنا في أعينهم»[1]، وأما الفريق الآخر، ويضم رجلين، كالب بن يقنة ويشوع بن نون، فقد عارض هذا الإتجاه الجبان، بل إن كالب ليقول: «إننا نصعد ونمتلكها لأننا قادرون»[2].

وهنا يثور بنو إسرائيل على موسى وهارون، ومع ذلك فإن موسى إنما يبدأ يحرضهم على القتال، ولكنهم مع كثرتهم، **﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾**[3]، كانوا يخافون الحرب ويهابون القتال، إذ تمكنت منهم المذلة والصغار، فصاحوا بموسى وهارون قائلين: «ليتنا متنا في أرض مصر، أو ليتنا متنا في هذا القفر، ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف، تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة»[4]، بل وقد ذهب بهم التمرد، طبقاً لرواية التوراة، إلى حد الثورة على موسى شخصياً، والمناداة بخلع رياسته، وقيام سلطة جديدة تعود بهم إلى مصر، «أليس خير لنا أن نرجع إلى مصر، فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر»[5].

ويصور القرآن الكريم هذا الحادث تصويراً صادقاً، الصدق كل الصدق، مبيناً أن صفة الجبن عند الإسرائيليين، ليست صفة عرضية تزول بزوال أسبابها، وإنما هي جوهر مكوّن للشخصية الإسرائيلية، يتناسق مع بقية الصفات الجوهرية الأخرى، لأن القرآن الكريم إنما يصفهم بالجبن، وبين ظهرانيهم نبيّهم الكريم يحرضهم على القتال للدخول إلى أرض كنعان، والناس حين يكون بينهم نبيّهم يكونون أكثر تشوقاً للإستشهاد تحت

---

(١) عدد ١٣/ ٣١ - ٣٣.

(٢) عدد ١٣/ ٣٠.

(٣) سورة الحشر: آية ١٤.

(٤) عدد ١٤/ ١ - ٤.

(٥) عدد ١٤/ ٣ - ٤، وانظر: صفوة التفاسير ١/ ٣٣٦، التسهيل ١/ ١٧٣.

قيادته وفي ظل لوائه، ولكن الإسرائيليين شعب لم يؤمن بنبيّه[1]، شعب ليس في كيانه إلا عواطف ذليلة خانعة، وكيف يستطيع شعب ذليل لا يعرف سوى رائحة الشواء عند قدور اللحم في مصر، وإن استعبد من أجل ذلك وذل، وكيف يستطيع شعب كهذا أن يخوض المعارك، حتى وإن كان قائده كليم الله موسى عليه السلام.

وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين. قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾**[2].

ويقول ابن كثير في التفسير: وهذا نكول منهم عن الجهاد ومخالفة لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء، ويقال إنهم لما نكلوا على الجهاد وعزموا على الانصراف والرجوع إلى مصر، سجد موسى وهارون عليهما السلام قدام ملأ من بني إسرائيل، إعظاماً لما هموا به، وشق يوشع بن نون وكالب بن يفنة ثيابهما، ولاما قومهما على ذلك، فيقال إنهم رجموهما، وجرى أمر عظيم وخطر جليل[3]، وقال الصابوني في صفوة التفاسير: وهذا

---

(١) عبده الراجحي: الشخصية الإسرائيلية ـ الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٩٠.

(٢) سورة المائدة: آية ٢١ ـ ٢٤، وانظر: تفسير روح المعاني ٤/ ١٠٦ ـ ١٠٨، تفسير الطبرسي ٦/ ٦٥ ـ ٦٨، تفسير الطبري ١٠/ ١٧١ ـ ١٨٧، تفسير المنار ٦/ ٢٦٥ ـ ٢٧٦، تفسير الكشاف ١/ ٦١٩ ـ ٦٢١، تفسير القرطبي ص ٢١٢٠ ـ ٢١٢٥، تفسير النسفي ١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩، في ظلال القرآن ٦/ ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٨ ـ ٧٣.

إفراط في العصيان وما سوء الأدب بعبارة تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله[1]، على أن الإمام النسفي إنما يعلق على رأي بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ من حمله على الظاهر، وقال إنه كفر منهم، وليس كذلك، إذ قالوا ذلك اعتقاداً وكفروا به لحاربهم موسى، ولم تكن مقاتلة الجبارين أولى من مقاتلة هؤلاء، ولكن الوجه فيه أن يقال: فاذهب أنت وربك يعينك على قتالك، أو وربك أي سيدك وهو أخوك الأكبر هارون، أو لم يرد به حقيقة الذهاب، ولكن كما تقول: كلمته فذهب يجيبني، تريد معنى الإرادة كأنهم قالوا: أريد اقتالهم «فقاتلا إنا ها هنا قاعدون» ماكثون لا نقاتلهم لنصرة دينكم[2].

وأياً ما كان المعنى، فمن الواضح تماماً، أنه لم يستجب لموسى عليه السلام، إلا أخوه هارون، فيشكو لربه هؤلاء القوم الفاسقين الخانعين، «قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾[3]، فموسى عليه السلام يقول ذلك معتذراً إلى الله، متبرءاً من مقالة السفهاء، فهو لا يملك إلا نفسه ونفس أخيه وهارون، وكأن موسى لا يثق حتى بالرجلين المذكورين (يشوع وكالب) كل الوثوق، فلم يذكر إلا النبي المعصوم، أخاه هارون، ثم يطلب من الله تعالى: **فافصل بيننا وبينهم بأن تحكم لنا بما وعدتنا، وتحكم عليهم بما وعدتهم، وهو في معنى الدعاء عليهم، خاصة وقد وصفهم بالقوم الفاسقين**[4].

ولعل هذا الموقف الجبان من بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه

---

(١) صفوة التفاسير ١/ ٣٣٦.

(٢) تفسير النسفي ١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٣) سورة المائدة: آية ٢٥، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣، تفسير المنار ٦/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٣/ ١٥٤، تفسير الطبرسي ٦/ ٦٨ ـ ٦٩.

(٤) تفسير النسفي ١ / ٢٧٩، صفوة التفاسير ١ / ٣٣٦.

السلام، بعد ما رأوا من الآيات كفلق البحر وإغراق عدوهم وإنزال المن والسلوى وتظليل الغمام ونحو ذلك من الأمور العظام، يذكرنا ـ مع الفارق الكبير، بموقف المسلمين، من مهاجرين وأنصار، من سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ قبيل بداية القتال في غزوة بدر الكبرى، وكانت القوة الإسلامية تكاد لا تبلغ ثلث القوة القرشية الكافرة، عدداً وعدة، عندما وقف «المقداد بن عمرو الكندي» يقول لسيدنا رسول الله ﷺ : يا رسول الله، إمض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك، كما قالت بنو إسرائيل لموسى «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون».

ومن هذا المنطق كذلك، يقف «سعد بن معاذ» ليرد على رسول الله ﷺ حين أراد أن يعرف رأي الأنصار، «لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضي لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله»[1].

وهكذا بهذه الروح العالية، وبهدى من الله، وبإرشاد من رسول الله، وباتباع لكتاب الله وسنة رسوله، استطاع المسلمون أن يجعلوا راية الإسلام ترفرف عالية على ربوع الشرق، بعد أن طردوا الساسانيين والرومان من شرقنا

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٩٣، ٦/ ٦٤ ـ ٦٥، مسند الإمام أحمد ١/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠، ابن هشام: سيرة النبي ١/ ٦١٤ ـ ٦١٥، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٨، ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣، تفسير الطبري ١٠/ ١٨٥ ـ ١٨٦، تفسير ابن كثير ٣/ ٧١ ـ ٧٢، الواقدي: كتاب المغازي ١/ ٤٨ ـ ٤٩.

العربي، ودكوا عروش الأباطرة، ونشروا الإسلام، وشادوا الحضارة العربية الإسلامية.

(٣) التيه : -

وهكذا كان حكم الله العادل على هؤلاء القوم الفاسقين من بني إسرائيل بالفناء والتشرد، تقول التوراة: «إن جميع الرجال الذين رأوا مجدي وآياتي التي عملتها في مصر وفي البرية، وجربوني الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولي، لن يروا الأرض التي حلفت لآبائهم، وجميع الذين أهانوني لا يرونها»[1]، ثم يقول لموسى: «حي أنا يقول الرب، لأفعلن بكم تكلمتم في أذني، في هذا القفر تسقط جثثكم، جميع المعدودين منكم حسب عددكم، من ابن عشرين سنة فصاعداً، الذين تذمروا على، لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأسكنكم فيها، ما عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون، وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة، فإني سأدخلهم فيعرفون الأرض التي احتقرتموها، فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر، وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة، ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر، كعدد الأيام التي تجسستم فيها الأرض إربعين يوماً للسنة، يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادي أنا الرب، قد تكلمت لأفعلن هكذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة عليّ، في هذا القفر يفنون وفيه يموتون»[2].

وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾**[3].

---

(١) عدد ١٤/ ٢٢ - ٢٣.

(٢) عدد ١٤/ ٢٨ - ٣٥.

(٣) سورة المائدة: آية ٢٦، وانظر: تفسير الكشاف ١/ ٦٢١، تفسير الطبري ١٠/ ١٩٠ - ٢٠٠، في ظلال القرآن ٦/ ١٢٩ - ١٣٠ تفسير الطبرسي ٦/ ٦٩ - ٧١، تفسير النسفي ٢/ ٢٧٩ - ٢٨٠، تفسير المنار ٦/ ٢٧٧ - ٢٧٩، تفسير القرطبي ص ٢١٢٦ - ٢١٣٠.

ويقرر بعض العلماء أن «التيه» هو الذي حدد بأربعين سنة، وليس «التحريم»، فالتحريم مطلق أبدي[1]، ومن أجل هذا يوقف في القراءة بعد قوله تعالى: ﴿**محرمة عليهم**﴾ ثم يبتدأ بقوله تعالى: ﴿**أربعين سنة يتيهون في الأرض**﴾ذلك لأن الرجال الصالحين للحرب، الذين عصوا موسى، ماتوا في البرية أثناء السنين الأربعين، ولم يدخل أحد منهم إلى أرض الموعد، فكانت محرمة عليهم بإطلاق[2]، ويتفق هذا التفسير للنص القرآني الكريم تماماً مع نص التوراة الآنف الذكر، ومن ثم ترى جمهرة العلماء أن جميع الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر، سوف يموتون في البرية، ولن يروا أرض الميعاد أبداً، ما عدا يوشع بن نون وكالب بن يفنة[3].

وجاء في تفسير ابن كثير عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض» قال: فتاهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى، وهذه قطعة من حديث الفتون، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام[4] ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة

---

(١) يرى بعض المفسرين أن التحريم هنا تحريم منع، لا تحريم تعبد، كقوله تعالى: ﴿**وحرمنا عليه المراضع**﴾، ولذا قيل إن الحرمة مؤبدة حتى يموتوا ويدخلها أبناؤهم (تفسير النسفي ١/ ٢٧٩ - ٢٨٠، تفسير الخازن ٢/ ٣٣).

(٢) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ٢٢٨، تفسير الكشاف ١/٦٢٢، تفسير الطبرسي ٦/ ٧٠، تفسير القرطبي ص ٢١٢٦ - ٢١٢٧، في ظلال القرآن ٦/ ١٢٩، تفسير النسفي ١/ ٢٧٩ - ٢٨٠، تفسير روح المعاني ٦/ ١٠٩، تفسير المنار ٦/ ٢٧٧، تاريخ الطبري ١/ ٤٣٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٤، تاريخ الطبري ١/ ٤٣٦، عدد ١٤/ ٢٦ - ٣٠.

(٤) روى الطبري في تفسيره عن الإمام علي كرم الله وجهه في الجنة في تفسير قوله تعالى: ﴿**واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا**﴾، كان هارون حسن الخلق محبباً في بني إسرائيل، فلما مات دفنه موسى، قال فلما أتى بني إسرائيل قالوا له أين هارون، قال مات، قالوا قتلته، قال فاختار منهم سبعين رجلاً، قال فلما أتوا القبر قال موسى: أقتلت أو مت، قال مت، فأصعقوا، فقال موسى: رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت، يقولون أنت قتلتهم قال =

موسى الكليم عليه السلام، وأقام الله فيهم يشوع بن نون نبياً خليفة عن موسى بن عمران، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة، ويقال إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب، وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: فأنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض» قال: فتاهوا أربعين سنة، قال: فهلك موسى وهارون في التيه، وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون، وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها (أي الأرض المقدسة)[1].

وأما سبب فكرة التيه أربعين سنة في البرية، فهو موضع خلاف بين العلماء، فهناك من يرى أنها كانت بسبب خوف الإسرائيليين من المصريين، وانتظاراً للوقت المناسب الذي تضعف فيه السيادة المصرية على كنعان فيدخلونها آمنين[2]، ومن ثم فقد مضت أربعون سنة قبل أن يدخل بنو إسرائيل أرض الميعاد، حيث استطاع موسى أن يكوّن من هؤلاء العبيد المحررين حديثاً، وحدة واحدة، وأمة منظمة، وأن يطبعهم بطابع الصفات الخلقية الروحية التي كان يتطلبها قدرهم[3].

والرأي عند «ابن خلدون» أن التية إنما كان لإفناء أبناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة، وإنشاء جيل آخر عزيز، لا يعرف

= فأحيوا، وفي رواية في تفسير الخازن: أن موسى لما اتهم بقتل هارون أمر الله الملائكة فحملوه حتى مروا به على بني إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته، فصدقت بنو إسرائيل أنه مات وبرأ الله موسى مما قالوا، ثم إن الملائكة حملوه ودفنوه، ولم يطلع على قبره أحد، (تفسير الطبري ١٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣، تفسير الخازن ٢/ ٣٤، ثم قارن عدد ٢٠/ ٢٢ ـ ٢!، حيث يرى أن هارون مات ودفن على رأس جبل هور).

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٤، وانظر تفسير النسفي ١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٢) حسين فوزي النجار: أرض الميعاد ـ القاهرة ١٩٥٩ ص ١٥٦.

(٣) I. Epstein, Judaism, 1970, P. 32.

الإحكام والقهر، ولا يسام الذل والهوان، والعلماء يقررون أن حضانة العلم خمس عشرة سنة، فإذا ابتدأت أمة تتعلم فإنها تجني ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة، وأما حضانة الأخلاق فمدتها أربعون سنة، فإذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق فإنها لا تجني الثمرة إلا بعد أربعين سنة، لذلك أراد الله تعالى أن يبقي بنو إسرائيل في البرية أربعين سنة حتى يفنى الجيل الذي نشأ في الذل والاستعباد، وينشأ جيل ألف الحرية ولم تذله العبودية[1].

على أن هناك فريقاً من العلماء يرى أن فترة التيه هذه إنما تتصل اتصالاً وثيقاً بعقيدة إسرائيل الجديدة، ذلك لأن فترة الأربعين سنة للتيه إنما كانت ملائمة لغرس العقيدة الجديدة في عقول وقلوب القوم الذين اعتادوا رونق الطقوس المصرية، كما أن تلك العقيدة، سوف تتعرض لأخطار أعظم فيما بعد في فلسطين[2]، مما يجعلها في أشد الحاجة إلى فترة كافية لتثبيت الإيمان بها.

وأياً ما كان الأمر، فإن ختام القصة هنا في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿**فلا تأس على القوم الفاسقين**﴾ إنما هو تسلية لموسى عليه السلام، أي لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به فإنهم مستحقون ذلك، وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ورسوله، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد فضعفت نفوسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان سيدنا موسى عليه السلام، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا مع ما شهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون، لتقر به أعينهم وما بالعهد

---

(١) عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) L. Woolley, op - cit, P. 497.

من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر، لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعدوهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون، وفي غيّهم يترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك نحن أبناء الله وأحباؤه، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقردة، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل، وله الحمد من جميع الوجود[1].

(٤) عودة التمرد ضد موسى: -

وما أن يمضي حين من الدهر قليل، بعد أن كتب الله على بني إسرائيل أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، حتى تعود ثورات بني إسرائيل على موسى من جديد، غير أن الجديد هنا أن ثورة اليوم إنما يتزعمها أحد اللاويين، سبط موسى نفسه، ذلك أننا نقرأ في سفر العدد من التوراة أن مائتين وخمسين من شيوخ إسرائيل، بقيادة «قورح» «اللاوي» قد اتهموا موسى وهارون بأنهما يترفعان على جماعة الرب، رغم أن كل الجماعة بأسرها مقدسة، وفي وسطها الرب، ويحاول موسى أن يهدىء من ثائرة القوم، وأن يذكر قورح بأن الرب إنما قرب سبطه اللاويين إليه، دون بقية أسباط بني إسرائيل، غير أن الثورة لا تهدأ، ومن ثم يرسل موسى في طلب الزعيمين الآخرين «داثان وأبيرام»، لعله ينجح في تهدئة القوم عن طريقهما، إلا أن الرجلين يرفضان مجرد الاجتماع بموسى، قائلين «أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض عسلاً ولبناً لتميتنا في البرية، حتى تترأس علينا، كذلك لم تأت بنا إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً، ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم، هل تقلع أعين هؤلاء القوم، لا نصعد»[2]، ولعل هذا هو السبب في الثورات المتكررة من بني إسرائيل

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٥.

(٢) عدد ١٦/ ١ - ١٤.

على موسى وأخيه وهارون عليهما السلام، ذلك لأن هؤلاء الرحل الشاردين الحائرين الذين كانوا يسعون جاهدين وراء حياة أفضل من الارتحال، ويحلمون، بعد أن ذاقوا مرارة التنقل واشتد حنينهم إلى أرض كأرض مصر، بأرض تفيض لبناً وعسلاً، ما داموا لا يستطيعون العودة إلى مصر، ومن ثم فلم يلبثوا أن انحنوا باللائمة على من أثارهم ضد أصحابها[1].

وعلى أي حال، فإن الثورة قد انتهت بإبادة زعمائها، إذ «فتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم»، ثم سرعان ما خرجت نار من عند الرب فأكلت المائتين والخمسين رجلاً، وأما بقية بني إسرائيل فقد سلط الله عليهم وباء كاد أن يفنيهم عن بكرة أبيهم، لولا أن موسى قد أمر ابن هارون بأن يسرع بإيقاد البخور للتكفير عن جماعة الرب ومع ذلك فقد مات بهذا الوباء «أربعة عشر ألفاً وسبع مئة، عدا الذين ماتوا بسبب قورح»[2].

ولم يكتف بنو إسرائيل بثورة «قورح» هذه، إذ سرعان ما تعاودهم آفتهم القديمة، فيعاودون التمرد على موسى، بل إن الثورة هذه المرة إنما تتجاوز كل الحدود، حتى تصل إلى ذات الله العلية، وذلك حين «تكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية، لأنه لا خبز ولا ماء، وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف» (يعني المن والسلوى)، فسلط الله عليهم الحيات فمات قوم كثيرون من بني إسرائيل، ولم يرفع الله عنهم هذا البلاء، إلا بتضرع من موسى «فصلى موسى لأجل الشعب، فقال الرب لموسى: إصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ ونظر إليها يحيا[3]، فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية

---

(1) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٢٢٢.

(2) عدد ١٦/ ٣٢ - ٥٠.

(3) من عجب أن يذهب المؤرخ الكبير «برستد» إلى أن موسى كان يتمسك ببعض الذكريات عن =

فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر إلى حية النحاس يحيا»[1].

(٥) بنو إسرائيل على تخوم كنعان : -

ويبدأ موسى عليه السلام يستعد لدخول أرض كنعان، فيرسل رسلاً من «قادش» (عند طرف برية صين غرب وادي العربة، ويرجح أنها عين قضيرات على مقربة من عين قديس جنوبي بئر سبع بحوالي ٥٠ ميلاً) إلى ملك أدوم[2]، قائلاً: «دعنا نمر في أرضك، لا نمر في حقل ولا في كرم ولا نشرب

= التماثيل الدينية المصرية، فقد كان يحمل عصا سحرية عظيمة في صورة «ثعبان» تسكن فيها قوة «يهوه»، كما كان ينصب ثعباناً من النحاس البراق ليشفي به الناس، وكان هذا الثعبان أحد الثعابين المقدسة العديدة في مصر، وقد بقيت صورة ذلك الإله المصري القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمن طويل واستمروا في إطلاق البخور له من مدة خمسة قرون بعد موسى، ولم يبعد عن البيت المقدس إلا في حكم «حزقيا» (٧١٥ - ٦٨٧ ق. م) ملك يهوذا، وأما الدكتور هانيء رزق فيرى الحدث رمزاً لصلب المسيح، فكما رفع موسى الحية لكي يحيا كل من ينظر إليها، هكذا رفع يسوع المسيح على الصلب لكي يحيا كل من يؤمن به ((عدد ٢١/ ٩، ملوك ثان ١٨/ ٤، هاني رزق: يسوع المسيح في ناسوته وألوهيته ص ١٥٢ - ١٥٣ وكذا J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y, 1939, P. 354.

(١) عدد ٢١/ ٥ - ٩.

(٢) أدوم: نسبة إلى عيسو (العيص) بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، والشقيق التوأم ليعقوب، ومن ثم فهم أقرب الناس إلى آل يعقوب، دماً ولغة، ومع ذلك فكان بنو إسرائيل يُعدون الأدوميين من ألد أعدائهم، حتى أن المنازعات السياسية بينهم قد استمرت حتى أنتهى الأمر بفناء الأدوميين وامتزاجهم باليهود من ناحية، وبالأنباط من ناحية أخرى، وأما موطن الأدوميين فكان في أقصى جنوب بلاد شرق الأردن وجنوب وادي الحسا، وتطلق التوراة على هذا الإقليم اسم «سعير» وكانت عاصمتهم «سالع» وهي نفسها «البتراء» التي أصبحت عاصمة الأنباط فيما بعد، وتقع على مبعدة ٥٠ ميلاً جنوب البحر الميت، ومن أهم مدنهم «بصرة» وهي بصيرة الحديثة على مبعدة ٢٠ ميلاً جنوب شرق البحر الميت، ثم «تيمان» على مقربة من البتراء، ثم «عصيون جابر» وهي تل الخليفة على الطرف الشمالي لخليج العقبة بالقرب من «إيلات»، وأما نظامهم السياسي فكانوا أولاً يحكمون بأمراء أشبه برؤساء العشائر، ثم كونوا مملكة ربما كان ملوكها منتخبين، وقد جلس على عرشها ثمانية ملوك قبل قيام الملكية =

ماء بئر، لا نميل يميناً ولا يساراً، حتى نتجاوز تخومك»، ولكن الملك الأدومي لا يجيب سؤلهم، ومن ثم يجد الإسرائيليون أنه لا مناص من الذهاب إلى جبل هور، حيث يموت هارون هناك[1]، وهذا يدل على أنه كانت هناك مملكة قوية في أدوم في ذلك الوقت، وأن الأرض إنما كانت تعبر من «طريق الملك العمومي»، كما يدل على أن هناك حضارة مزدهرة كانت في أدوم في تلك الفترة[2].

وعلى أية حال، فإن ملك «عراد»[3] الكنعاني عندما يسمع بقدوم الإسرائيليين، سرعان ما يشن عليهم حرباً، ويسبي الكثير منهم، ومن ثم «فقد نذر إسرائيل نذراً للرب وقال إن دفعت هؤلاء القوم إلى يدي أحرم مدنهم، فسمع الرب لقول إسرائيل ودفع الكنعانيين فحرموهم ومدنهم، فدعي اسم المكان حُرْمة»[4]، وفي الواقع أننا لم نسمع من قبل أن ينذر الناس لربهم إحراق أعدائهم، فضلاً عن مدنهم، إن كتب الله لهم عليهم نصراً، ولكن ما حيلتنا وتوراة اليهود لا تصور رب اليهود هذا، إلا قاسياً مدمراً، متعطشاً للدماء، متعصباً لشعبه، لأنه إله اليهود فحسب، وليس إله العالمين، ومن ثم فقد دعوا «الله» رب الجنود، معتقدين بأن هذا معناه رب جنود إسرائيل، مما جعلهم يعتقدون كذلك بأن الله ملزم بأن يحامي عنهم،

= الإسرائيلية واستيلاء داود على مملكة أدوم، وقد انتهت حياة الأدوميين ككيان سياسي مستقل حين استولى يوحنا المكابي على مدنهم ثم أجبرهم على الختان واعتناق اليهودية في القرن الثاني قبل الميلاد، رغبة منه في إزالة الفوارق الدينية بينهم وبين اليهود (أنظر التفصيلات والمراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٥٤٧ - ٥٥٢).

(١) عدد ٢٠/ ٢٢ - ٢٩.

(٢) J. Finegan, Light from the Ancient Past..., Prinection, 1969, P. 152.

(٣) عراد: اسم عبري بمعنى «حمار الوحش» وهي هنا بلد يقع على مبعدة ١٧ ميلاً من حبرون (الخليل).

(٤) عدد ٢١/ ١ - ٣.

لأن كرامة الله مرتبطة بكرامة الأمة، ومن ثم فإن حمايتهم إنما هي حماية لكرامته، وإذا حدث أن سقطت الأمة، فمعنى هذا في نظرهم أن الله نفسه قد سقط[1]، والعياذ بالله، ومن هنا كان عليه أن يكرس كل قوته وسلطانه من جل شعبه إسرائيل، وهو لذلك يحارب إلى جانبهم أو يحارب بدلاً عنهم أو يطرد من أمامهم أعداءهم، وييسر لهم قتلهم، ويحل لهم نهبهم[2].

وأياً ما كان الأمر، فإن الملك الآدومي عندما رفض أن يسمح للإسرائيليين بأن يمروا في مملكته، فإنهم اضطروا إلى أن يسلكوا طريقاً شاقاً في البرية، ونقرأ في التوراة أنهم قد ارتحلوا «من جبل هور في طريق بحر سوف[3]، ليدوروا بأرض أدوم[4]»، وهنا يضطر بنو إسرائيل إلى أن يتجولوا هنا وهناك من شرق الأردن، دون أن يستطيعوا العبور إلى غرب هذا الأردن، محتكين بكل القبائل الساكنة هناك، والرافضة أبداً استقبال أي واحد من بني إسرائيل، وأخيراً وصل الإسرائيليون إلى «مؤاب» شمال أدوم، وذلك حين «نزلوا في عين عباريم[5] في البرية التي قبالة مؤاب إلى شروق

---

(١) القس عاموس عبد المسيح: دراسة في عاموس - ترجمة حارث قريصة - القاهرة ١٩٦٦ ص ١٨.

(٢) عبده الراجحي: المرجع السابق ص ٤٧، تثنية ٩/ ٣.

(٣) بحر سوف: لعل هذا النص (عدد ٢١/ ٤) إنما يعني خليج العقبة، وليس البحر الذي انفلق لموسى في مصر، والذي ذكر على أنه يم سوف أو بحر سوف (خروج ١٣/ ١٧ - ١٨) خاصة وإن نص الملوك الأول (٩/ ٢٦) يقول: «وعمل الملك سليمان سفناً من عصيون جابر التي بجانب إيلة على شاطىء بحر سوف في أرض أدوم»، مما يؤكد أن بحر سوف في نصي (عدد ٢١/ ٤، ملوك أول ٩/ ٢٦) هو خليج العقبة.

(٤) عدد ٢١/ ٤.

(٥) عباريم: سلسلة جبال في شرق الأردن سميت عباريم لأنها في عبر النهر، وتمتد من وادي قفرين في الشمال إلى وادي الزرقاء ووادي الحسا في الجنوب، ولها عدة قمم منها «نبو» (حيث دفن موسى عليه السلام) وهوشع وعجلون.

الشمس، ومن هناك ارتحلوا ونزلوا في وادي «زارد[1]»، ومن هناك ارتحلوا ونزلوا في عبر «أرنون[2]» الذي في البرية خارجاً عن تخم الآموريين[3]، لأن أرنون هو تخم مؤاب بين مؤاب والآموريين»[4].

هذا ويتجه بنو إسرائيل بعد ذلك إلى أرض جلعاد ـ منطقة الآموريين ـ وكان «سيحون» ملك الآموريين قد أخذ أرضاً من مؤاب، واتخذ من حشبون[5]» عاصمة له، ثم امتدت أملاكه من نهر أرنون إلى نهر يبوق[6]، والتي هي الآن وادي الزرقاء، وبينما كان الإسرائيليون مضطرين إلى الدوران حول أدوم ومؤاب[7]، فقد نجحوا في تحدي سيحون في

---

(١) زارد: اسم عبري معناه «ازدهار» وهو جدول ماء يخرج من جبل عباريم ويصب في البحر الميت (بحر لوط) في الجزء الجنوبي الشرقي منه، وكان يمثل الحد الطبيعي بين أدوم ومؤاب، ويعرف الآن بوادي الحصى (قاموس الكتاب المقدس (١/ ٤٢١ ـ ٤٢٢).

(٢) أرنون: وهو نهر يدعى الآن وادي الموجب في المملكة الأردنية الهاشمية ويتكون من وادي «وله» الذي يأتي من الشمال الشرقي، ووادي «عنقيلة» الآتي من الشرق، و«سيل الصعدة» الآتي من الجنوب، ويجري نهر أرنون في غور عميق حتى يصل إلى البحر الميت في نقطة تقع إلى مسافة قصيرة من منتصف الشاطىء الشرقي (قاموس الكتاب المقدس ١/ ٥٧).

(٣) أنظر عن الآموريين: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٥١٠ ـ ٥١٤.

(٤) عدد ٢١/ ١١ ـ ١٣.

(٥) حشبون: وتعرف الآن باسم «حسبان» وهي مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون ويبوق، وتقع على مبعدة سبعة أميال ونصف شمال «مادبا».

(٦) يبوق: هو نهر الزرقاء الذي ينبع إلى الغرب من عمان، ثم يسير شرقاً ثم شمالاً، مارا بمدينة الزرقاء التي حملت اسمه، ثم يصب في نهر الأردن على مبعدة ٤٣ ميلاً إلى الشمال من البحر الميت، وهناك في مخاضة في هذا النهر حدثت قصة المصارعة المشهورة مع يعقوب (تكوين ٣٢/ ٢٢ ـ ٣٢، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ١٠٥١).

(٧) مؤاب: تنسب مؤاب إلى مؤاب بن لوط عليه السلام، ومن ثم على صلة قرابة بالعرب والإسرائيليين عن طريق لوط ابن أخي إبراهيم، عليهما السلام، هذا وقد امتدت مملكة مؤاب من ناحية الشرق، من البحر الميت حتى الصحراء، واتسعت شمالاً حتى وادي الموجب (نهر أرنون)، وكانت مؤاب، مثل أدوم، حصينة قوية ذات مواقع استراتيجية على الحدود وفي =

«ياهص»[1]، كما نجحوا في تحدي عوج ملك باشان في «أذرعي»[2] وبذلك تمكنوا من الوصول إلى الأردن في مقابل «أريحا»[3].

وهناك من يميل إلى تأريخ هذه الأحداث بنهاية عصر البرونز الأخير، وقرب بداية عصر الحديد، ذلك لأن التوراة إنما تحدثنا عن أن عوج ملك باشان كان له سرير من حديد[4]، وإن كان هناك من يذهب إلى أن هذه العبارة إنما تشير إلى «ناؤوس» من البازلت الأسود، كان به ٢٠٪ من الحديد[5].

وأياً ما كان الأمر، فمن رأس الفسجة، التي يفترض أنها جزء من جبل

= الداخل، ومن ثم فقد منعت بني إسرائيل من السير في البرية التي تقع قبالتها، وأما عاصمة مؤاب فهي «ديبون» (ذيبان الحالية على مبعدة ثلاثة أميال شمال وادي الموجب)، هذا وقد كشفت آثار كثيرة في مؤاب، وخاصة في ربة مؤاب وكرك وماديا ومعين وأم رصاص، وفي عام ١٩٥٠/ ١٩٥١ كشفت بعثة أمريكية في ديبون عن عدد من المباني والفخار الذي يرجع إلى عصر البرونز المبكر، وحتى العصر العربي المبكر، وإن لم تكشف شيئاً عن عصر البرونز المتأخر، وأما لغة مؤاب فهي من اللهجات التي كتبت بها التوراة، والمعروف عادة بالعبرانية، والقرابة بين اللغة المؤابية والعبرية مؤكدة، والمؤابية على أية حال، لغة سامية قريبة من العبرية كذلك، كما يبدو واضحاً من نقش «الحجر المؤابي» والذي يرجع إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، ويقدم لنا أقدم نقش مكتوب على النمط السامي الشمالي القديم، وقد كشف عنه عام ١٨٦٨ م في ديبون العاصمة، ونقل إلى متحف اللوفر بباريس (أنظر عن التفصيلات والمراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٥٥٢ - ٥٥٦).

(١) ياهص: ويقع على مبعدة ميل جنوب زرقاء معين، ١٢ ميلاً شرقي البحر الميت، وهي إما قرية أم المواليد أو خربة إسكندر (قاموس الكتاب المقدس ٢/ ١٠٤٩).

(٢) أذرعي: وتسمى الآن «درعة» وتقع في وادي زبدة، على مبعدة ٢٩ ميلاً شرقي الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية، وعلى الحدود بين الأردن وسورية (قاموس الكتاب المقدس ١/ ٤٢).

(٣) عدد ٢١/ ٢١ - ٣٥، ١٢/ ١، تثنية ٢/ ٢٦ - ٣/ ١١.

(٤) تثنية ٣/ ١١.

(٥) J. Finegan, op - cit, P. 154.

«نبو» على مبعدة ثمانية أميال إلى الشرق من نهر الأردن، نظر موسى عليه السلام إلى أرض الميعاد، ومات ودفن في أرض مؤاب [1]، كما سنفصل ذلك في الفصل الثالث من الباب الرابع.

---

(1) تثنية ٣/ ٢٧، ٣٤/ ١ ـ ٨، وانظر: Sylvester J. Saller, The Mimorial of Moses on Mount Neblo, 2 Vols, 1941.

البَابُ الرَّابِع

قَضَايا مِن سِيرة مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام

الفصل الأول

موسى بين الأصل الإسرائيلي والمصري

لا ريب في أن شراح التوراة ومفسري القرآن الكريم إنما يجمعون، أو يكادون، على أن كليم الله موسى عليه السلام من بني إسرائيل، وأنه «موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب، وهو إسرائيل عليه السلام، وإن أضافت المصادر الإسلامية إسم «يصهر» بين عمران وقاهت، وهو في التوراة «موسى بن عمر أم بن قهات بن لاوى»، وأما أمه فهي «يوكابد بنت لاوى، التي ولدت للاوى في مصر، وهي عمة زوجها عمرام، الذي ولدت له ولديه هارون وموسى وأختهما مريم[1].

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن الإمام الطبري، وكذا ابن الأثير من بعده، إنما يذهبان إلى أن اسم موسى، إنما هو إسم مصري، ويتكون في اللغة المصرية القديمة من كلمتين «ماء وشجر» لأنه التقط من بين الماء والشجر، والماء في المصرية (القبطية كما يسمونها خطأ) «مو»، والشجر «شا» أو «سا»، هذا ويذهب الألوسي إلى أن اسم موسى اسم أعجمي لا ينصرف للعلمية والعجمة، ويقال إنه مركب من «مو» وهو الماء، و «شى»

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٩٢، تاريخ اليعقوبي ١/ ٣٣، تاريخ الطبري ١/ ٣٨٥، تفسير الطبري ١/ ٢٧٩، الكامل لابن الأثير ١/ ٩٥، مروج الذهب للمسعودي ١/ ٦١، التوراة: سفر الخروج ٦/ ٢٠، عدد ٢٦/ ٥٨ـ ٥٩.

وهو الشجر، وغيّر إلى «سى» كأن من سماه أراد ماء البحر والتابوت الذي قذف فيه، على أن الخازن إنما يراه إسماً عبرياً عرب، وهو بالعبرانية الماء والشجر، سمي به لأنه أخذ من بين الماء والشجر ثم قلبت الشين المعجمة سيناء في العربية، هذا وقد نقل السيوطي عن السدى أنه سمي موسى لأنهم وجدوه بين ماء وشجر، والماء بالنبطية «مو»، والشجر «سى»[1]، وبدهي أن اسم موسى اسم مصري على وجه اليقين، كما سنرى.

وفي عام ١٩٣٨ م أصدر العالم النفساني اليهودي «سيجموند فرويد» كتابه موسى والتوحيد[2]»، فأراد أن يثير شبهة حول أصل موسى، الذي رآه «مصرياً»، وليس إسرائيلياً، معتمداً في ذلك على أن إسم موسى، والذي ينطق بالعبرية «موشيه» طبقاً لرواية التوراة في سفر الخروج (٢/ ١٠)، ذلك أن الأميرة المصرية، وهي نفس الوقت ابنة فرعون، قد انتشلته من النيل، وسمته إثر ذلك «موسى» معللة لهذه التسمية بعلة لغوية اشتقاقية، حيث رد كاتب التوراة اللفظ إلى اسم المفعول من الفعل العبري «مشه» بمعنى المُنْتَشَلْ أو المُسْتنقذ.

ومع ذلك، فإن هذا التعليل ينطوي على خطأ واضح، إذ جاء في «المعجم اليهودي» أن تفسير التوراة لاسم موسى بأنه «المُنتشل من الماء»، تفسير اشتقاقي شعبي، وهو لا يستقيم مع الصيغة والوزن لكلمة «موشيه»، التي هي في العبرية اسم فاعل، لا اسم مفعول، ودلالتها الصحيحة «المنتشِل» ـ بكسر الشين ـ لا «المنتشل» بفتحها، ومن ثم فهو اسم فاعل،

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٧٩، تاريخ الطبري ١/ ٣٩٠، ابن الأثير ١/ ٩٧، تفسير روح المعاني ١/ ٢٥٨، تفسير الخازن ١/ ٥٩، الدر المنثور ٥/ ١٢٠، تفسير البغوي ١/ ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) Sigmund Freud, Moses and Monotheism, Translated from the German by K. Jones, N. Y, 1939.

بمعنى «المنقذ أو المحرر»، كأن الذين أسموه كانوا يعلمون ما سوف يصير إليه ذلك الطفل اللقيط[1].

هذا وهناك نقطتان أخريان تؤكدان عدم اشتقاق هذه التسمية، أولهما: أنه من غير المؤكد كون الأميرة المصرية على علم بالاشتقاق في اللغة العبرية ـ هذا إذا كانت هناك لغة عبرية قد ظهرت في هذا الوقت المبكر، على الأقل من القرن الثالث عشر قبل الميلاد[2]؟ ـ هذا فضلاً عن أن ابنة فرعون، إنما هي أميرة مصرية، تتكلم المصرية وتفكر بها، وما كان لها أن تتحدث العبرية في حياتها وبين مواطنيها، حتى تتخذ للطفل ـ مع كراهية شائعة للعبريين يومئذ ـ إسماً عبرياً[3].

ومن ثم فقد رأى مؤرخ اليهود «يوسف بن متي» أن يرد اللفظ إلى أصل مصري واشتقاق مصري، مع تقيّده بما ورد في التوراة، من حيث ارتباط الاسم بما كان من التقاط من الماء، فقال: إن المصريين يسمون الماء «مو» ويقولون للذي يستنقذ من الماء «أوسيس»، غير أن حرص يوسف اليهودي على تفسير يكون مصدقاً لما جاء في التوراة قد حمله ـ متعمداً ـ على إغفال معنى لفظ أوسيس، المصحوف عن لفظ «حسى» المصري، وهو أصلاً ـ حتى زمان موسى في الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ ـ ١١٨٤ ق. م) ـ بمعنى

---

(١) Ibid., op - cit., p. 4.

(٢) كان أسلاف العبرانيين يتكلمون الآرامية قبل أن يستقروا في فلسطين، ثم بدأوا يتكلمون لغة الشعوب المضيفة لهم، ففي مصر كانوا يتكلمون المصرية، وفي كنعان كانوا يتكلمون الكنعانية، وأما اللغة العبرية ـ والتي كانت خليطاً من الآرامية والكنعانية وكثير من اللغات السامية وغير السامية ـ فيرجع تاريخ ظهورها إلى ما قبيل عام ١١٠٠ ق. م (أنظر محمد عبد القادر: الساميون في العصور القديمة ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٢٠٨، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ٣/ ٣٢، فؤاد حسنين: التوراة الهيروغليفية ص ٤).

(٣) أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٩٠. وكذا S. Freud, op - cit, P. 4.

«الحميد»، ثم أصبح يطلق منذ الأسرة الثلاثين (٣٨٠ - ٣٤٣ ق. م) على الموتى من الغرقى المنتشلين من النيل للدفن، وإلى ذلك أشار «كليمنت الإسكندري» (١٥٠ - ٢١٢م) من بعده (أي من بعد يوسف اليهودي)، فكأنه بذلك قد اتخذ لفظاً بمعنى متأخر عن عصر موسى وطبقه تطبيقاً غير دقيق ولا سليم[١].

وأما النقطة الثانية التي تؤكد عدم اشتقاق هذه التسمية، فإنه يكاد يكون من المؤكد الآن أن الطفل موسى لم ينتشل من ماء النيل[٢] وربما كان فرويد يعني أحد فروع النيل في الدلتا الشرقية، حيث يوجد قصر الفرعون وقت ذاك.

وعلى أي حال، فإن كثيراً من الباحثين قد ربطوا منذ سنين طويلة اسم موسى - وهو لفظ مشتق من مصدر الولادة بمعنى الولد أو الوليد - بأصول في اللغة المصرية القديمة، ومن هؤلاء المؤرخ الأمريكي الكبير «جيمس هنري برستد» الذي يقول: إنه يجب أن نلاحظ أن اسم موسى كان اسماً مصرياً، بل هو نفس الكلمة المصرية «مس» (Mose) ومعناه «طفل»، وهي مختصرة من اسم مركب كامل، كالأسماء «آمون مس»، ومعناها: آمون الطفل، أو «بتاح مس» ومعناها: بتاح الطفل، وهذه الأسماء المركبة نفسها، هي الأخرى مختصرات للتركيب الكامل «آمون أعطى طفلاً»، أو «بتاح أعطى طفلاً»، وقد لقي اختصار الإسم إلى كلمة «طفل» قبولاً منذ زمن مبكر، إذ كان سريع التداول والتناول بدلاً من الإسم الكامل الثقيل[٣].

---

(١) أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص ٩٠، وكذا J. Cerny, Greek Etymology of the Name of mosis, ASAE, XLI, 1942, P. 349F.

(٢) S. Freud, op - cit. P. 4

(٣) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 350 N. Y, 1939.

على أن الإسم «مس» (طفل) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة، ولا شك في أن والد موسى كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إلـه مصري قديم، مثل آمـون وبتـاح، ثم زال ذلك الاسـم الإلٓهـي تدريجياً بكثـرة التداول، حتى صار الولد يسمى «موسى»[1].

ويعلق «فرويد» على قول «برستد» هذا، بالدهشة لتجاهل برستد بعضاً من الأسماء المركبة من موسى أو «مس» مع أسماء الآلهـة، ومنهـا أسمـاء «أحمس» (إيعح مس) و«تحوتمس» (تحـوت مس) و «رعمسيس» (رع مس سو)، ثم يعرب عن دهشته كذلك من أن واحـداً من العلماء الكثيري العدد، الذين أقروا مصرية اسم موسى أصلاً واشتقاقاً، لم يفكر في أن يكون موسى نفسه ـ الشخص لا الإسم ـ مصـرياً أيضـاً[2]، حتى أولئك الذين يقـررون مثل «برستد» أن موسى قد «تهذب بكل حكمة المصريين»[3].

ويرى «فرويد» أن ذلك، ربما كان مرجع ذلك إلى تقديس لمرويات التوراة التي لا يمكن التغلب عليها، وربما بدا لهم أن القـول بأن موسـى مصري غير عبري ادعاء عريض لا يمكن تصوره، على أي حال، فإن الواقع هو أنه مع ترحيبهم عموماً لمصرية اسم موسى، فإنهم لم يستخلصوا من ذلك شيئاً ماساً بأصله هو نفسه[4].

وهنا يتساءل «فرويد» بأننا لو سلمنا بأن موسى كان مصـريـاً ـ ولم يكن إسرائيلياً ـ لوجدنا أنفسنا في الحالين مطالبين بحل لغز جديد وصعب؟ فمن المفروض أن نتوقع شخصـاً ما يتولى رياسة الحركة أو ينتخبه إخوانه لهذه

---

(١) J. H. Breasted, op - cit, P. 350.

(٢) S. Freud, op - cit, P. 5.

(٣) أعمال الرسل ٧: ٢٢.

(٤) S. Freud, op - cit. P. 5 - 6.

المهمة، وعلى ذلك لا يمكننا أن نتصور أن مصرياً من الأرستقراطيين ـ ربما كان أميراً أو كاهناً أو موظفاً كبيراً ـ قد ساغ له أن يضع نفسه على رأس جمع من الأجانب الطارئين على البلاد، المتخلفين حضارياً، وكيف نفسر أنه غادر البلاد معهم؟ إننا نعرف احتقار المصريين للأمم الأخرى، الأمر الذي يجعل هذه الظاهرة من موسى غير معقولة، وهذا ـ فيا يرى فرويد ـ هو الذي منع المؤرخين الذين ردّوا اسم موسى إلى أصل مصري، ونسبوا إلى موسى «كل حكمة المصريين» من القول بإمكان أن يكون موسى نفسه مصرياً، هذه هي الصعوبة الأولى.

وأما الثانية، فيجب علينا ألا ننسى أن موسى لم يكن زعيما سياسياً لليهود المستقرين في مصر فحسب، ولكنه كان كذلك المشرع والمعلم، والرجل الذي اضطرهم إلى اعتناق ديانة جديدة، ما زالت تعرف حتى اليوم «بالموسوية» نسبة إليه.

وهنا يتساءل «فرويد»: هل في استطاعة شخص واحد إيجاد ديانة جديدة بمثل هذه السهولة؟ ثم أليس من الطبيعي عندما يرغب شخص ما في أن يؤثر في ديانة الآخرين أن يحاول تحويلهم إلى ديانته هو؟.

إن اليهود في مصر لم يكونوا بالتأكيد مجردين من نوع ما من الديانة، وإذا كان موسى هو الذي أعطاهم ديانة جديدة. وكان هو نفسه مصرياً، فليس من الممكن إذن أن نرفض الظن بأن هذه الديانة الجديدة هي الديانة المصرية[1].

وهنا يعقد «فرويد» مقارنة بين الآتونية واليهودية، وبين سنة الختان عند المصريين وعند اليهود، الأمر الذي سوف نناقشه فيما بعد، ويرجع

(١) S. Freud, op - cit, P. 17 - 18.

«فرويد» ذلك كله إلى مصرية موسى، ثم يشير إلى أن المؤرخ اليهودي المشهور «يوسف بن متي»، قد ذكر في كتابه «تاريخ اليهود القديم»، أن موسى كان قائداً للجيش المصري، وأنه كان قد تولى قيادة حملة مظفرة على الحبشة[1]، ويرى «فرويد» أن يوسف اليهودي، ربما كانت بين يديه نصوصاً أخرى، غير تلك التي في التوراة، يؤيدبها وجهة نظره هذه[2].

وهناك سمة أخرى تعزى إلى موسى تستحق منا اهتماماً خاصاً، إذ قيل انه كان عيّياً لا يكاد يبين حين يتكلم، أو أنه كان «بطيئاً في الكلام»، تقول التوراة - على لسان موسى مخاطباً ربه - : «استمع أيها السيد، لست أناصاحب كلام منذ أمس، ولا أول أمس، ولا من حين كلمت عبدك، بل أنا ثقيل الفم واللسان، فقال له الرب: من صنع للإنسان فما، أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصيراً أو أعمى، أما هو أنا الرب، فالآن أذهب وأنا أكون

---

(٢) يروي المؤرخ يوسف اليهودي عن هذه الحملة - دونما سند من التاريخ أو تأييد من التوراة - أن موسى، عليه السلام، تولى قيادة الجيش، ولكنه زاد - في قصة لا يخفي زيفها - أنه إنما تولى القيادة، بعد رجاء من الملك والأميرة التي تبنته، وأن ذلك إنما وقع في أعقاب غارة شهنا أهل النوبة العليا على مصر، فأنزلوا بالمصريين هزيمة نكراء فولوا منهم الأدبار، حيث تعقبهم النوبيون إلى منف فساحل البحر، وهناك استلهم المصريون الوحي فأوحى باستخدام موسى الذي قبل القيادة سعيداً منشرحاً، فأما كهان مصر والإسرائيليين فقد سعدوا كذلك، سعد الكهنة لأنهم ظنوا أنهم بذلك إنما يتخلصون من موسى ومن المهاجمين في وقت واحد، وأما الإسرائيليون فسعدوا لأنهم ظنوا أنهم يهربون من المصريين بقيادته، ومضى يوسف يروي ان موسى تمكن من صد العدو بشجاعته وحسن تدبيره، إذ تجنب النيل وصار إليهم براً عبر أرض غاصة بالثعابين الطيارة، فعبرها بفضل ما حمل معه من أعداد من طائر الإبيس وهو أعدى أعداء الثعابين، وعندما وصل هاجم النوبيين، حيث رأته بنت الملك النوبي فأحبته وعرضت عليه تسليم المدينة بشرط أن يتزوجها، ففعلت وفعل موسى، (أنظر: أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص ٩٣ - ٩٤، وكذا Josephus, Book. II, Chapter. XIW. Whiston, op - cit, P. 77 F.

(٢) S. Freud, op - cit, P. 32.

مع فمك وأعلمك ما تتكلم به، فقال (أي موسى): استمع أيها السيد، أرسل بيد من ترسل، فحمى غضب الرب على موسى، وقال: أليس هارون اللاوي أخاك، أنا أعلم أنه هو يتكلم، وأيضاً هو خارج لاستقبالك، فتكلمه وتضع الكلمات في فمه، وأنا أكون مع فمك ومع فمه، وأعلمكما ماذا تصنعان، وهو يكلم الشعب عنك، وهو يكون لك فماً»[1].

وهذا يعني أن الكليم، عليه السلام ـ فيما تروي التوراة ـ أنه كان يعاني من التلعثم، أو العجز عن النطق، ولذلك كان عليه أن يلتمس مساعدة هارون أخيه في مناقشته المفترضة مع فرعون، وربما مع بني إسرائيل الذين أشار إليهم النص باسم «الشعب».

وربما إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **إذهب إلى فرعون إنه طغى، قال رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة لساني، يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، أشدد به أذري وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيرا، قال قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾[2].

فإذا كان ذلك كذلك، فربما أمكن القول أن هذه حقيقة تاريخية، تخدمنا كإضافة مفيدة في توضيح صورة هذا الرجل العظيم ـ سيدنا موسى عليه السلام ـ ويمكن أن تكون لها دلالة أخرى أكثر أهمية، فإن القصة قد تدل ـ إذا أخذنا في اعتبارنا عامل التشويه والتحوير ـ على حقيقة أن موسى كان يتكلم لغة أخرى، ولم يكن قادراً على التفاهم مع شعبه الجديد من الساميين بدون مساعدة مترجم على الأقل في بداية عهده بهم، وفي هذا دليل على صحة نظرية أن موسى كان مصرياً، أو لغته على الأقل.

---

(١) خروج ٤: ١٠ ـ ١٥.

(٢) سورة طه: ماية ٢٤ ـ ٣٦، وأنظر: تفسير القرطبي ص ٤٢٣١ ـ ٤٢٣٤.

غير أن هناك من يرى أن موسى عيّ لا يكاد يبين حين يتكلم، فقد أصيب بحبسة في لسانه، نتيجة لتأخر إرضاعه[1]، هذا فضلاً عن أن أحبار اليهود - إلى جانب المتأثرين بالإسرائيليات - إنما يرون في هذا المجال أسطورة مبناها أن فرعون إنما كان يداعب موسى - وهو ما يزال بعد في الثالثة - فحمله بين ذراعيه، ورفعه مدللاً إلى أعلى، فاختطف موسى التاج من على رأس فرعون ووضعه فوق رأسه، فانزعج فرعون بهذا الفأل، واهتم باستشارة حكمائه، إذ أحس أن الطفل إنما سوف يكون له شأن في تقويض عرشه، فأراد اختباره فأمر بإعداد طبقين، ووضع بأحدهما تمر أحمر، وبالآخر جمر، فأوحى الله - كما يدعون - إلى موسى أن يتناول الجمر، إبعاداً لشبهة الإدراك الناضج عن الطفل، ووضع الجمر على لسانه، فأصبح عيياً لهذا السبب[2].

وإذا ما أردنا مناقشة آراء العالم اليهودي «فرويد»، فيما يختص بمصرية اسم موسى أصلاً واشتقاقاً، لرأينا أنها أمر قبول تماماً، ذلك لأن فكرة الأصل المصري لاسم موسى، منذ أن نادى به «جيمس هنري برستد»، و «أدولف إرمان» و «سيجموند فرويد»، أصبحت الآن من الحقائق التي يكاد يتفق عليها العلماء - ومنهم أدولف لودز[3]، وجريفث[4]، وجاك فنجان[5]، وسيسل روث[6]، ووليم أولبرايت[7]، وستانلي كوك[8]، وغيرهم.

(١) عبد الرحيم فودة: في معاني القرآن ص ١٦٧.

(٢) فؤاد محمد شبل: إخناتون: رائد الثورة الثقافية، القاهرة ١٩٧٤ ص ٨٧، تفسير أبي السعود ٦/ ١٢، تاريخ الطبري ١/ ٣٩٠، ابن الأثير ١/ ٩٨.

(٣) A. Lods, op - cit, P. 169.

(٤) J. G. Griffiths, in JNES, 12, 1953, P. 231.

(٥) J. Finogan, op - cit, P. 134.

(٦) C. Roth, op - cit, P. 7 - 8.

(٧) W. F. Albright, op - cit, P. 14.

(٨) S. A. Cook, op - cit, P. 355.

ويضيف أستاذنا الدكتور حسن ظاظا - إلى حجج «فرويد» - أنه لم يرد في أسماء الساميين جميعاً - سواء أكانوا من العبريين أم من غيرهم كالآراميين والكنعانيين والأكاديين - اسم نطقه كاسم «موسى»، فهذا النبي هو أول شخص يحمل هذا الإسم[1]، ويقرر «الزوهار» مصرية موسى - وإن لم يستبعد يهوديته في نفس الوقت - اعتماداً على نص التوراة - على لسان بنات رعوئيل - بأنه رجل مصري[2].

وأما المصادر الإسلامية، فتكاد تجمع على أن موسى الكليم - عليه السلام - قد ولد لامرأة من بني إسرائيل، وأن هارون أخوه، فهما إذن من ذرية إبراهيم الخليل، شأنهما في ذلك، شأن إسحاق ويعقوب، عليهم السلام، إلا أن هناك في الكتاب الحكيم آيتين تقصان علينا ما وقع، إذ غضب موسى على أخيه هارون، ظناً منه أن قصر، حين انساق القوم إلى عبادة العجل، يقول سبحانه وتعالى في الآية الأولى: **﴿ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه، قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾**[3]، ويقول في الآية الثانية: **﴿ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾**[4].

---

(١) حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة ١٩٧١ ص ١٧.

(٢) خروج ٢: ١٩.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٥٠، وأنظر: تفسير الطبري ١٣/ ١٢٠ - ١٣٣، تفسير الطبرسي ٩/ ٢٧ - ٢١، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٤/ ٢٢٠، تفسير أبي السعود ٢/ ٤٠٧ - ٤٠٨، تفسير روح المعاني ٩/ ٦٨ - ٦٩، تفسير الكشاف ٢/ ١١٩، تفسير الفخر الرازي ١٥/ ٩ - ١٠ تفسير القاسمي ٧/ ٢٨٦٠ - ٢٨٦٢، تفسير المنار ٩/ ١٧٧ - ١٨١، تفسير تفسير القرطبي ص ٢٦٥١ - ٢٦٥٢، تفسير وجدي ص ١١٦، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٤.

(٤) سورة طه: آية ٩٤، ويقول أبو حيان في البحر المحيط (٤/ ٣٩٦) ناداه يا ابن أم استضعافا وترفق، وكان شقيقه وهي عادة العرب تتحنن بذكر الأم، وأيضاً كانت أمهما مؤمنة وأيضاً لما =

وفي كلا الآيتين تركيز على كلمة «ابن أم»، وفي ذلك يقول المفسرون إن هارون إنما نادى موسى بنسبته لأمه، مع أنه كان شقيقه، لأن ذكرها أدعى إلى العطف[1]، ولكن الذي يلزمنا هنا هو كلام الله ـ عز وجل ـ وليس ما درج المفسرون أن يقدموا، فإنما هو اجتهاد، وفوق كل ذي علم عليم[2]، هذا فضلاً عن أن «الزجاج» إنما يقول: قيل كان هارون أخا موسى لأمه، لا لأبيه[3]، فإذا تذكرنا أن اليهود إنما يعتبرون أن من كانت أمه يهودية فهو منهم، لا يعنيهم على أي دين كان أبوه، هو يهودي صميم، حتى وإن ظل أقلف غير مختّن[4]، لكان رأى الزجاج أو الياقوت إنما يستحق كثيراً من التأمل والتفكير.

وأما قصة التمر الأحمر أو الياقوت والجمر، ودورها في هذا العيب الذي جعل موسى عيياً لا يكاد يبين حين يتكلم، أو «بطيئاً في الكلام»، فيمكن الرد عليها في نقاط عدة، منها (أولاً) أنه يستحيل على طفل طبيعي أو غير طبيعي أن يلمس النار، دون أن تحرق أصابعه فوراً، فما بالك وقد رفع موسى الجمر إلى فمه، ثم أودعه أياه، ولم يحس به إلا بعد أن لدع لسانه، ثم ألا يكفي هذا الفعل لإقناع فرعون أن الطفل غير طبيعي، ومنها (ثانياً) أن موسى لو كان حقاً قد أمسك بالجمر وأمكنه احتمال قسوة النار، ثم وضع الجمر على لسانه، لفقد النطق كلية، ومنها (ثالثاً) هل عدم فرعون ـ وهو ملك أعظم وأرقى دولة متحضرة في تلك العصور ـ وسيلة يستكشف بها حقيقة

= كان حقها أعظم لمعاناتها الشديدة في حملن وتربيته والشفقة عليه فذكره بحقها.

(١) تفسير الطبري ٣/ ١٣١، معاني القرآن للفراء ١/ ٣٩٤، تفسير القرطبي ص ٢٧٢٦، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٤، تفسير المنار ٩/ ١٨٠، تفسير النسفي ٣/ ٦٣.

(٢) حسين ذو الفقار صبري: توراة اليهود، المجلة، العدد ١٥٧. يناير ١٩٧٠ ص ١٩ ـ ٢٠.

(٣) تفسير القرطبي ص ٢٧٢٦ (دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠)، تفسير البيضاوي ٤/ ٢٩.

(٤) Rabbi Dr. I. Epstein, Judaism (Penguin Books), 1970, P. 168.

الطفل، غير تلك الحيلة البدائية [1]؟

وأياً ما كان الأمر، فيبدو لي أن القول بأن سيدنا موسى عليه السلام، كان مصرياً، ولم يكن إسرائيلياً، قول فيه من الخطورة ما فيه، فإن احتمالات الخطأ فيه لجسيمة رهيبة خطيرة، ومع ذلك، فهو كافتراض ـ من حيث هو ظن، نجد له صدى في اسمه المصري (أولاً)، وفي التوراة حيث وصف، على لسان بنات رعوئيل صهره، بأنه «رجل مصري» (ثانياً) وفي «الزوهار» حيث يقر مصريته (ثالثاً) وفي الآيتين الكريمتين حيث التركيز فيهما على كلمة «ابن أم» (رابعاً) وفي رواية «الزجاج» على أنه ليس بشقيق لهارون، وكذا في رواية البيضاوي وأبي السعود بأنه كان أخا هارون من الأم، وإن ذهب الجمهور إلى أنهما شقيقان (خامساً)، وأخيراً (سادساً) في الأثر من أنه «كان بطيئاً في الكلام»، وفي قول التوراة: «أنه ثقيل الفم واللسان»، وفي قول الله تعالى في القرآن الكريم في سورة طه حيث يدعو ربه ﴿**واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي**﴾، وفي الشعراء ﴿**ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلي هارون**﴾، وفي القصص: ﴿**وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءًا يصدقني إني أخاف أن يكذبون**﴾ وفي الزخرف، على لسان فرعون ﴿**ولا يكاد يبين**﴾، وفي أجماع التوراة والقرآن العظيم على استعانة موسى بأخيه هارون في توصيل رسالته إلى بني إسرائيل، وإلى فرعون وملئه[2].

ومع ذلك، فمازلت أشك كثيراً، في أن موسى عليه السلام لم يكن

---

(١) محمد فؤاد شبل: المرجع السابق ص ٨٧ ثم انظر: تفسير القرطبي ص ٤٢٣٢، تفسير الدر المنثور ٥/ ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) سورة طه: آية ٢٧، الشعراء: آية ١٣، القصص: اية ٣٤، الزخرف: اية ٥٢، تفسير القرطبي ص ٢٧٢٦، تفسير البيضاوي ٤/ ٢٩، تفسير النسفي: آية ٣/ ٦٣، تفسير أبي السعود ٦/ ٣٨، سفر الخروج ٢/ ١٩، ٤/ ١٠.

إسرائيلياً، وإنما كان مصرياً، وبدهي أن شكي هذا لا يتصل بحال من الأحوال بقيمة موسى عليه السلام من الناحية الدينية أو التاريخية، ذلك لأن هذه القيمة لم تأت من كونه إسرائيلياً، وإنما لأنه كليم الله ورسوله الكريم، ولأنه أحد أولي العزم الخمسة من الرسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وتلك أمور لا تتغير بتغير جنسه ومن ثم فلا يؤثر في مكانة النبي الكريم، سيدنا موسى عليه السلام، أن يكون مصرياً أو إسرائيلياً.

ومن ثم فإن شكي في مصرية موسى إنما يرجع لأسباب أخرى، منها (أولاً) أن الجمهور على أن موسى إنما كان أخاً شقيقاً لهارون عليهما السلام، حتى وإن ذهب البعض إلى أنه كان أخاه من الأم، وهارون كان إسرائيلياً دونما ريب، وبالتالي كان شقيقه موسى كذلك، ومنها (ثانياً) أن الرسل إنما تبعث في أقوامها، وموسى قد أرسل إلى بني إسرائيل، ومن ثم فهو إسرائيلي، ومنها (ثالثاً) أن دعوة موسى عليه السلام كان موضوعها، بجانب دعوة فرعون إلى الإقرار بتوحيد الله وربوبيته، إنما هو إطلاق سراح بني إسرائيل من فرعون وقومه المصريين، كما يبدو ذلك واضحاً في عدة آيات من الذكر الحكيم (الأعراف: آية ١٠٤ ـ ١٠٥، طه: آية ٤٧، الشعراء: آية ١٦ ـ ١٧)، والأمر كذلك بالنسبة إلى نصوص التوراة (سفر الخروج ٣/ ٧ ـ ٢٢، ٥/ ١ ـ ٣، ٦/ ١٠ ـ ١٣) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي وردت في الإصحاحات من السادس إلى العاشر من سفر الخروج، والتي تتحدث عن إخراج بني إسرائيل من مصر، مما يشير بوضوح إلى أن دعوة موسى عليه السلام، كما تصورها التوراة، إنما هو إخراج بني إسرائيل من مصر، وأن يقيهم شر العذاب المهين الذي كانوا يتعرضون له في أرض الكنانة، وليس من المنطق أن يكون موسى مصرياً، ثم تكون دعوته إطلاق بني إسرائيل من مصر، من فرعون وملئه، ثم الخروج بهم من مصر

إلى كنعان، إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، وكما يقول صاحب البحر المحيط: وليس بنو إسرائيل من قوم فرعون المصريين، ألا ترى أن بقية المصريين (القبط كما يسميهم خطأ) وهم الأكثر، لم يرجع إليهم موسى.

ومنها (رابعاً) أن اسم موسى المصري، لم يطلقه عليه أبوه، كما يزعم فرويد، وإنما أطلقته عليه امرأة فرعون، وبدهي أن الملكة المصرية، لحماً ودماً، لغة وثقافة، إنما تطلق على موسى إسماً مصرياً، وليس عبرياً، وكما أشرنا من قبل، فهي ملكة مصرية تتكلم اللغة المصرية وتفكر بها، وما كان لها أن تتحدث العبرية في حياتها وبين مواطنيها، حتى تتخذ للطفل، مع كراهية شائعة للعبريين يومئذ، إسماً عبرياً، ومنها (خامساً) أن وصف التوراة لموسى، على لسان بنات رعوئيل، بأنه رجل مصري، أمر طبيعي، ذلك لأن موسى عليه السلام، وقد تربى في قصر فرعون، وعاش في مصر عمره كله، والذي ربما وصل وقت ذاك إلى أربعة عقود من الزمان، من البدهي أن يكون مصرياً في لسانه وهيئته، بل إن قومه الإسرائيليين أنفسهم، وقد عاشوا في مصر قرابة أربعة قرون، قد أصبحوا مصريين، أو على الأقل متمصرين، بل إن القرآن الكريم ليصفهم بأنهم «طائفة منهم»، هذا فضلاً عن أن ابنة رعوئيل ما كانت تعرف حتى ذلك الوقت جنساً يُدعى «بنو إسرائيل»، ذلك لأن اليهود قبل موسى ونبوته، ما كان لهم وجود كأمة في مجتمعات الشرق القديم، صحيح أن القبائل الإسرائيلية التي كانت تعيش في مصر منذ عهد يوسف الصديق عليه السلام، على أيام الهكسوس، كانت تدرك، حتى قبل ظهور موسى، أنها تنتمي إلى أرومة واحدة، ولكنها مع ذلك لم تؤلف شعباً واحداً حتى حدث الاستعباد المصري لهم، ونجح موسى في أن يوحد بين هذه العشائر التي تراخت أوصر القربي بينها، ويجعلها أمة واحدة، وذلك بفضل نبوته ومعجزته الكبرى.

ومنها (سادسا) الاعتماد على أن موسى عليه السلام «كان بطيئاً في

الكلام» أو كان عيّاً لا يكاد يبين حين يتكلم، وبالتالي فقد استعان في تبليغ رسالته إلى بني إسرائيل بأخيه هارون، دليل على أنه كان مصرياً، ولم يكن إسرائيلياً، استنتاج فيه من الخطأ أكثر ما فيه من الصواب، ذلك لأن بني إسرائيل ما كانوا يتحدثون العبرية في مصر، فمن المعروف تاريخياً أن أسلاف العبرانيين كانوا يتكلمون الأرامية قبل أن يستقروا في فلسطين، ثم بدأوا يتحدثون لغة الشعوب المضيفة لهم، ففي مصر كانوا يتكلمون اللغة المصرية، وفي كنعان كانوا يتكلمون الكنعانية، وأما اللغة العبرية، والتي كانت خليطاً من الأرامية والكنعانية وكثير من اللغات السامية وغير السامية، فيرجع تاريخ ظهورها إلى ما قبيل عام ١١٠٠ قبل الميلاد، وبعد خروج بني إسرائيل من مصر، كما أشرنا من قبل.

ومنها (سابعاً) أن ما جاء في التوراة والقرآن العظيم من أن الكليم عليه السلام عييّ لا يكاد يُبيّن، ومن ثم فقد سأل ربه الكريم **﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي**[١]**، واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي﴾**، فهو أفصح منه لساناً، إلى غير ذلك من الأدلة التي اعتمد عليها البعض، على أنها

---

(١) اختلف المفسرون في زوال العقدة بكاملها، فمن قال به تمسك بقوله تعالى: **﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾**، ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى: **﴿هو أفصح مني﴾**، وقوله تعالى: **﴿ولا يكاد يبين﴾**، وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية، بل حل عقدة تمنع الإفهام ولذلك نكرها، وقال: «عقدة من لسان» أي عقدة كائنة من عقد لساني، وجعل قوله تعالى: **﴿يفقهوا قولي﴾** جواب الأمر، وغرضاً من الدعاء، فبحلها في الجملة يتحقق إيتاء سؤله، والحق، كما يقول أبو السعود، أن ما ذكر لا يدل على بقائها في الجملة، ولكن الحسن البصري قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطى، وأما قوله تعالى: **﴿هو أفصح مني﴾** لا تستدعي عدم البقاء لأن الأفصحية توجب بثبوت أصل الفصاحة في المفضول أيضاً، وذلك مناف للعقدة أصلاً، وأما قوله تعالى: **﴿ولا يكاد يبين﴾** فمن باب غلو فرعون في العتو والطغيان، وإلا لدلّ على عدم زوالها أصلاً، وتنكيرها يفيد قلتها (تفسير أبي السعود ٦/ ١٢).

دليل على مصرية موسى، وربما كانوا يعنون عدم إجادته اللغة المصرية، فالرأي عندي أنها لا تدل على شيء من ذلك، فربما كان سببها أن موسى عليه السلام قد أصيب بحبسة في لسانه نتيجة لتأخر في رضاعة أو لسبب آخر، أضعفه من الناحية العلمية قصة التمر الأحمر أو الياقوت والجمر[1]، وعلى أية حال، فاللإمام الفخر الرازي تفسير لاستعانة موسى بأخيه هارون يذهب فيه، كما أشرنا من قبل، إلى أن فرعون ربما كذب موسى، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعثر انكلام على من يكون في لسانه حبسة، لأنه عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية إلى باطن القلب، وإذا انقبضا إلى الداخل وخلا منهما الخارج، ازدادت الحبسة في اللسان، فالتأذي من الكذب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب للحبسة، فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب، ثم ثنى بضيق الصدر، ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان، وأما هارون فهو أفصح منه، وليس في حقه هذا المعنى، فكان إرساله لائقاً[2].

ومنها (ثامناً) أن الذين اعتمدوا على أن هناك حبسة في لسان موسى لا تمكنه من آداء رسالته نحو بني إسرائيل، ثم توصلوا من وراء ذلك إلى أن موسى كان يتكلم لغة أخرى، ولم يكن قادراً على التفاهم مع شعبه الجديد من الساميين (أي بنو إسرائيل) بدون مساعدة مترجم، على الأقل في بداية عهده بهم، وفي هذا دليل على صحة نظرية أن موسى كان مصرياً، أو لغته على الأقل، نسوا، أو تناسوا، أنهم اعتمدوا في ذلك على نصوص التوراة (سفر الخروج ٤ / ١٠ - ١٦، ٢٧ - ٣١)، وأن هذه النصوص التوراتية

---

(١) أنظر عن القصة: تفسير الطبري ١٦/ ١٥٩، تاريخ الطبري ١/ ٣٩٠، تفسير القرطبي ص ٤٢٣٢، تفسير النسفي ٣/ ٥٢، تفسير أبي السعود ٦/ ١٢، تفسير صفوة التفاسير ٢/ ٢٣٣، ابن الأثير ١/ ٩٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٢٢.

المتداولة اليوم، ليست هي توراة موسى عليه السلام، وإنما قد داخلها كثير من التحريف والتصحيف، وأن القرآن الكريم قد جاء لتصحيح هذا التحريف، وذلك التصحيف، ومن هنا فإن شكوى موسى من حبسة لسانه في القرآن الكريم إنما كانت في مواجهة فرعون، وليس في مواجهة بني إسرائيل، وهذا ما تدل عليه الآيات بوضوح في سورة طه (٢٤ - ٣٢) **﴿إذهب إلى فرعون إنه طغى، قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري وأحلل عقدة لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري وأشركه في أمري﴾**، وفي سورة الشعراء (١٠ - ١٣) **﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين، قوم فرعون ألا يتقون، قال رب إني أخاف أن يكذبون، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلي هارون﴾**، وفي سورة القصص (٣٠-٣٥) وفي سورة الزخرف (٥١ - ٥٢) **﴿ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين، ولا يكاد يبين﴾**.

ومنها (تاسعاً) أن موسى عليه السلام كان على صلة بقومه الإسرائيليين قبل خروجه إلى مدين، بدليل قتله المصري عندما استغاث به الإسرائيلي على المصري الذي سماه القرآن «عدوه» (أي عدو موسى)، ولا يمكن أن يستغيث الإسرائيلي بموسى إلا إذا كان على معرفة أنه من بني إسرائيل، بل إن قوله تعالى: **﴿رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾** إنما يستشف منه أن موسى كان يستخدم نفوذه في مناصرة بني إسرائيل، وكيف أيدي المصريين عنهم، بل إن موسى كاد أن يتورط في محنة جديدة بسبب ذلك الإسرائيلي الذي استصرخه بالأمس ويستصرخه اليوم، حتى ليكاد أن يفعل ما ندم عليه بالأمس، فيهم بأن يبطش بالذي هو عدو لهما (أي المصري)، وبدهي أن كل هذا إنما يدل على أن موسى إسرائيلي، وأنه كان يعرف تماماً تلك الحقيقة.

ومنها (عاشراً) أن قصة موسى، كما جاءت في سورة القصص (٣ - ٢١) والشعراء (١٨ - ٢٢) لا تدع مجالاً لشك في أن كليم الله عليه السلام، إنما كان من بني إسرائيل، فلقد ولد في تلك الفترة العصيبة التي سلط الله فيها فرعون على بني إسرائيل، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، فأخفته أمه حيناً من الدهر، ولما خشيت أن يفتضح أمرها فزعت إلى الله مما تخشى على وليدها، فكان، كما فصلنا من قبل، أن أوحى الله إليها **﴿أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾** فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، وهكذا أراد الله أن ينشىء موسى في قصر فرعون، وبدهي أن موسى عليه السلام لو كان مصرياً، ولم يكن إسرائيلياً، ما تعرض لكل هذه المحن والبلايا، ولما ألقته أمه في اليم، ولما نشأ في قصر فرعون، ذلك لأن فرعون ما كان يقتل أبناء المصريين ويستحي نساءهم، وإنما كان يفعل ذلك مع بني إسرائيل، دون غيرهم من رعيته، سواء أكانوا من المواطنين المصريين أو من أبناء الامبراطورية المصرية في أفريقيا أو آسيا، والحق أن قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم، وخاصة ما جاء منها في سورتي الشعراء (١٨ - ٢٢) والقصص (٣ - ٢١) لا يدع مجالاً للشك في أن النبي الكريم سيدنا موسى عليه السلام، إنما كان من بني إسرائيل، من ذرية أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام، الذي جعل في ذريته النبوة والكتاب.

الفصل الثاني

الوجود التاريخي لموسى عليه السلام

من الغريب المؤلم أن شك شراح التوراة وعلماء اليهود لم يقتصر على جنسية كليم الله عليه السلام، وإنما تجاوزه إلى الوجود التاريخي لموسى عليه السلام نفسه، ولعل السبب في ذلك إنما هي التقاليد العجيبة التي اكتنفت شخصية موسى، كما تبرز في نصوص التوراة، فكأننا أمام تضارب تقييم، شخصية صكت بني إسرائيل بعقد عميقة الجذور، فهم عنها وإليها بين شد وجذب عنيفين.

فالتفسيرات جميعاً تكاد تتفق، في سعي خبيث، إلى التهوين من قدر موسى عليه السلام، فأنبياء بني إسرائيل المتأخرون[1]، دون غيرهم، أصحاب الفضل في إرساء أركان الديانة ـ المتسامية بأخلاقياتها زعموا ـ ولا بأس من التسليم لموسى، بأن كان علماً على منعرج حاسم في تاريخ بني إسرائيل، كفاه أن هيأ لهم بعقيدة اصطفاء، أسباباً من تماسك وتلاحم، تفسيرات تكاد تكون انعكاساً صادقاً لما طرأ عبر العصور على كتابات اليهود، فلا ذكر لموسى عليه السلام، أو يكاد، في الأصول التوراتية القديمة، ولا تقع على اسمه إلا خطفاً، حتى في كتابات أنبياء القرن الثامن

---

(١) أنظر عن هؤلاء الأنبياء (محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل ـ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٥٠ ـ ٦٠).

قبل الميلاد، عاموس (٧٦٠ - ٧٤٦ ق. م) وهوشع (٧٤٠ - ٧٣٠ ق. م) وإشعيا الأول (٧٤٠ - ٧٠٠ ق. م) وميخا (٧٣٥ - ٧٠٠ ق. م)[1]، فالنبي إشعياء في المرة الوحيدة التي ذكر فيها موسى في نهايات سفره يقول: «ثم ذكر الأيام القديمة موسى وشعبه، أين الذين أصعدهم من البحر مع راعي غنمه، أين الذين جعل في وسطهم روح قدسه، الذي سيّر ليمين موسى ذراع مجده الذي شق المياه قدامهم، ليصنع لنفسه إسماً أبدياً»[2].

وهكذا أصبح موسى عليه السلام، في كتابات اليهود، نسياً منسياً أولاً، ثم وجهاً أسطورياً فولكورياً فقط، منذ أيام سليمان، عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق. م) إلى قرب نهاية دولة اليهود في فلسطين، يشهد بذلك أيضاً الموضع الوحيد الذي تحدث فيه النبي إرميا (٦٢٦ - ٥٨٠ ق. م) عن موسى[3] بهذه العبارة: «وقال له الرب: لو أن موسى وصموئيل وقفا أمامي لما توجهت نفسي إلى هذا الشعب، فأطرحهم عن وجهي وليخرجوا[4]».

فإذا ما تكاثفت الأخطار حول مملكة يهوذا، يتهددها سوء مصير، أن يحيق بها ما حاق بمملكة إسرائيل في الشمال، تهيأت الفرصة - فإن الإيمان لهو ملاد الشعب في الملمات - لنفر من «لاويين»، ربما هم أحفاد بطانة موسى من كهنوت مصري، فتنبعث ذكرى كليم الله، وتلك الوصايا التي عهد بها إليه الرب في سيناء، بعد أن ظلت مطوية مطمورة في أعماق الوجدان زهاء قرون ستة أو يزيد[5].

---

(١) حسين ذو الفقار صبري: إله موسى في توراة اليهود - المجلة - العدد ١٦٣ - يوليو ١٩٧٠ ص ٥ - ٦.

(٢) إشعياء ٦٣/ ١١ - ١٢.

(٣) حسن ظاظا: الصهيونية العالمية وإسرائيل ص ٢١.

(٤) أرمياء ١٥: ١، قارن الترجمة العربية للتوراة.

(٥) حسين ذو الفقار صبري: المرجع السابق ص ٦.

ولكن مؤلفي التوراة حرصوا مع ذلك على الاستنقاص من مكانته - أعلاء لشأن داود وبيت داود - في أمور أشد ما تكون التصاقاً بالعقيدة التوحيدية، كما عند الأنبياء المتأخرين، غمزاً ولمزاً في سفر الخروج[1]، فكأن موسى لم يختتن شأن أي أقلف، وأن قد ظل كذلك، مخالفاً تعاليم الرب كما أنزلت على إبراهيم، من حيث السمة الدالة على العهد الأبدي الموثق[2]، بل متحدياً ما دفع به الرب مباشرة[3]، فكأن نبي الله، حامل رسالته إلى شعب بني إسرائيل، إنما ناكث لعهد الرب[4].

ثم صراحة ودون مواربة، إذ تعزى إليه شوائب من وثنية، فهو صاحب «حية النحاس»[5] «نَحُشْتان» صنعها بيديه ورفعها أمام القوم على سارية[6]، هي من أسباب غواية بني إسرائيل، يقدمون لها القرابين متعبدين، فيسحقها

---

(١) خروج ٤ : ٢٤ - ٢٦.

(٢) تكوين ١٧ : ١٠ - ١٤.

(٣) خروج ١٢ : ٤٨.

(٤) حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص ٦.

(٥) يرى «برستد» أن موسى كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية، فقد كان يحمل عصا سحرية عظيمة، في صورة «ثعبان» تسكن فيها قوة «يهوه»، كما كان ينصب ثعباناً من النحاس البراق ليشفي به الناس، وكان هذا الثعبان أحد الثعابين المقدسة العديدة في مصر، وقد بقيت صورة ذلك الإله المصري القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمن طويل، واستمروا في إطلاق البخور له مدة خمسة قرون بعد عهد «موسى» ولم يبعد من البيت المقدس إلا في حكم ملك يهوذا حزقيا، وليس من شك في أن برستد يخطىء في كثير مما ذكره (أنظر: ملوك ثانٍ ١٨ : ٤)، J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 354.

(٦) يرى الدكتور هاني رزق: معبراً عن وجهة النظر المسيحية أن هذا الحدث إنما كان رمزاً لصلب المسيح، فكما رفع موسى الحية لكي يحيا كل من ينظر إليها، هكذا رفع يسوع المسيح على الصليب لكي يحيا كل من يؤمن به (هاني رزق: يسوع المسيح في ناسوته وألوهيته، القاهرة ١٩٧١ ص١٥٢ - ١٥٣).

حزقيا ملك يهوذا (٧١٥ ـ ٦٨٧ ق . م)، ضمن ما كان قد حطم من نصب وأصنام[١] .

هـذا إلـى أن التـوراة جد حريصـة علـى اثبـات أنسـاب عديدة من شخصيات ، ولكنها تمر على موسى مر الكرام ، فتقول في سفر الخروج : إن أباه وأمه من بيت لاوى[٢] ولا تزيد ، لا تسميهما حتى ، وإن كانـت النسـخ العربية للتوراة[٣] تقرر : أن أمه هي بنت لاوى ، ولكن دقة الترجمة تقتضيها أن تقول «من بيت لاوى» ، أما ذلك النصى الآخر[٤] تقع عليه ضمن أنساب مفصلة لكافة بني إسرائيل ، فإنما هو مدسوس على الأصل القديم ، نقل نقلاً عما أثبته الأحبـار في سفـر العـدد[٥] ، بعـد أن كان النص الأول قد سجـل بأحقاب[٦] .

ولعل هذا كله هو الذي دفع المؤرخ اليهـودي «سيسـل روث» إلـى القول : بأن موسى ينتمي إلى قبيلة أفرايم ـ مع نوع من الإنتساب المصري ـ أكثر من انتمائه إلى قبيلة لاوى ، التي انتسب إليها عن طريق التقاليد[٧] ـ كما أشرنا من قبل ـ فإذا أضفنا إلى ذلك كله ، انعدام أية وثيقة تاريخية معاصرة تحدثنا عن الكليم ، عليه السلام ، وعن وقائعه في مصر ـ غير ما ورد في الكتب

(١) حسين ذو الفقار : المرجع السابق ص ٦ ، عدد ٢١ : ٩ ، ملوك ثان ١٨ : ٤ .

(٢) خروج ٢ : ١ ـ ٢ .

(٣) خروج ٢/ ١ جاء بحية «وذهب رجل من بيت لاوى ، وأخذ بنت لاوى» ، تعني أن عمرام تزوج عمته يوكابد بنت لاوى التي ولدت للاوى في مصر (خروج ٦/ ٢٠ ، عدد ٢٦/ ٥٩) .

(٤) خروج ٦ : ٢٠ .

(٥) عدد ٢٦ : ٥٩ .

(٦) حسين ذي الفقار : توراة اليهود ، المجلة يناير ١٩٧٠ ، ص ١٢ وكذا A. L. Sachar, A History of The Jews, N. Y, 1954

(٧) C. Roth, Op. Cit., P. 6-8.

المقدسة، وتزلت اليهود ـ فضلاً عن أن اليهود أصبحوا لا يعرفون، حتى أين دفن الكليم[1]؟ لتبين لنا كيف أضاع اليهود الرجل العظيم وجحدوا مكانته، مما أدى في نهاية الأمر، إلى أن يبدي بعض علماء التاريخ والآثار المصرية والدراسات اليهودية، شكوكهم حول تاريخية الرجل العظيم، بل إن «جوستاف لوبون» ليقول بصراحة: إن موسى شخص أسطوري، أكثر من كونه شخصاً تاريخياً، أي أن ذاتيته رتبت، كما رتبت ذاتية «بوذا» بعد حين[2].

ومن هنا، فإن جمرة مفكري اليهود العلمانيين في العصر الحديث، تذهلهم تلك الشخصية، كما تتراءى عملاقة جبارة، بينما يؤرقهم في الوقت نفسه افتقارهم إلى الدليل المادي، مهما كان ضئيلاً تافهاً، الذي يقنعهم بأنه كان له وجود، فيقولون بسفسطة رأى بأن: موسى كان، رغم أنه ما كان، أعظم شخصية في تاريخ اليهود، فلا معدي عن ابتداعها بخيال، فيصبح التاريخ اليهودي مغزى وقصداً[3].

ومع ذلك، ورغم كل ما أشرنا إليه آنفاً، فإني لأومن ـ الإيمان كل الإيمان ـ بالوجود التاريخي لنبي الله الكريم، سيدنا موسى عليه السلام، لأسباب كثيرة. منها (أولاً) أن الكتب السماوية الثلاثة ـ التوراة والإنجيل والقرآن العظيم ـ تجمع على ذلك، وليس من العلم، فضلاً عن الإيمان بما جاء في كتب السماء، أن نشك في أمر أجمعت عليه.

ومنها (ثانياً) أن الشك الذي يحوم حول موسى عليه السلام، إنما له مثيل بالنسبة إلى أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل، عليه السلام[4]، وفي كلا

(١) تثنية ٣٤: ١ ـ ٦.

(٢) جوستاف لوبون: المرجع السابق ص ٧٥.

(٣) حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص ١٢، وكذا A. L. Sachar, op - cit, P. 16 - 18.

(٤) L. Woolley, op - cit, P. 514.

الحالين فإن الذين يشكون ـ في الكليم والخليل ـ إنما يعتمدون في شكهم هذا، على كثرة الأعاجيب والخوارق في السيرتين الطاهرتين، كما رواها الأقدمون، ولست أعتقد ـ بحال من الأحوال ـ أن هذا سبباً مقنعاً، فنحن الدارسين للتاريخ المصري القديم ـ على سبيل المثال ـ نسمع عن الكثير من الأسرار التي حيكت حول «الهرم الأكبر»، مما لا يعتمد على سند، أو دليل تاريخي، ومع ذلك فالهرم الأكبر موجود، ولا يستطيع أحد أن يمتري في وجوده.

ومنها (ثالثاً) أن ما يراه بعض النقاد من عدم وجود أي أثر يشير إلى تاريخية موسى، عليه السلام، فإذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت تلك «الشقف» أكثر أهمية، بل وربما يعتمد عليها أكثر من ذاكرة الناس، أو السجلات المكتوبة، فإن الأثر الذي تركه المشرع العظيم على العقل الإسرائيلي، والذي يمكن تتبعه منذ عصر قديم جداً، عميق لدرجة لا يمكن أن تفشل في حالة الاعتماد عليها، لتحقيق شخصية تركت أثراً لا يمحي على المعاصرين[1].

ومنها (رابعاً) أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء والرسل في النصوص الإنسانية ضعيف نسبياً، لأن حقيقة الصراع بين القيم السماوية والإنسانية، ربما يكون قد دفع تلك المجتمعات الإنسانية إلى إغفال ذكرها. وهذه ظاهرة يلمسها المؤرخ في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم بوجه عام، بالنسبة إلى تعمد عدم التعريف بالمعارضين[2].

ومنها (خامساً) أن المصادر المصرية القديمة ـ والتي تمتاز عن غيرها

(١) C. Roth, Ashort History of the Jewish People, London, 1969, P. 6.

(٢) رشيد الناضوري: جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا ـ الكتاب الثالث ـ المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ـ بيروت ١٩٦٩ ص ١٧٤.

من مصادر الشرق الأدنى القديم بوضوحها وكثرة آثارها ـ كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر بمعلومات عن «موسى»، هذه المصادر ـ في غالبيتها ـ إنما كتبت بأمر من الملوك، أو بوحي منهم، فإذا ما تذكرنا أن الملك كان في العقيدة المصرية القديمة إلهاً، أكثر منه بشراً، كان من الطبيعي ألا يستسيغ المصريون أن يهزم الملك في حرب خاض غمارها، ولهذا فالنصر كاد أن يكون حليفه فيها، وقد تكون الحقيقة غير ذلك[1].

ومن المعروف أن قصة موسى في مصر ـ كما جاءت في الكتب المقدسة ـ إنما انتهت بغرق الفرعون وجنوده في البحر، ونجاة موسى ومن آمن معه بالواحد القهار، وليس من المقبول ـ طبقاً للعقيدة الملكية الإلهية المصرية القديمة ـ أن تسجل النصوص المصرية غرق الإله الفرعون، ونجاة عبيده العبرانيين، ومن هنا كان من الصعب العثور على اسم موسى في النصوص المصرية القديمة حتى الآن، رغم ضخامة التركة الأثرية التي خلفتها لنا مصر الفرعونية.

وانطلاقاً من هذا كله، ورغم أن الوجود التاريخي لموسى، عليه السلام، إنما يفتقر إلى الدليل المادي التاريخي، خارج الكتب المقدسة، وتراث اليهود، فإن الغالبية العظمى من المؤرخين يعتقدون أن موسى عليه السلام له وجود تاريخي، وأنه عاش في مصر حيناً من الدهر، وأن خروج الإسرائيليين من أرض الكنانة تم تحت قيادته، وأن ذلك كله ـ فيما أرى ـ، إنما هو من حقائق التاريخ التي لا يرقى إليها الشك ـ بحال من الأحوال ـ إيماناً منا بما جاء في الكتب السماوية، من ناحية، ولأن تاريخ إسرائيل الفعلي ـ والذي يبدأ حقيقة بحادث الخروج من مصر ـ لا يمكن أن يفهم إلا إذا اعترفنا بوجود كليم الله، موسى عليه السلام.

(١) محمد بيومي مهران: الثورة الإجتماعية الأولى في مصر الفراعنة، الإسكندرية ١٩٦٦ ص ٣ (رسالة ماجستير).

الفَصْلُ الثَّالِث

مَوت مُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلام

نجح موسى عليه السلام، كما رأينا من قبل، في الخروج ببني إسرائيل من مصر، وهناك في صحراوات سيناء المقفرة لقي النبي الكريم من قومه الأمرّين، وينتهي الأمر بأن يكتب على الخارجين من مصر أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة ينجح بنو إسرائيل في أخرياتها في الوصول إلى تخوم كنعان، وإن لم يكتب لهؤلاء أن يدخلوا الأرض المقدسة أبداً.

هذا وقد اختلفت المصادر الإسلامية في دخول موسى عليه السلام أرض كنعان، فذهب فريق من علماء السلف على رأسهم ابن إسحاق، إلى أن موسى قد عاش حتى خرج من التيه، وشهد دخول قومه أرض فلسطين، وأنه كان معهم يوم فتح مدينة الجبارين (أريحا أو بيت المقدس)، وكان على مقدمته يوشع بن نون، كما كان معه كالب بن يفنة، صهره على أخته مريم بنت عمران، ويذهب ابن كثير إلى أن هذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين، ومما يدل على ذلك قول موسى عليه السلام، لما اختار الموت، كما سيأتي، **« رب أدنني إلى الأرض المقدسة رمية حجر »**، ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك، ولكن لما كان مع قومه في التيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها وحث قومه عليها، ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية حجر، ولهذا قال سيد البشر، ورسول

الله! أهل الوبر والمدر سيدنا محمد ﷺ «فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر».

على أن هناك فريقاً آخر، على رأسهم ابن عباس، وكذا قتادة والسدى وعكرمة، إنما يذهب إلى أن موسى وهارون، عليهما السلام، توفيا في التيه، وكذا توفي كل من أبي المسير إلى كنعان مع موسى، حين أمرهم الله تعالى بقتال من فيها من الجبارين، وهكذا تذهب المصادر الإسلامية، وكذا التوراة[1]، إلى أن جميع بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر قد ماتوا في البرية، ولم يروا أرض الميعاد، ما عدا يوشع بن نون وكالب بن يفنه، ومن لم يتجاوز العشرين من أعمارهم، وأن موسى عليه السلام قد عهد إلى يوشع بن نون بأن يدخل ببني إسرائيل الأرض المقدسة من بعده، أو أن يوشع قد بعث نبياً من بعد موسى، وأنه هزم الجبارين ودخل مدينتهم[2].

هذا وقد روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه عز وجل فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعره سنة، قال: أي رب ثم ماذا، قال ثم الموت، قال فالآن قال: فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر، قال أبو هريرة، فقال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»، وفي رواية في

---

(١) عدد ١٤/ ٢٢ ـ ٣٨، ٣٣/ ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٩٠ ـ ٢٠٠، تاريخ الطبري ١/ ٤٣٥ ـ ٤٤٢، تفسير روح المعاني ٦/ ١٠٩، تفسير الطبرسي ٦/ ٧٠ ـ ٧١، تفسير الكشاف ١/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣، تفسير النسفي ١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠، تفسير الخازن ٢/ ٣٤ ـ ٣٦، ابن كثير: التفسير ٢/ ٧٤ ـ ٧٥، البداية والنهاية ١/ ٣١٦ ـ ٣٢٥، تفسير البغوي ٢/ ٣٦ ـ ٧، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٩٨ ـ ٩٩، تاريخ اليعقوبي ١/ ٤٥ ـ ٤٦، مروج الذهب للمسعودي ١/ ٦٢ ـ ٦٣، الكامل لابن الأثير ١/ ١١١ ـ ١١٥.

تفسير البغوي: «والله لو كنت عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»، وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك: إن رسول الله ﷺ قال: لما أسري به، مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر»، وفي رواية قال ﷺ: «مررت على موسى ليلة أسرى بي عن الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره» (رواه مسلم والنسائي وأحمد).

وروى الإمام أحمد وابن جرير بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ملك الموت كان يأتي الناس عياناً حتى أتى موسى فلطمه ففقأ عينه، قال فرجع فقال: يا ربِ إن عبدك موسى فقأ عيني، ولولا كرامته عليك لشققت عليه، فقال: ائت عبدي موسى فقل له: فليضع يده على متن ثور، فله بكل شعرة وارت يده سنة، وخيّره بين ذلك وبين أن يموت الآن، قال فأتاه فخيّره، فقال له موسى: فما بعد ذلك؟ قال الموت، قال: فالآن إذاً، قال: فشمه شمه قبض روحه، قال: فجاء بعد ذلك إلى الناس خفية»[1].

هذا وتقول التوراة في التثنية (٣/ ٢٧ ـ ٢٩) وقال الرب لموسى: «إصعد إلى رأس الفسجة وارفع عينيك إلى الغرب والشمال والجنوب والشرق وانظر بعينيك لكي لا تعبر هذا الأردن، وأما يشوع فأوصه وشدّده وشجعه لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب وهو يُقسم لهم الأرض التي تراها، فمكثنا في الجواء مقابل بيت فغور»، ثم تقول في أخر سفر التثنية نفسه (٣٤/ ١ ـ ٨) «وصعد موسى من عربات مؤاب إلى جبل نبو إلى رأس الفسجة الذي في قبالة أريحا، فأراه الله الأرض من جلعاد إلى دان، وجميع نفتالي وأرض أفرايم ومنسي وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا أرض النخل إلى صوغر، وقال له الرب: هذه هي الأرض التي

(١) تاريخ الطبري ١/ ٤٣٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٣١٩.

أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها، قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر، فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض مؤاب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم[١]، وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات، ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته، فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات مؤاب ثلاثين يوماً، فكملت أيام بكاء مناحة موسى».

وهكذا يذهب المؤرخون المحدثون إلى أنه من هناك من رأس الفسجة، التي يفترض أنها جزء من جبل «نبو»[٢]، وطبقاً لرواية التوراة، ينظر موسى إلى أرض الميعاد، ثم يموت ويدفن في أرض «مؤاب»، ومن المحتمل أن جبل «نبو» إنما هو جبل «نبا» الحالي، على مبعدة ثمانية أميال إلى الشرق من نهر الأردن، وأما «الفسجة» فربما كانت القمة الغربية والسفلى لنفس الجبل، ويقودنا الطريق المنحدر من الجبل إلى «عيون موسى»، التي تشرف على خرائب قلعة «خربة عين موسى»[٣]، وهناك كذلك خرائب بعيدة عنها، وتعرف ب «خربة المخيط»، التي يمكن أن توجد بمدينة «نبو»، على مبعدة خمسة أميال إلى الجنوب الشرقي من «حسبان»، بينما على الجبل نفسه بقايا كنيسة بيزنطية[٤].

ومن الغريب المؤلم، أننا نقرأ في التوراة[٥]، أن موت موسى وهارون إنما كان بسبب خيانتهما للرب «عند ماء مريبة قادش في برية صين» إذا لم

---

(١) روى أن الإمام مالك قال: إنه لا يعرف قبر نبي اليوم على وجه الأرض، غير قبر محمد ﷺ ومن كان قبر محمد ﷺ عندهم، فينبغي ان يعرف فضلهم على غيرهم».

(٢) S. J. Saller, The Memorial of Moses on Mount Nebo, 2 Vols, London, 1941.

(٣) N. Glueck, The other Side of the Jordan, New Haven, 1945, P. 143.

(٤) J. Finegan, op - cit P. 155. وكذا، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٩٥٣ - ٢٩٥٤

(٥) تثنية ٣٢: ٤٨ - ٥٠.

يقدسانه في وسط بني إسرائيل، ومن هنا فقد حرم الله الأرض المقدسة على موسى أبدا.

ويعلم الله ـ وتشهد ملائكته ـ أن موسى وهارون لم يكونا كما صورتهما يهود في التوراة، وإنما كانا رسولين كريمين، بذلا الجهد ـ كل الجهد ـ في تبليغ دعوة ربهما، وأفنيا عمرهما من أجلها، حتى لقيا الله مطمئنين إلى رضاه، وهكذا نرى القرآن الكريم يكرمهما أمجد تكريم، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً، وكان رسولاً نبياً، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً**﴾[1]، ويقول: ﴿ **ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهما فكانوا هم الغالبين، وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم، وتركنا عليهما في الآخرين، سلام على موسى وهارون، إنا كذلك نجزي المحسنين، إنهما من عبادنا المؤمنين**﴾[2]، ويقول عن موسى: ﴿ **وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني**﴾[3]، ويقول: ﴿ **واصطنعتك لنفسي**﴾[4]، ويقول: ﴿ **يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك بقوة وكن من الشاكرين**﴾[5].

---

(١) سورة مريم: آية ٥١ ـ ٥٣ وانظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٣٦، تفسير الألوسي ١٦/ ١٩٣ ـ ١٩٤، تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٢١، تفسير الطبري ١٦/ ٩٤ ـ، تفسير الطبرسي ١٦/ ٤٤ ـ ٤٦ تفسير القاسمي ١١/ ٤١٤٩، تفسير القرطبي ص ٤١٥٢ ـ ٤١٥٣.

(٢) سورة الصافات: آية ١١٤ ـ ١٢٢، وانظر: تفسير البيضاوي ٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٥٩ ـ ١٦٠، تفسير الطبري ٢٣/ ٩٠ ـ ٩٢ تفسير روح المعاني ٢٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩، تفسير ابن كثير ٧/ ٣١ ـ ٣٣، تفسير القرطمي ١٥/ ١١٤ ـ ١١٥.

(٣) سورة طه: آية ٣٩.

(٤) سورة طه: آية ٤١.

(٥) سورة الأعراف: آية ١٤٤، وانظر: الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٤/ ٧ ـ ٢، تفسير الطبري ١٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧، تفسير الطبرسي ١٩/ ١٨ ـ ٢٠، تفسير القاسمي ٧/ ٢٨٥٤، تفسير =

وهكذا يرفع القرآن الكريم هذين النبيين الكريمين إلى الدرجة التي يستحقانها، ثم يطلب إلى المؤمنين به أن يرتفعوا إلى مستوى دينهم القويم، فلا يتأثروا بما يعرفون عن بني إسرائيل في حكمهم على موسى عليه السلام[1]، فيقول: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهاً** ﴾[2].

انتقل موسى، عليه السلام، راضياً مرضياً عنه، وقد أكمل الرسالة، وبلغ الدعوة، ونقرأ في التوراة[3]: «وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات»[4]، وليست هناك أية دلائل في التوراة تشير إلى أن موسى لقي ميتة عنيفة، غير طبيعية غير أننا نرى في عام ١٩٢٢ م «أرنست سيللين» يزعم أنه قد وجد في بعض فقرات من سفر «هوشع»[5] بقايا تقاليد مختلفة، ترى أن موسى قد مات شهيداً، فقد ذبحه الكهنة الذين أطاحوا تماماً بالدين الذي أسسه[6].

وفي عام ١٩٣٨ م، أصدر «سيجموند فرويد» كتابه الشهير «موسى والتوحيد»، زعم فيه أن هذه التقاليد ـ الآنفة الذكر، لم تكن مقصورة على

= المنار ٩/ ١٠٤ ـ ١١٢، تفسير القرطبي ص ٢٧١٦، تفسير وجدي ص ٢١٤، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧١.

(١) عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص ٢١٤.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٦٩، وانظر: تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٢٣٣، تفسير القرطبي ١٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢ (القاهرة ١٩٦٧)، تفسير وجدي ص ٥٦١، تفسير الطبري ٢٢/ ٥٠ ـ ٥٣.

(٣) تثنية ٣٤: ٧.

(٤) ترى التقاليد اليهودية والنصرانية أن موسى أقام في مدين اربعين عاماً، وانه حين خرج من مصر لاجئاً إلى مدين كان في الأربعين من عمره، ثم بعث نبياً وهو في الثمانين، وانه مات وهو ابن مائة وعشرون سنة (أعمال الرسل ٧: ٧، ٢٣، ٣٠، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٩٣١، شاهين مكاريوس: المرجع السابق ص ٤٠، عدد ١٤: ٣٣، تثنيه ٣٤: ٧).

(٥) هوشع ٤: ٤ ـ ٩، ٥: ١ ـ ٤، ٨: ٣ ـ ٧، ٩: ٧ ـ ١١.

(٦) Ernst Sellin, Mose und Seine Bedeutung fur die Israelitisch Judischo Religionsgeschichte, Leipzig, 1922.

هوشع ، وإنما هي تتكرر في كتابات معظم الأنبياء اللاحقين ، بل إنها ـ فيما يرى سيللين ـ أساس التوقعات القادمة بمقدم المسيا (المسيح) . وقرب نهاية الأسر البابلي (٥٨٦ ـ ٥٣٩ ق . م) انبثق الأمل بين الشعب اليهودي في أن الرجل الذي اغتالوه بكل قسوة ، سوف يعود من مملكة الموتى ، ليقود شعبه النادم ـ وربما غير شعبه أيضاً ـ إلى أرض النعيم الخالد .

ثم يعترض «فرويد» على ما ذهب إليه «سيللين» من أن الحادث العنيف قد وقع عند «شيتم Shittim » بشرق الأردن ، وإنما يفترض أن ذلك الحادث إنما وقع قبل اتحاد القبائل الخارجة من مصر ، مع ذوي قرباها ، في الأرض الواقعة بين مصر وكنعان ـ وفي قادش ، فيما يرى ماير وجرسمان وآخرون ـ ثم استبدل بعد ذلك موسى المصري في التقاليد ، بموسى آخر ، هو الذي أسس فيما بعد ديانة «يهوه» ، وهو زوج ابنة «يثرون» كاهن مدين ، والذي أطلقوا عليه اسم «موسى» كذلك[1] .

ونحن لا نعرف ، على أي حال ، شخصية موسى الآخر ، الذي يحجبه تماماً موسى الأول أو المصري ، فيما عدا بعض مفاتيح شخصيته التي تقدمها التناقضات التي يمكن العثور عليها في تصوير التوراة لشخصية موسى ، ففي الوقت الذي يوصف فيه بأنه قوي حاد المزاج ، بل عنيف أحياناً ، يقال عنه في مواضع أخرى ، إنه كان أكثر الرجال صبراً وتواضعاً ، ومن الواضح أن مثل هذه الصفات الأخيرة ، لا يمكن أن تكون ذات فائدة لموسى المصري الذي قام بمثل هذه المشروعات الشاقة العظيمة ، ولربما تعزي هذه الصفات إلى موسى الآخر ، موسى مدين .

ولعل لنا الحق بعد ذلك ، فيما يرى فرويد ـ أن نفصل بين الشخصيتين أحداهما عن الأخرى ، ونفترض أن موسى المصري لم يذهب مطلقاً إلى

(١) S. Freud, op - cit, p. 42 - 46.

«قادش»، كما أن موسى مدين لم يضع قدمه في مصر، ولم يعرف شيئاً عن «آتون» ولكن من أجل أن يصبح الإثنان واحداً جعلت التقاليد ـ أو الأساطير ـ موسى المصري يذهب إلى مدين، وهكذا نرى أن أكثر من تفسير يمكن أن يقدم[1].

والرأي عندي أن ذلك أمر غير مقبول، وأنه تحميل للنصوص أكثر مما تحتمل، صحيح أن التوراة تروي أن هناك ثورات عنيفة قامت أثناء فترة التيه في صحراوات سيناء ضد موسى[2]، وأن واحدة من هذه الثورات كانت من اللاويين، رهط موسى الأدنين[3]، بل إن أخرى إنما كانت من بيت موسى نفسه، من أخويه هارون ومريم[4]، وصحيح أن واحدة من هذه الثورات إنما قد طالبت علانية بخلع موسى والعودة إلى مصر[5]، وصحيح أن رواية التوراة عن موت موسى وهارون إنما هي جد غامضة، وأنها تجعل خيانتهما للرب ـ والعياذ بالله ـ سبباً في هذا الموت[6].

كل تلك أمور حدثتنا عنها التوراة، بل وصحيح كذلك أن قتل النبيين عند اليهود أمر مألوف، وصدق عز من قال: **﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾**[7]، وقد قتلت يهود

---

(1) A. Led, op - cit, p. 308.1 وكذا S. Freud. op - cit, p. 46 - 49

(2) خروج ١٥: ٢٣ ـ ٢٥، ١٦: ٢ ـ ٣، ١٧: ١ ـ ٧.

(3) عدد ١٦: ١ ـ ٤١.

(4) عدد ١٢: ١ ـ ١٥.

(5) عدد ١٤: ٢ ـ ٤.

(6) تثنية ٣٢: ٤٨ ـ ٥٣.

(7) سورة البقرة: آية ٨٧، وانظر: سورة البقرة: آية ٦١، ٩١، سورة آل عمران: آية ١١٢، سورة المائدة ٧٠، وكذا: تفسير الطبري ٢/ ١٣٩ ـ ١٤٢، ٣٢٣ ـ ٣٢٤، ٣٢٣ ـ ٣٢٤، ٣٥٠ ـ ٣٥٤، ٧/ ١١٦ ـ ١١٨، ١٠/ ٤٧٧ (دار المعارف)، تفسير ابن كثير ١/ ٤٥ ـ ١٤٧، ١٧٥ ـ =

يحي عليه السلام[1]، كما حاولتِ نفس الأمر مع المسيح عيسى بن مريم، ولكن الله جلت قدرته نجاه من كيد الفاسقين، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾[2].

كل ذلك وغيره صحيح، ولكنه صحيح كذلك، أن التوراة والإنجيل والقرآن العظيم، وهي دون شك مصدرنا الأساسي عن الأنبياء عليهم السلام، لم تقل أن موسى عليه السلام، مات مقتولاً، أو حتى لقي ميتة عنيفة، ولم يقدم لنا «سيللين» أو «فرويد» نصاً واحداً صريحاً من نصوص التوراة، التي زعما أنها تشير إلى ذلك، كما أن الدليل التاريخي على هذا الحدث المؤلم مفقود تماماً، ومن هنا فالأمر، فيما أومن به واعتقد، مجرد ظن، وإن بعض الظن إثم.

ومن ثم فلنا أن نعتبر ما ذهب إليه «سيللين وفرويد» من شطحات

= ١٧٩، ٢/ ٧٧-٨٦، ٣/ ١٤٨، تفسير المنار ١/ ٢٧٣-٢٧٦، ٣١١-٣١٢، ٣١٧-٣١٨، / ٥٧٤-٥٨، ٣٩٧-٣٩٨.

(١) متى ١٤: ٢-١١، مرقس ٦: ١٧-٢٨، تاريخ يوسفيوس ص ٢١٤، فيلب حتي: المرجع السابق ص ٤٢٠، ٤٢٢ ثم قارن ابن الأثير ١/ ٣٠١-٣٠٢، تاريخ الطبري ١/ ٥٨٥-٥٩٣، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٤٤، ابن كثير: قصص الأنبياء ٢/ ٣٦٢-٣٦٦، الثعلبي: قصص الأنبياء ص ٣٤٠-٣٤١، عبد الرازق نوفل: يوحنا المعمدان ص ٥٩-٨٦، كتابنا «دراسات في تاريخ العرب القديم» ص ٥١٦-٥١٨ (الرياض ١٩٧٧ - أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت رقم ١ من المكتبة التاريخية).

(٢) سورة النساء: آية ١٥٧-١٥٨، وانظر: تفسير الطبرسي ٦/ ٢٧٩-٢٨٤، تفسير الطبري ٨/ ٣٧٦-٣٧٩، في ظلال القرآن ٦/ ١٩-٢١، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٣/ ١٠٨-١٠٩، تفسير النسفي ١/ ٣٧٦-٣٧٧، تفسير الكشاف ١/ ٥٨٤-٥٨٩، تفسير روح المعاني ٤/ ١٠-١٢، تفسير أبي السعود ١/ ٨٠٨-٨١٠، تفسير الفخر الرازي ١٠/ ٩٩-١٠٢، تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٩-٤١٩ تفسير المنار ٦/ ١٠-٢٠، تفسير القرطبي ص ٢٠٠٥-٢٠٠٦.

الباحثين، أو حتى أساطيرهم، التي لا تعتمد على نص سماوي صريح، أو حتى دليل مادي من التاريخ، وما أكثرها، بل إننا ما كان لنا لنهتم بها، لولا أنها تتعلق بواحد من المصطفين الأخيار، أنبياء الله الكرام البررة، سيدنا موسى عليه السلام، فنظائرها في كتب التاريخ كثيرة، خاصة في كتب هذا النوع من الباحثين الذين عرفوا بالجرأة على إصدار أحكام، باسم العلم، والعلم منها بريء، براءة الذئب من دم ابن يعقوب، كما يقولون، ولكن ما حيلتنا، وهناك الكثير من الشباب الذي لم يدرس تاريخ الأنبياء في مصادرها الأصلية إنما يصدقون ما يقوله هؤلاء الباحثون من المستشرقين والمستغربين، هدانا الله وإياهم إلى سواء السبيل.

الفصل الرابع

مكانة موسى في التاريخ اليهودي

(١) مكانة موسى عند المسلمين : -

لا ريب في أن سيدنا موسى عليه السلام، إنما يحتل مكانة ممتازة عند المسلمين، ذلك لأن كليم الله في القرآن الكريم إنما هو من المرسلين الكبار، أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتين من آي الذكر الحكيم، هما قوله تعالى: ﴿ **وإذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾[١]، وقوله تعالى. ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾[٢].

ولموسى منزلة كبرى عند الله تعالى: ولنقرأ هذه الآية من سورة طه:

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧، وانظر: تفسير القرطبي ص ٥٢٠٨ - ٥٢٠٩، تفسير النسفي ٣/ ٢٩٥، زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٣٥٤، وانظر: تفسير البيضاوي (١/ ١١٤) حيث يقول: خصهم الله بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع، وقدم نبينا عليه الصلاة والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنه، وقال ابن كثير (مختصر التفسير ٣/ ٨٣) بدأ بالخاتم لشرفه ﷺ، وبياناً لعظم مكانته، ثم رتبهم حسب وجودهم في الزمان.

(٢) سورة الشورى: آية ١٣، وانظر: تفسير ابن كثير ٧/ ١٨٢ - ١٨٣، تفسير النسفي ٤/ ١٠٢، تفسير القرطبي ص ٥٨٢٩ - ٥٨٣٠، صفوة التفاسير ٣/

﴿**وألقيت عليك محبة مني، ولتصنع على عيني**﴾، وما كان في مقدرة لسان بشر أن يصف خلقاً يصنع على عين الله، إنها لمنزلة، وإنها لكرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية الإلهية، فكيف بمن يصنع صنعاً على عين الله، إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوي الذي تلقاه، ثم يقول سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿**واصطنعتك لنفسي**﴾ أي خالصاً مستخلصاً بمحضاً لي ولرسالتي ودعوتي، ليس بك شيء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا، إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها، واصطنعتك لتؤديها، فما لك في نفسك شيء، وما لأهلك منك شيء، وما لأحد فيك شيء، فامض لما صنعتك له[1]، روى البخاري عن تفسير هذه الآية عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته، واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة، قال: نعم، قال: فوجدته مكتوباً علي قبل أن يخلقني، قال: نعم، فحجج آدم موسى»[2].

ثم إن موسى عليه السلام، هو الذي كلمه الله، ومن ثم فقد اشتهر بأنه كليم الله، قال تعالى: ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله**﴾، يعني موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم[3] هذا وكان من وجاهة موسى عليه السلام أن شفع في أخيه عند الله، وسأله أن يكون معه وزيراً، وذلك في قول الله تعالى: ﴿**واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري وأشركه في أمري**﴾، وقول الله تعالى: ﴿**وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون**﴾، فأجاب الله دعاءه فقال ﴿**قد أوتيت سؤلك يا موسى**﴾، ولهذا قال بعض السلف: ما

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٥ - ٢٣٣٦.

(٢) ابن كثير: مختصر التفسير ٢/ ٤٨٢.

(٣) نفس المرجع السابق ١/ ٢٢٦.

شفع أحد شفاعة في الدنيا، أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾، وقال ابن عباس: نبيء هارون ساعتئذ، وحين نبيء موسى، عليهما السلام، روى عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراف فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قالوا لا ندري، قال أنا والله أدري، قالت فقلت في نفسي في حلفه لا يستثني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله (أخرجه ابن أبي حاتم)[1].

وقد نبه سيدنا رسول الله ﷺ على مكانة موسى عليه السلام في قوله الشريف، الذي رواه البخاري ومسلم وأبو داود بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه وقال: يا محمد إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي، قال ادعوه، فدعوه، قال لم لطمت وجهه، قال يا رسول الله، إني مررت باليهودي فسمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر، قال: وعلى محمد، قال فقلت: وعلى محمد، وأخذتني غضبة فلطمته، فقال ﷺ: لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور».

وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: استب رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمد على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على

(١) سورة مريم: أية ٥٣، طه: آية ٢٩ ـ ٣٢، القصص: اية ٣٤، وانظر: تفسير النسفي ٣/ ٥١ ـ ٥٢، ١٧٩، ٢٣٦، صفوة التفاسير ٢/ ٢٣٣، ٣٧٥ ـ ٣٧٦، ٤٣٣ ـ ٢٣٤، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٥٥، ٤٧٤.

العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ : لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا بموسى ممسك بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل».

ويقول ابن كثير: والكلام في قوله ﷺ : «لا تخيروني على موسى» كالكلام على قوله ﷺ : لا تفضلوني على الأنبياء، ولا على يونس بن متي»، قيل من باب التواضع، وإلا فهو ﷺ خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض، كما أختصه الله تعالى بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون، حتى أولو العزم الأكملون، كما ظهر شرفه ﷺ ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء، وكما ثبت أنه ﷺ قال: سأقوم مقاماً يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم».

والذي يؤمن المسلمون بأنه أفضل الرسل إطلاقاً، بعد سيدنا محمد ﷺ ، وليس أدل على هذه الأفضلية من أن المسلمين يصلون على إبراهيم وماله ويباركونهم، كما يصلون على نبيهم محمد وآله ويباركونهم، ثم يأتي بعد ذلك، كما يقول ابن كثير في التفسير، موسى بن عمران كليم الرحمن[1].

(٢) مكانة موسى في التاريخ اليهودي : -

وأما مكانة موسى، عليه السلام، في التاريخ اليهودي، فهي مكانة لا يسمو إليها واحد من معاصريه، أو من اللاحقين به من بني قومه، ولهذا فهو

(١) ابن كثير: مختصر التفسير ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧، ٢/ ٤٨ - ٥٠، البداية والنهاية ١/ ٢٨٣ - ٢٨٥، ٣١٢ - ٣١٥، محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٥٢ - ٥٣، صحيح البخاري، صحيح مسلم.

يعّد حقاً شيخاً للأمة الإسرائيلية ، بل هو الذي كان سبباً في وجود اليهود كأمة ، صحيح أن القبائل الإسرائيلية كانت تدرك ـ قبل ظهور موسى ـ أنها تنتمي إلى أرومة واحدة ، ولكنها مع ذلك لم تؤلف شعباً واحداً ، حتى حدث الإستعباد المصري ، ونجح موسى في أن يوحد بين هذه العشائر التي تراخت أواصر القرى بينها ، ويجعلها أمة واحدة ، وذلك بفضل نبوته ومعجزته الكبرى ، فقد كان موسى يؤمن ـ الإيمان كل الإيمان ـ أن معه إلهاً أكبر من كل آلهة مصر ، معه «يهوه» الذي لا يريد تحرير القبائل العبرية فحسب ، بل يريد كذلك أن يكونوا أمة واحدة ، وأن شعب موسى لا بد أن يعتقد أن معه قوة فرعون وكل جنده ، وقد نجح موسى بفضل عميق إيمانه بدينه الجديد في إقناع اليهود بذلك ، رغم كل المتاعب التي وقفت عقبة كؤود في طريقه ، والتي لم تخفها أسفار التوراة[1] .

وهكذا استطاع موسى أن ينشيء من الأسباط الأثنى عشر ، اتحاداً فيدرالياً منذ أول خطوة من رحلة الخروج ، محدداً لكل سبط مهمته ومسئوليته في المجموعة ، وكان لعشيرة موسى ـ أي سبط اللاويين ـ الزعامة الدينية والاجتماعية على سائر الأسباط، وكان لهذا المجتمع مجلس تشريعي ، يقابل ما يسمى أحياناً «مجلس الشيوخ» ، ويتكون من السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى ـ والذين يرى فيهم فرويد السحرة المصريين الذي آمنوا به ـ وكان هو نفسه رئيس المجلس ، وهذا التنظيم ما يزال يحاكى في المجتمعات اليهودية ، ويوكل إليه ـ كما كان قديماً ـ أمر تطبيق الشريعة الموسوية وتنفيذها وتفسيرها والإفتاء بمقتضاها في الحالات المشكلة[2] .

ومع هذا فإن هذا العمل السياسي الضخم الذي بدأه موسى ، عليه

(١) تيودور روبنسون : المرجع السابق ص ١٠٥ .

(٢) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ـ الاسكندرية ١٩٧١ ـ ص ٧٦ ـ ٧٧ وكذا A. Lods, op - cit, p. 175, 310.

السلام، لا يكاد يذكر، إلى جانب دعوته الدينية، والتغيير الاجتماعي الذي سببته هذه الدعوة بين العبرانيين، ذلك لأن موسى لم يؤسس أمة فحسب، وإنما أرسى كذلك قواعد دين، وكان الكليم كحامل لوحي ديني ـ على مثال مولانا وسيدنا محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعد ذلك بحوالي ألفي سنة ـ استطاع أن ينهض بتحويل بعيد المدى في عادات البدو الساميين للقبيلة، التي لولا ذلك لظلت باقية على ما هي عليه، وقد ثبّت عبادة «يهوه» لتكون عبادة شعب، وبهذا أتى إلى حيز الوجود بأمة جديدة، ومنذ ذلك الحين، صار «يهوه» إله العبرانيين، الذي أطلق سراح آبائهم من العبودية، وقادهم خلال أخطار البرية، إلى أرض الموعد[1].

ومن هنا نرى «جيمس هوسمر» يقرر أن مكانة موسى؛ إنما جاءت من كفاءته التي استطاع بها أن يقود بني إسرائيل ويخرجهم من مصر، ثم من مقدرته على إملاء التوراة، التي كانت قانون هذه الجماعة، بعد إن لم يكن لها قانون، كما كانت القاعدة التي قام عليها بناء الدولة من الناحية السياسية[2].

وهكذا تجمع الآراء على أنه لولا موسى ـ عليه السلام ـ لما كان لبني إسرائيل، أو لعقيدتهم وجود، حتى إنه ليقال في الأساطير اليهودية نفسها، أنه لو لم يوجد موسى، لاضطروا إلى ابتداع شخصيته بخيال، فإن ذكراه الحية هي التي تأممهم إلى وجود[3]، ومن ثم نستطيع تفسير وجود الشعب اليهودي، بآرائه وشريعته وفلسفته ودينه[4].

---

(١) و. ج. دي بورج: تراث العالم القديم، ترجمة زكي سوسن ـ الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٥ ص ٦٦.

(٢) أحمد شلبي: اليهودية، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٤٦، وكذا Jams Hosmer, The Jews, P. 14.

(٣) حسين ذو الفقار صبري: المجلة، العدد ١٥١ يولية ١٩٦٩ ص ١٨، وكذا A. L. Sachar, A History of the Jews N. Y. 1945, P. 16 - 17.

(٤) C. Roth, op - cit, P. 7.

البَابُ الخَامِسُ

قِصَّة مُوسَىٰ
بَين آيَات القرآن وَرِوَايات التَّوراة

من عجب أن موسى عليه السلام، رغم أنه أعظم أنبياء بني إسرائيل، وإليه تنسب توراتهم، أو بمعنى أدق، الأسفار الخمسة الأولى منها (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية)، وأنه يحتل مكانة في التاريخ اليهودي، لا يسمو إليها واحد من معاصريه أو اللاحقين به من قومه[1]، ولهذا فهو يُعدّ شيخاً للأمة اليهودية، بل إنه هو الذي كان سبباً في وجود اليهودية كأمة، مع ذلك كله، فإنه لم ينج من كيد يهود وتطاولهم عليه، ومن ثم فإننا نرى توراة يهود، وليست توراة موسى عليه السلام، تتهمه، مع أخيه هارون، «بخيانة الرب ولم يقدسانه وسط بني إسرائيل»، ومن ثم فقد كتب عليه ألا تطأ قدماه الأرض المقدسة أبداً[2]، وحين يتوسل إلى ربه الكريم، أن يجعل من نصيبه عبور الأردن، فإن رب إسرائيل إنما يغضب عليه، ويطلب منه ألا يحدثه في هذا الأمر، لأنه من نصيب فتاة يشوع، دون سواه[3].

وأما هارون عليه السلام، فهو، في توراة يهود، ومرة أخرى نقول

---

(١) تثنية ٣٤/ ١٠ ـ ١٢.

(٢) تثنية ٣٢/ ٤٨ ـ ٥٢.

(٣) تثنية ٣/ ٢٥ ـ ٢٩.

وليست توراة موسى، إنما هو الذي صنع العجل الذهبي، وأغوى به بني إسرائيل، وليس السامري، بعبادته، وذلك حين اتخذلهم من حليهم عجلاً جسداً في أثناء غياب موسى إلى ميقات ربه ثلاثين ليلة، فلما أتمها له ربه أربعين ليلة، كفرت خراف بني إسرائيل الضالة بموسى وإله موسى، وعادت إلى ما ألفته من عبادة العجول في مصر[1]، والحق أنني لست أدري، كيف نسي من كتب كل ذلك في توراة يهود المتداولة اليوم، أن هارون أخو موسى، ونبي ورسول من الله مع موسى، ونائب لموسى وخليفته في غيابه، ولكنهم بنو إسرائيل دائماً مع الفاسد المفسد، ولو كان السامري.

وأما في القرآن الكريم، فإن هارون عليه السلام، إنما هو نبي الله ورسوله، وأن الله تعالى قد أرسله، مع أخيه موسى، إلى فرعون وملئه[2]، وليس هو الذي صنع العجل الذهبي، وحاشاه أن يفعل ذلك، وأغوى بني إسرائيل بعبادته، وإنما ذلك هو السامري[3].

ويعلم الله، وتشهد ملائكته، أن موسى وهارون، عليهما السلام، لم يكونا، ولن يكونا، كما صورتهما توراة يهود، وإنما كانا رسولين كريمين، بذلا الجهد في تبليغ دعوة ربهما، وأفنيا عمرهما من أجلها، حتى لقيا الله تعالى مطمئنين إلى رضاه، وهكذا يرفع القرآن الكريم هذين النبيين الكريمين إلى الدرجة التي يستحقانها من التكريم والإجلال والمهابة، ثم يطلب من المؤمنين به أن يرتفعوا إلى مستوى دينهم القويم، فلا يتأثروا بما يعرفون عن بني إسرائيل في حكمهم على موسى، عليه السلام[4]، فيقول

(1) خروج ٣٢/ ٢ - ٦.

(2) سورة مريم: آية ٥١ - ٥٣، طه: آية ٢٥ - ٣٦، ٤٢ - ٤٧، الشعراء: آية ١٠ - ١٦، الصافات: آية ١١٤ - ١٢٢.

(3) الأعراف: آية ١٤٨ - ١٥٢، طه: ٨٣ - ٩٨.

(4) أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ١٩٧ - ٢٠٣، عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص ٢١٤.

سبحانه وتعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾[1].

وعلى أية حال، فإن قصة موسى عليه السلام في القرآن إنما تختلف عن قصته في التوراة، طبقاً للهدف من كل منهما، فقصة القرآن، شأنها في ذلك شأن غيرها من قصص الأنبياء والمرسلين، إنما أنزلت للعظة والعبرة، ولبيان الأسوة الحسنة في الجهاد في سبيل الله، فهدفها، كهدف غيرها، ليس التأريخ لها، وإنما عبراً تفرض الإفادة بما حلّ بالسابقين، وأما قصة التوراة، فالغرض منها إنما هو تمجيد بني إسرائيل، وترديد الحديث عن قصة أرض الميعاد[2]، فضلاً عن إباحتها لهم سرقة المصريين بالغش والخديعة[3]، بل إن مؤلفي التوراة لا يتورعون هنا أن يذكروا في نصوصها، المقدسة زعموا، أن مشروع سرقة المصريين إنما كان قد دبر بليل، وأنه قد نفذ إبان الخروج من مصر، دون أن يحس المصريون، بل وحتى دون أن ينتظر بنو إسرائيل أن يختمر عجينهم، وهكذا لم يعترف كتبة التوراة بجريمة قومهم فحسب، وإنما زادوا على ذلك أن جعلوها تتم برضى من موسى عليه السلام وبأمر منه، وحاشا بنبي الله الكريم أن يرضى بذلك، فضلاً عن أن يأمر به، ولكنها توراة اليهود، والحق أن الإساءة إلى أنبياء الله الكرام من بني إسرائيل أمر معروف في التوراة، ونظائره كثيرة[4].

(1) سورة الأحزاب: آية ٦٩، وانظر: تفسير الطبري ٢٢/ ٥٠-٥٣، تفسير القرطبي ١٤/ ٢٥٠-٢٥٢، تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٢٣٥، تفسير النسفي ٣/ ٣١٥.

(2) تكوين ١٧/ ٤-٨، ٢٦/ ٢-٤، ٣٥/ ١١-١٢، ٢٦، خروج ٣/ ٦-٨، ٣٣/ ١-٣، تثنية ٧/ ١-٢، ٢٦/ ١٥، محمد بيومي مهران: قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة - مجلة الأسطول، العدد ٦٦، ٦٧ الاسكندرية ١٩٧١ م.

(3) خروج ١٢/ ٣٤-٣٦، محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٣٥٥.

ولعل أهم الاختلافات بين قصة موسى عليه السلام في القرآن، وتلك التي جاءت في التوراة، (أولاً) أن المرأة التي التقطت موسى من اليم وأنقذته من فرعون إنما هي في القرآن امرأة فرعون، بينما هي في التوراة ابنته[1]، ومنها (ثانياً) أنه ليس في القرآن الكريم ما يشير إلى أن امرأة فرعون كانت تعرف أن موسى عليه السلام إنما كان من أبناء العبرانيين، بينما هي في التوراة قد عرفت تلك الحقيقة منذ اللحظة الأولى، بل وقد أعلنت ذلك للملأ[2]، ومنها (ثالثاً) أن التوراة إنما تصور المصري الذي قتله موسى على أنه كان يضرب رجلاً عبرانياً، وأن موسى عندما رأى ذلك التفت هنا وهناك، وعندما تأكد أن أحداً لا يراه قتل المصري وطمره في الرمل، وفي اليوم التالي رأى عبريين يتخاصمان، أحدهما صاحبه بالأمس فزجره، فقال له صاحبه العبري: أتفكر في قتلي كما قتلت المصري بالأمس، فلما علم فرعون بالأمر طلب أن يقتل موسى، ولكنه هرب إلى مدين، ولكن القصة في القرآن أن موسى **﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان، هذا من شيعته وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم، قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾**، ولم يكن المجرمون الذين عزم موسى على ألا يظاهرهم ويناصرهم، إلا هؤلاء من بني إسرائيل، وهكذا ندم موسى على أن ظاهر الإسرائيلي على المصري، فكان من نتيجة ذلك أن قتل نفساً حرم الله قتلها، ومن ثم فقد عزم، بعد أن تاب وأناب، ألا يكون ظهيراً للمجرمين، **﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين، فلما أن أراد أن**

(١) سورة القصص: آية ٨ - ٩، خروج ٢/ ٥ - ١٠.

(٢) سورة القصص: آية ٧ - ٩، خروج ٢/ ٦.

يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾، وهكذا فإن القرآن إنما ينفرد من دون التوراة، بأن تدخل موسى إنما كان بناء على استغاثة هذا الذي من شيعته، وعلى أن موسى قتل مصرياً عن غير عمد، وعلى ندم موسى على قتل المصري، وعلى استغفاره لربه، وأن الله تعالى قد غفر له، وعلى عزمه ألا يكون ظهيراً للمجرمين، وعلى أن موسى قد مرّ بمن استصرخه بالأمس، فإذا به يستصرخه مرة أخرى ضد مصلأي آخر، وعلى أن موسى قد وصف ذلك الإسرائيلي بأنه غوي مبين بسبب ميله إلى المشاكسة والخصام، وعلى أن موسى حين همّ بنصرته على عدوهما المصري قال له: **﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾**، بينما رواية التوراة تذهب إلى أن أحداً لم يستصرخ موسى، وإنما هو الذي التفت هنا وهناك، وحين تأكد أن أحداً لن يراه قتل المصري وطمره في الرمل، كما أن المخاصمة الثانية كانت، في رواية التوراة، بين رجلين عبرانيين، وليس بين مصري وعبراني وحين أراد موسى أن يفض النزاع الذي نشب بينهما، إذا بصاحبه الذي استصرخه بالأمس يرفض تدخله، ويعلن أنه هو الذي قتل المصري بالأمس، فلما طلبه فرعون للقصاص هرب إلى مدين، ولا تتعرض لشيء آخر، مما جاء في القصة القرآنية[1].

ومنها (رابعاً) أن القرآن إنما يحدثنا عن ابنتين لشيخ مدين الذي صاهر موسى عليه السلام، بينما تتحدث التوراة عن سبع بنات، فضلاً عن أنها تجعل الرجل كاهناً لمدين[2]، ومنها (خامساً) أن إقامة موسى عليه السلام في

(١) سورة القصص: آية ١٥ - ١٩، خروج ٢/ ١١ - ١٥.
(٢) سورة القصص: آية ٢٣ - ٢٦، خروج ٢/ ١٦.

مدين، إنما هي في القرآن الكريم سنون ثمان، والأرجح أنها كانت عشراً، فلقد روى عن سيدنا رسول الله ﷺ، أنه قضي أكثر الأجلين وأطيبهما»، وفي رواية: «قضى أوفاهما وتزوج صغراهما»، كما أشرنا بالتفصيل من قبل، وهي في التقاليد اليهودية والنصرانية أربعون عاماً[1]، ومنها (سادساً) أن موسى عليه السلام في القرآن تلقى الدعوة من ربه من جانب الطور الأيمن في الوادي المقدس طوى، بينما كان ذلك في التوراة على جبل الله حوريب[2]، ومنها (سابعاً) أن التوراة تذهب إلى أن الفتاة التي تزوج منها موسى إنما كانت تدعى «صفورة»[3]، بينما أغفل القرآن الكريم ذكر اسمها، كما أغفل اسم أبيها، وكما أغفل أسماء النساء عامة، إلا مريم ابنة عمران، أم المسيح عليه السلام، فإنها انفردت بمعنى تذكر به وتشتهر، وتذكر به قدرة الله التي أوجدت عيسى من غير أب، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾[4].

ومنها (ثامناً) أن القرآن الكريم لم يذكر لنا اسم ذلك الشيخ الذي أصهر إليه موسى عليه السلام، بينما لم تستقر التوراة على رأي معين بشأنه، وكذا قبيلته، فهو في سفر الخروج «يثرون» كاهن مديان، وهو في سفر العدد «حوباب بن رعوئيل»، وهو مرة ثالثة في سفر الخروج كذلك «رعوئيل» نفسه، وهو كاهن مديان كذلك، بل إن التوراة لا تستقر على رأي واحد بشأن تلك القبيلة التي صاهرها موسى، فهي مرة قبيلة مديانية، كما رأينا كذلك، وهي مرة أخرى، كما في سفر القضاة، قبيلة قينية، ثم هي مرة ثالثة، في سفر

(١) سورة القصص: آية ٢٧ ـ ٢٨، تفسير النسفي ٣/ ٢٣٤، مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١١، خروج ٧/ ٧، أعمال الرسل ٧/ ٣٠، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٩٣١.

(٢) سورة طه: آية ١٢، سورة القصص: آية ٢٩ ـ ٣٠، خروج ٣/ ١ ـ ٢.

(٣) خروج ٢/ ٢١.

(٤) سورة الأنبياء: آية ٩١.

القضاة أيضاً، فينية، على وجه اليقين، كما جاء في قصة «دبورة» قاضية إسرائيل ونبيتها[1]، ومنها (تاسعاً) أن دعوة موسى في القرآن إنما بدأت بعد أن قضى الأجل الذي بينه وبين صهره شيخ مدين، وبعد أن قرر العودة إلى مصر بأهله، وفي الطريق إلى مصر، وعند طور سيناء، وفي ليلة مباركة، اختاره الله تعالى رسولاً نبيّاً، وعهد إليه برسالته إلى فرعون، بينما هي في التوراة بدأت، وموسى ما يزال عند صهره كاهن مدين يعمل عنده ويرعى غنمه[2].

ومنها (عاشراً) أن من معجزات موسى وآيات نبوته أن يدخل يده في جيبه، فتخرج، كما في القرآن، من غير سوء، أي من غير برص ولا أذى، بينما هي في التوراة تخرج برصاء مثل الثلج[3]، ومنها (حادي عشر) أن استعانة موسى بأخيه هارون عليهما السلام في آداء الرسالة وتبليغ الدعوة، إنما سببها في التوراة أن موسى احتج بأنه «ثقيل الفم واللسان»، وأنه لن يستطيع آداء مهمته عند فرعون، فحمى غضب الرب على موسى وقال: أليس هارون اللاوي أخاك، أنا أعلم أنه يتكلم..... فتكلمه وتضع الكلمات في فمه، وأنا أكون مع فمك وفمه، وأعلمكما ماذا تصنعان، وهو يكلم الشعب عنك، وهو يكون لك فماً وتكون له إلهاً»، ومرة أخرى يقول موسى لربه: «هوذا بنو إسرائيل لم يسمعوا لي، فكيف يسمعني فرعون، وأنا أغلق الشفتين»، ولكن الأمر في القرآن غير ذلك، فموسى عليه السلام هو الذي دعا ربه، بعد أن كلفه برسالته **﴿رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري وأشركه في أمري﴾**، فأجابه ربه: **﴿قد أوتيت سؤلك يا**

---

(1) خروج ٢/ ١٦ ـ ١٨، ٣/ ١، عدد ١٠/ ٢٩، قضاة ١/ ١٦، ٤/ ١١.

(2) سورة طه: آية ٩ ـ ١٤، القصص: آية ٢٩ ـ ٣٠.

(3) سورة طه: آية ٢٢، القصص: آية ٣٢، خروج ٤/ ٦ ـ ٧.

موسى﴾، وفي سورة القصص يقول موسى: **﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءًا يصدقني إني أخاف أن يكذبون. قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾**[1]، وهكذا يبدو واضحاً أن الله تعالى في التوراة هو الذي يطلب من موسى أن يلجأ إلى أخيه هارون، بينما في القرآن موسى هو الذي يدعو ربه أن يعينه بأخيه هارون في آداء مهمته العظيمة والخطيرة كذلك، بمعنى آخر أن موسى في القرآن هو الذي سأل النبوة لأخيه هارون، لأنه أفصح منه لساناً، كما أشرنا إلى ذلك من قبل بالتفصيل.

ومنها (ثاني عشر) أن عصا موسى، إحدى معجزاته، إنما هي في التوراة، عصا هارون، وليس موسى، وأن الذي ألقاها أمام فرعون وملئه، إنما هو هارون، وليس موسى، ولكن الأمر في القرآن جد مختلف، فالعصا معجزة موسى، وليس هارون، وأن الذي ألقاها فإذا هي ثعبان مبين، إنما هو موسى وليس هارون، وأن موسى فعل ذلك أول مرة أمام فرعون وملئه، ثم مرة ثانية حين اجتمع السحرة لمناظرة موسى يوم الزينة[2]، ومنها (ثالث عشر) أن معجزة انفلاق البحر لموسى إنما هي في التوراة بسبب ريح شرقية هبت فأزالت الماء، وظهرت اليابسة، وحينئذ عبر بنو إسرائيل، واندفع المصريون وراءهم، فرجع الماء، وأغرق جميع مركبات وفرسان جيش فرعون، ورأى بنو إسرائيل ما صنعه الرب بالمصريين فخافوا فآمنوا بالرب وبعبده موسى، وأما في القرآن فالمعجزة واضحة، حيث أمر الله تعالى موسى: **﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم،**

---

(1) سورة طه: آية ٢٥ - ٣٦، القصص: آية ٣٢ - ٣٥، خروج ٤/ ١٠ - ١٦، ٦/ ١٢.

(2) سورة الأعراف: آية ١٠٤ - ١٢٢، طه: آية ٥٧ - ٧٠، الشعراء: آية ٣٠ - ٤٨، خروج ٧/ ٨ - ١٢.

وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾[1] .

ومنها (رابع عشر) أن أم موسى في القرآن قد ألقته في اليم بوحي من الله ، فضلاً عن البشري بأن الله تعالى سيرده إليها ، وأنه سيكون من المرسلين ، قال تعالى : **﴿وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾** ، بينما نراها في التوراة تخبئه ثلاثة أشهر، وحين خشيت أن يفتضح أمرها صنعت « **سفطاً من البردي وطلته بالحمر والزفت ووضعته فيه بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفعل به** »[2] ، ومنها (خامس عشر) أن القرآن الكريم يقص علينا أن موسى عليه السلام عندما قص قصته على شيخ مدين هدأ من روعه وقال له : **﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾، ثم عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه، في مقابل أن يخدمه سنوات ثمان، فإن أتم عشراً فهذا من عنده، وارتضى موسى ذلك، لكنه لم يقطع على نفسه أطول الأجلين، فأعطى الأمل، وخصّ نفسه بالخيار، أو ترك لها الخيار، وإن كان قد قضى أطول الأجلين وأتمهما، بينما لم تشر التوراة إلى أكثر من أن موسى ارتضى أن يسكن مع الرجل، وتزوج ابنته صفورة**[3] .

ومنها (سادس عشر) أن القرآن الكريم إنما يشير إلى أن خروج موسى بني إسرائيل من مصر، إنما تم سراً، وبوحي من الله تعالى، قال تعالى : ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون﴾، وأما في التوراة ، فالأمر جد مضطرب ، فالخروج مرة إنما يتم دون أمر فرعون ، ومرة أخرى بموافقته ، بل وفي مرة ثالثة نرى بني إسرائيل وقد أكرهوا على الخروج من

(١) سورة الشعراء : آية ٦٣ - ٦٧، خروج ١٤/ ٢١ - ٣١.

(٢) سورة القصص : آية ٧، خروج ٢/ ٢ - ٤.

(٣) سورة القصص : آية ٢٥ - ٢٨، خروج ٢/ ٢١ .

مصر، ومرة رابعة نرى التوراة تظهر لنا الإسرائيليين، وقد انقسموا على أنفسهم ففريق يرضى بالخروج من مصر، بينما يرفضه آخرون، وإن كانت الغلبة في النهاية للأولين على الآخرين[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القرآن الكريم، إنما قد انفرد، من دون التوراة، بعدة أمور في قصة موسى عليه السلام، منها (أولاً) أن القرآن قد انفرد من دون التوراة، بأن إرادة الله، ولا راد لإرادته، قد شاءت أن يقع موسى من قلب امرأة فرعون، موقع الحب والحدب والإشفاق، بل إنها لتقول لفرعون **﴿قرت عين لي ولك لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾**[1]، وتشاء إرادة الله، مرة أخرى، أن يقتنع فرعون بمقالة زوجه، فلا يقتل الطفل النبي، ومنها (ثانياً) أن القرآن قد انفرد من دون التوراة، بالإشارة إلى أن موسى قد عاف المراضع جميعاً، من غير أمه، وهنا تتقدم أخته فتعرض على آل فرعون أن تدعو لهم امرأة ترضعه وتكفله، وتكون له ناصحة مشفقة، ويقبل آل فرعون عرضها، ويبعثوا في طلب الظئر، وسرعان ما تجيء بأمها، دون أن تشعرهم بأن أمها أمه، وأنه أخوها، ويقبل موسى على ثدي أمه، ويعيش معها فترة حضانته، قال تعالى: **﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحز ن ولتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[3].

ومنها (ثالثاً) أن القرآن الكريم قد انفرد من دون التوراة، بأن القوم حين استقر رأيهم على القصاص من موسى جاءه ناصح أمين، ربما كان من

---

(1) سورة الشعراء آية ٥٢، وانظر: طه: آية ٧٧، خروج ٦/ ١، ١١/ ١-٢، ١٢/ ٢٩-٣٩، ١٣/ ١٧-١٨، عدد ١٤/ ٣-٤.

(٢) سورة القصص: آية ٩.

(٣) سورة القصص: آية ١٢-١٣.

المتصلين بفرعون، يخبره بالأمر، ويشير عليه بالخروج من مصر، قال تعالى: ﴿**وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين**﴾[1]، ومنها (رابعاً) أن القرآن قد انفرد، من دون التوراة، بالإشارة إلى ذلك الجدل الذي شق واستطال، ذكّر فيه فرعون موسى عليه السلام بتربيته في القصر الملكي، وكيف أنه عاش بينهم من عمره سنين عدداً، وكيف فعل فعلته تلك، يعني قتل موسى لمصري ثم فراره إلى مدين ﴿**قال ألم نربك فينا وليداً، ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين**﴾[2].

ومنها (خامساً) أن القرآن الكريم انفرد من دون التوراة بالإشارات مرات، وفي وضع تام، إلى ألوهية الفرعون المزعومة، والتي كانت موضع جدل شديد بين النبي الكريم والملك الفرعون، بل هي الصخرة التي تحطمت عليها كل الآمال في أن يؤمن فرعون بموسى ودعوته، ويتخلى عن مزاعمه الكذوب، ويؤمن بالله رب العالمين، ولعل مما يزيد الأمر أهمية أننا نكاد لا نعرف دعوة من دعوات الأنبياء الكرام البررة، يتعرض صاحبها، كما تعرض موسى، لزعم كذوب ممن أرسل إليه، أنه إله للناس، بل إن الفرعون إنما يهدد النبي الكريم نفسه: ﴿**لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين**﴾، ثم يعلن للناس عامة في مصر ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾، وعندما يتقدم له موسى بآية كبرى على نبوته، فما كان منه إلا أن يرفض الدعوة كلها ﴿**ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى**﴾[3]، ومن عجب أن التوراة تعكس الأمر، فتجعل موسى إلهاً لفرعون، وهارون نبياً لموسى: «فقال الرب لموسى أنظر: أنا جعلتك إلهاً لفرعون، وهارون

---

(١) سورة القصص: آية ٢٠.

(٢) سورة الشعراء: آية ١٨ ـ ١٩.

(٣) سورة الشعراء: آية ٢٩، سورة القصص: آية ٣٨، سورة النازعات: آية ٢٢ ـ ٢٤.

أخوك يكون نبيك، أنت تتكلم بكل ماآمرك، وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه»[1]، ولست أدري كيف قبل كتبة التوراة ذلك الكفر الصراح، فكيف يكون موسى، عبد الله ورسوله، إلهاً لفرعون، ثم كيف يكون هارون نبياً لموسى، وهل تعدّ التوراة بعد هذا كتاب توحيد كما يزعمون، فضلاً عن أن تكون من لدن عليّ قدير.

ومنها (سادساً) أن القرآن الكريم انفرد، من دون التوراة، بطلب فرعون من هامان أن يوقد له على الطين، فيجعل له صرحاً، لعله يطلع إلى إله موسى، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري، فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى، وإني لأظنه من الكاذبين** ﴾[2]، ومنها (سابعاً) أن القرآن الكريم انفرد من دون التوراة، بإيمان السحرة المصريين برب موسى وهارون، كما انفرد كذلك بالإشارة إلى أن فرعون قد فوجىء بإيمان السحرة، فكاد أن يتميز من الغيظ، ومن ثم فقد اتهمهم بالتآمر مع موسى، ثم هددهم بأشد العقاب، ﴿ **قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم أجمعين، قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين** ﴾[3].

ومنها (ثامناً) أن القرآن الكريم انفرد من دون التوراة بالإشارة إلى أن الملأ من قوم فرعون إنما كانوا يحرضونه على القيام بمذبحة جديدة بين بني إسرائيل، يكون موسى أول ضحاياها، بعد أن شاع وذاع، وملأ الأسماع،

---

(١) خروج ٧/ ١ - ٢.

(٢) سورة القصص: آية ٣٨، وانظر: غافر: آية ٣٦ - ٣٧.

(٣) سورة الشعراء: آية ٤٩ - ٥١، وانظر: الأعراف: آية ١٢٣ - ١٢٦، طه: آية ٧١ - ٧٥.

نبأ المعجزة الباهرة التي قهرت المهرة من السحرة ، غير أن قتل موسى إنما كان جد صعب المنال ، فهناك معارضة قوية تقف في وجه فرعون وتحول بينه وبين قتل موسى ، ولعلنا نستطيع أن نلمس هذه المعارضة فيما حكاه القرآن عن فرعون ، حيث يقول : **﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾** ، فإن كلمة «ذروني» تفيد أنه كان هناك من يعوقونه أو يشيرون عليه بغير ما كان يرى ، بل إن هناك دليلاً من القرآن يفيد ذلك ، ذلك لأن فرعون عندما ضاق ذرعاً بموسى ودعوته ، وعقد مع الملأ مؤتمراً للفتك به ، فوجىء بواحد من هذا الملأ ينهض لمعارضة هذه الفكرة ، ويقول : **﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾** ، وهال فرعون ماا سمع فأخذته العزة بالإثم ، ونفخ الشيطان في روحه ، فقال : **﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾** ، وعاد الرجل يعقب على كلام فرعون ، ويحذره من غضب الله ، ثم يعلن أنه أبرأ ذمته **﴿فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾**[2] .

ومنها (عاشراً) أن القرآن قد انفرد من دون التوراة ، بإخبارنا أن الفرعون قد أنجى ببدنه ، ليكون لمن خلفه آية ، قال تعالى : **﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾** ، ولم تكن الآية لمن خلفه جيلاً أو جيلين ، بل بقيت آية للعشرات الكثيرة من الأجيال والمئات الكثيرة من السنين ، بما مكن رب العرش لأهل هذا المصر

(١) سورة الأعراف : آية ١٢٧ ـ ١٢٩ .

(٢) سورة غافر : آية ٢٣ ـ ٤٤ .

من سلطان العلم وأسرار التحنيط، ومن ثم فإن الفراعين الذين دارت حولهم روايات خروج بني إسرائيل من مصر، قد اكتشفت جثثهم، وفي هذا إعجاز للقرآن، وما أكثر معجزاته[1].

ومنها (تاسعاً) أن القرآن الكريم انفرد، من دون التوراة، بأن الفرعون عندما أدركه الغرق **﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾**، ولكنه أخطأ الوقت ومن ثم لم يقبل إيمانه، قال تعالى: **﴿ألآن وقد عصيت من قبل وكنت من المفسدين﴾**، وقد ناقشنا ذلك بالتفصيل من قبل[2].

ومنها (حادي عشر) أن القرآن انفرد من دون التوراة بالإشارة إلى أن بني إسرائيل ما كادوا يمضون مع موسى بعد خروجهم من البحر ونجاتهم من آل فرعون، بل وغرق فرعون وجنده، حتى رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، (غير عبادة العجل التي جاءت في التوراة والإنجيل والقرآن العظيم) فنسوا كل آيات موسى، وقالوا ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى: **﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾**، و «الفاء» في قوله تعالى: **﴿فأتوا﴾** تفيد الترتيب والتعقيب، بمعنى أنه لم يمضي وقت بعد خروجهم من البحر ونجاتهم من الهلاك، حتى عادوا إلى الوثنية التي ألفوها في مصر، وألفوا الذل معها، ويرى الإمام الطبري أن القوم كانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، وهذا صحيح، كما أشرنا من قبل بالتفصيل، فمن المعروف تاريخياً

---

(1) سورة يونس: آية ٩٢، محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٤٣٥ - ٤٣٦، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص ١٢٣.

(2) سورة يونس: آية ٩٠ - ٩١.

أن مناجم الفيروز كانت تكثر في سيناء، في وادي مغارة وسرابة الخادم، حيث أقيم معبد للمعبود المصرية «حاتور»، ربة الفيروز عند القوم، حيث كان عمال المناجم يتعبدون للإلهة الوثنية «حاتور» التي كانت تصور غالباً كبقرة، وفي كثير من الأحيان كانت تمثل كامرأة لها رأس بقرة تحمل قرص الشمس والقرنين، كما أشرنا من قبل[1] .

(١) سورة الأعراف: آية ١٣٨ ـ ١٣٩، محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٤٦٢ ـ ٤٦٩.

فهرس

الكتاب الثالث

سيرة موسى عليه السلام